

« النَّكْمَةُ » صُلْحُ الْأُمَمِ عُلُومُ الْهِمَّةِ

المجلد الخامس عشر

تأليف

دكتور/سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ أحمد فريد

الشيخ ياسر برهامي

الشيخ عائض القرني

الشيخ أبو إسحاق الحويني

أ.د. عبد الرحمن فوده

الشيخ أبوبكر الجزائري

الشيخ محمد إسماعيل المقدم

الشيخ سعيد عبد العظيم

الشيخ محمد عبد المقصود

الشيخ أحمد عيسى

د. حمزة بن يافع الفتحي

دار الحزاز

Made searchable using ScribeTools.com



صَالِحُ الْأُمَمِ

عُلُومُهُ

المجلد الخامس عشر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة السابعة
طبعة جديدة مزيده ومنقحة

٢٠٠٩ م / ١٤٣٠ هـ

رقم الإيداع بدار الكتاب المصرية

٢٠٧/٢٠٦١٢

دار العفاني

٣ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر - القاهرة

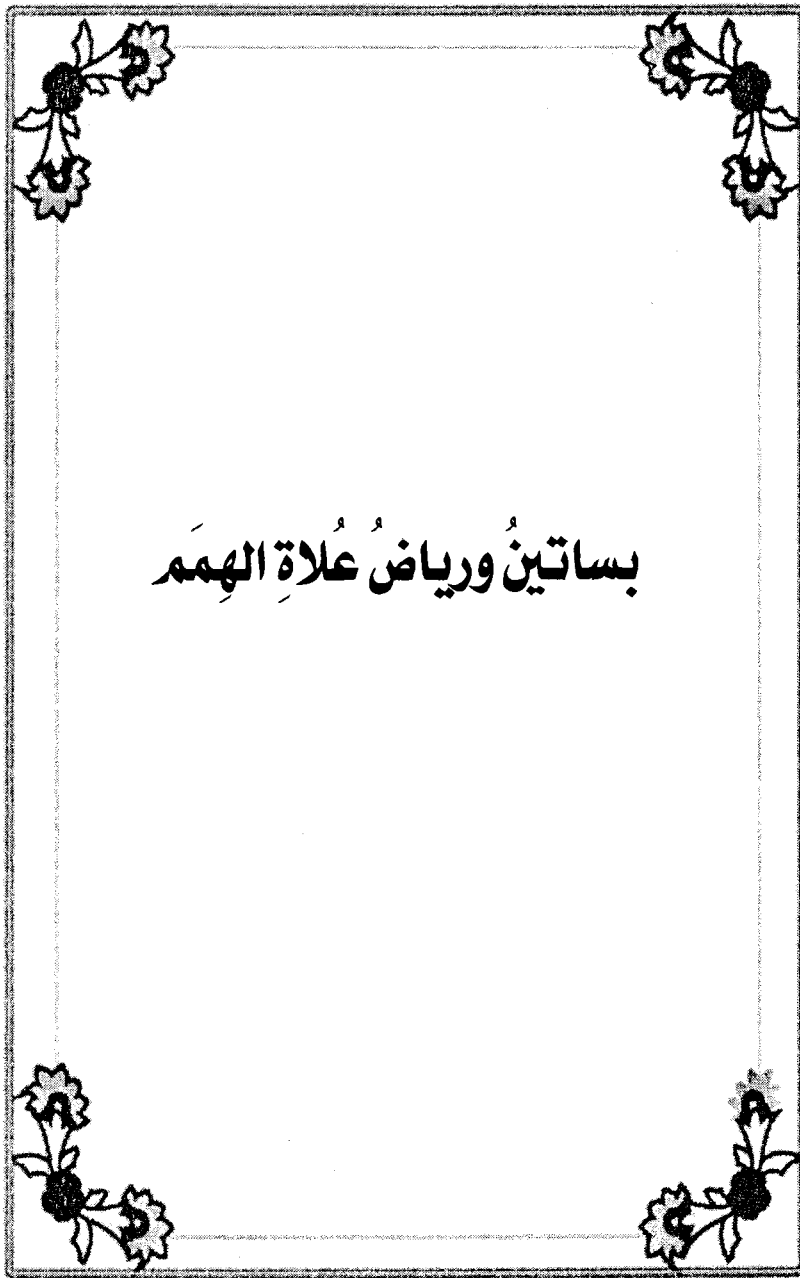
ت/ ٢٥١٨٢٥٧ - ٠٢ / ٢٥٧٧٥٧١١ - ٠١٢

فرع بني سويف - برج الري - حي الرمد - بجوار مجمع المحاكم - بني سويف

ت/ ٨٢ / ٢٣١٧٣٤٤

مطبعة العمرانية للاوقست

الجيزة : ٣٣٧٥٦٢٩٩



Made searchable using ScribeTools.com

بساتين ورياض علاة الهمم

اعلم يا أخي أن همَّ علاة الهمم في نيل الدرجات واكتساب الحسنات، والسباق والتنافس في الأعمال الصالحات.

□ قال الشيخ الخضر حسين رَحِمَهُ اللهُ: «وَمِمَّا جُبِلَ عَلَيْهِ الْحُرُّ الْكَرِيمُ، أَنْ لَا يَقْنَعَ مِنْ شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَيْءٌ مِمَّا أَنْبَسَتْ لَهُ، أَمَلًا فِيهَا هُوَ أَسْنَى مِنْهُ دَرَجَةً وَأَرْفَعُ مَنْزِلَةً^(١). وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

لَا يَكْتَفِي مِنْ نَيْلِ مَكْرُمَةٍ حَتَّى يُرَوِّمَ^(٢) الَّتِي مِنْ دُونِهَا الْعَطَبُ^(٣)
يَسْعَى بِهِ أَمَلٌ مِنْ دُونِهِ أَجَلٌ إِنْ كَفَّهُ رَهَبٌ يَسْتَدْعِيهِ رَغَبٌ
لِذَاكَ مَا سَالَ مُوسَى رَبَّهُ أَرْنِي أَنْظِرْ إِلَيْكَ وَفِي تَسْأَلِهِ عَجَبٌ
يَبْغِي التَّزْيِيدَ فِيمَا نَالَ مِنْ كَرَمٍ وَهُوَ النَّجِيُّ لَدَيْهِ الْوَحْيُ وَالْكَتَبُ^(٤)
□ إِنَّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَعَرَّةُ الْمَسَالِكِ مُحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ.

الفرق بين الطموح وعلو الهمة:

إذا كان كُلُّ مِنَ الطُّمُوحِ وَعُلُوِّ الْهَمَّةِ يَشْتَرِكَانِ فِي الْمَقْدَفِ وَالْغَايَةِ، أَيْ تَطْلُبُ الْمَعَالِي، فَإِنَّهُمَا قَدْ يُخْتَلِفَانِ فِي الْوَسِيلَةِ وَالْبَاعِثِ، إِذَا الْبَاعِثُ فِي عُلُوِّ الْهَمَّةِ قَدْ يَكُونُ الْأَنْفَعَةُ مِنْ حُلُولِ الضَّعَةِ أَوْ الْاسْتِنْكَارِ لِمَهَانَةِ النَّقْصِ، أَمَّا الْبَاعِثُ عَلَى الطُّمُوحِ فَهُوَ نَزْوَعُ النَّفْسِ دَائِمًا نَحْوَ الْأَعْلَى وَالْأَرْقَى، وَمِنْ

(١) «رسائل الإصلاح» للشيخ الخضر حسين (ص ٥٤).

(٢) يروم: يطلب.

(٣) العطب: الهلاك.

(٤) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص ٢٨).

حيث الوسيلة نجدُ أَنَّ الطُّمُوحَ قَدْ يَجْنَحُ بِصَاحِبِهِ إِلَى الْغُلُوفِ وَالْإِسْرَافِ عَلَى
النَّفْسِ أَوْ الْغَيْرِ، أَمَّا عُلُوُّ الْهَمَّةِ فَلَا يَسْلُكُ صَاحِبُهَا إِلَّا الدُّرُوبَ الشَّرِيفَةَ
الَّتِي تَتَفَقُّ مَعَ مَبَادِي الشَّرْعِ الْحَنِيفِ^(١).

□ قِيلَ لِلْعَتَّابِي: «فَلَانٌ بَعِيدُ الْهَمَّةِ قَالَ: إِذَنْ لَا يَكُونُ لَهُ غَايَةٌ دُونَ
الْجَنَّةِ»^(٢).

□ عَنْ دُكَيْنِ الرَّاجِزِ قَالَ: «أَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعْدَ مَا اسْتُخْلِفَ
أَسْتَنْجِزُ مِنْهُ وَعَدًّا كَانَ كَانَ وَعَدَنِيهِ وَهُوَ وَالِي الْمَدِينَةِ فَقَالَ لِي: يَا دُكَيْنُ، إِنَّ
لِي نَفْسًا تَوَاقَةً^(٣)، لَمْ تَزَلْ تَتَوَقَّ إِلَى الْإِمَارَةِ، فَلَمَّا نَلْتَهَا تَاقَتْ إِلَى الْخِلَافَةِ. فَلَمَّا
نَلْتَهَا تَاقَتْ إِلَى الْجَنَّةِ»^(٤).

□ نَظَرَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي دُؤْفٍ فِي مَجْلِسِ الْمَأْمُونِ فَقَالَ: «إِنْ هِمَّتْهُ تَرْمِي بِهِ
وَرَاءَ سِنِّهِ».

□ قَالَ الشَّاعِرُ:

رَأَيْتُ عَرَابَةَ الْأَوْسِيِّ يَسْمُو
إِذَا مَا رَايَةً رُفِعَتْ لِمَجْدٍ
إِلَى الْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ
تَلَقَّاهَا عَرَابَةً بِالْيَمِينِ^(٥)

□ وَقَالَ الشَّاعِرُ:

سَافِرٌ إِذَا حَاوَلْتَ قَدْرًا
سَارَ الْهَلَالُ فَصَارَ بَدْرًا

(١) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٣٣٧).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٣٢).

(٣) تَوَاقَةً: تَشْتَاقُ إِلَى الشَّيْءِ وَتَنْزِعُ إِلَيْهِ.

(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٣٣٤).

(٥) «المستطرف» (١/ ٢٠٦).

وَالْهَاءُ يَكْسِبُ مَا جَرَى طِيًّا وَيَجْبُثُ مَا اسْتَقَرَّ

وبنقلها الدرر النفيسة بَدَلْتُ بالبحر نَحْرًا^(١).

الفرق بين العزم والإرادة والهم:

□ قال الكفوي: «دَوَاعِي الإنسان إلى الفعل مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ على مراتب، منها: الإرادة، ومنها: الهمُّ «بِالشَّيْءِ»، ومنها: العزم. وذكر الفرق بين هذه الثلاثة فقال: «الهمُّ اجتماعُ النَّفْسِ على الأمرِ، والإِزْماعُ عليه، والعزمُ هو القصد على إِمضائِهِ، فالهمُّ فوق الإرادة ودون العزم، وهو - أي: الهمُّ - أَوَّلُ العَزِيْمَةِ»^(٢).

□ قال الرَّاعِبُ: «عَقْدُ القلبِ على إِمضاءِ الأمرِ».

□ وقال الكَفَوِيُّ: «هو القصدُ على إِمضاءِ الأمرِ»^(٣).

• وعن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه قال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كان يقول في صلاتِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيْمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحَسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ»^(٤).

(١) «الفلاكة والمفلكون» للإمام الدلجي (ص ١٤١).

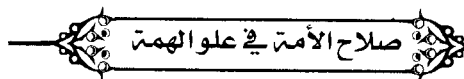
(٢) «الكليات» للكفوي (ص ٩٦١).

(٣) «مفردات القرآن» للأصفهاني (ص ٥٦٥)، و«الكليات» للكفوي (ص ٦٩١).

(٤) صحيح: رواه النسائي (٣/ ٥٤) واللفظ له، والترمذي (٣٤٠٧)، وأحمد (٤/ ١٢٥)،

وقال محقق «جامع الأصول» (٤/ ٢٥٩): ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي،

وابن حبان في «صحيحه» برقم (٢٤١٦).



• عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ثلاثة يحبُّهم الله، وثلاثة يُبغضُهم الله، فأما الذين يُحبُّهم الله: فرَجُلٌ أتى قَوْمًا فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمَنَعُوهُ، فتَحَلَّفَ رَجُلٌ بأَعْقَابِهِمْ فَأَعْطَاهُ سِرًّا لا يَعْلَمُ بِعَظِيَّتِهِ إِلَّا اللهُ، والذي أَعْطَاهُ، وقَوْمٌ سَارُوا لَيْلَتَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعَدِّلُ بِهِ نَزَلُوا فَوَضَعُوا رُؤُوسَهُمْ، فقام أَحَدُهُمْ يَتَمَلَّقُنِي وَيَتْلُو آيَاتِي. وَرَجُلٌ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَلَقِيَ الْعَدُوَّ فَهَزِمُوا، وَأَقْبَلَ بِصَدْرِهِ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يُفْتَحَ لَهُ. وَالثَّلَاثَةُ الَّذِينَ يُبْغَضُهُمُ اللهُ: الشَّيْخُ الزَّانِي، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ، وَالْغَنِيُّ الظَّالِمُ»^(١).

□ سمع عامرُ بن عبد الله بن الزبير (المتوفى سنة ١٢٣هـ) - رحمه الله تعالى - المؤذِّن وهو يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فقال: خُذُوا بِيَدِي، فَقِيلَ: إِنَّكَ عَلِيلٌ، قال: أَسْمَعُ دَاعِيَ اللهِ فلا أَجِيبُهُ، فَأَخَذُوا بِيَدِهِ، فَدَخَلَ مَعَ الْإِمَامِ فِي الْمَغْرِبِ، فَرَكَعَ رَكْعَةً ثُمَّ مَاتَ^(٢).

□ قال أبو حازم: «عند تصحيح الضمائر تُغْفَرُ الْكِبَائِرُ، وَإِذَا عَزَمَ الْعَبْدُ عَلَى تَرْكِ الْأَثَامِ أَمَّهُ^(٣) الْفُتُوحُ»^(٤).

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٥٦٨) واللفظ له، وقال: هذا حديث صحيح، والنسائي (٨٤/٥)، وأحمد (١٥٣/٥)، وهو في «المشكاة» حديث (١٩٢٢)، وقال محقق «جامع الأصول» (٥٦٤/٩): «وهو حديث حسن».

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٢٠/٥).

(٣) أَمَّهُ الْفُتُوحُ: أَنَاهُ وَقَصْدُهُ.

(٤) «حلية الأولياء» (٢٣٠/٢).

أزاهير يحرص على قطفها علاة الهمم:

١- الأسباب والأعمال التي يُضاعف بها الثواب^(١):

وهذه تدل على خير عظيم بسبب عمل يسير، وتدفع إلى مزيد من البر والإحسان، وترفعُ الآخذ بها درجات؛ فهي - بحق - ميدان فسيح للمرابحة والتجارة التي لا تبور.

ولا ريب أن هذا باب من أبواب العلم لطيف شريف يفتح آفاقاً من الخير، وينهض بالعبد إلى أعلى مقامات العبادة والسعادة، ويرقى بالآمة إلى أقصى مراتب السيادة والمجادة، ويغلق أبواباً من الشر لا تحصى، ويدعو إلى تنزيل الأعمال منازلها، وأن يُجعل لكل مقام ما يليق به.

وكم حصل من الجهل أو التفريط بهذا الأصل - وهو معرفة مراتب الأعمال، وأسباب مضاعفتها - من ضياع للفرص، وحرمان الآمة من خير عظيم، وطاقات كثيرة.

هذه مسألة عظيمة تقود إلى الآخرة في زمنٍ شاع فيه التكالب على الدنيا.

□ ومعلوم أن الأصل في الحسنة مضاعفتها إلى عشر. وقد تزيد المضاعفة على عشر إلى أضعاف كثيرة إذا حصل موجبها.

□ وهذه الأسباب والأصول العامة للمضاعفة، إمّا متعلّقة بالعامل، أو بالعمل نفسه، أو بزمانه، أو بمكانه، أو بآثاره.

(١) انظر رسالة «الأسباب والأعمال التي يُضاعف بها الثواب» وهي ضمن مجلد الفتاوى (ص ٣٥ - ٣٩) وهو ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

□ وقد أوصلها الشيخ السعدي إلى سبعة عشر سبباً، وإليكها على سبيل الإجمال:

- ١- تحقيق الإخلاص والمتابعة.
- ٢- صحة العقيدة، وقوة الإيمان والإرادة والرغبة في الخير.
- ٣- عموم نفع العمل للإسلام، وعظم وقعه وأثره، ويدخل تحت ذلك أمور كثيرة: الجهاد البدني والمالي، والجهاد في تعلم العلم وتعليمه، والمشاريع الخيرية العامة.
- ٤- الشراكة في الخير المتعدى، والاجتماع على العمل.
- ٥- التسبب في الخير، ودلالة الناس عليه.
- ٦- كبر النفع للعمل، كالإنجاء من المهالك، وإزالة الأضرار، وكشف الكرب.
- ٧- حسن الإسلام، وحسن الطريقة، وترك الذنوب.
- ٨- رفعة العامل، ومقامه العالي في الإسلام.
- ٩- الصدقة من الكسب الطيب.
- ١٠- شرف الزمان.
- ١١- شرف المكان.
- ١٢- العبادة في الأوقات التي حث الشارع على قصدها.
- ١٣- القيام بالأعمال الصالحة عند المعارضات: النفسية، والخارجية.
- ١٤- الاجتهاد في تحقيق مقام الإحسان، والمراقبة، وحضور القلب في العمل.

١٥- الآثار الحسنة للعمل الصالح في نفع العبد، وزيادة إيمانه، ورقة قلبه، وما جرى مجرى ذلك.

١٦- إسرار العمل إذا اقتضاه المقام.

١٧- إعلان العمل إذا كان هو الأنسب، كما إذا حصل بذلك التأسي^(١).

١٨- الصبر بكافة أنواعه؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر].

نص رسالة الشيخ عبد الرحمن السعدي:

المسألة التاسعة: في الأسباب والأعمال التي يُضاعف بها الثواب

ما هي الأسباب والأعمال التي يُضاعف ثوابها؟

□ الجواب وبالله التوفيق: أما مضاعفة العمل بالحسنة إلى عَشْر أمثالها - فهذا لا بد منه في كل عمل صالح، كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ امْتَالِهَا﴾ [الأَنْعَام: ١٦٠].

وأما المضاعفة بزيادة عن ذلك - وهي مراد السائل - فلها أسباب: إما متعلقة بالعمل، أو بالعمل نفسه، أو بزمانه، أو بمكانه، وآثاره.

□ فمن أهم أسباب المضاعفة إذا حَقَّقَ العبدُ في عَمَلِهِ الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول؛ فالعمل إذا كان من الأعمال المشروعة، وقَصَدَ العبدُ به رِضَى رَبِّهِ وَثَوَابَهُ، وحقق هذا القصد بأن يجعله هو الداعي له إلى

(١) «الأسباب والأعمال التي يُضاعف بها الثواب» للشيخ السعدي شرح محمد بن

إبراهيم الحمد (ص ١٦-١٧) - طبع دار ابن خزيمة.

العمل، وهو الغاية لعمله، بأن يكون عَمَلُهُ صادراً عن إيمان بالله ورسوله، وأن يكون الداعي له لأجل أمر الشارع، وأن يكون القصدُ منه وجهَ الله ورضاه، كما ورد في عدة آياتٍ وأحاديثٍ - هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧) [المائدة].

أي المتقين الله في عملهم بتحقيق الإخلاص والمتابعة.

• وكما في قوله ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». وغيرها من النصوص.

والقليل من العمل مع الإخلاص الكامل يَرَجُحُ بالكثير الذي لم يصل إلى مرتبته في قوة الإخلاص.

. ولهذا كانت الأعمال الظاهرة تتفاضل عند الله بتفاضل ما يقوم بالقلوب من الإيمان والإخلاص.

ويدخل في الأعمال الصالحة التي تتفاضل بتفاضل الإخلاص - تركُ ما تشتهيه النفوس من الشهوات المحرمة إذا تركها خالصاً من قلبه، ولم يكن لتركها من الدواعي غيرُ الإخلاص، وقصة أصحاب الغار شاهدةً بذلك.

□ ومن أسباب المضاعفة - وهو أصل وأساس لما تقدم - صحة العقيدة، وقوة الإيمان بالله وصفاته، وقوة إرادة العبد، ورغبته في الخير؛ فإن أهل السنة والجماعة المحضة، وأهل العلم الكامل المفصل بأسماء الله وصفاته، وقوة لقاء الله - تُضاعفُ أعمالهم مضاعفةً كبيرةً لا يحصل مثلها، ولا قريبٌ منها لمن لم يشاركوهم في هذا الإيمان والعقيدة.



ولهذا كان السلف يقولون: أهل السنة إن قَعَدْتُ بهم أَعْمَالُهُم قامت بهم عقائِدُهُم، وأهل البدع إن كثرت أَعْمَالُهُم قَعَدْتُ بهم عقائِدُهُم. ووجه الاعتبار أن أهل السنة مهتدون، وأهل البدع ضالون، ومعلومُ الفرقُ بين مَنْ يمشي على الصراط المستقيم، وبين مَنْ هو منحرف عنه إلى طرق الجحيم، وغايته أن يكون ضالًّا متأولًّا.

□ ومن أسباب مضاعفة العمل أن يكون من الأعمال التي نَفَعُهَا للإسلام والمسلمين له وَقْعٌ وأثرٌ وغَنَاءٌ، ونفعٌ كبيرٌ، وذلك كالجهاد في سبيل الله: الجهاد البدني، والمالي، والقولي، ومجادلة المنحرفين كما ذكر الله نفقة المجاهدين ومضاعفتها بسبعمئة ضعف.

ومن أعظم الجهاد سلوكُ طرقِ التعلم والتعليم؛ فإن الاشتغال بذلك لمن صحت نيته لا يوازنه عملٌ من الأعمال، لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه؛ «فمن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة».

ومن ذلك المشاريع الخيرية التي فيها إعانةٌ للمسلمين على أمور دينهم ودنياهم التي يستمر نفعُها، ويتسلسل إحسانُها، كما ورد في «الصحيح»: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٌ جارية، أو علمٌ ينتفع به من بعده، أو ولدٌ صالح يدعو له».

□ ومن الأعمال المضاعفة العمل الذي إذا قام به العبد شاركه به غيره؛ فهذا - أيضًا - يضاعفُ بحسب مَنْ شاركه، ومن كان هو سبب قيام إخوانه المسلمين بذلك العمل؛ فهذا - لا ريب - يزيد أضعافًا مضاعفةً

على عمل إذا عمله لم يشاركه فيه أحد، بل هو من الأعمال القاصرة على عاملها.

ولهذا فضّل العلماء الأعمال المتعدية للغير على الأعمال القاصرة.

□ ومن الأعمال المضاعفة إذا كان العمل له وقع عظيم، ونفع كبير، كما إذا كان في إنجاء من مهلكة، وإزالة ضرر المتضررين، وكشف الكرب عن المكروبين؛ فكم من عمل من هذا النوع يكون أكبر سبب لنجاة العبد من العقاب، وفوزه بجزيل الثواب، حتى البهائم إذا أُزيل ما يضرّها كان الأجر عظيمًا؛ وقصة المرأة البغيّ التي سقت الكلب الذي كاد يموت من العطش؛ فغفّر لها بغيّها - شاهدة بذلك.

• ومن أسباب المضاعفة أن يكون العبد حسن الإسلام، حسن الطريقة، تاركًا للذنوب، غير مُصرٍّ على شيء منها؛ فإن أعمال هذا مضاعفة كما ورد بذلك الحديث الصحيح: «إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف..» الحديث.

* ومن أسبابها رفعة العامل عند الله، ومقامه العالي في الإسلام؛ فإن الله تعالى شكور حلیم؛ لهذا كان نساء النبي ﷺ أجرن من مضاعفًا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١].

وكذلك العالم الرباني، وهو العالم العامل المَعْلَم تكون مضاعفة أعماله بحسب مقامه عند الله كما أن أمثال هؤلاء إذا وقع منهم الذنب كان أعظم من غيرهم؛ لما يجب عليهم من زيادة التحرز، ولما يجب عليهم من زيادة الشكر لله على ما خصهم به من النعم.

□ ومن الأسباب الصدقة من الكسب الطيب كما وردت بذلك النصوص.

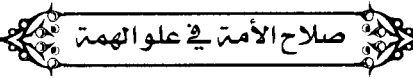
□ ومنها شرفُ الزمان، كرمضانَ وعشرِ ذي الحجة ونحوها، وشرفُ المكان كالعبادة في المساجد الثلاثة، والعبادة في الأوقات التي حثَّ الشارعُ على قصدها، كالصلاة في آخر الليل، وصيام الأيام الفاضلة ونحوها. وهذا راجع إلى تحقيق المتابعة للرسول المُكَمَّل - مع الإخلاص - للأعمال المنمي لثوابها عند الله.

□ ومن أسباب المضاعفة القيام بالأعمال الصالحة عند المعارضات النفسية، والمعارضات الخارجية؛ فكلما كانت المعارضات أقوى والدواعي للترك أكثر كان العمل أكمل، وأكثر مضاعفةً، وأمثلة هذا كثيرًا جدًّا، ولكن هذا ضابطُها.

□ ومن أهم ما يضاعف فيه العملُ: الاجتهاد في تحقيق مقام الإحسان والمراقبة، وحضور القلب في العمل؛ فكلما كانت هذه الأمور أقوى كان الثواب أكثر.

ولهذا ورد في الحديث: «ليس لك من صلاتك إلَّا ما عقلت منها». فالصلاة، ونحوها وإن كانت تجزئ إذا أتى بصورتها الظاهرة، وواجباتها الظاهرة والباطنة - إلَّا أن كمالَ القبول، وكمالَ الثواب، وزيادة الحسنات، ورفعة الدرجات، وتكفير السيئات، وزيادة نور الإيمان - بحسب حضور القلب في العبادة.

□ ولهذا كان من أسباب مضاعفة العمل حصول أثره الحسن في نفع العبد، وزيادة إيمانه، ورقة قلبه، وطمأنينته، وحصول المعاني المحمودة



للقلب من آثار العمل؛ فإن الأعمال كلما كملت كانت آثارها في القلب أحسن الآثار، وبالله التوفيق.

□ ومن لطائف المضاعفة أن إسرار العمل قد يكون سبباً لمضاعفة الثواب؛ فإن من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله: «رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شأله ما تنفق يمينه، ومنهم رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

□ كما أن إعلانها قد يكون سبباً للمضاعفة كالأعمال التي تحصل فيها الأسوة والافتداء، وهذا مما يدخل في القاعدة المشهورة: قد يعرض للعمل المفضول من المصالح ما يصير أفضل من غيره.

ومما هو كالمتمفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في كل الأوقات بقوة الإخلاص لله، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقها شيء من الأعمال، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب، وغيرها من الأعمال تبع لها؛ فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السابقون السابقون المقربون في جنات النعيم» اهـ.

٢- الأجر الكبير مع العمل اليسير بغية علالة الهمم^(١):

يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغيض ما في يمين الرحمن شيئاً، كيف ينقص مئلك هو قيمه وهو مالك الملك، لو أن عباده إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كل واحد مسأله، ما نقص ذلك من ملكه إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل في البحر.

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١١١/٢).

والله عَزَّ وَجَلَّ هو أكرم الكرماء وهو الجواد الذي عَلَى كل من جاد، وبه جاد من جاد، وهو أرحم الرحماء، وهو الودود ذو الفضل العظيم.

خَصَّ بعض الأعمال اليسيرة بالأجور الكبيرة تفضُّلاً منه وكرماً ومِنَّةً على عباده، وعُلاة الهمم يُراعون هذه الأعمال وتَعْضُونَ عليها بالنواجذ ويحرصون على تأديتها أشد من حرصهم على الحياة.. وقد تفرَّقت هذه الأعمال في موسوعتنا فأردنا أن نجعلها هنا لعُلاة الهمم ومن سار على دربهم.

□ قال عمرو بن قيس: «وجدنا أنفع الحديث لنا، ما نفعنا في أمر آخرتنا: من قال كذا فله كذا».

«وقد يتساءل البعض عن سِرِّ ترتُّب هذه الأجور الكبيرة من الفضل والمغفرة الشاملة على تلکم الأعمال السهلة اليسيرة، بل ربَّما استعظم بعضهم ذلك واستغربه، متعجِّباً أن يكون ذلك، مع أن ثَمَّةَ أعمالاً هي أجلُّ وأعظمُّ وأخطرُ، ولكنها لم تحظ من الأجر والفضل والمغفرة بمثل ما حظيت به هذه ولا بنصفه، بل ولا أقلَّ من ذلك!! وإن خير من أجاب عن مثل هذا الإمام الجليل والعالم الشهير العز بن عبد السلام سلطان العلماء - رحمه الله تعالى رحمة واسعة-^(١) فقد قال في كتابه القيم «قواعد الأحكام»: «فإن قيل قد يُرتَّب الشرع على الفعل اليسير مثل ما يُرتَّب على الفعل الخطير، كما رتَّب غفران الذنوب على الحج المبرور، ورتب مثل ذلك على موافقة تأمين المصلی تأمين الملائكة، ورتَّب غفران الذنوب على

(١) «الأربعون المنيرة في الأجور الكبيرة على الأعمال اليسيرة» للدكتور عيادة بن أيوب الكبيسي (ص ٣٣) - طبع دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث.

قيام ليلة القدر، كما رتبّه على قيام جميع رمضان، فالجواب: أن هذه الطاعات وإن تساوت في التكفير فلا تساوي بينها في الأجور، فإن الله سبحانه وتعالى رتب على الحسنات رفع الدرجات وتكفير السيئات، ولا يلزم من التساوي في تكفير السيئات التساوي في رفع الدرجات، وكلامنا في جملة ما يترتب على الفعل من جلب المصالح ودرء المفاسد، وذلك يختلف فيه باختلاف الأعمال، فمن الأعمال ما يكون شريفاً بنفسه، وفيما رتب عليه من جلب المصالح ودرء المفاسد، فيكون القليل منه أفضل من الكثير من غيره، والخفيف منه أفضل من الشاق من غيره، ولا يكون الثواب على قدر النصب في مثل هذا الباب كما ظن بعض الجهلة، بل ثوابه على قدر خطره في نفسه كالمعارف العلية والأحوال السنية، والكلمات المرضية، فرب عباد خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان، وعبادة ثقيلة على اللسان خفيفة في الميزان، بدليل: أن التوحيد خفيف على الجنان واللسان، وهو أفضل ما أعطيه الإنسان، ومن به الرحمن، والتفوه به أفضل الكلام بدليل أنه يوجب الجنان، ويدراً غضب الديان، وقد صرح ﷺ بأنه أفضل الأعمال لما قيل له: «أي الأعمال أفضل؟ فقال: «إيمان بالله»، وجعل الجهاد دونه مع أنه أشق منه، وكذلك معرفة التوحيد أفضل المعارف، واعتقاده أفضل الاعتقادات، مع سهولة ذلك وخِفَتِهِ مع تحقّقه»^(١).

ثم قال: «وما يدل على أن الثواب لا يترتب على قدر النصب في جميع

(١) أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: «الإيمان بالله ورسوله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور» - كتاب الإيمان - باب من قال: إن الإيمان هو العمل (٧٧/١) ح (٢٦).

العبادات ما روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال ذكر الله»^(١)، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله.

• وما يدل على ذلك أيضا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال حين يُصبح وحين يُمسي: سبحان الله وبحمده، مئة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة، بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال، أو زاد عليه»^(٢).

• وكذلك قوله ﷺ فيها رواه أبو هريرة أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(٣).

* والحاصل بأن الثواب يترتب على تفاوت الرتب في الشرف، فإن تساوى العملان من كل وجه كان أكثر الثواب على أكثرهما، لقوله تعالى:

(١) صحيح: رواه الترمذي برقم (٣٣٧٧) - وزاد في آخره فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله - كتاب الدعوات، باب ٦، (٥/٤٥٩)، وابن ماجه (٣٧٩٠) - كتاب الأدب - باب فضل الذكر (٢/١٢٤٥)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/٤٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/١٢)، و«صحيح الجامع» (٢٦٢٩)، والمندري في «الترغيب» (٢/٣٩٥)، وصححه الألباني في «تخريج الترغيب» (٢/٢٢٨).

(٢) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي.

(٣) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) [الزلزلة] (١).

البحار الزاخرات من الحسنات مع الأعمال اليسيرات:

١- النية الصالحة:

إن النية وإن لم تكن من أعمال الجوارح فهي عمل قلبي يسير على من يَسِّرُهُ الله عليه، ليس فيه أي جهد ولا مشقة اللهم إلا محاسبة النفس للتنبيه من الغفلة، ومع هذا اليسر والسهولة، فقد رتب الشارع الحكيم على ذلك خيراً عظيماً، وجزاء كبيراً، وأيُّ خير وجزاء!!! فَرُبَّ عملٍ كبيرٍ صغرتَه النية، ورب عمل صغير كبرتَه النية.

٢- في فضل الأذان:

• عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري ثم المازني عن أبيه أنه أخبره: أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له: «إني أراك تُحِبُّ الغنم والبادية، فإذا كنتَ في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة». قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ (٢).

٣- ثواب الذكر عند الأذان:

• عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا

(١) «قواعد الأحكام» (ص ٢٩ - ٣٠) للعز بن عبد السلام.

(٢) رواه البخاري (٦٠٩) (٢/ ٨٧ - ٨٨) - كتاب الأذان - باب رفع الصوت بالنداء.

ومدى صوت المؤذن: أي غاية صوته.

الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حَلَّتْ له شفاعتي يوم القيامة»^(١).

٤- ثواب الذكر عند الأذان:

• عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيْتُ بالله ربًّا، وبمحمد رسولًا، وبالإسلام دينًا، غُفِرَ له ذنبه»^(٢).

• وفي رواية: «من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد..» إلخ بزيادة الواو.

٥- فضل الوضوء السابع:

• عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: كانت علينا رعاية الإبل^(٣)، فجاءت نوبتي، فروَّحْتُها^(٤) بعشيٍّ، فأدركتُ رسول الله ﷺ قائمًا يحدث الناس، فأدركت من قوله: «ما من مسلم يتوضأ، فيُحسن وضوءه، ثم يقوم، فيصلِّي ركعتين، مقبلٌ عليهما بقلبه ووجهه، إلاَّ وجبت له الجنة». قال: فقلتُ: ما أجود هذه! فإذا قائلٌ بين يديَّ يقول: التي قبلها أجود! فنظرتُ، فإذا عمر! قال: إني قد رأيتك جئتَ آفئًا، قال: «ما منكم من أحدٍ يتوضأ، فيُبلغ، أو فيُسبغ الوضوء»^(٥)، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمدًا

(١) أخرجه البخاري (٦١٤) - كتاب الأذان - باب الدعاء عند النداء (٢/ ٩٤).

(٢) رواه مسلم (٣٨٦) (١/ ٢٩٠).

(٣) إبل الصدقة، وكانوا يتناوبون عليها.

(٤) أي رددتها إلى المراح، وهو الموضع الذي تأوي إليه الإبل ليلاً.

(٥) أي: فيوصل الوضوء إلى مواضعه، أو يُكمله على الوجه المسنون.

عبد الله ورسوله إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»^(١).

• عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من رجل يقرب وضوءه، فيتمضمض، ويمسح، ويستنشق، فينثر، إِلَّا جَرَتْ خطايا وجهه، وفيه، وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله، إِلَّا جَرَتْ خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إِلَّا جرف خطايا يديه من أطراف أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه كما أمره الله، إِلَّا جرت خطايا رأسه من أطراف شعره من الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله، إِلَّا جرت خطايا رجليه من أطراف أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلَّى، فحمد الله وأثنى عليه، ومجَّده بالذي هو أهله، وفرَّغ قلبه لله، إِلَّا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه»^(٢).

٦- المشي إلى المساجد:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من تطهَّر في بيته، ثم مشى إلى بيتٍ من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداها تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة»^(٣).

(١) رواه مسلم برقم (٢٣٤) - كتاب الطهارة - باب: الذكر المستحب عقب الوضوء (١/ ٢١٠)، والترمذي بالزيادة المذكورة برقم (٥٥) في أبواب الطهارة - باب (٤١) فيما يُقال بعد الوضوء (١/ ٧٨)، وروى هذه الزيادة ابن ماجه، والبخاري، والطبراني في «الأوسط»، وزاد النسائي: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إِلَّا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وصححه موقوفًا على أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٨٣٢).

(٣) رواه مسلم برقم (٦٦٦) - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب المشي إلى الصلاة (١/ ٤٦٢).

٧- ركعتا الفجر:

• عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»^(١).

والمراد بهما ركعتا السنة.. فكيف بصلاة الفريضة؟!

• وروى عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال في شأن الركعتين عند طلوع الفجر: «لها أحب إلي من الدنيا جميعاً»^(٢).

٨- صلاة الجماعة وانتظار الصلاة:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «صلاة الجميع تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه خمسة وعشرين درجة، فإن أحدكم إذا توضأ، فأحسن، وأتى المسجد لا يريد إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه خطيئة حتى يدخل المسجد؛ وإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت تحبسه، وتصلي - يعني: عليه - الملائكة ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يؤذ، يُحدث»^{(٣) (٤)}.

(١) رواه مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب ركعتي سنة الفجر (١٦٠/٢)، والترمذي في أبواب الصلاة - باب ما جاء في ركعتي الفجر من الفضل رقم (٤١٦) (٢٧٥/٢) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم.

(٣) آخر الحديث عند مسلم (.. ما لم يؤذ فيه، ما لم يُحدث فيه).

(٤) أخرجه البخاري واللفظ له - كتاب الصلاة - باب الصلاة في مسجد السوق (١٢٢/١)، ورواه مسلم - كتاب الصلاة - باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة (١٢٨-١٢٩).

• عن عبد الرحمن بن أبي عمرة قال: دخل عثمان بن عفان رضي الله عنه المسجد بعد صلاة المغرب، فقعده وحده، فقعدت إليه، فقال: يا ابن أخي، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ»^(١).

٩- غسل يوم الجمعة والذهاب إلى المسجد مبكراً للصلاة الجمعة:

• عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ غَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمَّ بَكَرَ وَابْتَكِرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ، وَاسْتَمَعَ، وَأَنْصَتَ، وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ، عَمَلٌ سَنَةٍ، أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»^(٢).

١٠- صلاة الضحى:

• عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلْ تَسْبِيحَةً صَدَقَةٌ، وَكُلْ تَحْمِيدَةً صَدَقَةٌ، وَكُلْ تَهْلِيلَةً صَدَقَةٌ، وَكُلْ تَكْبِيرَةً صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»^(٣).

(١) رواه مسلم - كتاب الصلاة - باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي رقم (٤٩٦) (٣٦٧/٢ - ٣٦٨)، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة (١٧٦٧) (٣/١٣٢)، وابن حبان، والحاكم في «المستدرک» وصححه، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣٧٢)، و«صحيح الترغيب» (٦٩٠)، و«صحيح الجامع» (٦٤٠٥).

(٣) رواه مسلم (٧٢٠)، وأبو داود، والنسائي.

١١- السجود لله وَجَلَّ:

• عن معدان بن طلحة اليعمري قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ فقلت: أخبرني بعمل أعمله يُدخلني الله به الجنة، أو قال: قلت: بأحبِّ الأعمال إلى الله. فسكت، ثم سألتُه، فسكت، ثم سألتُه الثالثة، فقال: سألتُ عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجدُ لله سجدةً إلاَّ رفعَكَ الله بها درجة، وحطَّ عنك بها خطيئة»^(١).

□ قال معدان: «ثم لقيت أبا الدرداء، فسألتُه، فقال لي مثلما قال لي ثوبان».

١٢- الصلاة على الجنائز وتشيعها:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد الجنازة حتى يُصَلِّيَ فله قيراط، ومن شهدها حتى تُدفنَ كان له قيراطان». قيل: وما القيراطان؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين»^(٢).

• وفي إحدى روايات مسلم: «من صلى على جنازة ولم يتبعها فله قيراط، فإن تبعها فله قيراطان». قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أحد».

• وعند مسلم أيضًا: قيل لابن عمر رضي الله عنهما: إن أبا هريرة رضي الله عنه يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من تبع جنازةً فله قيراطٌ من الأجر». فقال

(١) رواه أحمد، ومسلم واللفظ له - كتاب الصلاة - فضل السجود والحثُّ عليه

(٢/ ٥١ - ٥٢)، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري - كتاب الجنائز - باب من انتظر حتى تُدفنَ (٢/ ٩٠).

ابن عمر رضي الله عنهما: أكثر علينا أبو هريرة رضي الله عنه^(١)؛ فبعث إلى عائشة فسألها، فصَدَّقَتْ أبا هريرة. فقال ابن عمر رضي الله عنهما: لقد قرَّطنا في قراريط كثيرة^(٢).

يتبين من قول ابن عمر رضي الله عنهما ما كان الصحابة عليه من الرغبة في الطاعات حين يبلغهم الخبر، والتأسف على ما يفوتهم منها، وإن كانوا لا يعلمون عظم موقعه^(٣).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تبع جنازة مسلم إيمانًا واحتسابًا وكان معها حتى يصلي عليها، ويُفَرِّغَ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقِراطين، كل قيراط مثل أُحُد، ومن صلى عليها، ثم رجع قبل أن تُدفن؛ فإنه يرجع بقِراطٍ من الأجر»^(٤).

١٣- قيام رمضان:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»^(٥).

١٤- قيام ليلة القدر:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر

(١) يعني أن ابن عمر رضي الله عنهما خاف لكثرة روايات أبي هريرة من أنه اشتبه عليه الأمر في ذلك واختلط عليه حديث بحديث، لا أنه نسب إلى رواية ما لم يسمع؛ لأن مرتبة ابن عمر وأبي هريرة أجل من هذا. انظر «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦-١٥/٧).

(٢) «صحيح مسلم» - كتاب الجنائز - باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها (٥١/٣).

(٣) المصدر السابق (١٥/٧).

(٤) رواه البخاري (٤٧).

(٥) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

إيماناً واحتساباً، عُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه»^(١).

١٥- قيام الليل:

• عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام بعشر آيات لم يُكُتَبْ من الغافلين، ومن قام بمئة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كُتِبَ من المقنطرين»^(٢).

والمقنطرين: من لهم قنطارٌ من الأجر.

وأعجب من هذا الحديث والأجر الحديث الآتي:

• عن فضالة بن عبيد وتميم الداري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من قرأ عشر آيات في ليلة كُتِبَ له قنطارٌ من الأجر، والقنطار خير من الدنيا وما فيها، فإذا كان يوم القيامة يقول ربك عَزَّ وَجَلَّ: اقرأ وأرق بكل آية درجة، حتى ينتهي إلى آخر آية معه، يقول ربك عَزَّ وَجَلَّ للعبد: اقْبُضْ، فيقول العبد بيده: يا رب! أنت أعلم. يقول بهذه الخلد وبهذه النعيم»^(٣)^(٤).

١٦- في الصلاة: من وافق تأمينه تأمين الملائكة:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا آمَنَ الإمام فأَمَّنُوا، فإنه

(١) رواه البخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان في «صحيحه»، وصححه الألباني في «الصحيح» (٦٤٢)، و«صحيح الجامع» (٦٤٣٩).

(٣) قال الألباني: أي اقْبُضْ يمينك على الخلد وشمالك على النعيم، كما في رواية أخرى لابن عساكر.

(٤) حسن: قال المنذري: رواه الطبراني في «الكبير»، و«الأوسط» بإسناد حسن، وفيه إسماعيل بن عياش عن الشاميين، وروايته مقبولة عند الأكثرين، وحسنه الألباني. انظر «صحيح الترغيب» رقم (٦٣٤).

من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدّم من ذنبه»، قال ابن شهاب: وكان رسول الله ﷺ يقول: «آمين»^(١).

١٧- من وافق قوله: «اللهم ربنا لك الحمد في الصلاة قول الملائكة»:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غُفر له ما تقدّم من ذنبه»^(٢).

١٨- انتظار الصلاة:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة تُصَلِّي على أحدكم ما دام في مُصَلَّاه الذي صَلَّى فيه، ما لم يُحدث، تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه». وفي رواية زيادة: «اللهم تُب عليه، ما لم يؤذ فيه، ما لم يُحدث فيه».

• وفي رواية: «لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة»^(٣).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٨٠) - كتاب الأذان - باب جهر الإمام بالتأمين (٢/٢٦٢)، ومسلم برقم (٤١٠) في كتاب الصلاة - باب التسميع والتحميد والتأمين (١/٣٠٧).

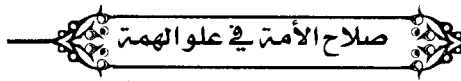
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم (٧٩٦) - كتاب الأذان - باب: فضل اللهم ربنا لك الحمد (٢/٢٨٣)، ومسلم برقم (٤٠٩) - كتاب الصلاة - باب التسميع والتحميد والتأمين (١/٣٠٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٤٤٥) (١/٥٣٨)، ورقم (٦٥٩) (٢/١٤٢)، ومسلم رقم (٦٤٩) (١/٤٥٩).

١٩- صلاة التسبيح:

• عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: «يا عباس يا عمها، ألا أعطيك، ألا أمنحك ألا أحبوك، ألا أفعل بك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله ذنبك أوله وآخره، قديمه وحديثه، خطاه وعمده، صغيره وكبيره، سره وعلايته؟ عشر خصال: أن تصلي أربع ركعات، تقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة فقل وأنت قائم: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر، خمس عشرة مرة، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشرًا، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرًا، ثم تهوي ساجدًا فتقولها وأنت ساجد عشرًا، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرًا، ثم تسجد فتقولها عشرًا، ثم ترفع رأسك فتقولها عشرًا، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة، تقل ذلك في أربع ركعات، وإن استطعت أن تصلّيها في كل يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل ففي كل جمعة مرة، فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة»^(١).

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٢٩٧)، والنسائي، وابن ماجه (١٣٨٧)، وابن خزيمة (١٢١٦) (٢/٢٢٣) والطبراني في «الكبير» (١١٦٢٢) (١١/١٩٤ - ١٩٥)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» برقم (٣٩٣) (٢/١٥٩)، وفي «السنن» (٣/٥١ - ٥٢) وروى الترمذي عن أبي رافع نحوه (٤٨٢) وأخرجه الحاكم بنحوه عن ابن عمر وقال: هذا إسناد صحيح لا غبار عليه، ووافقه الذهبي (١/٣١٩)، وقال في حديث عبد الله بن المبارك الذي رواه بنحوه: روا هذا الحديث كلهم ثقات، ووافقه الذهبي (١/٣٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١١٧٣ - ١١٧٥)، و«تخريج المشكاة» (١٣٢٨، ١٣٢٩)، و«صحيح الجامع» (٧٩٣٧).



الصيام:

٢٠- صيام رمضان إيماناً واحتساباً:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»^(١).

٢١- صيام ست من شوال:

• عن أبي أيوب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من صام رمضان، وأتبعه ستاً من شوال، كان كصوم الدهر»^(٢).

• وعن ثوبان رضي الله عنه أنه قال: «من صام ستة أيام بعد الفطر، كان تمام السنة، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ امْتِثَالِهَا﴾»^(٣).

٢٢- صيام يوم في سبيل الله:

• عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام يوماً في سبيل الله بَعَدَ الله وجهه عن النار سبعين خريفاً»^(٤).

• وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام يوماً في سبيل الله، باعد الله منه جهنم مسيرة مئة عام»^(٥).

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي وابن ماجه.

(٢) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، والنسائي، وابن خزيمة، وابن حبان، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٩٧)، و«صحيح الجامع» (٦٣٢٨).

(٤) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي.

(٥) حسن: رواه النسائي، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٦٢/٢)، و«صحيح الجامع» (٦٣٣٠).

• وقال ﷺ: «من صام يوماً في سبيل الله جعل الله بينه وبين النار خندقاً كما بين السماء والأرض»^(١).

٢٣- صيام يوم عرفة:

• عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام يوم عرفة غفر الله له ستين: سنة أمامه، وسنة خلفه»^(٢).

٢٤- صيام يوم عاشوراء:

• عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صوم عاشوراء، يُكفِّر سنة ماضية»^(٣).

٢٥- صيام ثلاثة أيام من كل شهر:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر»^(٤).

٢٦- تفطير الصائم:

• عن زيد بن خالد الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ فَطَّرَ صَائِماً، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئاً»^(٥).

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أبي أمامة، وصححه الألباني في «الصحيح» (٥٦٣)، و«صحيح الترغيب» (٩٨١)، و«صحيح الجامع» (٦٣٣٣).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٠٠١).
(٣) رواه أحمد، ومسلم، والترمذي عن أبي قتادة.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والبيهقي في «سننه» عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «الإرواء» (٩٤٦)، و«صحيح الجامع» (٣٨٠٣).

(٥) صحيح: رواه أحمد، والترمذي (٨٠٧) (١٦٢/٣)، وابن ماجه، وابن حبان، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٠٧٢)، و«صحيح الجامع» (٦٤١٥).

□ قال في «عارضة الأحوزي»: «إن الله بفضلِهِ على الخلق أَجرهم على ما ابتلاهم به من الأمر والنهي، لا باستحقاق وَجَبَ لهم، ثم زادهم من فضله المضاعفة فيه، ثم زادهم من فضله أن جعل للمعين عليه لغيره مثل أَجره، لا ينقص ذلك من أَجره شيئاً. وهذا كقوله: «من جَهَّز غازياً فقد غزا...»^(١).

والتفطير: إطعام الصائم عند الإفطار. ويشمل على ظاهره الشيء اليسير أيضاً^(٢).

٢٧- الصدقة:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تصدَّقَ بِعَدْلٍ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَرِيهَا لِسَاحِبِهِ^(٣) كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»^(٤).

الحج والعمرة:

٢٨- الحج والعمرة:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة

(١) «عارضة الأحوزي شرح سنن الترمذي» (٢١ / ٤).

(٢) «معارف السنن شرح سنن الترمذي» للبنوري (٥٥٧ / ٥).

(٣) وفي رواية: لصاحبها.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري واللفظ له - برقم (١٤١٠) في كتاب الزكاة باب

الصدقة من كسب طيب (٢٧٨ / ٣)، ومسلم برقم (١٠١٤) في كتاب الزكاة - باب

قبول الصدقة من الكسب الطيب فَلُوَّهُ: بفتح اللام وتشديد الواو: هو المَهْر الصغير

قال النووي في «شرح مسلم» (١٠٠ / ٧): وفي الفلَو لغتان فصيحتان أشهرهما - ما

ذُكِر - والثانية: كسر الفاء وإسكان اللام، وتخفيف الواو.

لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاءٌ إِلَّا الجنة»^(١).

٢٩- عمرة في رمضان :

• قال رسول الله ﷺ: «عمرة في رمضان تعدل حجة»^(٢).

• عن عطاء قال: سمعتُ ابن عباس رضي الله عنهما يحدثنا قال: قال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار سمّاها ابن عباس فسميت اسمها: «ما منعك أن تحجي معنا؟». قالت: لم يكن لنا إِلَّا ناضحان^(٣)، فحجّ أبو ولدها وابنها على ناضح، وترك لنا ناضحاً ننضح عليه. قال: «فإذا جاء رمضان فاعتمري، فإن عمرة فيه تعدل حجة»^(٤).

وفي رواية لمسلم: «تقضي حجة، أو حجة معي».

• وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عمرة في رمضان كحجة معي»^(٥).

والعمرة في رمضان تعدل حجة في الأجر لا في النيابة عن الفرض.

• وفي رواية مسلم الأخرى: «تقضي.. حجة معي»، أي تقوم مقامها

(١) رواه البخاري - كتاب العمرة - باب وجوب العمرة وفضلها (٢/ ١٩٨)، ومسلم - كتاب الحج - باب في فضل الحج والعمرة (٤/ ١٠٧).

(٢) رواه أحمد، والبخاري وابن ماجه عن جابر، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه عن ابن عباس، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه عن أم مقل، وابن ماجه عن وهب بن خنيس، والطبراني في «الكبير» عن ابن الزبير.

(٣) الناضح: البعير الذي يُسقى عليه.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري - كتاب العمرة - باب عمرة في رمضان (٢/ ٢٠٠)، ومسلم - كتاب الحج - باب فضل العمرة في رمضان (٤/ ٦١)، واللفظ لمسلم.

(٥) صحيح: رواه سمويه عن أنس، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٥٨٧)، و«صحيح الجامع» (٤٠٩٨).

في الثواب، وهو مبالغة في الترغيب.
 □ وفي «أسد الغابة» لابن الأثير أن المرأة الأنصارية يقال لها: أم سنان،
 قاله لها النبي ﷺ لما لقيها حين رجع من حجة الوداع.
 المساجد:

٣٠- من بنى لله مسجداً:

• عن عبيد الله الخولاني أنه سمع عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول - عند
 قول الناس فيه حين بنى ^(١) مسجد الرسول ﷺ -: إنكم أكثرتم، وإني
 سمعتُ النبي ﷺ يقول: «من بنى مسجداً - قال بُكير ^(٢): حسبْتُ أنه
 قال: يبتغي به وجه الله - بنى الله له مثله في الجنة» ^(٣).
 ومعنى «بنى الله له مثله في الجنة»: يحتمل مثله في القدر والمساحة،
 ولكنه أنفس منه بزيادات كثيرة، ويحتمل: مثله في مسمى البيت، وإن كان
 أكبر مساحة وأشرف ^(٤).

٣١- من جاء المسجد للتعليم أو التعلم:

• عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من غدا إلى المسجد لا يريد
 إلا أن يتعلّم خيراً أو يعلمه، كان له كأجر حاج تاماً حجَّته» ^(٥).

(١) احتجاج عثمان رضي الله عنه - بالحديث - وهو إنما زاد في المسجد - هو بناء على أن الزيادة في
 المسجد عند الحاجة لها كبناء المسجد أصلاً.

(٢) بكير هو راوي الحديث عن عاصم بن عمر بن قتادة، الذي سمع عبيد الله الخولاني.

(٣) رواه البخاري - كتاب الصلاة - باب من بني مسجداً (١/١١٦)، ومسلم - كتاب
 الزهد - باب فضل بناء المساجد (٨/٢٢٢).

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/١١٣).

(٥) إسناده جيد: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٧٤٧٣) (٨/١١١ - ١١٢).



٣٢- فضل الصلاة في المساجد الثلاثة ومضاعفة الأجر فيها:

• عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة فيما سواه»^(١).

• وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: تذاكرنا - ونحن عند رسول الله ﷺ - أيهما أفضل أمسجد رسول الله ﷺ أم بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلي هو، وليوشكن لأن يكون للرجل مثل شطن فرسه من الأرض حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعاً»^(٢).

فالصلاة في المسجد الأقصى تعدل مئتين وخمسين صلاة فيما سواه من

وقال في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (١/ ١٢٨): «رجاله موثقون كلهم». وقال الحافظ ضياء الدين المقدسي في «فضائل الأعمال» (ص ٩٩): «هذا إسناده على شرط صحيح مسلم. وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٤/ ٤٦١): «إسناده جيد».

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في «الإرواء» (١١٢٩)، و«صحيح الجامع» (٣٨٣٨).

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤/ ٥٠٩) وقال صحيح الإسناد ولم يخرّجناه، ووافقه الذهبي، وأخرجه إبراهيم بن طهمان في «مشيخته» (٦٢)، والمقدسي في «فضائل بيت المقدس» (١٨)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٢٤٨)، والبيهقي في «شعب الإبان» (٨/ ٨٣) (٣٨٤٩) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤): رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله رجال «الصحيح»، وقال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٢١٧): «رواه البيهقي بإسناد لا بأس به، وفي متنه غرابة، وصححه الألباني في «تحذير الساجد» (ص ١٩٨).

المساجد».

٣٣- الصلاة في مسجد قباء تعدل عمرة:

• عن أسيد بن ظهير الأنصاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة»^(١).

• وعن سهل بن حنيف قال: قال رسول الله ﷺ: «من تطهر في بيته، ثم أتى مسجد قباء، فصلّى فيه صلاة، كان له كأجر عمرة»^(٢).

• عن عبد الله بن دينار أنه سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «كان رسول الله ﷺ يأتي قباء راكباً و ماشياً»^(٣).

• وفي رواية أخرى: «كان يأتي قباء كل سبت، وكان يقول: رأيت النبي ﷺ يأتيه كل سبت»^(٤).

٣٤- صلاة الفجر في جماعة والذكر حتى تشرق الشمس وصلاة ركعتين:

• عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حجة، و عمرة، تامة، تامة، تامة»^(٥).

(١) صحيح: رواهما ابن ماجه في أبواب إقامة الصلاة، باب ما جاء في الصلاة في المسجد قباء، الرقمان (١٤٠٩)، (١٤١٠) (١/٢٥٨)، وصححه الألباني في: «صحيح ابن ماجه» رقم (١١٥٩) و (١١٦٠) (١/٢٣٧-٢٣٨).

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» - كتاب الحج - باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه وزيارته (٤/١٢٧).

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٤٦٤)، و«صحيح الجامع» (٦٣٤٦).

٣٥- من صلى لله أربعين يوماً يدرِك التكبيرة الأولى:

• عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى لله أربعين يوماً في جماعة، يُدْرِكُ التكبيرة الأولى، كُتِبَ له براءتان: براءة من النار، وبراءة مِنَ النفاق»^(١).

٣٦- من صلى في اليوم واللييلة اثنتي عشرة ركعة تطوعاً:

• عن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى في اليوم واللييلة اثنتي عشرة ركعة تطوعاً، بَنِيَ الله له بيتاً في الجنة»^(٢).

• وعن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى في يوم ولييلة ثُنْتَي عشرة ركعة بُنِيَ له بيت في الجنة: أربعاً قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل صلاة الغداة»^(٣).

القرآن والذكر والدعاء:

٣٧- قراءة القرآن:

• عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: آلم حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(٤).

(١) حسن: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٦٥)، وانظر «الترغيب والترهيب» (٤٠٧).

(٢) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

(٣) صحيح: رواه الترمذي عن أم حبيبة، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٧٨)، و«صحيح الجامع» (٦٣٦٢).

(٤) صحيح: رواه الترمذي برقم (٢٩١٠) (١٧٥/٥) كتاب فضائل القرآن - باب: ما

٣٨- قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن:

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الأخلاص]: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»^(١).
- وقال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن»^(٢). وقراءتها توجب محبة الله لك؛ فهي صفته.
- وعن أبي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ من قرأ فكانما قرأ ثلث القرآن»^(٣).
- وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٤).

جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، وأخرجه الحاكم بنحوه في كتاب «فضائل القرآن» وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي (١/٥٦٦)، والطبراني في «الكبير» (ص ١٤١، ١٤٢) (١٨/٧٦-٧٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٦٠) (٢/٢٦٧-٢٦٩).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم (٥٠١٣) في كتاب فضائل القرآن - باب: فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٩/٥٩)، ومسلم برقم (٨١١) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١/٥٥٦).

(٢) روه مالك، وأحمد، والبخاري، وأبو داود، والنسائي عن أبي سعيد، والبخاري عن قتادة بن النعمان، ومسلم عن أبي الدرداء، والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة، والنسائي عن أبي أيوب، وأحمد وابن ماجه عن أبي مسعود الأنصاري، والطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود وعن معاذ، وأحمد عن أم كلثوم بنت عقبة، والبخاري عن جابر، وأبو عبيد عن ابن عباس.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والنسائي والضياء عن أبي، ورواه أحمد، والترمذي، والنسائي عن أبي أيوب، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٧٣).

(٤) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٨٩)، و«صحيح الجامع» (٦٤٧٢).

٣٩- ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) تعدل ربع القرآن:

• عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) تعدل ثلث القرآن، ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) تعدل ربع القرآن» (١).

• وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) عدلت له بربع القرآن، ومن قرأ ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) عدلت له بثلاث القرآن» (٢).

٤٠- قراءة آية الكرسي دبر كل صلاة:

• عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» (٣).

٤١- قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة عند النوم:

• عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» (٤).

• وعن أبي سعيد البدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «الصحيح» (٥٨٨)، و«صحيح الجامع» (٤٤٠٥).

(٢) حسن: رواه الترمذي عن أنس، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٦٦).

(٣) صحيح: رواه النسائي، وابن حبان، وصححه الألباني في «الصحيح» (٩٧٢)، و«تخريج المشكاة» (٩٧٤)، و«صحيح الجامع» (٦٤٦٤).

(٤) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه وأحمد، والدارمي، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٢٦٣)، و«صحيح الجامع» (٦٤٦٤).

بلايتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَّتَاهُ^(١).

٤٢- قراءة سورة الكهف يوم الجمعة :

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف» في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بين الجمعتين^(٢).

• وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف» يوم الجمعة أضاء له النور ما بينه وبين البيت العتيق^(٣).

٤٣- من حفظ آيات من القرآن :

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُقَال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد لكل آية، حتى يقرأ آخر شيء معه»^(٤).

• وعن ابن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُقَال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتِّل، كما كنت ترتِّل في دار الدنيا؛ فإن منزلتك عند

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٠٩) (٥٥/٩) - كتاب فضائل القرآن - باب: فضل سورة البقرة، ومسلم (٨٠٨) (٥٥٥/١) - كتاب صلاة المسافرين - باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة.

(٢) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» والبيهقي في «سننه»، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٧٣٨)، و«المشكاة» (٢١٧٥)، و«الإرواء» (٦٢٦)، و«صحيح الجامع» (٦٤٧٠).

(٣) صحيح: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» وصححه الألباني في «الإرواء» (٦٢٦)، و«صحيح الترغيب»، و«صحيح الجامع» (٦٤٧١).

(٤) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣١٧)، و«صحيح الجامع» (٨١٢١).

آخر آية كنت تقرؤها»^(١).

٤٤- قراءة آية الكرسي عند النوم:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «.. قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخلّيت سبيله، قال: ما هي؟ قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تحت الآية ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. وقال لي: لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب»^(٢).

فانظر إلى حافظ القرآن كم يصعد من الدرجات في أعلى الجنان!!!

٤٥- سيد الاستغفار وفضله:

• عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي، فاغفر، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها من النهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقنٌ بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة»^(٣).

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «المستدرک»، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣١٧)، و«صحيح الجامع» (٨١٢٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٣١١) - كتاب الوكالة - باب: إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً.. إلخ (٤/ ٤٨٧).

(٣) رواه أحمد، والبخاري، والنسائي، والحاكم في «المستدرک».

٤٦- من استغفر للمؤمنين والمؤمنات:

• عن عبادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات، كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة»^(١).

أي كرم فوق هذا الكريم.. سبحانك ربي من جواد! تُعطي في ثانية من الزمان عبداً من عبادك ملياراً من الحسنات تنفجر شفاته عن دعاء لا يستغرق إلا ثوان معدودة، وتُعطي لقائله ما يفوق المليار من الحسنات!!!

٤٧- سبحان الله وبحمده:

• عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن جورية رضي الله عنها، أن النبي ﷺ خرج من عندها بُكْرَةً حين صلى الصبح وهي في مسجدها^(٢)، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟»، قالت: نعم. قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته».

وفي رواية: «سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته»^(٣).

(١) حسن: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن عبادة، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٢٦)، وانظر «مجمع الزوائد» (٢١٠/١٠) وقال: إسناده جيد. قال الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٤٢/٢): «والعهدة عليه».

(٢) أي: في موضع صلاتها.

(٣) رواه مسلم - كتاب الذكر والدعاء - باب التسييح أول النهار وعند النوم (٨/٨٣-٨٤).

٤٨- التسبيح والتحميد والتكبير دبر كل صلاة وعند النوم:

• عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَلْتَانِ لَا يُحْصِيهِمَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَلَا وَهِيَ يَسِيرُ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ: يُسَبِّحُ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُهُ عَشْرًا، وَيَكْبِّرُهُ عَشْرًا - قَالَ: فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ، قَالَ: - فَتِلْكَ خَمْسُونَ وَمِئَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُمِئَةٌ فِي الْمِيزَانِ. وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ تَسْبِيحَهُ وَتَكْبِيرَهُ وَتَحْمَدَهُ مِئَةً فَتِلْكَ مِئَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ. فَأَيْكُمْ يَعْمَلُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسُمِئَةٍ سِئَةً؟». قالوا: وكيف لا يُحْصِيهِمَا؟. قَالَ: «يَأْتِي أَحَدَكُمْ الشَّيْطَانُ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا اذْكُرْ كَذَا، حَتَّى يَنْتَقِلَ، فَلَعَلَّهُ لَا يَفْعَلُ، وَيَأْتِيهِ وَهُوَ فِي مَضْجَعِهِ فَلَا يَزَالُ يَنْوُمُهُ حَتَّى يَنَامَ»^(١).

٤٩- الذكرب «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدَلٌ عَشْرٍ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِئَةُ حَسَنَةٍ، وَحُيِثُ عَنْهُ مِئَةُ سِئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حَرَزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ»^(٢).

(١) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في الأدب، وأبو داود، والترمذي (٣٤١٠) والنسائي، وابن ماجه، وعبد الرزاق في «المصنف»، وابن السني وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٦٠٥) و(٢/٢٦١)، و«صحيح الجامع» (٣٢٣٠) خلتان: خصلتان. لا يحصيهما: لا يحافظ عليهما.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم. البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التهليل (١٦٧/٧)، ومسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل

□ قال الإمام النووي: «وظاهر إطلاق الحديث أن يحصل هذا الأجر المذكور في هذا الحديث مَنْ قال هذا التهليل مئة مرة في يومه، سواء قاله متواليةً أو متفرقةً في مجالس، أو بعضها أول النهار وبعضها آخره؛ لكن الأفضل أن يأتي بها متوالية في أول النهار، ليكون حرزاً له في جميع نهاره»^(١).
وقال كذلك في فضل هذا الحديث العظيم: «قد ثبت أن مَنْ أعتق رقبةً أعتق الله بكل عضوٍ منها عضواً منه من النار! فقد حصل بعتق رقبة واحدة تكفير جميع الخطايا، مع ما يبقى له من زيادة عتق الرقاب الزائدة على الواحدة، ومع ما فيه من زيادة مئة درجة، وكونه حرزاً من الشيطان»^(٢).

٥٠- سبحان الله العظيم.. سبحان الله وبحمده:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده»^(٣).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يُصبح وحين يُمسي: سبحان الله وبحمده، مئة مرة، لم يأت أحدٌ يوم القيامة

والتسبيح والدعاء (٦٩/٨).

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٧/١٧).

(٢) المصدر السابق (١٧/١٨).

(٣) رواه البخاري ومسلم، واللفظ للأول. البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل

التسبيح (١٦٨/٧) مسلم، كتاب الدعوات.. فضل التهليل والتسبيح والدعاء

(٧٠/٨).



بأفضل مما جاء به، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مثلاً قال أو زاد عليه»^(١).

وقوله: «حببتان إلى الرحمن».. خُصَّ «الرحمن» من الأسماء الحسني للتنبيه على سعة رحمة الله، حيث يُجَازَى على العمل القليل بالثواب الجزيل، ولما فيها من التنزيه والتحميد والتعظيم^(٢).

٥١- سبحان الله وبحمده ومغفرة الذنوب:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة، حُطَّتْ عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»^(٣).

٥٢- فضل الصلاة على النبي ﷺ:

• عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهَا بِهَا عَشْرًا»^(٤).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا»^(٥).

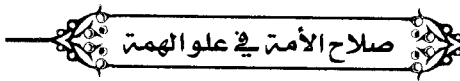
(١) رواه مسلم، كتاب الدعوات، باب فضل التهليل، (٦٩/٨).

(٢) «فتح الباري» (٢٠٨/١١).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري رقم (٦٤٠٥) - كتاب الدعوات - باب فضل التسبيح (٢٠٦/١١)، ومسلم برقم (٢٦٩١) في كتاب الذكر والدعاء - باب فضل التهليل والتسبيح (٢٠٧١/٤).

(٤) أخرجه مسلم (٣٨٤) - كتاب الصلاة - باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي (٢٨٨/١)، وأخرجه أيضًا برقم (٤٠٨) من حديث أبي هريرة (٣٠٦/١).

(٥) رواه أحمد مسلم (٤٠٨) - كتاب الصلاة - باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد (٣٠٦/١)، وأبو داود، والترمذي والنسائي.



وصلاة الله على العبد: رحمته وتضعيف أجره^(١).

فيا له من أجر عظيم عظيم لا تُحيط به الكلمات!!! أضف إلى ذلك بقية الأجر العظيم الذي جاء في أحاديث أخرى سبق بيانها.

• عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صَلَّى عليَّ واحدة، صَلَّى الله عليه عشر صلوات، وَحَطَّ عنه عشر خطيئات، ورفعَ له عشر درجات»^(٢).

٥٣- دعاءُ السُّوق:

• عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دخل السُّوق فقال: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحده لا شريك له، له المُلْكُ، وله الحمد، يحيى ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخِر، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف درجة، وبني له بيتاً في الجنة»^(٣).

فيا لله ما أرحم مالِك الملوك، وما أعظمه وأكرمه!!!

دعاء لا يستغرق ثانيتين من الزمان يكون له هذا الأجر العظيم الذي لا تُحيط بكنهه العقول والألباب.

(١) نقله النووي في «شرح صحيح مسلم» (٤/١٢٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في «الأدب»، والنسائي، والحاكم في «المستدرک»، وابن حبان وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٩٢٢)، و«صحيح الجامع» (٦٣٥٩).

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذي وابن ماجه، والحاكم في «المستدرک» عن ابن عمر، وحسنه الألباني في «تخريج المشكاة» (٢٩٥٤)، و«صحيح الجامع» (٦٢٣٢).

٥٤- في الاستغفار وفضله :

• عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاثاً، غُفِرَتْ له ذنوبه وإن كان فارًّا من الرِّحْف»^(١).

٥٥- من قال: لا إله إلا الله مخلصاً :

• عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله مُخلصاً دخل الجنة»^(٢).

• وقال ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله حرَّم الله عليه النار»^(٣).

٥٦- دعوة المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب :

• عن صفوان بن عبد الله بن صفوان قال: قدمت الشام، فأتيت أبا

(١) صحيح: رواه أبو داود (١٥١٧) (٨٥/٢) - كتاب الصلاة - باب الاستغفار، والترمذي (٣٥٧٧) (٥٦٩/٥)، والطبراني في «الكبير» (٤٦٧٠) (٨٩/٥)، والحاكم - واللفظ له - وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي في كتاب الدعاء (٥١١/١)، ورواه ابن أبي شيبة (٢٩٤٤٩) من حديث معاذ ابن جبل رضي الله عنه، ومن حديث أبي سعيد الخدري (٢٩٤٤٧) وفيه «خمس مرات» وفي آخره «وإن كان عليه مثل زبد البحر»، وذكره الحافظ أبو القاسم الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» برقم (٢١٨)، (١٧١/١)، والمنذري برقم (٢٥١٩) (٤٧٠/٢) وقال: إسناده جيّد.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢٣٦/٥)، وابن حبان كما في «الإحسان» (٢٠٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٥٤/٩)، ورواه البزار عن أبي سعيد، وأبو نعيم في «الحلية» عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٣٣)، و«الصحيحة» (٢٣٥٥).

(٣) رواه مسلم (٢٩) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

الدرداء عليه السلام في منزله فلم أجده، ووجدت أم الدرداء عليها السلام، فقالت: أتريد الحج العام؟ فقلت: نعم. قالت: فادع الله لنا بخير، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملكٌ موكلٌ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملكُ الموكَّل به: آمين، ولكَ بمثلٍ».

قال: فخرجتُ إلى السوق، فلقيتُ أبا الدرداء عليه السلام، فقال لي مثل ذلك، يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم ^(١).

٥٧- الحمد على الطعام واللباس:

• عن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَكَلَ طَعَامًا، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ، وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ لَبَسَ ثَوْبًا فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ» ^(٢).

٥٨- عيادة المريض واستغفار الملائكة:

• عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ أَتَى أَخَاهُ الْمُسْلِمَ عَائِدًا، مَشَى فِي خُرَافَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسَ، فَإِذَا جَلَسَ

(١) رواه مسلم - واللفظ له - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٨/ ٨٦-٨٧)، ورواه أبو داود ويظهر الغيب، معناه في غيبة المدعو له وفي سرّه؛ لأنه أبلغ في الإخلاص.

(٢) حسن: رواه أحمد (٣/ ٤٣٩)، وأبو داود (٤٠٢٣)، والترمذي (٣٤٥٨)، والنسائي، وابن ماجه (٣٢٨٥)، والحاكم، وصححه، وحسنه الألباني في «الإرواء» (١٩٨٩)، «الكلم الطيب» (١٨٧)، و«صحيح الجامع» (٦٠٨٦).

غمرته الرحمة، فإن كان غُدوة، صَلَّى عليه سبعون ألفَ مَلَكٍ حتى يمسي، وإن كان مساءً، صَلَّى عليه سبعون ألفَ ملك حتى يُصبح»^(١).

• وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عاد مريضًا لم يزل يخوض في الرحمة حتى يجلس، فإذا جَلَسَ غُمِرَ فيها»^(٢).

٥٩- تنحية الأذى من طريق الناس:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لقد رأيتُ رجُلًا يتقلبُ في الجنة، في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس»^(٣).

• وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَرَّ رجلٌ بغصن شجرة على ظهر طريق، فقال: والله لأُنحِتَنَّ هذا عن المسلمين، لا يؤذيهم، فأدخل الجنة»^(٤).

الإنفاق:

٦٠- فضل المنيحة:

• عن أبي كبشة السلولي قال: سمعت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «أربعون خَصْلَةً، أعلاهنَّ مَنِيحَةُ العَنَزِ، ما من عاملٍ يعملُ بَخْصَلَةٍ منها رجاءَ ثوابها وتصديقَ موعودها إلا أدخله الله بها الجنة».

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٨١/١)، وأبو داود (٣١٠٠)، وابن ماجه (١٤٤٢)، والحاكم (٣٤٩/١)، والبيهقي (٣/٣٨٠)، وفي «شعب الإيمان» (٨٧٤٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/٣٠٤) وابن أبي شيبة (٣/٢٣٤)، وابن حبان (٢٩٥٦-الإحسان)، والحاكم (١/٣٥٠) وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي، والبيهقي (٣/٣٨٠).

(٣) رواه مسلم (١٩١٤).

(٤) رواه مسلم (١٩١٤).

□ قال حسان^(١): «فعددنا ما دون منيحة العنز، من ردّ السلام، وتشميت العاطس، وإمالة الأذى عن الطريق ونحوه، فما استطعنا أن نبُلِّغَ خمسَ عشرةَ خَصْلَةً»^(٢).

٦١- الساعي على الأرملة والمسكين:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»، وأحسبه قال^(٣): «وكالقائم لا يُفْطِرُ، وكالصائم لا يُفْطِرُ»^(٤).

المراد بالساعي: الكاسب لهما، العامل لمؤنتهما.

٦٢- كافل اليتيم:

• عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، وقال بإصبعيه السَّبَّابة والوسطى^(٥).

كافل اليتيم: القائم بأموره: من نفقة، وكسوة، وتأديب، وتربية، وغير ذلك. وهذه الفضيلة تحصل لمن كفله من مال نفسه، أو من مال اليتيم

(١) هو حسان بن عطية راوي الحديث عن أبي كبشة.

(٢) رواه البخاري - كتاب الهبة - باب فضل المنيحة. والمنيحة: هي الناقة أو الشاة تعطيها غيرك يحتلبها، ثم يردّها عليك.

(٣) «وأحسبه قال» هو من لفظ عبد الله بن مسلمة القَعْنَبِي الذي روى عنه البخاري ومسلم.

(٤) رواه البخاري - كتاب الأدب - باب الساعي على المسكين (٧/٧٧)، ومسلم - واللفظ له - كتاب الزهد - باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٨/٢٢١).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري واللفظ له - كتاب الأدب - باب فضل من يعول يتيمًا (٧/٦٧)، ومسلم - كتاب الزهد - باب الإحسان إلى الأرملة واليتيم (٨/٢٢١).

بولاية شرعية^(١).

□ ونقل ابن حجر قول ابن بطّال: «حَقُّ عَلَى مَنْ سَمِعَ هَذَا الْحَدِيثَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ؛ لِيَكُونَ رَفِيقَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَنَّةِ، وَلَا مَنْزِلَةَ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ».

قال ابن حجر: «ويحتمل أن يكون المراد قُرْبَ الْمَنْزِلَةِ حَالَةَ دُخُولِهِ الْجَنَّةِ»^(٢).

٦٣- التّصافح بين المسلمين:

• عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيُسَلِّمُ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ، وَيَأْخُذُ بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ بِيَدِهِ إِلَّا لِلَّهِ، فَلَا يَفْتَرِقَانِ حَتَّى يُغْفَرَ لَهُمَا»^(٣).

• وعن صدي بن عجلان أبي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا تَصَافَحَ الْمُسْلِمَانِ لَمْ تُفَرِّقْ أَكْفَهُمَا حَتَّى يُغْفَرَ لَهُمَا»^(٤).

٦٤- رحمة البهائم:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ^(٥) كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١١٣/١٨).

(٢) «فتح الباري» (٤٣٦/١٠).

(٣) حسن: أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في «الصحيحه» (٥٢٥)، و«صحيح الجامع» (٥٧٧٦).

(٤) حسن: أخرجه الطبراني في «الكبير»، وحسنه الألباني في «الصحيحه» (٥٢٥/٥٦/٢).

(٥) الركية: البئر.

موقها^(١)، فاستقت له به، فغفر لها^(٢).

٦٥- الأجر على الزرع والغرس:

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يزرع زرعًا، أو يغرس غرسًا، فيأكل من طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كانت له به صدقة»^(٣).

• وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه صدقة، وما أكل السبع فهو له صدقة، وما أكلت الطيور فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد كان له صدقة»^(٤).

٦٦- إنظار المعسرين:

□ عن أبي اليسر رضي الله عنه قال: «من أنظر مُعْسِرًا أو وضع عنه أظله الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله»^(٥).

٦٧- الذب والدفاع عن أعراض المسلمين في غيبتهم:

• عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من ذب عن عرض أخيه بالغيبة، كان حقًا على الله أن يعتقه من النار»^(٦).

(١) الموق: الخُف.

(٢) رواه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

(٣) رواه البخاري (٢٣٢٠)، ومسلم (١٥٥٣).

(٤) رواه مسلم (١٥٥٢).

(٥) أخرجه مسلم (٣٠٠٦).

(٦) صحيح: رواه أحمد (١/ ٤٦١)، والطبراني (٢٤/ ١٧٤)، وابن عدي في «الكامل»

• وعن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً: «مَنْ رَدَّ عَلَى عِرْضِ أَخِيهِ، رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وفي لفظ: «كَانَ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ»^(١).

الجهاد:

٦٨- عَظَمُ أَجْرِ الْمُجَاهِدِ وَثَوَابِهِ:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا». فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَبَشِّرُ النَّاسَ؟! قال: «إِنْ فِي الْجَنَّةِ مِثَّةٌ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ»، أَرَاهُ قَالَ: «وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(٢).

«وَجَلَسَ فِي بَيْتِهِ» فِيهِ تَأْنِيسٌ لِمَنْ حُرِمَ الْجِهَادُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مُحَرَّمًا مِنَ الْأَجْرِ، بَلْ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّزَامِ الْفَرَائِضِ مَا يُوصلُهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنْ قَصَرَ عَنْ دَرَجَةِ الْمُجَاهِدِينَ.

□ واستنتج ابن حجر من ظاهر الحديث أن المراد: لا تبشر الناس بما

(٥/٥٢٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٦٧)، والبيهقي في «شرح السنة» (٦/٤٩٥)،

وصححه الألباني في «غاية المرام» (٤٣١)، و«صحيح الجامع» (٦٢٤٠).

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في «غاية المرام» (٤٣١)،

و«صحيح الجامع» رقم (٦٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله

(٣/٢٠١-٢٠٢).

ذكرته من دخول الجنة لمن آمن وعمل الأعمال المفروضة عليه؛ فيقفوا عند ذلك ولا يتجاوزوه إلى ما هو أفضل منه من الدرجات التي تحصل بالجهاد.

و«الأوسط»: الأعدل والأفضل.

وفي الحديث إشارة إلى أن درجة المجاهد قد ينالها غير المجاهد، إما بالنية الخالصة، أو بما يوازيه من الأعمال الصالحة؛ لأنه ﷺ أمر الجميع بالدعاء بالفردوس بعد أن أعلمهم أنه أعد للمجاهدين..^(١)

٦٩- فضل الغبار في سبيل الله:

• عن أبي عَبَسٍ عبد الرحمن بن جبر، أن رسول الله ﷺ قال: «ما اغْبَرَّتْ قدما عبدٍ في سبيل الله فتمسَّه النار»^(٢).

□ قال الحافظ ابن حجر: «فإذا كان مجرد مَسَّ الغبارٍ للقدم يحرم عليها النار، فكيف بمن سعى وبذل جهده واستنفذ وسعه؟!»^(٣).

• وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما خالط قلب امرئ - مسلم - رَهْجٌ في سبيل الله، إِلَّا حَرَّمَ الله عليه النار»^(٤).

• وعن أبي عبس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اغْبَرَّتْ قدماه في سبيل الله، حَرَّمَهُ الله على النار»^(٥).

(١) «فتح الباري» (٦/ ١٢-١٣).

(٢) أخرجه البخاري - كتاب الجهاد والسير، باب من اغْبَرَّتْ قدماه في سبيل الله (٢٠٧/٣).

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٣٠).

(٤) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦١٦).

(٥) رواه أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي.



□ قال الحافظ ابن حجر: «دَلَّ الحديث على أن من اغْبَرَّت قدماء في سبيل الله حَرَّمه الله على النار، سواءً باشر قتالاً أم لا»^(١).

وزاد الإسماعيلي: «فتمسه النار أبداً».

وأخرج ابن حبان من حديث جابر، أنه كان في غزاةٍ فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ... فذكر نحو الحديث السابق.

قال: فتوائب الناس عن دوابهم، فما رُئي أكثر ماشياً من ذلك اليوم.

٧٠- فضل الجهاد بالمال في سبيل الله تعالى:

• عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل بناقةٍ مخطومة فقال: هذه في سبيل الله^(٢). فقال رسول الله ﷺ: «لَكَ بها يوم القيامة سبعمئة ناقةٍ كُلُّها مخطومة»^(٣).

ويحتمل أن المراد: له أجرُ سبعمئة ناقة..

ويحتمل أن يكون على ظاهره، ويكون له في الجنة بها سبعمئة، كل واحدة منهن مخطومة يركبهن حيث شاء للتنزه، كما جاء في خيل الجنة وتُجَبِّها، وهذا الاحتمال أظهر. والله أعلم^(٤).

٧١- من قاتل في سبيل الله فُواق ناقة:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مرَّ رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ

(١) «الفتح» (٣٦/٦).

(٢) يعني في الجهاد.

(٣) رواه مسلم - كتاب الإمارة - باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها (٤١/٦). ومخطومة: أي فيها خِطام، وهو قريب من الزِّمام.

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣٨/١٣).

بَشَعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ^(١) مِنْ مَّاءٍ عَذْبَةٍ، فَأَجْتَبَهُ لَطِييْهَا، فَقَالَ: لَوْ اعْتَرَلْتُ النَّاسَ فَأَقَمْتُ فِي هَذَا الشَّعْبِ^(٢)، وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «لَا تَفْعَلْ، فَإِنْ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا، أَلَا تَحْبُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ الْجَنَّةَ؟ اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُؤَادَ^(٣) نَاقَةٍ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(٤).

٢٢- مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا، أَوْ خَلَفَهُ بِخَيْرٍ فِي أَهْلِهِ:

• عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا»^(٥).

يعني أن الذي جهَّزَ غَازِيًا حصل له أجر بسبب الغزو. وهذا الأجر يحصل بكل جهاد، وسواء قليله وكثيره، ولكل خالف له في أهله بخير، من قضاء حاجة لهم، وإنفاق عليهم، أو مساعدتهم في أمرهم. ويختلف قدر الثواب بقلة ذلك وكثرته. وفي هذا الحديث الحث على الإحسان إلى

(١) العُيَيْنَةُ: تصغير عين، بمعنى المنبع.

(٢) الشَّعْبُ: ما انفرج بين الجبلين.

(٣) الفُؤَادُ: ما بين الحلبتين من الوقت، أو ما بين فتح يديك وقبضها على الصَّرع انظر «تحفة الأحوذى» (٣/ ١٤).

(٤) رواه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله، رقم (١٦٤٨) (٤/ ١٨١)، وقال: «حديث حسن». زاد في «تحفة الأحوذى»: وأخرجه الحاكم، وقال: «صحيح على شرط مسلم» (٣/ ١٤).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري - واللفظ له - كتاب الجهاد، باب فضل من جهَّزَ غَازِيًا أو خلفه بخير (٣/ ٢١٤)، ومسلم - كتاب الإمارة - باب فضل إعانة الغَازِي في سبيل الله بمركوب وغيره وخلافته في أهله بخير (٦/ ٤١).

من فعل مصلحةً للمسلمين أو قام بأمر من مهماتهم^(١).

٧٣- الرباط في سبيل الله :

• عن سلمان رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفُتَّانُ»^(٢).

أصل الرِّبَاط: ما تربط به الخيل، ثم قيل لكل أهل ثغر: «أي جبهة» يدفع عن خلفه: رباط.

□ قال الإمام النووي في هذا الحديث: «هذه فضيلة ظاهرة للمرابط، وجريانُ عمله عليه بعد موته فضيلة مختصة به لا يشاركه فيها أحد. وقد جاء صريحاً في غير مسلم: «كل ميت يُختم عمله إلا المرابط، فإنه يُنمى له عمله إلى يوم القيامة»^(٣).

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٤٠).

(٢) رواه مسلم - كتاب الإمارة - باب فضل الرباط في سبيل الله ﷺ (٦/ ٥١).

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٦١)، أما قوله ﷺ الذي رواه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له». فقد قال في معناه: «قال العلماء: معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة، لكونه كان سببها، فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية، وهي الوقف..» «صحيح مسلم بشرح النووي» (١١/ ٨٥).

ولفظ الحديث الذي أورده النووي في الترمذي: «كل ميت يُختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله، فإنه يُنمى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر». وقال: حديث حسن صحيح. كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من مات

قوله: «وأجرى عليه رزقه» موافق لقول الله تعالى في الشهداء: ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران).

٧٤- من سأل الشهادة بصدق:

• عن سهل بن حنيف أن النبي ﷺ قال: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»^(١).

يعني أنه إذا سأل الشهادة بصدق أعطي من ثواب الشهداء، وإن كان على فراشه، وفيه استحباب سؤال الشهادة، واستحباب نية الخير^(٢).

٧٥- عمل يسيراً وأجر كثيراً:

• عن البراء بن عازب قال: جاء رجلٌ من بني النبيت - قبيل من الأنصار - فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله. ثم تقدّم فقاتل حتى قُتل، فقال النبي ﷺ: «عَمِلَ هَذَا يَسِيراً وَأُجِرَ كَثِيراً»^(٣).

فيه شهادة منه ﷺ له بإحرازه المرتبة العظمى والدرجة العليا، وهذا قد يوجد في بعض الأعمال، مثل كلمة التوحيد؛ فإنها لا يزنها شيء من الأعمال.

٧٦- المائد في البحر له أجر شهيد:

• عن أم حرام بنت ملحان قالت: قال رسول الله ﷺ: «للمائد أجر شهيد».

مرابطاً رقم (١٦٢٢) (٤/١٦٥).

(١) رواه مسلم - كتاب الإمارة، باب استحباب الشهادة في سبيل الله تعالى (٦/٤٩).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/٥٥).

(٣) رواه مسلم - كتاب الإمارة - باب ثبوت اللجنة للشهيد (٦/٤٤).

وللغريق أجر شهيدين»^(١).

• وعن أم حرام رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «المائد في البحر الذي يُصيبه القيء له أجر شهيد، والغريق له أجر شهيدين»^(٢).

□ قال المناوي: «للمائد» أي: الذي يلحقه دوران رأسه من ربح البحر واضطراب السفينة، من ماد يمين: إذا دار رأسه.

«أجر شهيد، وللغريق أجر شهيدين»، قال المظهر: «هذا إن ركب له نحو طاعة؛ كغزو وحجّ وطلب علم، وكذا التجارة، ولا طريق له غيره، وقصد طلب القوت لا زيادة ماله»^(٣).

٧٧- المتمسك بالسنة في وقت الفتن:

• عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من ورائكم زمان صبر، للمتمسك فيه أجر خمسين شهيداً منكم»^(٤).

• وعن عتبة بن غزوان رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من ورائكم أيام الصبر، للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه، أجر خمسين منكم». قالوا: يا نبي الله، أو منهم؟ قال: «بل منكم»^(٥).

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن أم حرام، ورواه أبو داود، والحميدي، وابن معين، والدولابي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٨٧).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٤٢).

(٣) «فيض القدير» للمناوي (٢٩١/٥).

(٤) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود، وقال الألباني في «الصحيحة» (٢٦٨/١): «إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم وصححه في «صحيح الجامع» رقم (٢٢٣٤).

(٥) صحيح: صحّحه الألباني بشواهد في «الصحيحة» رقم (٤٩٤) (٢٦٨/١).

٧٨- العبادة في الهرج والفتنة تغفر الذنوب المتقدمة:

• عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أما عَلِمْتَ أَنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله»^(١).

• وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عبادة في الهرج والفتنة كهجرة إلى»^(٢).

• وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العبادة في الهرج كهجرة إلى»^(٣).

□ قال المناوي: «العبادة في الهرج» أي: وقت الفتن واختلاط الأمور، «كهجرة إلى» في كثرة الثواب، أو يُقال: المهاجر في الأول كان قليلاً؛ لعدم تمكُّن أكثر الناس من ذلك، فهكذا العابد في الهرج قليل».

□ قال ابن العربي: «وجه تمثيله بالهجرة: أن الزمن الأول كان الناس يفرُّون فيه من دار الكفر وأهله إلى دار الإيمان وأهله، فإذا وقعت الفتن تعيَّن على المرء أن يفرَّ بدينه من الفتنة إلى العبادة، ويهجر أولئك القوم وتلك الحالة، وهو أحد أقسام الهجرة»^(٤)، فالعبادة في الهرج تغفر ما تقدَّم من الذنوب مثل الهجرة.

(١) رواه مسلم في «صحيحه».

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٩٧٤).

(٣) رواه مسلم، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه.

(٤) «فيض القدير» للمناوي (٣٧٣/٤).



المعاملات والأخلاق:

٧٩- إصلاح ذات البين:

• عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟». قالوا: بلى. قال: «صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»^(١).

□ قال الترمذي: «هذا حديث صحيح، ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

المراد بالصيام والصلاة هنا النوافل دون الفرائض.

والحالقة: الخصلة التي من شأنها أن تحلق، أي تهلك وتستأصل الدين كما يستأصل موسى الشعر.

وقيل: هي قطيعة الرحم والتظام.

وفيه حث وترغيب في إصلاح ذات البين، واجتناب عن الإفساد فيها؛ لأن الإصلاح سبب للاعتصام بحبل الله.

وعدم التفرق بين المسلمين. وفساد ذات البين ثلثة في الدين، فمن تعاطى إصلاحها ورفع فسادها نال درجة فوق ما يناله الصائم القائم المشتغل بخويصة نفسه..^(٢).

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي (٢٥٠٩) (٤/٦٦٣) - واللفظ له -، وأبو داود، وابن حبان، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٩٥)، و«غاية المرام» (٤١٤)، و«تخريج المشكاة» (٥٠٣٨).

(٢) «تحفة الأحوذى» (٣/٣٢٠).

٨٠- التجاوز عن المعسر:

• عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حُوسِبَ رجلٌ ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس - وكان موسراً - فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال: قال الله ﻋَزَّ وَجَلَّ: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه»^(١).

• وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى مُعْسِراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه»^(٢).

□ قال الإمام النووي: «التجاوز والتجاوز معناهما المسامحة في الاقتضاء والاستيفاء، وقبول ما فيه نقص يسير.. وفي هذه الأحاديث فضل إنظار المعسر، والوضع عنه، إمَّا كل الدَّين، وإما بعضه، من كثير أو قليل»^(٣).

٨١- من كان سهلاً هيناً ليناً:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ سَهْلًا هَيِّنًا لَيِّنًا، حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»^(٤).

(١) رواه مسلم، كتاب البيوع، باب فضل إنظار المعسر (٣٢/٥).

(٢) «صحيح البخاري»، كتاب البيوع، باب من أنظر معسراً (٣/١٠).

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٠/٢٢٤).

(٤) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرک» وصححه، ورواه البيهقي في «السنن»، والطبراني في «الأوسط»، والعقيلي في «الضعفاء»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٣٨)، و«صحيح الجامع» (٦٤٨٤).

٨٢- حُسْنُ الْخُلُقِ:

• عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُقٍ حسن، وإن الله لَيَبْغِضُ الفاحش البذيء»^(١).

□ وروى الترمذي في المصدر السابق عن عبد الله بن المبارك أنه وصف حسن الخُلُق فقال: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى. «ما شيء» أي ثوابه.

«.. من حسن الخلق»، أي: أن الله يحبه ويرضى عن صاحبه.

«الفاحش»: الذي يتكلم بما يُكره سماعه، أو من يرسل لسانه بما لا ينبغي.

والبذيء: هو المتكلم بالفحش^(٢).

٨٣- تنفيس كُرْبَاتِ الْمُسْلِمِينَ، والتيسير عليهم، وسترهم، وطلب العلم، والذكر:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كَرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مَعْسَرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ. وَمَنْ سَلَكَ

(١) صحيح: رواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حُسْنِ الْخُلُقِ رقم

(٢٠٠٢) (٣٦٢/٤) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الطبراني في «الكبير»،

وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٧٦)، و«صحيح الجامع» (٥٦٣٢).

(٢) «تحفة الأحزدي» (١٤٥/٣).

طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(١).

□ قال الإمام النووي: «وهو حديث عظيم، جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب..»

ومعنى نفس الكربة: أزالها، وفيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما تيسر من علم، أو مال، أو معاونة، أو إشارة بمصلحة، أو نصيحة، وغير ذلك..

وفضل المشي في طلب العلم، ويلزم من ذلك الاشتغال بالعلم الشرعي، بشرط أن يقصد به وجه الله تعالى، وإن كان هذا شرطاً في كل عبادة، لكن عادة العلماء يقيدون هذه المسألة به لكونه قد يتساهل فيه بعض الناس، ويغفل عنه بعض المبتدئين ونحوهم.

قوله ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله...». يلحق بالمسجد في تحصيل هذه الفضيلة الاجتماع في مدرسة ورباط ونحوهما إن شاء الله تعالى، ويكون التقيد في الحديث خرج مخرج الغالب، لا سيما في ذلك الزمان.

«من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» معناه: من كان عمله ناقصاً لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال، فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب

(١) رواه أحمد، ومسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٨ / ٧١)، ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه.



وفضيلة الآباء ويقصر في العمل^(١).

٨٤- الاجتماع على الذكر:

• عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قومٌ على ذكرٍ ففترقوا عنه، إلَّا قليل لهم: قوموا مغفورًا لكم»^(٢).

• وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما جلس قومٌ يذكرون الله تعالى فيقومون، حتى يُقال لهم: قوموا قد غفر الله لكم ذنوبكم، وبُدِّلَت سيئاتكم حسنات»^(٣).

• وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما جلس قومٌ يذكرون الله تعالى، إلَّا ناداهم منادٍ من السماء: قوموا مغفورًا لكم»^(٤).

٨٥- إفشاء السلام:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أولًا أدُلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(٥).

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٧/ ٢١-٢٣).

(٢) صحيح: رواه الحسن بن سفيان عن سهل، ورواه الطبراني في «الكبير»، وأحمد في «مسنده»، والطبراني في «الصغير» عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٥٠٧).

(٣) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، والضياء، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦١٠).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والضياء، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٠٩).

(٥) أخرجه مسلم (٥٤) - كتاب الإيمان - باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلَّا المؤمنون.

٨٦- حُبُّ الله تعالى وحُبُّ رسوله ﷺ:

• عن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «وما أعددتُ للساعة؟»، قال: حُبُّ الله ورسوله، قال: «فإنك مع من أحببت»^(١).

قال أنس رضي الله عنه: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدَّ من قول النبي ﷺ: «فإنك مع من أحببت».

قال أنس رضي الله عنه: «فأنا أحبُّ الله رسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم».

وفي رواية: حين قال رسول الله ﷺ: «وما أعددتُ لها؟» قال الرجل: ما أعددتُ لها كثيرَ صلاةٍ ولا صيامٍ ولا صدقة، ولكني أحبُّ الله ورسوله.

وفي رواية: ما أعددتُ لها من كثير أحمد عليه نفسي.

٨٧- البراءة من الشرك:

• عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشُّركُ فيكم أخفى من ديبِ النَّمْلِ، وسأدُّلك على شيء إذا فعلته أذهب الله عنك صغار الشُّرك وكبارَه، تقول: اللهم إني أعوذُ بك أن أشرك بك وأنا أعلمُ، وأستغفرُك لما لا أعلمُ»^(٢).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم (٦١٧١) (١٠/٥٥٧) - كتاب الأدب - باب

علامة الحب في الهل، ومسلم (٢٦٣٩) (٤/٢٠٣٢) - كتاب البر والصلة والآداب -

باب المرء مع من أحبَّ.

(٢) صحيح: أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» - الأصل (٢٧٤) الرابع

٨٨- العمل الصالح في عشر ذي الحجة :

• عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله ﷻ من هذه الأيام» - يعني: أيام العشر - قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلٌ خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء»^(١).

٨٩- الابتلاء:

• عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نَصَبٍ^(٢)، ولا وَصَبٍ^(٣) ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غمٍّ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها»^(٤).

٩٠- الصبر على من فقد بصره:

• قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، إذا أخذتْ كَرِيمَتَيْكَ، فصبرتْ واحتسبت عند الصَّدَمَةِ الأولى؛ لم أرض لك ثواباً دون

والسبعون والمائتان (٣٧٢/٢)، وأخرجه أحمد في «المسند» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه (٤٠٣/٤)، وكذا الطبراني كما في «فيض القدير» (١٧٣/٤)، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٧٦/١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٩٤/١) رقم (٣٧٣١).

(١) أخرجه البخاري، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، والطبراني في «المعجم الكبير» عن ابن عباس.

(٢) النَّصَب: التَّعَبُ.

(٣) الوَصَب: دوام الوجع ولزومه، ويطلق على التعب والفتور في البدن.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري - واللفظ له - (٥٦٤٢، ٦٥٤١) (١٠٣/١٠) - كتاب

المرضى - باب ما جاء في كفارة المرض (١٠٣/١٠)، ومسلم (٢٥٧٣) (٤/١٩٩٢،

١٩٩٣) - كتاب البر والصلة -.

الجنة»^(١).

• وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: مَنْ أَذْهَبْتُ حَبِيبَتَهُ فَصَبِرَ وَاحْتَسَبَ؛ لَمْ أَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ»^(٢).

٩١- مَنْ صَبَرَ عَلَى فَقْدِ صَفِيٍّ:

□ قال ابن حجر رحمه الله: «وَالصَّفِيُّ: أَعْمٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَلَدًا أَوْ غَيْرَهُ»^(٣).

• قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ، إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، ثُمَّ احْتَسَبَهُ؛ إِلَّا الْجَنَّةَ»^(٤).

٩٢- مَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَاسْتَرْجَعَ عِنْدَ فَقْدِ الْوَلَدِ:

• عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ: قَبِضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَبِضْتُمْ ثَمَرَةَ فَوَادِهِ؛ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: فَمَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمَدَكَ وَاسْتَرْجَعَ. فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ»^(٥).

(١) رواه أحمد، ومسلم عن أبي أمامة.

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن أبي هريرة، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨١٤٠).

(٣) «فتح الباري» (٢٤٧/١١).

(٤) رواه أحمد والبخاري عن أبي هريرة.

(٥) حسن: رواه الترمذي، وحسنه، وصحَّحه ابن حبان، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٩٥).

٩٣- من مات له ثلاث أو اثنان من الولد:

• عن وائلة رضي الله عنها، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَفَن ثَلَاثَةً مِنَ الْوَلَدِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ»^(١).

□ قال المناوي: «أَيُّ مِنْ أَوْلَادِهِ ذَكَورًا أَوْ إِنَاثًا، وَلَعَلَّ الْمُرَاد مِنْ أَوْلَادِ الصُّلْبِ، وَيَحْتَمِلُ شَمُولَهُ لِأَوْلَادِ الْأَوْلَادِ، «حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نَارَ جَهَنَّمَ» بَأَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ غَيْرِ عَذَابٍ بِالْكُلِّيَّةِ»^(٢).

• وعن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا ثَلَاثَةٌ مِنْ وَلَدِهَا، إِلَّا كَانُوا لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ». قالت امرأة: واثنين؟ قال: «واثنين»^(٣).

٩٤- الصلاة ببیت المقدس:

• عن ابن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ سَلِمَ بَنُ دَاوُدَ لِمَا بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ، سَأَلَ اللَّهُ ﻋَﻠَّاهُ خِلَالَ ثَلَاثَةِ: سَأَلَ اللَّهُ حُكْمًا يُصَادِفُ^(٤) حُكْمَهُ فَأَوْتِيَهُ، وَسَأَلَ اللَّهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأَوْتِيَهُ، وَسَأَلَ اللَّهُ - حِينَ فَرَّغَ مِنْ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ - أَنْ لَا يَأْتِيَهُ أَحَدٌ لَا يَنْهَزُهُ^(٥) إِلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ، أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، أَمَا اثْنَانِ فَقَدْ أُعْطِيَهُمَا، وَأَرْجُو أَنْ

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٣٨).

(٢) «فيض القدير» للمناوي (١٢٦/٦).

(٣) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم.

(٤) أي: يوافق حكمه.

(٥) لا ينهزه: أي، لا يدفعه.

يكونَ قد أُعْطِيَ الثالثة»^(١).

٩٥- من دَعَا إلى الهدى والخير:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٢).

• وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً فعمل بها بعده، كُتِبَ له مثلُ أجرٍ من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً فعمل بها بعده، كُتِبَ عليه مثل وزرٍ من عمل لها، ولا ينقص من أوزارهم شيء»^(٣).

٩٦- مُعَلِّمُ النَّاسِ الْخَيْرَ:

• قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته، حتَّى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، يُصَلُّونَ على مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ»^(٤).

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده»، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم في «المستدرک» وصححه، وأخرجه أيضاً بن خزيمة، وابن عساكر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٩٠).

(٢) رواه أحمد، ومسلم (١٠١٧) - كتاب العلم - (٢٠٥٩/٤) - وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٣) رواه أحمد، ومسلم (٢٦٧٤) - كتاب العلم (٢٠٦٠/٤)، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٤) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، والضياء عن أبي أمامة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٨٣٨).



• وقال رسول الله ﷺ: «مُعَلَّمُ الْخَيْرِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْبَحْرِ»^(١).

٩٧- مَنْ خَتَمَ لَهُ بِصِيَامٍ يَوْمَ:

• قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَتَمَ لَهُ بِصِيَامٍ يَوْمٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢).

□ قال المناوي: «أَيُّ مَنْ خَتَمَ عَمْرَهُ بِصِيَامٍ يَوْمٍ؛ بِأَنْ مَاتَ وَهُوَ صَائِمٌ، أَوْ بَعْدَ فِطْرِهِ مِنْ صَوْمِهِ. «دَخَلَ الْجَنَّةَ» أَيُّ: مَعَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، أَوْ مِنْ غَيْرِ سَبَقٍ عَذَابٍ»^(٣).

٩٨- قَوْلُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ:

• عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ سَبَّحَانَ اللَّهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، تَنَفَّضُ الْخَطَايَا، كَمَا تَنَفَّضُ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»^(٤).

□ قال المناوي: «إِنْ سَبَّحَانَ اللَّهُ» أَيُّ: قَوْلُ سَبَّحَانَ اللَّهُ بِإِخْلَاصٍ وَحُضُورِ ذَهْنٍ، وَهَكَذَا فِي الْبَاقِي «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ تَنَفَّضُ» أَيُّ: تُسْقَطُ «الْخَطَايَا» عَنْ قَائِلِهَا «كَمَا تَنَفَّضُ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»؛

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط» عن جابر، والبخاري عن عائشة، والترمذي عن أبي أمامة، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (ص ٧٩)، و«صحيح الجامع» (٥٨٨٣).

(٢) صحيح: رواه البخاري عن حذيفة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٢٤).

(٣) «فيض القدير» للمناوي (١٢٣/٦).

(٤) حسن: رواه أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤٣٦).

تحقيقاً لمحو جميع الخطايا. والمراد بهذا وما أشبهه الصغائر لا الكبائر»^(١).

٩٩- قول: لا حول ولا قوة إلا بالله:

• عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «قل لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنزٌ من كنوز الجنة»^(٢).

١٠٠- قول: سبحان الله عدد ما خلق، سبحان الله ملء...:

• عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: رأي النبي ﷺ وأنا أحرّك شفّتي. فقال لي: «بأي شيء تُحرّك شفّتيك يا أبا أمامة؟» فقلت: أذكر الله يا رسول الله: فقال: «ألا أخبرك بأكثر وأفضل من ذكرك بالليل والنهار؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: «سبحان الله عدد ما خلّق، سبحان الله ملء ما خلق، سبحان الله عدد ما في الأرض والسماء، سبحان الله ملء ما في الأرض والسماء، سبحان الله عدد ما أحصى كتابه، سبحان الله ملء ما أحصى كتابه، سبحان الله عدد كل شيء، سبحان الله ملء كل شيء، الحمد لله عدد ما خلق، الحمد لله ملء ما خلق، الحمد لله عدد ما في الأرض والسماء، والحمد لله ملء ما في الأرض والسماء، والحمد لله عدد ما أحصى كتابه، والحمد لله ملء كل شيء، والحمد لله ملء كل شيء»^(٣).

(١) «فيض القدير» (٢/٤٥٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٦).

(٣) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٥/٢٤٩) وهو حديث صحيح كما قال محقق كتاب «فضائل الأعمال» للحافظ ضياء الدين المقدسي، حديث رقم (١١٦).

١٠١- قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مئة مرة:

• عن أم هانئ رضي الله عنها قالت: مرَّ بي رسول الله ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله قد كبرت وضعفت أو كما قالت، فمُرني بعمل أعمله وأنا جالسة. قال: «سَبِّحِي الله مئة تسبيحة، فإنها تعدل لك مئة رقبة تعتقن منها من ولد إسماعيل، واحمدي الله مئة تحميدة؛ فإنها تعدل لك مئة فرس مسرجة ملجمة تحملين عليها في سبيل الله، وكبّري الله مئة تكبيرة؛ فإنها تعدل لك مئة بدنه مقلّدة متقبلة، وهلّلي الله مئة تهليلة. قال أبو خلف: أحسبه قال: تملأ ما بين السماء والأرض، ولا يرفع لك إلا أن يأتي بمثل ما أتيت»^(١).

١٠٢- قول: سبحان الله العظيم وبحمده:

• عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غُرسَ له بها نخلة في الجنة»^(٢).

❦ أخى: إن اليوم والليلة ألف وأربعمئة وأربعون دقيقة كل دقيقة تغرس بها خمسين نخلة في الجنة بمعدل ثلاثة آلاف نخلة في الجنة في الساعة. وقد قال رسول الله ﷺ: «ما من شجرة في الجنة إلا وساقها من خالص الذهب»^(٣). وذهب الجنة بينه وبين ذهب الدنيا أبعد ممّا بين السماء والأرض. فالدنيا بذهبها وكنوزها ولآئها لا تساوي عند الله جناح بعوضه،

(١) حسن: رواه أحمد، وابن ماجه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٧٨).

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وابن حبان، والحاكم في «المستدرک»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (ص ٦٤)، و«صحيح الجامع» (٦٤٢٩).

(٣) جزء من حديث صحيح.

وساق النخيل يغرس في أرض من فضة ومسك وزعفران، ويُسقى من أنهار خمر ولبن وعسل وماء غير آسن، وثمره ألين من الزبد، وأحلى مذاقاً من العسل، ليس فيه عجم^(١).

فانظر كم ضيّعت من هذا الخير الوفير.

أخي: لله در القائل: «الوقت سيفٌ، فإن قطعته وإلا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل». يا لها من كلمتين ما أنفعهما وأجمعهما وأدلهما على علو همة قائلهما ويقظته^(٢).

ساعة لربك فيها فلاحك وسعدك وأنسك:

□ قال الشيخ أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي المعروف بابن شيخ الحزاميين: «وليكن لنا جميعاً بين الليل والنهار ساعة نخلو فيها برئنا جل اسمه، وتعالى قدسه، نجتمع بين يديه في تلك الساعة همومنا ونطرح أشغال الدنيا من قلوبنا، ونزهّد فيها سوى الله ساعة من نهار، فبذلك يعرف الإنسان حاله مع ربه، فمن كان له مع ربه حال تحرّكت في تلك الساعات عزائمه، وابتهجت بالمحبة والتعظيم سرائره، وطارت إلى العلى زفراته وكوامنه، وتلك الساعة أنموذج لحالة العبد في قبره حين خلوه عن ماله وحبّه، فمن لم يخل قلبه ساعة من نهار لما تحوشته من الهموم الدنيوية وذوات الأصار، فليعلم أنه ليس له ثم رابطة علوية، ولا نصيب من المحبة ولا المحبوبة، فليبك على نفسه، ولا يرضى منها إلاّ بنصيب من قُرب ربه وأنسه، فإذا حصلت لله تلك الساعة أمكن إيقاع الصلوات

(١) العجم: النوى.

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٢٨) وما بعدها.



الخمس على نمطها من الحضور والخشوع والهيبه للرب العظيم في السجود والركوع. فلا ينبغي لنا أن نبخل على أنفسنا في اليوم والليله من أربع وعشرين ساعة بساعة واحدة لله الواحد القهار، نعبده فيها حق عبادته، ثم نجتهد على إيقاع الفرائض على ذلك النهج في رعايته، وذلك طريق لنا جميعاً إن شاء الله تعالى إلى النفوذ^(١).

١٠٣- صلاة ركعتين لا سهو فيهما :

• عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى ركعتين، لا يسهو فيهما، غفر الله له ما تقدم من ذنبه»^(٢).

١٠٤- من تعار من الليل فدعا استجيب له ، أو صلى قبلت صلاته :

• عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعار^(٣) من الليل، فقال حين يستيقظ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا استجيب له، فإن قام فتوضأ ثم صلى قبلت صلاته»^(٤).

(١) انظر إلى كتاب «العقود الدرّية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية» (ص ١٩٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم عن زيد بن خالد الجهني، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (ص ٨٤٠)، و«صحيح الجامع» (٦١٦٥).

(٣) أي: استيقظ.

(٤) رواه أحمد، والبخاري، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

١٠٥- التسوُّك لقيام الليل:

• عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قام أحدكم يُصلي من الليل فليستك، فإن أحدكم إذا قرأ في صلاته وَضَعَ مَلَكٌ فاه على فيه، ولا يخرج من فيه شيء إِلَّا دَخَلَ فَمَ الْمَلِكِ»^(١).

• وعن ابن شهاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قام الرجل يتوضأ ليلاً أو نهاراً فأحسن الوضوء واستنَّ، ثم قام فصلّى فأطاف به الملكُ ودنا منه، حتى يضع فاه على فيه، فما يقرأ إِلَّا في فيه، وإذا لم يستن أطاف به، ولا يضع فاه على فيه»^(٢). فاجتماع شرف القرآن وشرف الصلاة والسواك يزيد من دُئو الأرواح القدسية، وفي هذا من الفيوض الرحانية ما فيه، والذي نفسي بيده لو لم يكن في فضيلة السواك ليلاً إِلَّا هذا الحديث لكفى.

١٠٦- الفضل العظيم للفاتحة أم الكتاب والقرآن العظيم:

• عن أبي سعيد بن المعلى قال: مرَّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي فعدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيت، فقال: ما منعك أن تأتي، فقلت: كنتُ أصلي، فقال: ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ثم قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد» فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكرته، فقال: «الحمد لله

(١) صحيح: أخرجه تمام في «فوائده»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، والضياء المقدسي في «المختارة»، ورواه عنه أبو نعيم، وقال المناوي: قال ابن دقيق العيد: رواه ثقات، وصححه السيوطي والألباني انظر «صحيح الجامع» (٧٣٣).

(٢) صحيح: أخرجه محمد بن نصر في «الصلاة» عن ابن شهاب مرسلاً. وقال الألباني في «صحيح الجامع» (ص ٧٣٦) صحيح، وأخرج نحوه البيهقي في «السنن»، والضياء في «المختارة» عن علي.



رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتِيَتْهُ»^(١).

□ قال الحافظ في «الفتح»: «والمراد بالعظيم عظيم القدر بالشواب المرتَّب على قراءتها وإن كان غيرها أطول منها» اهـ.

وأنت في دقيقة واحدة تستطيع أن تقرأ الفاتحة خمس مرَّات سرِّداً، وعدد حروفها هو (١٢٢) حرف، فإذا قرأتها مرة واحدة يُكْتَبَ لك $122 \times 10 = 1220$ حسنة؛ لأن لكل حرف (١٠) حسنة، فإذا قرأتها خمس مرات فيكتب في صحيفة أعمالك (٦١٠ حسنة)، فإذا قرأتها دقيقة واحدة في اليوم لمدة عامٍ كامل تغنم:

$$5 \times 122 \times 10 \times 30 \times 12 = 2196000 \text{ حسنة.}$$

وأخيراً أكرِّر على مسامعك ثوابين مرَّابك:

ثواب قراءة القرآن كاملاً في خمسة عشر ثمانية من الزمان:

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في كل ليلة؟»، فشَقَّ ذلك عليهم وقالوا: أيُّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن»^(٢).

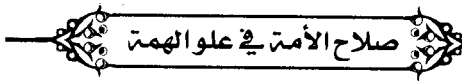
□ قال الحافظ في «الفتح»^(٣): «حمله بعض العلماء على ظاهره، فقال: هي ثلث باعتبار معاني القرآن؛ لأنه أحكام، وأخبار، وتوحيد، وقد

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (٤٧٠٣) (٨/٣٨١) - التفسير - سورة الحج،

(٥٠٠٦) - كتاب فضائل القرآن - فضل فاتحة الكتاب.

(٢) رواه البخاري (١٥٠١٥)، ومسلم (٨١١).

(٣) «فتح الباري» (٨/٦٨٧).



اشتملت هي على القسم الثالث فكانت ثلثاً بهذا الاعتبار.. إلخ.
ثم ذكر بعده وقال: «ومنهم من حمل المثلية على تحصيل الثواب فقال:
معنى كونها ثلث القرآن، أن ثواب قراءتها يحصل للقارئ مثل ثواب من
قرأ ثلث القرآن».

□ ثم قال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «ولأبي عبيد من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:
«من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ (١) فكانها قرأ ثلث القرآن».
وإذا حُمِلَ على ظاهره فهل ذلك الثلث من القرآن مُعَيَّن، أو لأيّ ثلث
فرض منه؟ فيه نظر، ويلزم على الثاني أن من قرأها ثلاثاً كان كمن قرأ
ختمة (١).

□ وقال المباركفوري في «تحفة الأحوذى»: «قلت: حديث أبي أيوب
المذكور في الباب بلفظ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ (١) فقد قرأ ثلث
القرآن»، صريح في أن قراءة سورة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ (١) تعدل قراءة
ثلث القرآن، وكذا حديث أبي هريرة الآتي في هذا الباب يدلان على ذلك.
• وقوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ (١) تعدل ثلث القرآن» يُحْمَلُ
على أن قراءتها تعدل قراءة ثلث القرآن، ويحصل لقارئها ثواب قراءة ثلث
القرآن، فالروايات بعضها يُفَسَّرُ بعضاً. هذا ما عندي والله أعلم» (٢) اهـ.

ففي ضوء شرح الحديث المذكور، ونظراً على قول الحافظ المذكور
وهو: «ويلزم على الثاني أن من قرأها ثلاثاً كان كمن قرأ ختمة كاملة إذا
كان صحيحاً، فمشجعاً للقارئ الكريم على قراءة سورة الإخلاص أي

(١) «فتح الباري» (٨/ ٦٧٩).

(٢) «تحفة الأحوذى» (٨/ ١٦٨).

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ نقول: نستطيع بسهولة قراءتها (١٢) مرة في دقيقة واحدة، وتكون قد حصلت على أجر أربع ختمات من القرآن الكريم بإذن الله ورحمته سبحانه.

والحديث المذكور هو الدليل من السُّنَّة على صحَّة هذا الأسلوب من الطرح في الدقيقة الواحدة ثواب أربع ختمات من القرآن الكريم في الشهر $30 \times 4 = 120$ ختمة

في السنة $120 \times 12 = 1440$ ختمة

فانظر كم حرفاً في القرآن الكريم، وكم حرفاً في (١٤٤٠) ختمة للقرآن في دقيقة يوماً على مدار السنة.

❦ **أخي الحبيب:** تستطيع أن تصلي على نبيك ﷺ (٥٠) مرة في الدقيقة فيصلي عليك الله بها (٥٠٠) مرة؛ لأن الصلاة الواحدة بعشر أمثالها.

• وقد مرَّ حديث رسول الله ﷺ: «من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشر صلوات، وحطَّ عنه بها عشر سيئات، ورفع بها عشر درجات»^(١).

ففي دقيقة واحدة يومياً لمدة عام كامل يكون في ميزان حسناتك:

$500 \times 30 \times 12 = 180000$ حسنة ورحمة، ومثلها نحو سيئات،

ومثلها رفع درجات.

□ قال سهل بن عبد الله التستري: «الصلاة على محمد ﷺ أفضل

(١) صحيح: أخرجه أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم في «المستدرک» وصحَّحه وأقرَّه الذهبي.

العبادات؛ لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته، ثم أمر بها المؤمنين، وسائر العبادات ليست كذلك» اهـ.

يا عالي الهمة.. هذا كنز الكنوز أرفقه إليك فلا تنسني يوم القيامة لكرامة الدال:

• عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة»^(١).

تقول: «اللهم اغفر للمؤمنين، والمؤمنات» في اثنتين، وعدد المسلمين مليار ونصف، وأنت تقولها في الدقيقة الواحدة ثلاثين مرة، وفي السنة $7200 = 12 \times 30 \times 30$ مرة والحسنة بعشر أمثالها أي في السنة $7200 = 10 \times 10 \times 72000 = 1.5 \times 72000$ مليار حسنة.

﴿أي أنك لو قلت: «اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات» لمدة دقيقة واحدة في اليوم لمدة سنة واحدة تكسب (١٠٨) ألف مليار حسنة.. فيا لله يا لله يا لله من نفس عليّة ذات همّة ثانية تفعل في اليوم بل أضعافه وتواظب على ذلك طيلة عمرها

لَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا نَسْتَلِذُّ بِهِ ذِكْرًا وَإِنْ كُنْتُ لَا أَحْصِي ثَنَاءً وَلَا شُكْرًا
لَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا طَيِّبًا يَمْلَأُ السَّمَاءَ وَأَقْطَارَهَا وَالْأَرْضَ وَالْبَرَّ وَالْبَحْرَ
لَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا سَرْمَدِيًّا مُبَارَكًا يَقِلُّ مِدَادُ الْبَحْرِ عَنْ كُنْهِهِ حَضْرًا

(١) مرّ تخرجه وقد حسّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٢٦)، وقال الهيثمي: إسناده جيد كما في «فيض القدير» و«مجمع الزوائد» (٢١٠/١٠).

لك الحمد تعظيماً لوجهك قائماً
 بحقك في السراء مني وفي الضراً
 لك الحمد مقروناً بشكرك دائماً
 لك الحمد في الأولى لك الحمد في الأخرى
 لك الحمد موصولاً بغير نهاية
 وأنت إلهي ما أحق وما أحرى
 لك الحمد يا ذا الكبرياء مَنْ يَكُنْ
 بحمدك ذا شُكرٍ فَقَدْ أحرز الشُّكراً
 لك الحمد حمداً لا يُعَدُّ لحاصرٍ
 أُنْجِصِي الحصى والنبت والرمل والقفرا
 لك الحمد أضعافاً مضاعفةً على
 لطائف ما أحلى لدينا وما أُمرا
 لك الحمد ما أولاك بالحمد والثنا
 على نعم أتبعتهما نعماً تثرى
 لك الحمد حمداً أنت وفقتنا له
 وعلمتنا من حمدك النظم والشرا
 لك الحمد حمداً نبتغيه وسيلةً
 إليك لتجديد اللطائف والبُشرى

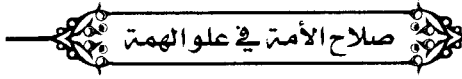
الهمة العلية العالية :

«إِنَّ الهمةَ العاليةَ خصلة شريفة، وخلة حميدة، وخلق رفيع، وأدب سام، تتعشقها قلوب الكرم، وتهفو إلى اكتسابها نفوس الأبطال.
 والناس إنما تعلو أقدارهم، وترتفع منازلهم بحسب أنصبتهم من علو الهمة، وشرف المقصد.

فمن علت همته اتصف بكل جميل، ومن دنت همته اتصف بكل خلق رذيل.

فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها.

والهمة العالية لا تزال بصاحبها، تضربه بسياط اللوم والتأنيب،



وتزجره عن مواقف الذل واكتساب الرذائل، وحرمان الفضائل - حتى ترفعه من أدنى دركات الحضيض إلى أعلى مقامات المجد والسؤدد.

والهمة العالية - أيضًا - ترفع القوم من سقوط، فتبدلهم بالخمول نباهة، وبالخطاة رفعة، وبالاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية؛ ذلك أن علو الهمة يستلزم الجد والإباء، ونشدان المعالي، وتطلاب الكمال، والترفع عن الدنايا، والصغائر، ومحقرات الأمور^(١).

أصناف الناس في شأن الهمة:

«الناس في شأن الهمة على أربعة أصناف:

أحدهم: رجل يشعر بأن فيه الكفاية لعظائم الأمور، ويجعل هذه العظائم همته.

وهذا من يسمى «عظيم الهمة»، أو «عظيم النفس»، أو «كبير الهمة»، أو «كبير النفس».

ثانيهم: رجل فيه الكفاية لعظائم الأمور، ولكنه يبخس نفسه، فيضع همه في سفاسف الأمور، وصغائرهما.

وهذا من يسمى «صغير الهمة»، أو «صغير النفس».

ثالثهم: رجل لا يكفي لعظائم الأمور، ويحس بأنه لا يستطيعها، وأنه لم يخلق لأمثالها، فيجعل همته وسعيه على قدر استعدادة.

وهذا الرجل بصير بنفسه، متواضع في سيرته.

رابعهم: لا يكفي للعظائم، ولكنه يتظاهر بأنه قوي عليها، مخلوق لأن

(١) «الهمة العالية مَعْقَاتُهَا ومَقَوْمَاتُهَا» لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص ٧) - دار القاسم.

يحمل أثقالها.

وهذا من يسمونه «فخوراً»، وإن شئت فسمه «متعظاً»..^(١)

اختلاف الهمم^(٢):

يختلف الناس في هممهم، وأمانيتهم، وشهواتهم؛ فمنهم من تسمو همته، ومنهم من تدنو، ومنهم من هو بين بين.

□ وفيما يلي أمثلة لذلك^(٣):

١ - اجتمع عبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعبد الملك بن مروان بفناء الكعبة؛ فقال لهم مصعب: تمنوا، فقالوا: ابدأ أنت، فقال: ولاية العراق، وتزوج سكينه ابنة الحسين، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله، فنال ذلك، وأصدق كل واحدة خمسمئة ألف درهم، وجهزها بمثلها.

وتمنى عروة بن الزبير الفقه، وأن يحمل عنه الحديث، فنال ذلك.

وتمنى عبد الملك الخلافة فنالها.

وتمنى عبد الله بن عمر الجنة!

(١) «رسائل الإصلاح للعامة» للشيخ محمد الخضر حسين (٢/ ٨٧).

(٢) نقلاً عن «الهمة العالية» لمحمد بن إبراهيم (ص ١٩ - ٢١).

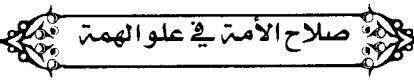
(٣) انظر: «وفيات الأعيان وأنباء وأبناء الزمان» لابن خلكان (٣/ ٢٩ - ٣٠)، وانظر

«عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٢٥٨ - ٢٥٩)، و«بهجة المجالس وأنس المجالس»

لابن عبد البر (١/ ١١٧ - ١٢٧)، وانظر «المحاسن والمساوي» لإبراهيم البيهقي

(ص ٣٠٦ - ٣٠٩)، وكتاب «الفاضل في صفة الأدب الكامل» لأبي الطيب محمد

والوشاء (ص ١٩٢ - ١٩٥)، تحقيق د. يحيى الجبوري.



٢- قال قتيبة بن مسلم لحصين بن المنذر: «ما السرور؟ قال: امرأة حسناء، ودار قوراء»^(١)، وفرس مرتبط بالفناء.

٣- قيل لضرار بن الحسين: ما السرور؟ قال: لواء منشور، وجلس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير.

٤- وقيل لعبد الملك بن الأهم: ما السرور؟ فقال: رفع الأولياء، وحطُّ الأعداء، وطول البقاء مع القدرة والنهء.

٥- وقال آخر:

أطيبُ الطيباتِ قتلُ الأعادي واختيالٌ على متون الجياد

وأبادِ جـوتهن كـريماً إن عند الكريم تزكو الأيادي

٦- قيل لبعض الحكماء: تمنّ، قال: محادثة الإخوان، وكفافاً من عيش يسد خلّتي، ويستر عورتي، والانتقال من ظل إلى ظل.

٧- وقيل لآخر: ما بقي من ملاذك؟ قال: مناقلة الإخوان الحديث على التلاع العُفر في الليالي القُمر.

٨- قيل لامرئ القيس: ما أطيب العيش؟ قال: بيضاء رعبوبة^(٢)، بالطيب مشبوبة^(٣)، بالشحم مكروبة^(٤).

٩- وقيل لطرفة مثل ذلك فقال: «مطعم شهّي، وملبس دفيّ، ومركب وطيّ».

(١) دار قوراء: واسعة الجوف.

(٢) الرعبوبة: البيضاء الحسنة الرطبة.

(٣) مشبوبة: قد ظهر حسننها وأشرق لونها.

(٤) المكروبة: المفتولة المشبوبة.

١٠- وقيل للأعشى مثل ذلك فقال: «صهباء صافية، تزرعها ساقية، من صوب غادية».

١١- وقيل للملك: ما السرور؟ فقال: «حَمِي ترعاه، وعدو تنعاه».

١٢- وقيل لراهب: ما السرور؟ قال: «الأمان من الوجل إذا انقضت مدة الأجل».

١٣- وقيل لمظلوم: ما السرور؟ قال: «كفاية ووطن، وسلامة وسكن».

١٤- وقيل لمغنٍّ: ما السرور؟ قال: «مجلس يَقْلُ هذرُه، وعودٌ يصفو وتره، وعقول تفهم ما أقول».

١٥- وقيل لورّاق: ما السرور؟ قال: «جلودٌ وأوراق، وحبر بَرّاق، وقلم مشاق».

١٦- وقيل لبعضهم: ما السرور؟ قال: بنون أغیظ بهم عداقي، ولا تُقرع معهم صفاتي»^(١).

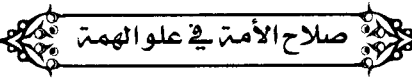
١٧- وقيل لفتاة: ما السرور؟ قالت: «زوجٌ يملأ قلبي جَلاّلاً، وعيني جَماّلاً، وفنائي جَماّلاً».

١٨- وقيل لطفيّلي: ما السرور؟ فقال: «ندامى تسكن صدورهم، وتغلي قدورهم، ولا تغلق دورهم».

١٩- وقيل لقانص: ما السرور؟ فقال: «قوس مأطورة»^(٢)، وشرعة

(١) الصفاة: الصخرة الملساء، يعني لا يمسنى أحد بسوء.

(٢) مأطورة: من أطرت القوس إذا حنيتها فهي محنية.



مشزورة^(١)، ونبال مطروقة^(٢)».

٢٠- وقيل لمحبوس: ما السرور؟ فقال: «فكأك يفجأ، وإطلاق لا يرزأ».

٢١- قال محمد الخضر حسين:

ولولا ارتياحي للنضال عن الهدى لفتشتُ عن وادٍ أعيش به وحدي^(٣)

٢٢- وقال:

أنالولا همةً تحدو إلى خدمة الإسلام أثرتُ الحماما^(٤)

وهكذا تتفاوت الهمم، وتختلف الشهوات والأمانى؛ فكُلُّ يعمل على شاكلته، ولكُلُّ وجهةً هو مؤلِّها» اهـ.

علو الهمة:

«هذا الخلق يسمو بصاحبه» فيتوجه به إلى النهايات من معالي الأمور؛ فهو الذي ينهض بالضعيف يُضطهد أو يزدري فإذا هو عزيز كريم.

وهو الذي يرفع القوم من سقوط، ويبدلهم بالخمول نباهة، وبالاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية.

هذا الخلق هو الذي يحمي الجماعة من أن تتملق خصمها، وتسلب يدها من أسباب نجاتها ومنعتها.

(١) شرعة مشزورة: الوتر مشدود على القوس.

(٢) نبال مطروقة: ذات طُرّة وهيئة حسنة.

(٣) «خواطر الحياة» لمحمد الخضر حسين (ص ٩١).

(٤) «خواطر الحياة» (ص ٢٣٣).

أما صغير الهمة، فإنه يبصر بخصومه في قوة وسطوة، فيذوب أمامهم رهبة، ويطرق إليهم رأسه حطة، ثم لا يلبث أن يسير في ریحهم، ويسابق إلى حيث تنحط أهواؤهم»^(١).

نعم يورد هذا الخلق صاحبه موارد التعب والعناء، ولكن التعب في سبيل الوصول إلى النهاية من معالي الأمور يشبه الدواء المر، فيسيغه المريض كما يسيغ الشراب عذباً بارداً..

تلذله المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذله الغرام^(٢)

«فالمكارم منوطة بالمكاره، والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة، فلا تُقطع مسافتها إلا في سفينة الجد والاجتهاد»^(٣).

فعظيم الهمة قد يشتد حرصه على الشرف، حتى لا يكاد يشعر بما يلاقه في سبيله من أنكد وأكدار.

بل ربما كان الشرف الذي يركب له الأخطار والشدائد أعزّ وقعاً، وأدلّ على عظم همته من الشرف الذي يناله بيسر وسهولة..

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبّب^(٤)

ولذلك فعظيم الهمة يستخف بالمرتبة السفلى، أو المرتبة الوسطى من معالي الأمور؛ فلا يهدأ له بال، ولا يقر له قرار إلا حين يضع نفسه في

(١) «رسائل الإصلاح» (٢/ ٨٨).

(٢) «ديوان المتنبي» (٤/ ٧٥).

(٣) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ١٠٩).

(٤) «ديوان البارودي» (ص ٤٣).

أسمى منزلة، وأقصى غاية^(١).

□ وإلى هذا المعنى يشير قول نابغة بني جعدة:

بلغنا السما مجداً وجوداً وسؤداً
وإننا لنرجو فوق ذلك مظهراً^(٢)

□ وكما قال الآخر:

وما أنا راضٍ أنني واطئ الثرى
ولي همة لا ترتضي الأفق مقعداً

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه؛ فلو كان يتصور للآدمي صعود السموات لرأيت من أقبح النقص رضاه بالأرض، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض، غير إنه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن. والسيرة الجميلة عند الحكماء خروج النفس إلى غاية كما لها الممكن لها في العلم والعمل»^(٣).

ثم إن عظيم الهمة لا يشغل باله أمر صغير، ولا يقلق فكره عمل يسير، بل يقوم بجلال الأعمال التي تتعصى على أولى القوة من الرجال، ومع ذلك فلا يتبرم، ولا يقلق، ولا يشكو كثرة الأعباء. له قلب لا يتعب فلا يبلغ منزلة إلا ابتداء التعب؛ لِيُبْلَغَ منزلة أعلى منها، وله فكرٌ كلما جهد فأدرك حقيقة كانت الحقيقة أن يجهد فيدرك غيرها^(٤).
على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم

(١) انظر: «رسائل الإصلاح» (٢/ ٨٦-٨٨).

(٢) «جهرة أشعار العرب» لأبي زيد القرشي (ص ٣٦٤).

(٣) «صيد الخاطر» (٢/ ٢٢٤).

(٤) انظر: «وحي القلم» (٢/ ٨٣).

وتكبر في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظماء

ولقد جَرَتْ سنة الله في خلقه ألا ينهض بأصر المقاصد الجليلة، ويرمي إلى الغايات البعيدة - غيرُ النفوس التي عظم حجمها، وكبرت هممها، فلم تتعلق إرادتها بسفاسف الآمال، ولا محقرات الأعمال^(١).

فإذا كان هذا الخلق الرفيع لا يقع إلا على معالي الأمور - فلا عظمة لهمم قوم يبتغون النهاية في زينة هذه الحياة، ويغرقون في التمتع بملذاتها المادية، كهؤلاء الذين يسرفون في الملابس المنمقة، والمطعومات الفاخرة، والمباني الشاهقة؛ فإن ذلك لا يعد فيما تتسابق فيه الهمم من مالي الأمور^(٢). وإن كان في لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمده والحمايل^(٣)

□ فإذا كان علو الهمة بتلك المكانة السامقة، والمنزلة العالية - فما أجدر العاقل اللبيب أن يعلي من همته، وأن يرفع من قدره، وأن يتطلب المعالي، ويسعى لها سعيها، وألا يقصر عنها، ولا يقعد دون نيلها؛ فإن علو الهمة مما يفتخر به، وسفول الهمة مما يذم ويعاب به، قال الشوكاني:

كُنْ نَاسِكًا تَبْتَلا أَوْ رَائِيًّا تَسْتَبْجَلَا
وَعَدُّ عَنْ مُحَمَّـقٍ قَصْرٌ عَنْ أَنْ يَنْبَلَا
يَصْدَهُ قُـعُودُهُ وَعَجْزُهُ عَنْ الْعَلَا^(٤)

(١) انظر: «حياة الأمة» (ص ٥٢٩)، و«السعادة العظمى» (ص ٢٠٩).

(٢) انظر: «رسائل الإصلاح» (٢/ ٨٦).

(٣) «شرح ديوان سقط الزند» للمعري (ص ٥٧).

(٤) ديوان الشوكاني «أسلاك الجواهر» (ص ٣٠٢).

□ وهذا أبو فراس الحمداني يمدح نفسه، ويفتخر بعلو همته فيقول:

إني أبيت قليل النوم أرَّقني قلب تصارع فيه الهمُّ والهمُّ^(١)

□ وهذا أبو الطيب المتنبي يفخر بعلو همته، واشتغاله بالجد والتشمير

فيقول:

لولا العلاء لم تحبَّ بي ما أجوب بها وجناء حرقٌ ولا جرداءٌ قيدودٌ

وكان أطيَّب من سيفي مضاجعةً أشباه رونقة الغيد الأماليدُ

لم يتركِ الدهرُ من قلبي ولا كبدي شيئاً تُتمِّمه عينٌ ولا جيدُ^(٢)

□ وهذا علي بن المقرب العيوني يقول:

يُسَيِّعُنِي قَلْبٌ إِلَى الْعِزِّ تَائِقٌ ونفسٌ إلى العليا شديدٌ نزوعُها

أَشْرَفُهَا مَنْ أَنْ يَكُونَ إِبَاؤُهَا لواجب حقٍّ أو لِضَمٍّ خنوعُها

وما أنا في السراء يوماً فروحُها ولا أنا في الضراء يوماً جزوعُها

سأنزله الملوحد أو رأس هضبةٍ من العزِّ يعيي كلَّ راقٍ طلوعُها

وما طلبني العلياء إرث كلالٍ فيَقْصُرُ خطوي دونها فأسوعُها^(٣)

عليَّ لها سعي الكرام فإن أمتُ فوهايها سلايها ونزوعُها^(٤)

(١) ديوان أبي فراس الحمداني (ص ١٥٦).

(٢) ديوان «المتنبي» (ص ٣٩، ٤٠).

(٣) أسوعها: أهملها.

(٤) علي بن المقرب العيوني حياته - شعره، (ص ٢٢٧).

□ وهذا البارودي يقول:

سواي بتحنان الأغاريد يطرب
وما أنا ممن تأسر الخمر لبّه
ولكن أخوهم إذا ما ترجحت
نفى النوم عن عينيه نفس أبيّة^(١)
وغيري باللذات يلهو ويعجب
ويملك سمعيه اليراع المثقّب
به سورة نحو العلا راح يدأب
لها بين أطراف الأسنة مطلب^(١)

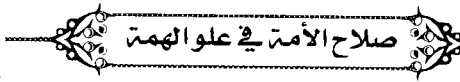
□ قال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ حاثًا على علو الهمة: «وينبغي لمن كان صادق الرغبة، قوي الفهم، ثاقب النظر، عزيز النفس، شهم الطبع، عالي الهمة، سامي الغريزة - ألا يرضى لنفسه بالدون، ولا يقنع بما دون الغاية، ولا يقعد عن الجد والاجتهاد المبلغين له إلى أعلا ما يراد، وأرفع ما يستفاد؛ فإن النفوس الأبية، والهمم العلية لا ترضى بما دون الغاية في المطالب الدنيوية من جاه، أو مال، أو رئاسة، أو صناعة، أو حرفة، حتى قال قائلهم المتنبي:

إذا غامرت في شرف مـروم
فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير
كطعم الموت في أمر عظيم

□ وقال آخر مشيرًا إلى هذا المعنى:

إذا ما لم تكن ملكًا مطاعًا
فكن عبدًا لخالفه مطيعًا
وإن لم تملك الدنيا جميعًا
كما تهواه فاتركها جميعًا
هما شيئان من مُلكٍ ونُسكٍ
ينيلان الفتى شرفًا منيعًا

(١) ديوان البارودي (ص ٤٢).



□ وقال آخر:

فإما مكان يضرب النجم دونه سرادقه أو بأكيا لحمام
وقد ورد هذا المعنى كثيرا في النظم والنثر، وهو المطلب الذي تنشط
إليه الهمم الشريفة، وتقبله النفوس العلية»^(١).. اهـ^(٢).

الهمة العالية وشرف المقصد:

□ قال الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد^(٣): «الهمة العالية خلق سام،
ومسلك رائع، تحبه النفوس، وتهفو إليه القلوب.
وأجمل ما في ذلك الخلق وأروع ما فيه - ما كان مقترنا بشرف المقصد،
ونبل الهدف والغاية.

فالناس تتفاوت هممهم رفعة وضعة، وتختلف مشاربهم علواً وحطة.
ولكن الشأن كل الشأن فيمن جمع إلى علو الهمة شرف المقصد، ونبل
الهدف والغاية.

وإذا علمت نفس طاب عنصرها، وشرف وجدانها أن مطمح الهمم
إنها هي غاية وحياة وراء حياتها الطبيعية - لم تقف بسعيها عند حد غذاء
يقوتها، وكساء يسترها، ومسكن تأوي إليه.
بل لا تستفيق جهدها، ولا يطمئن بها قرارها إلا إذا بلغت مجداً يصعد
بها إلى أن تختلط بكواكب الجوزاء^(٤).

(١) «أدب الطلب ومنتهى الأرب» (ص ١٢٧).

(٢) «الهمة العالية» (ص ١٠٧-١١٢).

(٣) المصدر السابق (ص ١١٣-١١٧).

(٤) «الحرية في الإسلام» (ص ١٠).

ولا ريب أن أعلا المطالب، وأشرف المكاسب - هو ما كان لله وفي سبيل الله - تبارك وتعالى -.

ولذلك «لما كان مجد الآخرة أعظم المجد - كان ابتغاؤه أعظم الغايات، وكان هو الهمم الأكبر للمؤمنين الصادقين ذوي الهمم العالية، والنفوس الكبيرة الزكية.

أما الدنيا فإنها في نظرهم - مهما بلغت أمجادها - قليلة القيمة في جنب الآخرة؛ لذلك فهم يحاولون أن يتغوا فيما آتاهم الله الدار الآخرة، مع أنهم لا ينسون نصيبهم من الدنيا»^(١).

فاستصغار متاع الدنيا، وتحقير لذائذها في نفوس الناس يرفعهم عن الاستغراق فيها، ويكبر بهمهمهم عن جعلها قبله يولون وجوههم شطرها حيثما كانوا.

وقد بين لنا العيان أن الإنسان متى عكف على ملاذ الدنيا، ولم يضح فؤاده عن اللهو بزخارفها - ماتت عواطفه، ونسي أو تناسى من أين تؤتى المكارم والمروءة، ودخل مع الأنعام في حياتها السافلة.

ولا يعني التزهيد والخط من متاع الحياة الدنيا ترغيب الإنسان ليعيش مجانباً للزينة، ميت الإرادة عن التعلق بشهواته على الإطلاق.

وإنما يقصد من ذلك حِكْمٌ أخرى، ومنها تعديل الأنفس الشاردة، وانتزاع ما في طبيعتها من الشره والطمع؛ لئلا يخرجها عن قصد السبيل، ويتطوَّحاً بها في الاكتساب إلى طرق غير لائقة^(٢).

(١) «الأخلاق الإسلامية» (٢/ ٤٧٥).

(٢) انظر: «الحرية في الإسلام» (ص ٣٨).

ولذلك فالمؤمنون الصادقون لا يندسون أنفسهم بالدناءات ومحقرات الأمور، ولا يريقون ماء وجوههم في سبيل الحصول على عرض من أعراض الدنيا، ولا يفنون أعمارهم ويبددون طاقتهم بحثاً عن منصب أو جاه أو مُلك، يكون غايتهم، ومنتهى طموحهم.

بل يرون أن الآخرة هي أولى بأن تُبتغى، ويُسعى لها سعيها؛ فنعيمها خير وأبقى، وملكها ملك لا ينقطع ولا يبلى.

* قال تعالى مخبراً عن بعض ما يناله أهل الجنة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان].

فما ظنك بنعيم وملك وصفه الله بأنه كبير؟!.

• وقال النبي ﷺ: «المَوْضِعُ سَوِطٌ أَحَدَكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلِغَدْوَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٍ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١).

ولهذا فكلما علت همة الإنسان كانت مطالبه أسمى، وصغرت في عينه المطالب الدنيا، فلا يَكْلَفُ بها كثيراً، ولا يتتبعها إلا بمقدار الحاجات^(٢).

□ قيل للعتابي: «فلان بعيد الهمة، قال: إذا ليس له غاية دون الجنة»^(٣).

□ قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله ﷻ في دعاء إلى حق، وفي حماية الحريم، وفي رفع هوان لم يوجهه عليك خالقك -تعالى- وفي نصر مظلوم.

(١) رواه البخاري (١٧٠/٧).

(٢) انظر: «الأخلاق الإسلامية» (٢/٤٧٥).

(٣) «عيون الأخبار» (١/٢٣٣).



وباذل نفسه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصي^(١).

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ: «وجدت العمل للآخرة سالماً من كل عيب، خالصاً من كل كدر، موثقاً إلى طرد الهم على الحقيقة.

ووجدت العامل للآخرة إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يُسر؛ إذ رجاءه في عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب، وزايد في الغرض الذي إياه يقصد.

ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم؛ إذ ليس مؤاخذاً بذلك؛ فهو غير مؤثر في ما يطلب.

ورأيته إن قصد بالأذى سُراً، وإن نكبت نكبة سر، وإن تعب فيما سلك سُراً؛ فهو سرور أبداً، وغيره بخلاف ذلك أبداً^(٢).

□ وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ بعد أن رغب في علو الهمة، وبين فضل الهمة العالية، وأن النفوس الأبية تسعى إليها وتتطلبها في شتى المطالب الدنيوية - قال: «وإذا كان هذا شأنهم في الأمور الدنيوية التي هي سريعة الزوال، قريبة الاضمحلال - فكيف لا يكون ذلك من مطالب المتوجهين إلى ما هو أشرف مطلباً، وأعظم مكسباً، وأرفع مراداً، وأجل خطراً، وأعظم قدراً، وأعود نفعاً، وأتم فائدة؟

* وهي المطالب الدينية مع كون العلم أعلاها، وأولاها بكل فضيلة، وأجلها وأكملها في حصول المقصود، وهو الخير الأخروي؛ فإن الله سبحانه قد قرن العلماء في كتابه بنفسه وملائكته فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا

(١) «الأخلاق والسير» (ص ١٦).

(٢) «الأخلاق والسير» (ص ١٥، ١٦).

إِلَهَ الْآهَوِ وَالْمَلَكَةِ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴿[آل عمران].

* وقصر الخشية له التي هي سبب الفوز لديه عليهم فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

* وأخبر عباده بأنه يرفع علماء أمته درجات، فقال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

• وأخبرنا رسول الله ﷺ: «بأن العلماء ورثة الأنبياء»^(١).

(١) هذا جزء من حديث رواه أبو الدرداء رضي الله عنه ولفظ الحديث: «وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة».

والحديث أورده الإمام البخاري في «صحيحه» في باب العلم قبل القول والعمل (٢٥/١)، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٩٦/٥)، وأبو داود (٥٧/٤) (٣٦٤١)، والترمذي (٤٨/٥) (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٨١/١) (٢٢٣)، والدارمي في «سننه» (٢٠٨/١)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٨٩/١) (٨٨) وغيرهم كثير. من طريق عاصم بن رجاء بن حيوة، عن داود بن جميل، عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء الحديث بطوله.

وقد اختلف الرواة في إسناده، ومن ثم اختلف في درجته.

فنقل ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٣٤/١) عن حمزة الكناني أنه حسنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٩/١) (٨٨)، وحسنه في «صحيح الترغيب والترهيب» (ص ٣٣) (٦٨).

وقال الدارقطني في «العلل» (٢١٦/٦) (٦١٧٣) وعاصم بن رجاء ومن فوقه إلى أبي الدرداء ضعفاء، ولا يثبت.

وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٤/٢) (٢٥٩٩): داود بن جميل حديثه مضطرب، وضعفه الأزدي، وداود لا يعرف كشيخه، وقال الدارقطني في «العلل»: عاصم ومن فوقه ضعفاء، ولا يصح. اهـ.

وناهيك بهذه المزية الجليلة، والمنقبة النبيلة.

فأكرم بنفسٍ تطلب غاية المطالب في أشرف المكاسب، وأحبب برجل أراد من الفضائل ما لا تدانيه فضيلة، ولا تساميه منقبة، ولا تقاربه مكرمة^(١).

عود على بدء:

كيف تعلو الهمم؟:

نُجَمِّلُ هنا ما سبق ذكره من أسباب علو الهمة ونضيف إليه المزيد:

- ١ - الإخلاص.
- ٢ - الصدق.
- ٣ - البصيرة.
- ٤ - العلم.
- ٥ - اليقظة.
- ٦ - الخروج عن المألوف والعادات.
- ٧ - التفكير.
- ٨ - الاجتهاد في حصر الذهن، وتركيز الفكر في معالي الأمور.
- ٩ - القصد وصدق الإرادة.
- ١٠ - العزم على الكمالات.
- ١١ - الغيرة.

(١) «أدب الطلب» (ص ١٢٨).

- ١٢- الدعاء.
- ١٣- التنافس والتنازع بين الشَّخص وهَمَّته.
- ١٤- الحرص على الوقت.
- ١٥- اعتراف المرء بقصور هَمَّته.
- ١٦- مجاهدة النفس.
- ١٧- قصر الأمل، وكثرة ذِكْرِ الموتِ.
- ١٨- الزُّهْدُ في الدنيا.
- ١٩- معرفة قيمة النَّفسِ.
- ٢٠- الابتعاد عن كُلِّ ما شأنه الهبوط بالهَمَّةِ.
- ٢١- مراجعة جَدُولِ العمل اليومي، والعزلة قليلاً، ومراعاةِ الأوَلوياتِ الأهمَّ فالمهمِّ.
- ٢٢- كمالُ العقلِ.
- ٢٣- التحوُّل عن البيئَةِ المُثبِّطة.
- ٢٤- مصاحبة أصحاب الهممِ العالية.
- ٢٥- قراءة تراجمٍ وسِيَرِ سَلَفِ الأُمَّة.
- ٢٦- الصَّبْرُ والمثابرة.
- ٢٧- الخُلُوة.
- ٢٨- واقعُ المسلمين المُتَرِّ والمُؤَلِّمِ يصنَعُ الرجالَ ويُعَلِّي الهممَ.
- ٢٩- سَبْرُ فقهٍ الابتلاءِ والدَّعْوَةِ.
- ٣٠- كَوْنُ الداعية على عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، وفهمه لمعنى

التوكل.

٣١- وصايا الربانيين ونصائحهم.

٣٢- ذكر الجنة والنار دوامًا وجعلها نصب العين يدفع إلى علو

الهمم.

٣٣- جعل الهمم همًا واحدًا وجعله في الله تعالى.

ونضيف الآتي:

٣٤- العفو والصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان:

العفو إسقاط حقك جودًا، وكرمًا، وإحسانًا، وهو لا يزيد المرء إلا عزًا كما أخبر الصادق الأمين عليه السلام، وإنما يتفاضل الناس في السماحة والسيادة على قدر تدبرهم للعواقب، وإسكاتهم الغضب إذا طغى.

□ قال عمر بن عبد العزيز رحمته الله: «أحبُّ الأمور إلى الله ثلاثة: العفو عند المقدرة، والقصد في الجدة، والرِّفق في العبد»^(١).

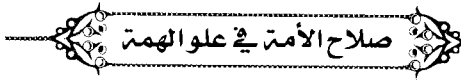
□ وعن داود بن الزبرقان قال: «لا ينبل الرَّجل حتى يكون فيه خصلتان: العِفَّة عَمَّا في أيدي الناس، والتجاوز عنهم»^(٢).

٣٥- التواضع:

والتواضع دليل على كِبَر النَّفْسِ، وعلو الهممة، وهو - في الوقت نفسه - سبيل لاكتساب المعالي، والتَّرقِّي في الكمالات، وينأى بصاحبه عن الاستنكاف من قبول الحق والأخذ به.

(١) «روضة العقلاء» (ص ١٣١).

(٢) المصدر السابق (ص ١٣١).



□ قال عبد الله بن المبارك: «كان يُقال: الغني في النفس، والكرم في التقوى، والشرف في التواضع»^(١).

□ والله در القائل:

وأحسنُ أخلاقِ الفتى وأتمُّها تواضعُهُ للنَّاسِ وهو رفيعُ

٣٦- الإنصاف:

وهو خلق رفيع، وأدب سام، يَدُلُّ على كرم النَّفس، وصفاء السريرة، والبعد عن الأثرة. وهو من الحِصَالِ التي لا تنبتُ إلَّا في نفسٍ زكيةٍ كريمةٍ نبتت في بيئةٍ صالحةٍ^(٢).

فبالإنصاف يقوى الفهم، ويتسع الأفق، ويعلو القدر، ويسود الود وتقوى الصَّلات^(٣).

قَدِمَ ابن عمر رضي الله عنهما مكة، فسألوه، فقال: «أجتمعون لي يا أهل مكة المسائل وفيكم ابن رباح - يعني: عطاء» .

ومن الإنصاف الذي يدل على الرسوخ في الفضيلة أن يتحدث الرجل عن خصمه، فينسب إليه ما يعرفه من فضل.

أنشد رجل في مجلس أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قول

الشاعر:

فتى كان يدينه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويبيعه الفقرُ

(١) «غذاء الألباب» (٢/ ٢٣٢).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٣٣).

(٣) «الهمة العالية» (ص ١٨٧).

(٤) «صفة الصفوة» (٢/ ١٤٣).

كَأَنَّ الثَّرِيَّاءَ عُلِّقَتْ بِجَبِينِهِ وَفِي خَدِهِ الشُّعْرَى وَفِي الْآخِرِ الْبَدْرُ

□ فلما سمعها علي عليه السلام قال: «هذا طلحة بن عبيد الله، وكان السيف ليلتئذٍ مجردًا بينهما!»^(١).

□ ونقرأ في تاريخ العلامة محمد بن عبد السلام: «أن ابن الصباغ اعترض عليه في أربع عشرة مسألة، فلم يدافع عن واحدة منها، بل أقر بالخطأ فيها جميعاً»^(٢).

٣٧- التفائل:

المتفائل واسع النظرة، فسيح الصدر، عالي الهمة، موفور النشاط يطرح الكسل، ويقبل على الجد والعمل.

بخلاف المتشائم؛ فهو فاطر الهمة، ثقیل الظل، متبلد كسول، لا تحدوه غاية، ولا يدفعه هدف، بل يعيش في عالم الأحلام والأوهام والخيال، ويشعر دائماً بالخيبة والخذلان، ويسيء ظنه بالآخرين، ولا ينظر إليهم إلا بعين الشك والريبة؛ فهو مغلق النفس، ضيق الصدر، يتقيد حسداً، ويحترق غيرةً وكمدًا؛ لعجزه عن الرقي في المكارم، ولقلة بحثه عن العوامل التي سببت له هذا المزاج الأسود، ولقلة سعيه في علاج ذلك المرض العضال، الذي قعد به وحط من قدره، فعاش على هامش الحياة صغير الشأن، حامل الذكر^(٣).

(١) «رسائل الإصلاح» (١/٤٣).

(٢) «رسائل الإصلاح» (١/٤٢).

(٣) انظر: «تكوين الشخصية» للدكتور نوري الحافظ (ص ١١٤ - ١١٦)، و«الهمة العالية» (ص ٢١١).

٣٨- القدرة على السرور والابتهاج بالحياة:

الرجل المبتهج بالحياة يزيده ابتهاجه قوة إلى قوّته، فيكون أقدر على الجِدِّ والنشاط وحسن الإنتاج ومقابلة الصّعاب من الرّجل المنقبض الصدر، الممتلئ بالهمّ والغمّ.

والمستبشرون بالاسمون للحياة خير الناس صحّة، وأقدرهم على الجد والنشاط، وأقربهم إلى النجاح والفلاح، وأكثرهم سعادة واستفادة مما في أيديهم ولو كان قليلاً.

فالابتسام للحياة يضيئها، ويعين على احتمال متاعبها؛ فالعمل الشاق العسير يخف حمله بالنفس المشرقة المتفائلة.

فمن النعم الكبرى على الإنسان أن يعتاد النظر إلى الجانب المشرق في الحياة لا المظلم منها، وأن يُمنح القدرة على السرور يستمتع به إن كانت أسبابه موجودة، ويوجد لها قدر المستطاع إن لم تكن.

ويخطئ كثير من الناس حين يظن أن أسباب السرور كلها في الظروف الخارجية، فيشترط؛ لئسّر مآلاً، وبنين، وصحّة ونحو ذلك؛ فالسرور يعتمد على النفس أكثر مما يعتمد على الظروف الخارجية، وفي الناس من يشقى في النعيم، وفيهم من ينعم في الشقاء، وفيهم لا يستطيع التبسم بكل ماله، وفيهم من يتبسم دائماً من أعماقه بأتفه ثمن وبلا ثمن.

وهناك نفوس تستطيع أن تخلق من كل شيء شقاءً ونكدًا، وهناك نفوس تستطيع أن تخلق من كل شيء سعادة وأنساً.

وهناك مَنْ ينغص على نفسه وعلى من حوله من كلمة يسمعها، أو يؤولها تأويلاً سيئاً، أو من عمل تافه حدث له أو منه، أو من ربح خسرته،

أو من ربح كان ينتظره فلم يحدث، أو نحو ذلك، فتراه بعد ذلك وقد اسودَّت الدنيا في نظره، ثم هو يسوِّدُها على من حوله.

فالمبتسمون للحياة ليسوا أسعد الناس حالاً لأنفسهم ومن حولهم فحسب، بل هم مع ذلك أقدر على العمل، وأكثر احتمالاً للمسؤولية، وأصلح لمواجهة الشدائد ومعالجة الصعاب، وأجدر بالإتيان بعظائم الأمور التي تنفعهم وتنفع الناس.

□ ولذا إذا أراد الأدباء أن يبالغوا في الثناء على الممدوح، ويبينوا عظم همته، واستسهاله للصعاب - وصفوه بأنه يتسم في أحلك المواقف وأشدّها خطراً، قال أبو الطيب المتنبي يمدح سيف الدولة:

تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلَمَى هَزِيمَةً وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ وَثَغْرَكَ بِاسْمُ (١)

فذو النفس الباسمة المشرقة يرى الصعاب، فيلذه التغلب عليها، ينظرها فيبسم، ويعالجها فيبسم، وينجح فيبسم، ويخفق فيبسم.

وذو النفس العابسة المتجهمة لا يرى صعباً فيوجدّها، وإذا رآها أكبرها، واستصغر همته بجانبها، فهرب منها، وطفق يسب الدهر، ويعاتب القدر، ويتعلل بـ «لو وإذا وإن» (٢).

ومما يعين على السرور والابتهاج بالحياة أسباب كثيرة ومن أهمها وأبرزها:

١ - الإقبال على الله ﷻ: فهو أصل السعادة، وينبوعها الأعظم، وكل سرور بدون الإقبال على الله لا يعد سروراً في الحقيقة؛ فمن أراد السرور

(١) ديوان «المتنبي بشرح العكبري» (٢/ ٣٨٧).

(٢) «الهمّة العالية» (ص ٢١٢، ٢١٣).

فليقبل على الله بكُلِّيَّته، حُبًّا وذكْرًا، وإنابة، وخوفًا، ورجاءً، ونحو ذلك من سائر العبوديات.

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه، ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه - إِلَّا اللهُ - سبحانه - ومن عبد غير الله - وإن أحبه، وحصل به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة - فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم»^(١).

وقال: «فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، وهي لا صلاح لها إِلَّا بِإِلْهَها الله الذي لا إله إِلَّا هو، فلا تطمئن في الدنيا إِلَّا بذكره وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إِلَّا بِلِقَائِهِ.

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت، وفي بعض الأحوال، وتارة يكون ذلك الذي يتنعم به والتذ غير منعم ولا ملتذ له، بل قد يؤذيه اتصاله به، ووجوده عنده.

أما إله الحق فلا بد له منه في كل حال وكل وقت، وأينما كان فهو معه»^(٢).

□ ومنها طهارة القلب وسلامة القصد، ومنها قوة الاحتمال والتمرين، ومحاربة اليأس.

□ ومنها طَرْدُ الْهَمِّ ومحاربة الكآبة، والقناعة.

□ ومنها التضحية وهي أفق واسع، وظلال وارف، تنعم فيه النفس

(١) «مجموع الفتاوى» (١/٢٤).

(٢) المصدر السابق (١/٢٤ - ٢٥).

بجمال السعة وبُعد المدى.

□ ومنها سعة الأفق، قال الرافعي رَحِمَهُ اللهُ: «إذا استقبلت العالم بالنفس الواسعة رأيت حقائق السرور تزيد وتتسع، وحقائق الهموم تصغر وتضيق، وأدركت أن دنياك إن ضاقت فأنت الضيق لا هي»^(١).

□ قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

سهرت أعينٌ ونامت عيونٌ في أمور تكون أو لا تكون
فادري الهمَّ ما استطعت عن النفس فس فحملاتك الهموم جنون
إن ربًّا كفاك بالأمس ما كا ن سيكفيك في غد ما يكون^(٢)

٣٩- التجافي عن الترف والنعيم:

• عن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكَ وَالتَّعَنُّمُ، فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لِيَسُوا بِالتَّعَنُّمِينَ»^(٣).

«ذلك أن القلب في الترف، والإغراق في النعيم - يعد من أعظم الشواغل والقواطع، التي تشغل صاحبها عن تَطَلُّبِ الكمال، وتَقَطُّعُ عليه طريق المجد والسؤدد، ثم إن الإغراق في النعيم يثبت في نفس صاحبه أخلاقاً مردولة من نحو الجبن، وقلة الأمانة، والإمساك في وجوه الخير.

(١) «وحي القلم» (١/ ٥٠٠).

(٢) «ديوان الشافعي» (ص ٨٥).

(٣) حسن: رواه أحمد، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وحسنه الألباني في «الصحيح» رقم (٣٥٣)، و«صحيح الجامع» رقم (٢٦٦٨).

وذلك مما يورثه ضعف الهمة، وحقارة الشأن.
فإذا تجافى المرء عن الترف والنعيم - دل ذلك على كبر نفسه، وعلو همته.

□ وذلك التجافي مما يعين على بلوغ العز، واكتساب الهمة العالية، كما قيل:

فمن هجر اللذات نال المني ومن أكبَّ على اللذات عضَّ على اليد^(١)

ولهذا جرت العادة أن من ينغمس في النعيم، ويغرق في الترف - يكون أشد الناس كراهة للحروب، وأقلهم نبوغاً في العلم، وأبعدهم عن معاناة المشاق، وتحمل المصاعب.

«فإذا أنبت بيئات الترف فتى يزدرى النعيم والزينة، ويطمح بهمته إلى الشرف الصميم - كان فضله في الشجاعة أظهر، وإقدامه أدعى للإعجاب؛ ولذلك ترى الأدباء إذا أرادوا أن يجعلوا إعجابك بشجاعة الممدوح أبلغ - أشاروا إلى أن النعمة والزينة لا تذهب برجولته، ولا تقعد به عن حماية الشرف والكرامة»^(٢).

□ قال الحطيئة يمدح سعيد بن العاص:

إذا همَّ بالأعداء لم تثنِ عزمَه كعابٍ عليها لؤلؤ وشنوف^(٣)

(١) «الآداب الشرعية» (٣/ ٥٨٨).

(٢) «رسائل الإصلاح» (١/ ٨١).

(٣) الشنوف: مفردها الشنف، وهو القرط الأعلى.

حَصَان^(١) لها في البيت زِيٌّ وبهجةٌ ومشيٌّ كما تمشي القطاة كتيْفٌ^(٢)^(٣)

ولقد حدثنا التاريخ عن أفراد نشؤوا في بيوت توافرت فيها وسائل الرفاهية، ومع ذلك لم يكونوا بحال المترفين السادرين.

بل نشأوا وقد عظم في نفوسهم الطموح إلى معالي الأمور، فاحتقروا ما يسمى لذاتٍ حسيةً، وإن كانت طوع أيمانهم وشمائلهم، وأقبلوا على العلم أو على ضرب آخر من ضروب السيادة فأدركوا فيه غاية قصوى.

فهذا عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ قد نشأ في بيت إمارة، وحينما تولى الخلافة استطاع بما وهبه الله من الحكمة والروية، ألا يقيم للزينة والأطعمة الفاخرة وزناً، فعاش عيشة الكفاف، وخزائن الأرض طوع يمينه.

ولما تجافى عن الترف والنعيم مع أنه يعيش في بحبوحته - دل ذلك على سمو نفسه، وعلو همته؛ فلذلك كان صيته أذكر، وشأنه أشهر، وتوفي وقد أبقى سيرةً غراء، وذكرًا أطيب من ريح المسك^(٤).

وقل مثل ذلك في شأن ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز الذي كملت مروءته، وتناهى سؤدده، فكان مضرب المثل في العلم، والحلم،

(١) الحصان: العفيفة.

(٢) قوله: كما تمشي القطاة كتيْفٌ، يعني أنها قليلة المشي، مقارنة الخطو، ليست كمن اعتاد السير، والمعنى أن الممدوح إذا أراد الغزو فنهته امرأته عن ذلك مضى إلى سبيله ولم يلتفت إلى نهيبها.

(٣) انظر «ديوان الخطيئة» (ص ٢٥٦-٢٥٨).

(٤) انظر: «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم نسخها وصححها وعلق عليها أحمد عبيد.

والشجاعة، والزهد، والعبادة مع أنه توفي وهو في التاسعة عشرة من عمره رَحِمَهُ اللهُ.

ولم يكن ذلك ليتم - بعد توفيق الله - إلا لأنه تجافى عن الترف والنعيم، وآثر الجد ومعالى الأمور^(١).

وكذلك الحال بالنسبة للإمام أبي محمد بن حزم رَحِمَهُ اللهُ فلقد نشأ في بيت وزارة في الأندلس، وتولى هو نفسه الوزارة، ثم نفّض يده، وانقطع للازدياد من العلم، حتى ارتقى إلى طبقة كبار العلماء بنظر مستقل، وقلم بارع^(٢).

٤٠- التوازن، وإعطاء كل ذي حق حقه:

فهذا مما يعين على أداء المسؤولية، وتحمل التبعة، وأداء الحقوق، والسلامة من اللوم والتعذال.

وهذا بدوره يعين الإنسان على تحقيق ما يرومه ويصبو إليه، كما أنه دليل على حزمه، ووعيه، وحكمته؛ ففوة الشخصية تبدو في القدرة على الموازنة بين الحقوق، والملائمة بين الواجبات، التي قد تتعارض أمام بعض الناس.

فالعاقل الحازم يستطيع أن يعطي كل ذي حق حقه دون أن يلحق جوراً بأحد^(٣).

(١) انظر: «سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز» لابن رجب الحنبلي تحقيق عفت وصال حمزة.

(٢) «محاضرات إسلامية» (ص ١٤٤).

(٣) «الهمة العالية» (ص ١٥٧).

٤١- استشارة العقلاء العاملين، والحذر من استشارة الحمقى والقاعدين:

* فالشورى أمرها عظيم، وشأنها جليل؛ فلقد نَوَّه الله ﷻ بذكرها، وأثنى على المؤمنين بقيامهم بها، فقال ﷻ: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَنْتَهُمُ﴾ [الشورى: ٣٨].

* وأمر نبيه ﷺ مع وفور عقله، وسداد رأيه، وعلو مكانته - أن يأخذ بالشورى، قال ﷻ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ولهذا كان ﷺ كثير المشاورة لأصحابه.

فالعقل اللبيب، ذو الهمة العالية، والنظرة الثاقبة - لا يستبد برأيه، ولا يعتد بنفسه بحيث يقوده ذلك إلى ترك المشورة.

بل إنه يشاور أهل العقول السليمة، والتجارب السالفة، ممن يجمعون بين العلم والعمل، والنصح والديانة.

فبالشورى تُشحذ القريحة، وتتلاقح الأفكار، وتنمى المعارف، وتُقوى الأواصر بين المشاورين.

والشورى تنفي عن العبد الغرور، والإعجاب بالنفس، وتفتح له الأبواب، وتزيل عنه الحيرة والاضطراب.

□ قال أمير المؤمنين علي ﷺ: «نعم المؤازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد»^(١).

□ وقال بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
برأي نصيح أو نصيحة حازم

(١) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص ٣٠٠).

ولا تجعل الشورى عليك غصاصةً فإن الخوا في قوة للقوادم^(١)

أما ترك الشورى، أو استشارة الحمقى - فدليل الغرور، وآية الجهل. وكذلك استشارة القاعدين؛ فإنها تورث الكسل والتخذيل؛ لأن القاعد لن يتصور الأمور كما ينبغي، ولن يجد في نفسه انبعاثاً للمعالي؛ ففاقد الشيء لا يعطيه.

٤٢- قبول النقد البناء، والنصيحة الهادفة:

فالنقد، والنصيحة إذا صدرتا من ناقد بصير، أو ناصح أمين، أراد بنقده البناء، ورام بنصحه الخير - كان جديرًا بمن توجه إليه ذلك أن يأخذ به، ويشرح صدره له، وأن يتقبله بقبول حسن؛ فذلك مما يدل على كرم النفس، وسعة الأفق، وعلو الشأن.

وهو في الوقت نفسه سبب لعلو الهمة، وارتفاع المنزلة، وتناهي الفضل، والترقي في مراتب الكمال.

بل ينبغي لمتطلب الكمال - خصوصًا إذا كان رأسًا مطاعًا - أن يتقدم إلى خواصه وثقاته، ومن كان يسكن إلى عقله من خدمة وحاشيته - فيأمرهم أن يتفقدوا عيوبه ونقائصه، ويطلعوه عليها، ويعلموه بها؛ فهذا مما يبعثه إلى التنزه من العيوب، والتطهر من دنسها، وهذا مما يؤهله لعليا المراتب، والسير قدمًا في درجها.

□ قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ لمولاه مزاحم: «إن الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيني على نفسي؛ فإن سمعت مني كلمة

(١) «ديوان بشار بن برد».

ترباً بي عنها، أو أفعالاً لا تحبها - فعِظني عنده، وانهي عنه» (١)؛

٤٣- انتهاز الفرص:

فإن الفرص ثمينة، وإن فواتها لا يعوض، وإن انتهازها لدليل الخزم، وعنوان العقل والجد.

«ومهما حفظ الإنسان من الحكم، وكانت رغباته صالحة - فلن تتحسن أخلاقه وتقوى إلا إذا انتهاز كل فرصة تسنح له» (٢).

□ قال البارودي:

بادر الفرصة واحذر فوتها فبلوغ العز في نيل الفرص

فابتدر مسعاك واعلم أن من بادر الصيد مع الفجر قنص (٣)

٤٤- توطئ النفس على الاعتدال حال السراء والضراء:

يَحْسُنُ بِذِي الْهَمَّةِ وَالشَّرَفِ الرَّفِيعِ أَنْ يُوَطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى لُزُومِ الْإِعْتِدَالِ
حَالِ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ؛ فَذَلِكَ مِنْ مَقَوِّمَاتِ الْهَمَّةِ الْعَالِيَةِ، وَمِنْ مَظَاهِرِ
الْمَرْوَةِ الصَّادِقَةِ.

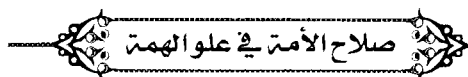
❖ قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾

[الحديد].

(١) «أقوال مأثورة» (ص ٤٥٥).

(٢) «الأخلاق» (ص ٣٨).

(٣) «ديوان البارودي» (ص ٢٩٣)، وانظر: «الهمة العالية» (ص ٢٤١).



* وقال **عَلَاءٌ**: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة].

□ قال ابن الجوزي **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «فمن تَلَمَّحَ بحر الدنيا، وعلم كيف تُتلقى الأمواج، وكيف يصبر على مدافعة الأيام - لم يستهول نزول بلاء، ولم يفرح بعاجل رخاء»^(١).

□ قال أحدهم:

تجري الأمور على حكم القضاء طيِّ الحوادث محبوبٌ ومكروهٌ
وربما سرنى ما كنت أحذره وربما ساءني ما كنت أرجوه^(٢)

□ وقال الآخر:

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب^(٣)

ومن هنا فذو الهمة والمروءة لا تبطره النعمة، ولا تُقنطُهُ المصيبة، ولا تطيش به الولاية في زهو، ولا ينزل به العزل في حسرة، ولا يحمله الغنى على الأشر والبطر، ولا ينحط به الفقر إلى الذلة والخنوع.

□ قال كعب بن زهير **رَحِمَهُ اللَّهُ** في قصيدته المشهورة - البردة -:

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا^(٤)

(١) «صيد الخاطر» (٢/ ٢٤٣).

(٢) «جَنَّةُ الرضا في التسليم لما قَدَّرَ الله وقضى» للغرناطي - تحقيق د. صلاح جرار (٣/ ٥٢).

(٣)

(٤) «الأصمعيات» (ص ١٨٤).

«ديوان كعب بن زهير»، صنعه السكري، شرح ودراسة د. مفيد قميحة (ص ١١٦).



فهو يمدح الصحابة ~~عليهم السلام~~ بأنهم لا يفرحون من نيلهم عدوًّا؛ فتلك عادتهم، ولا يجزعون إذا نالهم العدو؛ لأن عادتهم الصبر والثبات.

□ وقال عبد العزيز بن زرارة الكلابي:

كلا بلوتُ فلا النعماء تُبطرنِي ولا تَحْشَعُتُ من لأوائها جزعا^(١)

□ وقال البعيث:

ولست بمفراح إذا الدهرُ سَرَّني ولا جازعٍ من صرفه المتقلب^(٢)

□ وقال ذو الخرق الطُّهوي:

فيئي إليك فإننا معشر صُبرٌ في الجذب لا خِفَّةٌ فينا ولا نزق^(٣)

□ وقال علي بن المقرب العيوني:

فما أنا في السراء يومًا فرُّوحُها ولا أنا في الضراء يومًا جزوُّعُها^(٤)

□ وقال سالم بن قتيبة: «ما تكبر في ولايته إلَّا من كُبرت عنه، ولا تواضع لها إلَّا من كبر عنها»^(٥).

□ وقال الإمام ابن قتيبة: «وفي كتاب كليله ودمنة: ذو العقل لا تبطره المنزلة والسخيف يبطره أدنى منزلة، كالحشيش يحركه أضعف ريح والعز، وكالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت به الريح»^(٦).

(١) «مع الرعيل الأول» لمحب الدين الخطيب (ص ١٧٤).

(٢) «عيون الأخبار» (١/ ٢٧٦)، وينسب البيت لتأبط شرًّا، انظر «عيون الأخبار» (١/ ٢٨١).

(٣) «الأصمعيات» (ص ١٢٤).

(٤) «علي بن المقرئ العيوني حياته - شعره» (ص ٢٢٧).

(٥) «بهجة المجالس» (٢/ ٤٤٧).

(٦) «عيون الأخبار» (١/ ٢٨١).

□ وقال أحد الحكماء:

خلقنا لا أرضى اختلافهما تيه الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطرًا وإذا افتقرت فته على الدهر
واصبر فلست بواجِدٍ خُلُقًا أدنى إلى فرج من الصبر^(١)

□ فإذا لزم المرء هذه الطريقة؛ فلم يخف عند السراء، ولم يتضعع حال الضراء - فأحر به أن يعلو قدره، ويتناهى سؤدده، وتكمل مروءته. ولهذا لو أمعنت النظر في تراجم العظماء من الرجال - لألفت أن لهذه الخصلة نصيبًا وافرًا من سيرهم، ولأدركت أنها كانت سببًا كبيرًا في نبوغهم والمعيتهم.

فهم يتلقون المسارَّ والمحابَّ بقبول لها، وشكر لله عليها، واستعمال لها بما ينفع، واستعانة بها على أمور الدين والدنيا؛ فيحصل لهم من جرّاء الفرح بها، ورجاء خيرها وبركاتها - أمور عظيمة، تتضاعف بها مسراتهم. ويتلقون المكاره، والمضار، والهموم، والغموم - بالرضا، والشجاعة، والاحتساب، وبالمقاومة لما يمكنهم مقاومته، وتخفيف ما يستطاع تخفيفه، وبالصبر الجميل لما لا بد لهم منه؛ فيحصل لهم من آثار المكاره - من الرضا، والصبر، والاحتساب، والتجارب، وصلابة العود - أمورٌ عظيمة تضمحل معها المكاره، وتحل محلها المسار، والآمال الطيبة^(٢).

□ فهذا عمر بن عبد العزيز - على سبيل المثال - كان يقول: «أصبحت

(١) «عيون الأخبار» (١/٢٣٨).

(٢) انظر: «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة» (ص ٩ - ١٤).



والسراء والضراء مطيَّتان على بابي، لا أبالي على أيهما ركبت»^(١).

□ ويقول: «أصبحت ومالي سرور إلا في انتظار مواقع القدر؛ إن تكن السراء فعندي الشكر، أو تكن الضراء فعندي الصبر»^(٢).

□ ولقد صدق رَحْمَةُ اللَّهِ فِيْهَا يقول؛ فقد لزم الاعتدال في جميع الأحوال، فكان شاكراً في سرائه، متجعلاً متجلداً في ضرائه، متواضعاً في سيرته، شيمته الحلم، وزينته الصفح والعفو، لم تطش به الولاية في زهو، ولم تنزل به المصائب في حسرة.

□ روي أن رجلاً نال من عمر بن عبد العزيز فلم يجبه، ف قيل له: «ما يمنعك منه؟ قال: التَّقِيُّ مُلْجَمٌ»^(٣).

□ وعن عبد الملك، أو قيس بن عبد الملك قال: «قام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته، وعرض له رجل بيده طومار»^(٤)، فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يحبس دونه، فرماه بالطومار، فالتفت عمر، فوقع في وجهه، فشجّه.

قال: فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو قائم في الشمس، فلم يبرح حتى قرأ الطومار، وأمر له بحاجته، وخلي سبيله»^(٥).

(١) «الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز الخليفة الخائف الخاشع» لعمر بن محمد الخضر المعروف بالملاء، تحقيق د. محمد صدقي البورنو (٤٣٦/٢).

(٢) «الكتاب الجامع» (٤٣٣ - ٤٣٣/٢) وانظر «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم (ص ٩٧)، و«جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/٢٨٧).

(٣) «الكتاب الجامع» (٤٢٤/٢).

(٤) الطومار: صحيفة مطوية.

(٥) «الكتاب الجامع» (٤٢٣ - ٤٢٤/٢).

□ وروى أن عمر عبد العزيز لما ولي الخلافة خرج ليلة في السحر إلى المسجد ومعه حَرَسِيٌّ، فمرَّ برجل نائم على الطريق، فعثر به فقال له: أجبني أنت؟ فقال عمر: لا. فهَمَّ الحرسِيُّ به، فقال له عمر: مه؛ فإنه سألني أجبني أنت؟ فقلت: لا»^(١).

□ وعن الربيع بن سبرة قال: «لما هلك عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، وسهل بن عبد العزيز ومزاحم مولى عمر في أيام متتابعة - دخلتُ على عمر فقلت: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين، والله ما رأيت مثل ابنك ابناً، ولا مثل أخيك أخاً، ولا مثل مولاك مولى قط، فطأطأ عمر رأسه.

فقال لي رجل معي على الوسادة: لقد هيَّجَتْ عليه، قال: ثم رفع عمر رأسه، وقال: كيف قلت الآن يا ربيع؟ فأعدتُ عليه ما قلت أولاً. فقال: لا والذي قضى عليهم بالموت ما أحب شيئاً من ذلك لم يكن»^(٢).

□ وروى أن عمر بن عبد العزيز لما دفن ولده عبد الملك وعاد - مرَّ بقوم يرمون، فلما رأوه أمسكوا، فقال: ارموا ووقف، فرمى أحد الراميين فأخرج^(٣)، فقال له عمر: أخرجت فقصر، وقال للآخر: ارم، فرمى فقصر، فقال له عمر: قصرت؛ فبلغ.

(١) «الكاتب الجامع» (٢/ ٤٣٦-٤٣٧).

(٢) «الكاتب الجامع» (٢/ ٤٢٧).

(٣) أخرج: أي كانت الرمية أبعد من الهدف، والتقصير بخلافه.

فقال له: مسلمة: يا أمير المؤمنين، أَتَفَرَّغُ قلبك إلى ما تفرغت له، وإنما نَفَضْتَ يدك الآن من تراب قبر ابنك ولم تصل إلى منزلك؟
فقال له عمر: يا مسلمة، إنما الجزع قبل المصيبة، فإذا وقعت المصيبة فآله عما نزل بك»^(١).

□ وروي أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه بعض الناس يعزيه بموت ابنه عبد الملك، فقال عمر لكاتبه: «اكتب، ودقق القلم: أما بعد، فإن هذا أمر كنا وطيناً نفوسنا عليه، فإذا نزل بنا لم نكرهه والسلام»^(٢).

□ وعن الضحاك بن عثمان قال: «لما انصرف عمر بن عبد العزيز عن قبر سليمان بن عبد الملك - صُفِّتْ له مراكب سليمان، فقال: ولولا التقى ثم النهى خشية الردى لعاصيت في حبِّ الصبا كل زاجر قضي ما قضي فيما قضي ثم لا يرى له صبوة أخرى الليالي الغواير ثم قال: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، قدموا إليّ بغلتي»^(٣).

ومن أكابر السادات، ومن ذوي الفضل والمروءات قيس بن عاصم المنقري؛ فلقد كان ذا نفس مطمئنة لا تزعزعها الأعاصير؛ فلقد وطَّنها على كل وارد يرد.

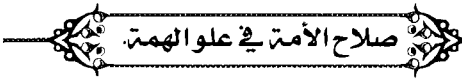
«قيل للأحنف بن قيس: ما أحلمك!

قال: تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقري؛ بينا هو قاعد بفنائها،

(١) «الكتاب الجامع» (٢/ ٤٣٧).

(٢) «الكتاب الجامع» (٢/ ٤٣٧ - ٤٣٨).

(٣) «صفة الصفوة» (٢/ ٨٠).



مُحْتَبٌ ^(١) بكسائه أتنه جماعة فيهم مقتول، ومكتوف، وقيل له: هذا ابنك قتله ابن أخيك!

□ فوالله ما حلَّ حُبوتَه حتى فرغ من كلامه، ثم التفت إلى ابن له في المجلس، فقال له: قُمْ فأطلق عن ابن عمك، ووار أخاك، واحمل إلى أمه مئة من الإبل؛ فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

إني امرؤ لا شائن حسيبي دنسٌ يُغيِّرُه ولا أفنٌ ^(٢)
من منقرٍ في بيت مكرمةٍ والغصن يَنْبُتُ حوله الغصنُ
خُطباءُ حين يقول قائلهم بيض الوجوه أعفَّة لسنُ
لا يَفْظَنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فُظُنُ

ثم أقبل على القاتل فقال: قتلت قرابتك، وقطعت رحمك، وأقللت عددك، لا يبعد الله غيرك» ^(٣).

وإذا أردت أعظم مثال للاعتدال حال السراء والضراء - فالق نظرة عجلي على سيرة نبينا محمد ﷺ.

وأقرب شاهد على ذلك أنه لم يَحْدُ عن سبيل الزهد في هذه الحياة قيد أنملة؛ فَعَيْشُهُ يوم كان يتعبد في غار حراء كعيشه يوم أظَلَّت رايته البلاد

(١) محتب: من الاحتباء، وهو أن يضم الإنسان رجله إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره، ويشده عليها، وقد يكون الاحتباء بالعمامة أو اليدين عوض الثوب، ويقال: احتبى الرجل وإذا جمع ظهره وساقيه بثوبه، أو يديه، أو عمامته. انظر: «لسان العرب» (١٤/١٦١).

(٢) أفن: الأفن النقص.

(٣) «عيون الأخبار» (١/٢٨٦).



العربية، وأطلت على ممالك قيصر من ناحية تبوك.

وكذلك مضائه في سبيل الدعوة، فقد قام يدعو إلى الهدى ودين الحق، ويلقى من الطعام والطغاة أذى كثيرًا، فيضرب عنه صفحًا أو عفواً، ويمضي في سبيله لا يأخذه يأس، ولا يقعد به ملل، ولا يثنيه جزع.

وقد ظهر دين الله، وعلت كلمته بهذا العزم الذي تحمد النار ولا يحمد، وينام المشرفي ولا ينام^(١).

□ قال ابن القيم: «إذا جئت إلى النبي ﷺ وتأملت سيرته مع قومه، وصبره في الله، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله، وتلون الأحوال عليه، من سلم، وخوف، وغنى، وفقر، وأمن، وإقامة في وطنه، وظعن عنه، وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول، والفعل، والسحر، والكذب، والافتراء عليه، والبهتان، وهو مع ذلك صابر على أمر الله، يدعو إلى الله. فلم يؤذ نبي ما أؤذي، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يعط نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلةً، وأعظمهم عنده جاهًا، وأسمعهم عنده شفاعةً، وكانت تلك المحن والابتلاء عَيْنَ كرامته، وهي ممَّا زاده الله به شرفًا وفضلًا، وساقه بها إلى أعلى المقامات»^(٢).

٤٥- طبيعة الإنسان^(٣):

فهناك من الناس من جُبل على علو الهمة، فلا يرضى بالدون، ولا يقنع

(١) انظر: «العظمة» (ص ٢٥-٢٦)، «الاستقامة» لابن تيمية (٢/ ٢٧١-٢٨١).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٠١)، و«الهمة العالية» (ص ٢٢٣-٢٣٠).

(٣) هذه الأسباب مأخوذة من كتاب «الهمة العالية» لمحمد بن إبراهيم الحمد.

بالقليل، ولا يلتفت إلى الصغائر، ولا تغدو بِلْبِهِ الدنيا ومحقرات الأمور.
ولهذا قيل: «ذو الهمة إن حُطَّ فَنَفْسُهُ تَأْبَى إِلَّا عُلُوءًا، كالشعلة في النار
يصوبها صاحبها وتأبى إِلَّا ارتفاعًا»^(١).

□ قال عمر بن عبد العزيز: «إن لي نفسًا تَوَاقَّةً؛ لم تزل تتوق إلى
الإمارة، فلما نِلْتُهَا تَاقَتْ إلى الخلافة، فلما نِلْتُهَا تَاقَتْ إلى الجنة!»^(٢).
□ وقال بعضهم:

أَمْطَرِي لَوْلَا جِبَالِ سَرْنَدِي ب وَفِيضِي أَبَارَ تَكْرُورَ تَبْرَا
أَنَا إِنْ عَشْتُ لَسْتُ أَعْدِمُ قُوَّتَا وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدِمُ قَبْرَا
هَمَّتِي هَمَّةُ الْمُلُوكِ وَنَفْسِي نَفْسُ حَرَّتْرِي الْمَذَلَّةُ كَفْرَا^(٣)
□ وقال أبو فراس الحمداني:
إِنِّي أَبِيتَ قَلِيلَ النَّوْمِ أَرَقْنِي قَلْبُ تَصَارَعٍ فِيهِ الْهَمُّ وَالْهَمَمُ^(٤)

٤٦- أثر الوالدين، ودورهما في التربية الصحيحة:

فأثر الوالدين في التربية عظيم، ودورهما في إعلاء همم الأولاد خطير
وجسيم؛ فإذا كان الوالدان قدوة في الخير، وحرصا على تربية الأولاد،
واجتهدا في تنشئتهم على كريم الخلال وحميد الخصال، مع تجنبهم ما ينافي
ذلك من مساوئ الأخلاق ومردول الأعمال - فإن لذلك أثرا عظيما في

(١) «عيون الأخبار» (١/٢٣٣).

(٢) «عيون الأخبار» (١/٢٣١).

(٣) «ديوان الشافعي» (ص ٤٤).

(٤) «ديوان أبي فراس الحمداني» (ص ١٥٦).

نفوس الأولاد؛ لأن الأولاد سَيَشْبُونَ - بإذن الله - متعشقين للبطولة، محبين لمعالي الأمور، متصفين بمكارم الأخلاق، مبغضين لسفساف الأمور، نافرين عن مساوئ الأخلاق»^(١).

ثم إن صلاح الآباء يدرك الأبناء، بل إن نبوغ الآباء يؤثر أيما تأثير في نفوس الأولاد؛ فمما يهيج الناشئ للنبوغ «أن يسبقه أب أو جد بالنبوغ؛ فإن كثرة تردد اسم سلفه العبقري على سمعه، ومطالعة لبعض آثار عبقريته - يثيران همته، ويرهفان عزمه لأن يظفر بما ظفر به سلفه من منزلة شائخة وذكر مجيد»^(٢).

ولا أدل على عظم شأن الوالدين في التربية، وأثرهما البالغ في نفوس الأولاد من حال سلفنا الصالح الذين خرجوا لنا أكرم جيل، وقدموا لنا أفضل رجيل، لا يدانيهم أحد في الفضل، ولا يُبلغ شأوهم في النبل.

فمن كان وراء هؤلاء الأبطال؟ ومن الذي صنع أولئك الرجال؟

إننا لو سبرنا أحوالهم، وتتبعنا سيرهم - لوجدنا أن وراء كل واحد منهم أباً عظيماً، أو أمّاً عظيمة، يربون أولادهم على تطلاب الكمال، ونشدان المعالي.

□ فهذا أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام تنقل في تربيته بين صدرين من أملا صدور العالمين حكمة، وأحفليها بجلال الخلال، وكريم الخصال، فكان مغذاه على أمه فاطمة بنت أسد، ومراحه على أم

(١) انظر: «التقشير في تربية الأولاد المظاهر - سبل الوقاية والعلاج» لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص ٥٠ - ٩٢).

(٢) «رسائل الإصلاح» (١/ ١٨٠).

المؤمنين خديجة بنت خويلد عليها السلام ^(١).

وهذا أمير المؤمنين، أريب العرب، والمعِيها معاوية بن أبي سفيان عليه السلام من كان وراءه؟ لقد كان وراءه أم عظيمة هي هند بنت عتبة وهي القائلة - وقد قيل لها ومعاوية وليد بين يديها: إن عاش ساد قومه - قالت: ثكلته إن لم يسد إلا قومه.

وكان معاوية إذا نوزع الفخر بالمقدرة، وجوزب بالمباهاة بالرأي انتسب إلى أمه، فصعد أسماع خصمه بقوله: أنا ابن هند! ^(٢).

[وهكذا أبوه له شأن عظيم في الجاهلية والإسلام] ^(٣).

وهذا عبد الله بن الزبير عليه السلام كان وراءه أمٌ عظيمة كريمة شجاعة، وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق عليها السلام.

□ وهي القائلة - وقد نعي إليها ابنها عبد الله -: «ما يمنعي وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل».

□ وهي القائلة أيضًا قبل ذلك عندما استشارها ابنها عبد الله بن الزبير في قتال الحجاج: «اذهب؛ فوالله لضربة بالسيف على عز - أفضل من ضربة بالسوط على ذل» ^(٤).

(١) انظر صفحات من «سيرة الأم المسلمة» للشيخ د. محمد بن أحمد بن إسماعيل (ص ٧٩).

(٢) المرجع السابق.

(٣) «من تعليقات ساحة الشيخ عبد العزيز ابن باز على كتابه «الهمة العالية» لمحمد بن إبراهيم الحمد.

(٤) انظر: «عودة الحجاب» د. محمد بن إسماعيل (٢/ ١٣٦ - ١٤٦)، وانظر: «التقصير في تربية الأولاد» لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص ٤١ - ٤٧).

[وهكذا أبوه الزبير له شأن عظيم وكان حوارى النبي ﷺ] ^(١).

٤٧- النشأة في مجتمع مليء بالقمم:

فمن بواعث الهمة، ومهيئات النبوغ - أن يشب الناشئ الذكي في مجتمع مليء بالقمم الحقيقية من الأبطال المجاهدين، والعلماء العاملين؛ فهذا مما يحرك همته، ويبعث عزمته؛ كي يحذو حذوهم، ويسير على منوالهم.

٤٨- تقدير النوابع، ورعاية المواهب:

فالنوابع يحتاجون إلى توجيه مستمر، وإلى رعاية وصيانة، وإلى أن تُهَيَّأ لهم مقومات النبوغ والألمعية.

فإذا نشأ الألمي النابغة في مجتمع يَقْدُرُهُ قَدْرُهُ، وينظر إليه بعين الإكبار والتَّجَلَّة - هَفَّتْ نفسه لكل فضيلة، وَرَنَتْ عينه إلى كل بطولة، فيزداد بذلك جَدًّا في الطلب، وسعيًّا إلى أقصى درجات الكمال.

ولهذا فلا عجب أن يظهر النابغون في العلم، والأدب، والشجاعة في بلاد الأندلس؛ لأن أهلها يعظمون من عظمه علمه، ويرفعون من رفعه أدبه.

وكذلك سيرتهم في رجال الحرب، يقدمون من قَدَمَتُهُ شجاعته، وعظمت في الحروب مكايده ^(٢).

(١) «من تعليقات سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز على كتاب «الهمة العالية» للحمد.

(٢) «رسائل الإصلاح» (١/ ١٨٠).

٤٩- وجود المربين الأفذاذ، والمعلمين القدوات:

الذين يستحضرون عظم المسؤولية، ويستشعرون ضخامة الأمانة، والذين يتسمون ببعد النظرة، وعلو الهمة، وسعة الأفق، وحسن الخلق، والذين يتحلون بالحلم والعلم، والصبر والشجاعة، وكرم النفس والسماحة.

فأثر هؤلاء في التربية كبير، ودورهم الذي يقومون به غير يسير؛ فالواحد من هؤلاء الأفذاذ ممن اجتمع له ما اجتمع من خصال الخير، ومن معاني السمو والألمعية - لا بد أن يتأثر به طلابه، وأن ينطبعوا بطابعه؛ لأنه سيربيهم على معالي الأمور، ومكارم الأخلاق، والتطلع للكمالات.

فإن أتيت للعلم وجدته يفتح لهم أبوابه، ويشحذ قرائحهم لفهم معانيه، وإدراك مرامييه، ورأيته يطلق لهم العنان في البحث، ويردهم إلى الصواب برفق إن أخطأوا، ويثني عليهم إن ناقشوا فأصابوا.

بل إنه سيحرص جهده على أن يكون من تحت يده خيرًا منه، فلن يقف حجر عثرة أمام طلابه، ولن يجد في نفسه غصاصة أن يتفوق أحدهم عليه.

وما ذلك إلا لكرم نفسه، وعلو همته، وسعة أفقه، ولأنه يسعى للإصلاح، ويروم رفع الغشاوة عن الناس، ولأنه يعمل للآخرة، ويعلم أن أجره سيدوم ويتضاعف إذا هو خرج طلابًا يخلفونه في العلم، وينشرون ما تلقوه على يديه.

«يقص علينا التاريخ أن في الأساتذة من يحرص على أن يرتقي تلاميذه

في العلم إلى الذروة، ولا يجد في نفسه حرجاً من أن يظهر عليه أحدهم في بحث أو محاضرة.

يذكرون أن العلامة أبا عبد الله الشريف التلمساني كان يحمل كلام الطلبة على أحسن وجوهه، ويبرزه في أحسن صورته.

ويروى أن أبا عبد الله هذا كان قد تجاذب مع أستاذه أبي زيد ابن الإمام الكلام في مسألة، وطال البحث اعتراضاً وجواباً، حتى ظهر أبو عبد الله على أستاذه أبي زيد، فاعترف له الأستاذ بالإصابة، وأنشد مداعباً: أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني^(١)

وإن أتيت للمجالات الأخرى وجدت هذا المربي الفاضل يربيه على خلق العدل، وفضيلة الإنصاف، والتجافي عن ساقط القول ومرذولة. وستجده أيضاً يربيه على خلق الشجاعة، وصرامة العزم، وعزة النفس، وإبادة الضيم، كما أنه سيربهم على التواضع الجم، والبعد عن الإعجاب والتعالي على عباد الله.

فإذا تربى الطلاب على الدين القويم، ووصلت معانيه إليهم من طريقها الصحيح، وقام على التربية معلمون ربانيون مخلصون - رسخت الفضائل في نفوسهم، وقرت بها قرار ذات الصدع تحت ذات الرجع، فلا ترى من جرّاء تلك التربية إلا حياءً وعفافاً، وأمانة وصدقاً، واستصغاراً للعظائم، وغيره على المصالح، وما شئت بعد من عزة النفس، وكبر الهممة. تلك الخصال التي لا تنبت أصولها، ولا تعلق فروعها إلا أن يتفياً

(١) «رسائل الإصلاح» (١/ ٤٤).

عليها ظلال الهداية ذات اليمين وذات الشمال؛ فالإسلام دين ينير العقول بالحجة، ويهذب النفوس بالحكمة.

وكم أخرجت مدارس، أو مجالس القوامين على هدايته من رجال يلاقون الأسود فيصرعونها، ويجارون الرياح فيسبقونها، يخفضون أجنتهم؛ تواضعاً للمستضعفين، ويرفعون رؤوسهم؛ عزة على الجبارين، تعترضهم الأخطار فيخوضون غمارها، وتعتلُّ قلوب أو عقول فيضعون الدواء موضع عللها، عدل كأنه القسطاس المستقيم، وسخاء كأنه الغيث النافع العميم، وجدُّ في طلب العلم وإن كان بمناء الثريا، وطموح إلى المعالي وإن انتبذت وراء الفلك الدوّار مكاناً قصياً^(١).

□ قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ في وصيته للمعلمين: «ثم احرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال منطبقاً على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال؛ فإن الناشئ الصغير مرهف الحس، طُلْعَةٌ إلى مثل هذه الدقائق التي تغفلون عنها، ولا ينالها اهتمامكم.

وإنه قوي الإدراك للمعائب والكمالات، فإذا زَيَّتم له الصدق فكونوا صادقين، وإذا حَسَّنتم له الصبر فكونوا من الصابرين.

واعلموا أن كلَّ نقشٍ تنقشونه في نفوس تلامذتكم من غير أن يكون منقوشاً في نفوسكم - فهو زائل، وأن كل صبيغ تنفضونه على أرواحهم من قبل أن يكون متغلغلاً في أرواحكم فهو - لا محالة - ناصل حائل، وأن كل سحر تنفثونه لاستنزاهم غير الصدق فهو باطل.

ألا إن رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة

(١) انظر: «رسائل الإصلاح» (١/ ٢٤، ٥٦١)، و«فيض الخاطر» (٦/ ١٢٧-١٢٨).

بالقدوة، وأما ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم والمعرفة - فهو ربح وفائدة»^(١).

٥٠- التشجيع:

وقد سبق في الفقرات الماضية ذكر لشيء من ذلك.

والتشجيع بمعناه العام لا يختص بالنوابغ فحسب، ولا يقتصر على المربين والمعلمين، بل هو عام للنوابغ وغيرهم، في العلم أو في أي مجال آخر.

وهو كذلك ليس مسؤولية المربين والمعلمين، بل هو يقع على عاتق كل أحد يستطيع ذلك، سواء من المعلمين أو المربين، أو الوالدين، أو الرؤساء أو غيرهم.

بل هو مسؤولية عامة الناس؛ فبإمكانهم أن يحرضوا على الخير، ويعينوا على البر.

فيجدر بمن يستطيع القيام بذلك أن يقوم به، من خلال الكلمة الطيبة، أو المبادرة بالهدية، أو من خلال رسالة الشكر والتقدير، أو غير ذلك.

فلذلك الصنيع أثره البالغ في رفع الهمم، وتنمية المهارة، والشعور بالثقة؛ ذلك أن الناس مجبولون على محبة التشجيع والدعم والشكر.

ولهذا لو تتبعنا سير العلماء والمصلحين، والمجاهدين، ثم بحثنا عن سر

(١) «عيون البصائر» لمحمد البشير الإبراهيمي (ص ٢٩١)، وانظر كلامًا جمليًا حول هذا المعنى في «عيون البصائر» (ص ٢٨٨ - ٣٠٠)، وأثار محمد البشير الإبراهيمي (١٦٦/١ - ١٦٦).

نبوغهم وألمعتهم - لوجدنا أن كثيرًا منهم قد نال بسبب كلمة سمعها فغَيَّرَت مسار حياته، أو كانت سببًا في ثباته، وصبره، واستشعاره للمسؤولية، أو نحو ذلك.

وقد يصدر ذلك من بعض العامة، فيكون له وقعه وأثره.

□ عن حسين الكرابيسي قال: «سمعت الشافعي يقول: كنت امرءً أكتب الشعر، وآتي البوادي فأسمع منهم، وقدمت مكة وأنا أتمثل بشعر للبيد، وأضرب وحشي قدمي بالسوط، فضربني رجل من ورائي من الحجة فقال: رجل من قريش، ثم ابن المطلب رضي من دينه ودنياه أن يكون مُعَلِّمًا!! ما الشعر؟

الشعر إذا استحكمت فيه قعدت معلمًا؛ تَفَقَّهُ يُعَلِّكَ الله.

قال: فنفعني الله بكلام ذلك الحجي، ورجعت إلى مكة، وكتبت عن ابن عيينة ما شاء الله أن أكتب، ثم كنت أجالس مسلم بن خالد بن عبد الله الزنجي، ثم قدمت على مالك في المدينة، فكتبت موطأه^(١).

وهذا الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ لما ابتلي بفتنة القول بخلق القرآن كان من أسباب ثباته رجل من عامة الناس، بل هو لص طرار.

□ قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «كنت كثيرًا أسمع والدي يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم.

فقلت: يا أبه، مَنْ أبو الهيثم؟

فقال: لما أُخْرِجْتُ للسياط، ومُدَّتْ يداي للعقابين إذا أنا بشاب يجذب

(١) «صفة الصنوة» (٢/ ١٦٥).

ثوبي من ورائي، ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا.

قال أنا أبو الهيثم العيَّار، اللص الطَّرار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين
أني ضُربتُ ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق وصبرت في ذلك على طاعة
الشیطان؛ لأجل الدنيا؛ فاصبر أنت في طاعة الرحمن؛ لأجل الدين^(١).

٥١- التوجيه السليم ومراعاة الميول:

فلهذا الأمر أبلغ الأثر في علو الهمم، وشرف المقاصد، ونيل المآرب؛
ذلك أن نفوس الناس تختلف، ومشاربهم لا تأتلف؛ فكل نفس تميل إلى ما
يوافق طبعها، وقد علم كل أناس مشربهم، وكل ميسر لما خلق له.

فهناك من الناس من همته عالية، وإرادته قوية، ولكنه يتزع بها إلى الشر
والفساد، كحال بعض المجرمين الذين إذا عزموا على نوع من الإجرام لا
يشني عزمهم شيء، بل إن إرادتهم قد تَفُضِّلُ إرادة كثير من الأخيار في
قوتها، ولكن عيبهم سوء الوجهة، وقلة المرشد الناصح.

فإذا ما وُجِّهَت للخير، وحولت له كانت قوية في الخير كما هي قوية في
الشر^(٢).

وكذلك الحال بالنسبة لكثير من الناس، فقد يتوجه لمجال لا يلائم
ميوله، ولا يناسب مواهبه، ومن هنا فلن تجد له إبداعاً، ولا تفوقاً.

فإذا حوِّل إلى ما يناسبه، ووجه إلى ما يلائمه أبدع أيما إبداع؛ فلا يعني
كوننا لا نبذل في كل شيء أننا لا نصلح لأي شيء^(٣).

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ٢٢٩ - ٣٣٠).

(٢) انظر: «الأخلاق» (ص ٥٥).

(٣) انظر: «قوة الإرادة وطرق تنميتها» د. صلاح مراد (ص ٣٤).

٥٢- الإعلام:

فالإعلام له دور خطير، وأثر بالغ في توجيه الناس، والتأثير فيهم، فإذا ما وضع في أيدي أمينة، وحكمتها سياسة بناء هادفة، تعلي منارات الهدى، وترفع ألويا الفضيلة، وتحمي المجتمعات من عوامل الفساد، وتحرص على رفع الأعلام، وحط الأقدام - فإن لذلك أبلغ الأثر في علو الهمم، ورفعة الأمم.

٥٣- دور الأدباء والمفكرين:

* قد رفع الله شأن الكتابة والبيان حين قال تعالى: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ مِّمَّنْ يَمْجُحُونَ (٢) [القلم]، والقسم بها تعظيم لقيمتها في قيادة الأمة قيادة رشيدة على منهج الله وعجل.

* ولقد مجّد الله قيمة القلم في أول لحظة من لحظات الرسالة المحمدية؛ في أول سورة من سور القرآن الكريم: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) [العلق].

* وامتن الله على الإنسان فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (٦) [الرحمن].

فكيف إذا كان البيان أرقى البيان معنى ولفظاً.

ولا ينكر أحد دور حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر الرسول ﷺ المؤيد بروح القدس الذي كان كلامه على الكافرين أشد من رشق النبل، وشفى واشتفى، وكعب بن مالك رضي الله عنه الصحابي الشاعر الذي يهدّد دوساً ببيت شعر فتسلم:

نُخَيِّرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لِقَالَتْ قَوَاطِعُهُنَّ دَوْسًا أَوْ ثَقِيفًا

• وفي الحديث عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لكعب: «ما نسي ربك



لك - وما كان ربُّكَ نَسِيًّا بَيْتًا قَلْتُهُ»، قال: وما هو؟ قال: «أنشده يا أبا بكر» فقال:

زَعَمْتُ سَخِينَةً أَنْ سَتَغْلِبُ رَبِّهَا وَلِيُغْلِبَنَّ مُغَالِبُ الْغُلَابِ

وعبد الله بن رواحة الصحابي الجليل رضي الله عنه.

□ قال محمد بن سيرين: «كان حَسَّان وكعب يُعَارِضَانِهم بمثل قولهم: بالوقائع والأيام والمآثر، ويُعَيِّرَانِهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رَوَاحَةَ يُعَيِّرُهم بالكُفْرِ، فكان في ذلك الزمان أشدُّ القول عليهم قول حسان وكعب، وأهونُ القول قول عبد الله بن رواحة، فلما أسلموا وفَقَّهوا الإسلام، كان أشدُّ القول عليهم قول ابن رواحة».

□ وقال صلاح الدين الأيوبي عن كاتبه العظيم والأديب الكبير القاضي الفاضل عبد الرحيم اليُّسَاني: «والله ما أَخَذَتِ البلادُ بالعساكرِ، بل برسائل القاضي الفاضل». وذاك هو وسام صلاح الدين يُكْرِّم به كاتبه، بل يُكْرِّم به الأدب والأدباء، ويُظْهِر أثر الكلمة الطيبة الهادفة في إصلاح شؤون الأمة ونفي الخُبث عنها، وتوحيد صفوفها، ورفْعها إلى مستوى معركة المصير التي أحسن صلاح الدين الإعدادَ لها حتى استردَّ بيت المقدس»^(١).

□ وقال عنه ابن كثير: «ولما استقرَّ المَلِكُ صلاحُ الدِّين بمصر جَعَلَهُ كاتبه وصاحبَه ووزيره وجَلِيسَه وأنيسه، وكان أعزَّ عليه من أهله وأولاده، وتساعدًا على فتح الأقاليم والبلاد، هذا بِحُسَامِهِ وسِنَانِهِ، وهذا بقلمه

(١) مجلة «الأدب الإسلامي» - العدد الثامن (ص ١).

ولِسَانُهُ وَبَيَانُهُ»^(١).

□ ويسمو الأدب تسمو الأمم وتعلو همتها، وعلى النقيض بسفول الأدباء والمفكرين وعمالتهم للصليبين والمستشرقين تدمّر الأمم.. فدناءة همة المفكرين والأدباء وتطاوهم على ثوابت الدين وماضي الأمة وتاريخها ورموزها تسقط الأمة بسبب هذا الطابور الخامس الذي..

يُرْمَرَمُ مِنْ فُتَاتِ الْكُفْرِ قُوتًا وَيَلْعَقُ مِنْ كُؤُوسِهِمُ الثَّمَالَةَ
يُقَبَّلُ رَاحَةَ الْإِفْرَنْجِ دَوْمًا وَيَلْتَمُّ دُونَهَا حَجَلِ نِعَالِهِ

والواقع المرّ الذي تعيشه الأمة خير شاهد على دور المفكرين والأدباء في حياة الأمم وعلوّ همتها، أو موتها بسفول ودناءة همتها.

□ في القرون الخيرية علا صوت حسان وكعب وابن رواحة ومن سار على دربهم، وفي مستنقعنا الآسن على صوت أدونيس، وعبد الوهاب البياتي، وأحمد عبد المعطي حجازي..

أَنْتَ الْقَتِيلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ فَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ فِي الْهَوَى مِنْ تَصْطَفِ

الصفحات السود لمدارس التغريب والحداثة والتنوير كما عرضتها وثائق الاستخبارات الغربية:

□ كتاب «الصفحات السود لمدسة التغريب والحداثة والتنوير» لمؤلفه الباحث محمد عبد الشافي القوصي؛ يفتح أشد ملفات الحداثيين خطورة، بالوثائق والأسماء بكل صراحة، حيث أظهر الكتاب تلك التوجهات الفكرية المشهورة طوال القرن العشرين.

(١) «البداية والنهاية» (١٣/٢٧ - ٢٨).



أحسب أن هذا الكتاب بمنزلة حصاد مرحلة، وشهادة عصر، ورسالة للأمة، وخلاصة رحلات ولقاءات وحوارات وقراءات متنوعة اضطلع بها المؤلف للبحث عن الحقيقة المجردة، والوقوف على معالم الحق.

كشف مؤلفه عن «تجليات المشهد التغريبي في العالم العربي» كما عرضته وثائق الاستخبارات الأجنبية بشهادة الشهود! وحجم الخطر الذي نقله أكابر التغريبيين العرب وسدنة العلمنة، أمثال: أنطون فرح، وسلامة موسى، ولطفي السيد، وطه حسين، ولويس عوض، وأدونيس، ويوسف الخال، وكمال أبو ديب، وصلاح عبد الصبور، وعبد المعطي حجازي، والبياتي، والسياب، وجابر عصفور، وغيرهم من حملة لواء التغريب!

فهو وثيقة مهمة وحجة واضحة، ودليل إدانة لمدارس «التبعية والتغريب والعلمنة التي حولت الثقافة والأدب غالبًا إلى حرب تهاجم الإسلام والمسلمين، وحوّلوا الفكر والفن إلى هتاف وصياح وصرخات تشنجية، ومارسوا أسلوب الإرهاب الفكري في وجه مخالفينهم، ومن ثم أصبح الأدب لونًا من ألوان المطاردة العنيفة لكل ما هو جاد وأصيل، حتى وجد المخلصون أنفسهم محصورين في زوايا ضيقة، ومرغمين على الاستسلام والصمت، وخلا الميدان إلا من التغريبيين والعازفين على أوتار القيثارة الرسمية.

ولعل صفحات هذا الكتاب الذي بين أيدينا تروي صورًا ومشاهد حية عن «المجتمع المغرّب» في ميادين الفكر والثقافة والأدب؛ فهناك من يطالب بإزاحة اللغة العربية من الوجود طلبًا للنهضة التي ينشدها،

وهناك من يدعو إلى التخلص من تراثنا لتحقيق الحداثة والتنوير، وهناك من يتجراً على المقدسات من أجل تحقيق عالمية الأدب، وغير ذلك من الوقائع المخزية والمشاهد الفاضحة التي يمارسها عبيد الحضارة الغربية.

الحرب على لغة القرآن:

يتساءل المؤلف بحسرة: هل إعلان الحرب على اللغة العربية والسخرية منها، وعزلها، بل ومحاولة التخلص منها ومن كل ما يتعلق بها: هل يعد هذا من فنون «الحداثة» وطرائق «التنوير» و«الليبرالية» التي يتغنى بها القوم، ويدعون الناس إلى اعتناقها؟! ولم لم يتوقف المهجوم على اللغة العربية يوماً واحداً منذ أن وطئ الاحتلال الأجنبي الوطن العربي، وحتى بعد رحيله؟!

ثم يجيب قائلاً: إذا كان القوم يزعمون أن اللغة الفصحى عاجزة عن أن تكون لغة العلم والفكر والثقافة والحضارة؛ فهل اللهجات العامية أفدر منها في هذه الميادين؟

بالطبع لا، لكن الأمر بخلاف ما يزعمه القوم؛ فأوروبا ودول الغرب بصفة عامة أدركت منذ الحروب الصليبية قوة الإسلام حضارة وتاريخاً وفكراً وثقافة، وأيقنوا أن المسلمين إذا أحسنوا صلتهم بالفكر والثقافة الإسلامية: فلن تكون في الأرض قوة تضارع قوتهم؛ وذلك لما حوته الحضارة والثقافة الإسلامية من القوى الروحية والمعنوية الربانية.

ويشير المؤلف إلى أنه في إطار كراهية أوروبا للإسلام وخوفها منه: كرهت كل ما يتصل بالإسلام ووقفت أمامه وجهاً لوجه، ومن ذلك اللغة العربية الفصحى؛ فهي لسان التنزيل ووعاء الإسلام، وعامل من

أكبر العوامل لتجميع المسلمين وتوحيد صفوفهم، وقيام الروابط القوية بينهم، وأوروبا تخشى وحدة المسلمين، وتعمل بكل وسيلة على تفتيتها بالقوميات والطائفيات.

□ ويؤكد المؤلف أن الحرب على لغة القرآن لم تتوقف بهلاك هؤلاء المرجفين القدامى، بل ما زالت جذوتها مستعرة إلى يومنا هذا: فهامم الحداثيون ودعاة التغريب لا يألون جهدًا في مقاومة اللغة العربية وآدابها، ومحاولة وأدِّها والتخلص منها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

□ بعد أن عرض المؤلف صورًا مختلفة لألوان التبعية الفكرية والثقافية في مختلف الميادين؛ يتساءل قائلًا: تُرى: ماذا كانت نتيجة هذه التبعية للمذاهب الأدبية الغربية؟ وما ثمرة الهرولة وراء كل بدعة فكرية أو فلسفة أدبية جديدة؟ وما الخطورة التي ترتبت على الدعوة إلى تجديد الشعر في العصر الحديث؟ ولماذا فشلت كل هذه المحاولات، على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها الشعراء والنقاد من أصحاب هذا الاتجاه؟

□ وقد تأثرت الحياة الثقافية والفكرية بهذه الموجات الطاغية من المذاهب الغربية: ففسد المناخ الأدبي في بلدان العالم العربي، وشوهت الحياة الفكرية وغابت رؤاها.

□ وضمن حصار التبعية والتغريب - كما يقول المؤلف -: «نرى الأدب الحديث في بلادنا - بكل أجناسه - ازداد تأثرًا بهذه المذاهب، وتحول بعضه على يد «المتغربين» إلى دعوات فاجرة وهجوم شرس على العقيدة الإسلامية وتراثها، فلم يقتصر التأثير على استعارة الأدوات الفنية، بل امتد إلى الخلفيات الفكرية والفلسفية التي تصدر عنها المذاهب

الأدبية الغربية، وصدرت قصص ودواوين تحمل صورتها وتدعو إليها صراحة وضمناً.

كما توزّع قسم من أدبنا خلف الأيديولوجيات الكثيرة المختلفة، ووجدت الماركسية قبل سقوطها أدباء يجسدون أفكارها، ويدعون من خلال أعمالهم الأدبية إلى الالتحاق بها.

ووجدت الكتلة الغربية أبواقاً تدعو بقوة إلى اعتناق حضارتها وتقليد فنونها وآدابها، بل عن النصرانية التي هُزمت في بلادها وعُزلت عن الحياة دخلت بفضل الغزو الثقافي إلى إنتاج عدد كبير من أدبائنا ومثقفينا. وقد خلّف هذا التيار وذاك آثاراً كبيرة في الأدب المعاصر، وفي مقدمتها: الرموز النصرانية المتفشية في الشعر الحديث، وقصص الإنجيل التي أصبحت مادة أساسية لعدد من الشعراء والقصاصين.

ومما يزيد الطين بلة، ظهور أعمال أدبية تعبث بالقيم الإسلامية، كما ظهر في الأدب العربي الحديث؛ نحو العبث بالمفاهيم الدينية العليا، والاستخفاف بمقام الألوهية!

وهكذا اختلطت الأصوات وتوزّع قسم وافر من أدبنا المعاصر وراء المذاهب الأدبية الغربية، وحمل أدواتها الفنية من جهة، وقيمها وتصوراتها من جهة أخرى؛ ففقد كثيراً من ملامح الشخصية العربية الإسلامية، وتحوّل إلى أداة تهاجم الإسلام والمسلمين بشكل سافر، وتتطاول على المقدسات بوقاحة كبيرة.

وهذا هو السبب الرئيس وراء تراجع الأدب العربي عن موقع الريادة، ومن ثم تفوقت الآداب الأخرى عليه في الحقبة الأخيرة؛ وذلك لأن

الأدب العربي الحديث انحرف عن طريقه الطبيعي بما دخل عليه من مفاهيم وقيم وافدة من ناحية المضمون، وبما اصطنع من أساليب غريبة من ناحية الأداء.

وانطلق دعاة التغريب يرددون بوعي وبدون وعي: أن الأدب العربي له استقلاليتته عن الفكر الإسلامي، وله حرية في مجال الأداء دون اعتبار للمسؤولية الأخلاقية والحدود والضوابط التي قررها الإسلام للمجتمع، وهذه أخطر السهام المسمومة التي أصابت الأدب العربي الحديث والمعاصر، فضلاً عن تبعيته المطلقة للآخر.

فأمتنا تشهد اليوم انسلاخاً حضارياً وهجوماً كبيراً على أيدي هؤلاء القوم، ومن ذلك ما يرددونه من زخرف القول، وما يدعونه من حياد الفن وتحرره من قيود العقيدة، وهؤلاء يقدمون أدباً سخيلاً وفناً مُدمراً للأخلاق، ومدمراً للشعور، زاعمين أنه لا علاقة بين الدين والأدب، كما زعم إخوانهم في الغي أنه لا علاقة بين الدين والسياسة!

الهجمات المفرضة على الشعر العربي:

□ ويتساءل المؤلف: ما الخطورة التي ترتبت على الدعوة إلى تجديد الشعر في العصر الحديث؟ ولماذا فشلت كل هذه المحاولات اليائسة والمفرضة؟

فيقول: لأنه لم تكن الدعوة إلى تجديد الشعر صادقة من الأصل؛ فالتجديد عندهم كانت فحواه التخلص من موسيقى الشعر، هذا الباب الذي دخل منه شعراء الحداثة بدعوى أن «القصيدة العمودية» تحجر على الشاعر آفاق الرؤية، وتقصر من أجنحة الخيال، وتجعله يرقص في

السلاسل، وقد بدأ الأمر في البداية محتشماً بالالتزام بتفعيلات الخليل، غير أن الأمر انتهى بعد ذلك إلى الشكل الهجين الذي يسمى «قصيدة النثر» وإلى الدعوة إلى التخلص من كل لون من ألوان العروض الخليلية. وقد كان ذلك على صعيدين الإنجاز الشعري من جهة، بقيادة أدونيس وصبيانه، والإنجاز النقدي من جهة، بقيادة كمال أبو ديب وربائبه.

وقد برزت من خلال ذلك كله نظرية «الحداثة» الغربية التي كان يمثلها المستقبليون في أوائل هذا القرن، وتركزت مبادئهم في التمرد على الماضي والحاضر، والدعوة إلى تحطيم اللغة الشعرية التقليدية وتحرير الكلمات من معانيها الموروثة، والتخلص من العقل والمنطق، وتدمير القواعد والتراكيب اللغوية؛ طلباً لحداثة اللغة، واستجاباً للغموض الذي يعد ملمحاً أساسياً في شعرهم استلهاً من المذهبين: الرمزي، والسريري.

ويكفي أن تعلم أن رمز «المسيح» وَرَدَ في ديوان «أنشودة المطر» للسياب حوالي أربع وعشرين مرة، حتى لكأنك تظن السياب شاعراً نصرانياً! وما ذلك إلا لانسياقه وراء «إليوت» الشاعر المتعصب للكاتوليكية.

وفي حالة استلهاهم الحداثيين للتراث العربي الإسلامي؛ يقدمونه بشكل مشوّه، ويختارون منه النماذج والشخصيات الشاذة المنحرفة، أو التي احتاطت الأمة بحذر شديد من أفكارها وآرائها: كالحلاج، والشَّهروردي، ومهيار الديلمي، وغيرهم.



من يدفع أجرة الزمار؟!

□ وقد ختم المؤلف كتابه بتوجيه ضربة دامغة لمعسكر الحداثيين في رأيي، وذلك بعرض بعض ما جاء في كتاب «الحرب الباردة الثقافية» الذي يُعرّي «ميليشيات الحداثة» أو «مارينز الثقافة العربية» حتى من ورق التوت الذي تواروا خلفه، كما يكشف دور المخابرات في عملية الاستيلاء على عقول البشر، ويفضح أكذوبة «السلام الأمريكي» الذي يبشر بعصر تنوير جديد يطلقون عليه اسم «القرن الأمريكي» أو هكذا زعموا!

□ فيقول: إن خطورة كتاب «الحرب الثقافية الباردة» تكمن في قدرة مؤلفته على سرد الحقائق المتراكمة وجمع الصورة بجوار الصورة، من خلال الصبر والأناة في جمع المادة الأرشيفية والشهادات، لتكشف عن دور المخابرات الأمريكية في عالم الفنون والآداب، وتكشف لنا سر مواقف وتحولات عديدة في عالم الثقافة عندما كان مثقف الستينيات الملتزم في مصر والوطن العربي يرقبها فاعراً فاه، دون أن يدري أسبابها.

□ ويدور موضوع هذا الكتاب - كما يشرح المؤلف - حول مؤامرات المخابرات المركزية الأمريكية الـ C.I.A والدور الذي قامت به في عالم الفنون والآداب بتمويلها لأنشطة ثقافية ومهرجانات فنية وموسيقية، وإنشاء مجلات أدبية واتحادات فنية وموسيقية، وإقامة مكاتب عامة ومراكز ثقافية في جميع أنحاء العالم، وبخاصة في أوروبا؛ لمواجهة المد الشيوعي ونفوذه الفكري والثقافي وسط تجمعات المثقفين، وذلك بغية الترويج للنمط أو «النموذج الأمريكي» في الحياة والفكر والثقافة.

□ وترى المؤلفة أن ما فعلته (C.I.A) في عالم الفن والأدب لإعادة

بناء البنية الثقافية في العالم بما يؤدي إلى كراهية النمط القديم والهرولة وراء النموذج الأمريكي؛ يؤكد سرعة الثقافة في التأثير على الوعي وعلى الوجدان، من خلال الرواية الأدبية والدراما في السينما والتلفزيون والمعارض الفنية والحفلات الموسيقية، بحيث يُتخلَّى تدريجيًا عن نمط قديم واكتساب نمط آخر، يركز على الحريات المطلقة دون ضوابط مقابل القيود القائمة في الشرق! فالجماهير كانت تتشرب على مدى أكثر من أربعين عامًا وبالتدريج ثقافةً معادية تداعب غرائز التملك والتفوق والأنانية، فأثبتَ هذا في النهاية أن تغيير نمط في السلوك والفكر أقوى من تغيير نمط الإنتاج.

﴿إن هذا الكتاب سيرى القارئ له أنه أقوى صفعة في وجه ذلك التيار؛ لأنه أورد بالأدلة والبراهين والحجج الدامغة أسماء الأدباء والمثقفين التغريبيين، وكذلك أسماء الصحف والمجلات التي كانت تمولها وتشيد بهم مغررة الناس باتجاهاتهم﴾^(١).

٥٤- المواقف التي تمرّ بالإنسان:

«فكما أن الأحداث والمواقف التي تمر بالأمة تكون سببًا من أسباب علو الهمة - فكذلك الفرد نفسه إذا مرت به أحداث ومواقف، وتقلبات في حياته، من محن، وبلايا وغير ذلك - فإنها تؤثر فيه، وتترك أثرها في نفسه، وقد تكون سببًا لنهوضه ورفعته؛ ذلك أن للهمم خودًا، وللعزائم

(١) «الصفحات السود لمدارس التغريب والحداثة والتنوير كما عرضتها وثائق الاستخبارات الغربية» مقالة لصالح حسن رشيد بمجلة «البيان» العدد (٢٤٧) (ص ٨٦-٨٨).

فترةً، ولا يتيقظ من فترتها إلا من استفزته صروف الحوادث، وأرته كيف يرقى أناس إلى مكانة العز، وينحط آخرون إلى وهدة السقوط، ولا تفعل ذلك إلا بمن أدركت منه رمق حياة لم يزل نبضها خافقاً.

أما من جف طبعه، وسكنت إحساساته حتى التحق عند أولي البصائر بهيمة الأنعام - فلا يحس لها وجية^(١)، ولا يسمع لها ركراً^(٢).

ولهذا كان امرؤ القيس في حياة والده - شاباً لاهياً، عابثاً، همّه ملاحقة النساء، وتشرب الخمر؛ إذ كان ينعم بطيب العيش تحت ملك والده. وعندما قُتل والده، وزال الملك الذي تحت يديه - أثر به ذلك الموقف أيما تأثير، فاستيقظ من رقدته، وهب من سباته، وأعلى من همته، وترك شرب الخمر، وبدأ يسعى في استعادة ملك أبيه.

□ فبعد أن كان يقول:

لنا غنم نسوقها غزاراً كأن قرون جلتها العصي
فتملى بيتنا إقطاً وسمناً وحسبك من غنى شبع وري^(٣)

□ أصبح يقول: «لا صحو اليوم، ولا سكر غداً، اليوم خمر، وغداً أمر».

وآلى على نفسه ألا يأكل لحماً، ولا يشرب خمرًا، ولا يدهن بدهن، ولا يصيب امرأة، ولا يغسل رأسه - حتى يقتل من بني أسد مئة، ويحزّ نواصي مئة، بثأر أبيه^(٤).

(١) الوجية: الحركة والاضطراب.

(٢) انظر: «السعادة العظمى» (ص ٦٤).

(٣) «ديوان امرئ القيس» (ص ١٧١).

(٤) «ديوان امرئ القيس» (ص ٨).

□ وأصبح يقول من أمثال قوله:

فلو أنما أسمى لأدنى معيشة كفاني - ولم أطلب - قليل من المال

ولكنما أسمى لمجدٍ مؤثِّلٍ وقد يدرك المجد المؤثِّل أمثالي^(١)

فقوله: - ولم أطلب - جملة اعترض بها بين الفعل «كفاني» وفاعله «قليل». وفائدتها تحقير شأن المعيشة، وتبرئة سعيه أن ينضي الطلب إلى ما هو أدنى؛ فإنها مما يحصل بغير طلب ولا عناء.

وإنما الذي يحتاج إلى الطلب هو المجد المؤثِّل، ولا يدركه إلا أعظماء الرجال^(٢) اهـ^(٣).

سيد قطب وفرح الغرب بموت حسن البنا ونقطة التحول في حياة سيد قطب:

كان سيد قطب علماً من أعلام الأدب يُشار إليه بالبنا، وقدّر الله له نقطة التحول في حياته يوم مقتل الشيخ حسن البنا رَحِمَهُ اللهُ، ورأى السعادة الغامرة وفرح الأميركيان بمقتله وتهنئة الصليبيين بعضهم بعضاً بهذا الحدث الكبير، وتحلصهم من هذا الكابوس المخيف «حسن البنا»، وقتها كان الأستاذ سيد قطب في أمريكا، فكانت نقطة التحول الكبيرة في حياته ليبدأ مشواره مع الله عَزَّ وَجَلَّ فكانت كتبه^(٤)، التي فاح شذاها، وضاع غيرها في الدنيا والأمصار.

(١) «ديوان امرئ القيس» (ص ١٢٩).

(٢) انظر: «الحرية في الإسلام» (ص ١٠).

(٣) «الهمة العالية» (ص ١٥٣ - ١٥٥).

(٤) كل إنسان يؤخذ منه ويُردُّ، وفي «ظلال القرآن» أخطاء كبيرة ومخالفة لاعتقاد أهل السنة لا نوافقه أبداً عليها، وللإنصاف لا بد أن نذكر ما للرجل وما عليه.

٥٥- عزة النفس:

فعزة النفس تعني الارتفاع عن مواضع المهانة، ويقابلها الضعة، وهي انحذار النفس في المهانة^(١).

فعزيز النفس لا يريق ماء وجهه، ولا يبذل عرضه فيما يدينسه، فيبقى موفور الكرامة، مرتاح الضمير، مرفوع الرأس، شامخ العرين، سالماً من ألم الهوان، متحرراً من رق الأهواء ومن ذل الطمع، لا يسير إلا وفق ما يمليه عليه إيمانه، والحق الذي يحمله ويدعو إليه؛ فعزة النفس من كبر الهمة، «وكبر الهمة يعقد الألسنة عن الانطلاق في مجاري التملق والمداهنة»^(٢).

ولهذا تجد أن أشد الناس عزماً ومضاءً هو أنزههم نفساً، وأبعدهم عن الطمع وجهة.

□ قال الثعالبي: «ومن أحسن ما سمعت في القناعة قول ابن طباطبا العلوي:

كن بما أوتيته مقتنعاً تستدِم عسر القنوع المكتفي
إن في نيل المنى وشك الردى وهلاك المرء في ذا السرف^(٣)

□ قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

أمت مطامعي فأرحت نفسي فإن النفس ما طمعت تهون

(١) «عزة النفس» و«السخاء» و«الإعراض عن الجاهلين» هذه الأسباب الثلاثة مأخوذة من «الهمة العالية» لمحمد بن إبراهيم (ص ١٦٢ - ١٨٤).

(٢) «حياة الأمة» (ص ٣١).

(٣) «أحسن ما سمعت» (ص ٢٢).

ففي إحيائه عرضُ مصون
علّته مهانة وعلاه هون^(١)

وأحييت القنوع وكان ميتاً
إذا طمعٌ يحلُّ بقلب عبد

□ وقال:

فصرت بأذيالها ممتسك
ولا ذا يراني به منهمك
أمرُّ على الناس شبه الملك^(٢)

رأيت القناعة كنز الفتى
فلا ذا يراني على بابـه
وصرت غنياً بلا درهم

□ وما ينسب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله:

وهل عزٌّ أعزُّ من القناعة
وصيرُّ بعدها التقوى بضاعة
وتنعم بالجنان بصبر ساعة^(٣)

أفادتني القناعة كلَّ عزٍّ
فصيرُّها لنفسك رأس مالٍ
تحرز ربحاً وتغنى عن بخیل

□ وأنشد ثعلب:

وأخو الحوائج وجهه مبذول
فإذا استعنت به فأنت ثقیل^(٤)

من عفٍّ خفَّ على الصديق لقاءه
وأخوك مَنْ وفَّرت ما في كيسه

ثم إن عزة النفس تلقي على صاحبها مهابة ووقاراً في العيون، وتحرز له جلالة ومكانة في القلوب، وذلك مما تنشرح له صدور العظماء.

(١) «ديوان الشافعي» (ص ٨٥).

(٢) «ديوان الشافعي» (ص ٢٧).

(٣) «ديوان الإمام علي» (ص ١٢١-١٢٢).

(٤) «عين الأدب والسياسة» (ص ١٣٧).

وإنما عيب الرجل في أن يجعل هذه المكانة غايته المنشودة، أو أن يتخذها حباله لا صطياد مآرب لا يتعداه نفعها.

ولهذه الخصلة - كذلك - آثار صالحة في الاجتماع؛ فإن الأمة التي تُشربُ في نفوسها العزة يشتد فيها الحرص على أن تكون مستقلة بشؤونها، غنية عن أمم من غيرها، وتبالغ في الحذر في أن تقع في يد مَنْ يطعن في نحر كرامتها، ولا يستحيي الإنسانية أن تراه مهتضماً لحق من حقوقها^(١).

ولئن كانت عزة النفس جميلةً رائعة فلَهي من أهل العلم أجمل وأروع. ولئن كانت مرغوبةً مطلوبةً من كل أحد فلهي من أهل العلم أولى وأحرى.

فأكرم بمن رفعه العلم فرفع العلم، فصار عوداً مرّاً، ومكسراً صلباً، لا تلين له في نصره الحق قناة، ولا يفت له عضد، يقف للمبطلين موقف الشجى بين الخلق والوريد، فيصار عهم بالحجة، ويفلجهم بالبينه.

وأجدر بذئ العلم أن يكون ذا نفس عزيزة زكية، وساحة طاهرة نقية؛ حتى لا يكون الخلل حائلاً بينه وبين هداية الناس^(٢).

□ ورحم الله القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني؛ إذ يقول في عزة أهل العلم:

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
أرى الناس من دانا هم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرماً

(١) انظر: «رسائل الإصلاح» (١/ ١٢٥-١٢٦).

(٢) انظر: «السعادة العظمى» (ص ٢٠٩-٢١٢)، و«حياة الأمة» (ص ٣١-٣٢).

بدا طمعٌ صيرّته لي سُلماً
ولا كل من لا قيت أرضاه منعا
ولكنّ نفسَ الحرّ تحتلّ الظما
مخافة أقوال العدا فيمّ أو لما
لأخدم من لا قيت لكن لأُحدا
إذن فاتباغُ الجهل قد كان أحزما
ولو عظمّوه في النفوس لعُظما
محياء بالأطباع حتى تجهما^(١)

ولم أقضِ حقّ العلم إن كان كلما
وما كلُّ برقي لاح لي يستفزني
إذا قيل: هذا منهلٌ قلت قد أرى
أنهمُها عن بعض ما لا يشينها
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
أشقى به غرساً وأجنبه ذلّة!
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولكنّ أهانوه فهانوا ودنسوا

وصفوة المقال في عزة النفس أنها ترجع إلى معرفة المرء قيمة نفسه؛ فلا يوردها إلا الموارد التي تليق بها؛ فيشعر بكرامة نفسه، ويشعرها بما لها من حقوق، فلا يسمح لمخلوق كائناً من كان أن ينال منها مثقال ذرة، كما يشعر بما عليه من واجبات، فلا يسمح لنفسه أن يعتدي على حقوق الناس مثقال ذرة أيضاً.

وهي بمعناها الدقيق احترام نفسك من غير احتقار لأحد، وأن تقف موقفاً له جانبان: فإن نظرت إلى من هو أعلى منك في المنصب والجاه ونحو ذلك؛ فلا تُمكنّه أن ينال من نفسك ولو ذرة، ولا أن يتعدى حدوده ولو شعرة.

(١) «أدب الدنيا والدين، والبداية والنهاية» لابن كثير (١١/٣٥٥)، و«خاص الخاص» (ص ٢٢٨-٢٢٩).



وإذا نظرت إلى من هو أسفل منك فلا تتعدى حدودك، وإذا شعرت باستخذائه وذلته فارفع مستواه ما استطعت حتى يصل إلى الحدود^(١).

٥٦- السخاء:

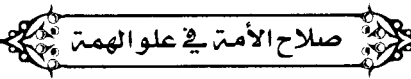
فالسخاء يقوم على الشعور بأن للمال قيمةً تستدعي عدم الإسراف في إنفاقه؛ وأن للحياة الفاضلة مطالب يُبذل المال في سبيلها غير مأسوف عليه؛ فهو بذل ما ينبغي في الوجه الذي ينبغي الإنفاق فيه.

فمن أطلق يده في اتباع الشهوات فهو مسرف، ومن قبضها عن الإنفاق في وجوه الخير فهو بخيل، أما السخاء فكان بين ذلك قوامًا.

وبما أن السخاء يقوم على الرحمة، وقلة الحرص على جمع المال - كان متصلًا بفضائل أخرى تعد من مقومات الهمة العالية، ومن مظاهرها الجليلة؛ فالسخي في أغلب أحواله يأخذ بالعفو، ويتحلى بالحلم، ويجري في معاملاته على الإنصاف، فيؤدي حقوق الناس من تلقاء نفسه، وإذا قضى كان عادلاً، فلا تطمح نفسه إلى رشوة، ولا تحدّثه أن يأخذ حقَّ ضعيف إلى قوي.

ولتجدنَّ السخيَّ بحق متواضعًا، لا يطيش به كبر، ولا تستخفه الخيلاء، ولتجدنَّ أقرب الناس إلى الشجاعة وعزة النفس؛ وإنما يخسر الإنسان الشجاعة والعزة بشدة حرصه على متاع الحياة الدنيا.

(١) انظر: «فيض الخاطر» (٢/ ١٤٧ و ١٤٩).



□ قال أبو الطيب:

فأَحْسَنُ وجهٍ في الوري وجهٌ مُحْسِنٍ وأيمن كَفٌّ فيهم كَفٌّ مُنْعِمٍ^(١)

أما البخيل فلغراغ قلبه من الرحمة، ولقلة اهتمامه بأن يكون له ذكر جميل، ولحرصه على جمع المال حرصاً يعمي ويُصمُّ - تجده قد فقد كثيراً من المكارم، وجمع إلى الشح كثيراً من الرذائل، كما قال عمرو بن الأهتم: ذريني فإن البخل يا أم هيثم لصالح أخلاق الرجال سروق^(٢)

فإذا اتصف المرء بالسخاء زكت نفسه، ولانت عريكته، وقاده سخاؤه إلى أن يترقى في المكارم، وأن يتطهر من المساوئ والمعائب؛ فالسخي قريب من كل خير وبر.

□ قال الرافعي رَحِمَهُ اللهُ: «فمن ألزم نفسه الجود والإنفاق راضها رياضةً عملية كرياضة العضل بأثقال الحديد، ومعاناة القوة في الصراع ونحوه. أما الشح فلا يناقض تلك الطبيعة، ولكنه يدعها جامدة مستعصية، لا تلين، ولا تستجيب، ولا تيسر»^(٣).

ولقد جرت سنة الله بأن السخي بحق يفوز بالحياة الطيبة، ولا تكون عاقبته إلا الرعاية من الله والكرامة؛ فلما كان السخي رحيماً بالفقراء والمساكين والمحتاجين، حريصاً على إسعادهم وإدخال السرور والبهجة

(١) «ديوان المتنبي» (ص ١٤١ / ٤).

(٢) «شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم»، دراسة وتحقيق د. سعود عبد الجابر (ص ٩٢).

(٣) «وحي القلم» (٣ / ١٤).



في نفوسهم - كان جزاؤه من جنس عمله^(١).

أثر السخاء في سيادة الأمة^(٢) :

للسخاء أثر في سيادة الأمة؛ فالأمة تبلغ القدر الأسمى من السيادة بحفظ دينها، وسعة معارفها، وسمو أخلاقها، وصيانة أعراضها، ونباهة ذكرها، ومتانة اتحادها، وحماية أوطانها.

وكل هذه المقاصد الرفيعة الشأن - إنما تتحقق بالمال الذي يبذله الأسخياء من الناس.

فللسخاء أثر في حفظ الدين؛ فالمساجد التي تقام فيها الصلوات والمدارس التي تدرس فيها علوم الدين ووسائلها، والجمعيات التي ترشد بمحاضراتها ومجلاتها إلى حقائق الدين، وتدعو إلى التمسك بعروته الوثقى، والمحاكم التي تُنصَّب للعدل بين الناس وتحكم بشريعة الإسلام الغراء - كل ذلك معدود من مآثر السخاء.

وللسخاء أثر عظيم في تنمية العلوم، وسعة المعارف، وذلك من خلال ما تجود به النفوس الكريمة من أموال تصرف في إنشاء مدارس للتعليم، أو طبع كتب قيّمة، أو عقد مسابقات لتحقيق بحث علمي أو أدبي. وللسخاء أثر في نبل الأخلاق وسلامتها من جهة أنه يحفظ الدين، وينمي العلوم.

وبحفظ الدين، ونمو العلوم ترتفع الأخلاق، وتبلغ الذروة في كمالاتها. وللسخاء أثر في إنقاذ كثير من الناس من عوز الفقر، الذي قد ينجرّف بهم إلى فساد الأخلاق، وضيعة الآداب.

(١) انظر: «الهداية الإسلامية» (ص ٨٤ - ٨٩).

(٢) انظر: «الهداية الإسلامية» (ص ٨٩ - ٩٢).

وللسخاء أثر في صيانة الأعراض؛ ذلك أن الكريم يبذل المال لذي الحاجة، فيصون وجهه من الابتذال بالسؤال، والسؤال يزري بصاحبه، ويجعله عرضة للوقعة فيه.

ثم إن الأسخياء يصونون أعراضهم بما يسدُّون به أفواه أناس لولا عطاؤهم لأطلقوا ألسنتهم بدمهم وهجائهم، ولا اختلقوا لهم معائب وهم منها براء.

□ قال بعض الشعراء:

وما خير مالٍ لا يقي الذمَّ ربَّه ونفس امرئٍ في حقها لا يبينها^(١)

□ وقال المثقَّب العبدى:

لا يبالي طيبُ النفس به تَلَفَ المال إذا العرض سَلِمَ

أجعل المال لِعِرْضِي جُنَّةً إن خير المال ما أوفى الذمَّ^(٢)

□ وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أصون عرضي بمالي أدنسه لا بارك الله بعد العرض بمال^(٣)

□ وقال الشافعي رحمته الله:

وعداوة الشعراء داء معضل ولقد يهون على الكريم علاجه^(٤)

ولهذا فالبخلاء كثيرًا ما يكونون عرضة للهجاء، بل إن أكثر مادة للهجاء في الجاهلية هي البخل والبخلاء؛ فإذا هجى الرجل سارت

(١) «عيون الأخبار» (١/ ٣٤٠).

(٢) «المفضليات» (ص ٢٩٤).

(٣) «ديوان حسان بن ثابت» (ص ١٩٢).

(٤) «ديوان الشافعي» (ص ٣٤) تحقيق الزغبى.

الركبان بذمه وعييه.

□ قال الثعالبي: «قال بعض الرواة: أهجى بيت للعرب قول الأعشى:

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يَتَنَ خمائصا^(١)

□ ولهذا كان جرير يتألم كثيرًا من قول الأخطل:

قوم إذا استنبح الأضيافُ كَلْبُهُمْ قالوا لأُمَّهُمُ بولي على النار^(٢)

وللسخاء أثر في نباهة الذكر بعد سلامة العرض؛ فإن الفضائل
- والسخاء في مقدمتها - تطلق الألسنة بالثناء، والثناء الصادق من النعم
التي تقابل بالارتياح والشكر.

□ قال عمرو بن الأهتم:

وإن المجد أوله وَعَوْرُ ومصدر غِبَّه كرمٌ وخيرٌ^(٣)

وإنك لن تنال المجد حتى تجود بما يَضُنُّ به الضمير

بنفسك أو بمالك في أمور يهاب ركوبها الورع^(٤) الدثور^(٥)

□ وكان خالد بن عبد الله القسري يقول: «تنافسوا في المغانم،

وسارعوا إلى المكارم، واكتسبوا بالجود حمدًا، ولا تكتسبوا بالمال ذمًا، ولا
تعدوا بمعروف ولم تعجلوه، واعلموا أن حوائج الناس نعمة من الله

(١) «أحسن ما سمعت» للثعالبي (ص ١٣٠).

(٢) «ديوان الأخطل» (ص ١٦٦).

(٣) الخير: الشرف.

(٤) الورع: المتحرج، الدثور: الخامل النؤوم.

(٥) «المفضليات» (ص ٤١٠).

عليكم، فلا تملوها فتعودَ نِقَمًا»^(١).

□ وقال ابن حبان البستي رَحِمَهُ اللهُ: «فالواجب على العاقل إذا أمكنه الله من حطام هذه الدنيا الفانية، وعلم زوالها عنه، وانقلابها إلى غيره، وأنه لا ينفعه في الآخرة إلا ما قدم من الأعمال الصالحة - أن يبلغ مجهوده في أداء الحقوق من ماله، والقيام بالواجب في أسبابه، مبتغيًا بذلك الثواب في العقبى، والذكر الجميل في الدنيا؛ إذ السخاء محبة ومحمدة، كما أن البخل مذمة ومبغضة، ولا خير في المال إلا مع الجود»^(٢).

□ ثم إن للسخاء أثرًا في ستر العيوب وإن كثرت، قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

وإن كثرت عيوبُك في البرايا وسَرَّك أن يكون لها غطاء
تَسْتَرُّ بالسخاء فكلُّ عيبٍ يُغَطِّيهِ كما قيل السخاء^(٣)

وللسخاء أثر في ائتلاف القلوب، وتأكيد رابطة الإخاء؛ ذلك أنه يبذر محبة المحسنين في قلوب ذوي الحاجات.

بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴿البقرة: ١٩٥﴾.

□ وكما يسخو المرء ثم إن من وجوه السخاء صرف المال في نحو ضيافة أو هدية ولو لغير ذي حاجة.
وهذا مما يذهب بالجفوة، ويجعل القلب من القلب قريبًا.

(١) «تحاف النبلاء بأخبار وأشعار الكرماء والبخلاء» لابن المبرد الحنبلي تحقيق يسري البشري (ص ٦٠).

(٢) «روضة العقلاء» (ص ٢٣٥).

(٣) «ديوان الشافعي» (ص ١٦) تحقيق الزغبى.

بل إنه يقضي على كثير من الأخلاق المردولة، والتي من شأنها أن تفتك بالجماعة وتقضي على وحدتها، كزديتي الحسد والكبر؛ فالكبر من ذوي اليسار، والحسد من ذوي الحاجة والفاقة.

فبالسخاء يتواضع ذوو اليسار، وبه يزول الحسد من ذوي الحاجات. أما أثر السخاء في حماية الأوطان فإن إعداد وسائل الدفاع إنما يكون بالمال، وعلى قدر سخاء الأمة يكون الاستعداد.

وسخاء الأمة في سبيل الدفاع يأتي على حسب شعورها بالكارثة التي تقع فيها إذا هي تركت الدفاع.

* هذا وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الإمساك عن الإنفاق في سبيل دفع العدو إلقاءً باليد إلى التهلكة، فقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ فِي سَبِيلِ الْمَجَاهِدَةِ الْأَعْدَاءِ فَكَذَلِكَ يَسْخُو بِسَلاحِهِ، فيقول:

لئن لم أكن فيكم خطيباً فإنني بسيفي إذا جدَّ الوغي لخطيب^(١)

□ وكما يسخو بسلاحه يسخو كذلك بقلمه فيقول:

ولي قلمٌ في أنملي إن هزرتُه فما ضربي ألا أهزَّ المهندا^(٢)

من صور السخاء^(٣): وما ينبغي أن يعلم أن السخاء ليس مقتصرًا على بذل المال فحسب، بل إن مفهومه أوسع، وصوره أعمُّ وأشمل:

أ- فيدخل في قبيل الأسخياء من يكون له دين على آخر فيطرحه عنه، ويخلي ذمته منه، وهو يستطيع الوصول إليه دون عناء ولا تعب.

(١) «كتاب الصناعتين» لأبي هلال العسكري (ص ٢٢).

(٢) «الهداية الإسلامية» (ص ٩١).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٩-٢٨٢)، و«الهداية الإسلامية» (ص ٨٤-٨٩).

□ «كان قيس بن سعد بن عبادة ~~ممن~~ من الأجواد المعروفين، حتى إنه مرض مرةً، فاستبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم، فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حلٍّ؛ فما أمسى حتى كُسرَت عتبةُ بابه من كثرة من عاده»^(١).

ب- ويدخل في قبيل الأسخياء من يستحق على عمل أجرًا فيترك الأجر من تلقاء نفسه.

ج- ويدخل في قبيلهم من يسعى في قضاء حوائج الناس، وتفريج كرباتهم.

□ عن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لأن أفضي حاجة أخ أحبُّ إلي من أن أعتكف سنة»^(٢).

□ وقيل لابن المنكدر: «أي الأعمال أحبُّ إليك؟

قال: إدخال السرور على المؤمن».

□ وقيل: أي الدنيا أحبُّ إليك؟

قال: «الأفضال إلى الإخوان»^(٣).

(١) «مدارج السالكين» (ص ٢٧٨/٢).

(٢) «عيون الأخبار» (٤/١٧٥).

(٣) «عيون الأخبار» (٤/١٧٤).

□ وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

الناس بالناس ما دام الحياة بهم
والسعد لا شك تارات وهبأت
وأفضل الناس ما بين الوري رجل
تقضى على يده للناس حاجات
لا تَمْنَعَنَّ يَدَ المعروف من أحد
ما دمت مقتدرًا فالسعد تارات
وأشكر فضائل صنع الله إذ
إليك لا لك عند الناس حاجات^(١)

د- ويدخل في السخاء سخاوة الإنسان بجاهه، بحيث يبذله في سبل الخير، والشفاعات الحسنة، من إحقاق حق، ونصرة مظلوم، وإعانة ضعيف، ومشي مع الرجل إلى ذي سلطان، ونحو ذلك.
* قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِمَّا﴾

[النساء: ٨٥].

• وقال النبي ﷺ: «اشفعوا تؤجروا»^(٢).

□ قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

وأدّ زكاة الجاه واعلم بأنها
كمثل زكاة المال تم نصابها^(٣)
هـ- ويدخل في السخاء سخاء الإنسان برياسته، فيحمله سخاؤه على امتهاتها، والإيثار في قضاء حاجات المتلمس.
و- ومن السخاء سخاء الإنسان براحته، وإجمام نفسه، فيجود بها تعبًا وكدًا في مصلحة غيره.

(١) «ديوان الشافعي» تحقيق خفاجي (ص ٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (١١٨/٢)، ومسلم (٢٦٢٧) عن أبي موسى الأشعري رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) «ديوان الشافعي» تحقيق الزغبى (ص ٢١).

□ ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذاته لمسامره، كما قيل:

مَتَّيْمٌ بِالْنَدَى لَوْ قَالَ سَائِلُهُ هَبْ لِي جَمِيعَ كَرَى عَيْنِكَ لَمْ يَنْمِ^(١)

ز- ومن ذلك سخاء الإنسان بوقته في سبيل نفع الناس أيًا كان ذلك النفع.

ح- ومن جميل السخاء سخاء الإنسان بالنصح والإرشاد.

ط- ومن أعلى مراتب السخاء سخاء الإنسان بالعلم، وذلكم أفضل من السخاء بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال.

والناس في السخاء بالعلم مراتب متفاوتة، وقد اقتضت حكمة الله، وتقديره النافذ ألا ينفع به بخيلاً أبداً.

ومن الجود به أن تبذله لمن يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحاً.

ومن الجود به أن السائل إذا سألك عن مسألة استقصيت له جواباً شافياً، فلا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصرًا على ذلك.

ومن السخاء بالعلم أن لا يقتصر على مسألة السائل، بل يذكر له نظائرها، ومتعلقاتها، وما أخذها، بحيث يشفيه، ويكفيه.

ي- ومن السخاء سخاء الإنسان ينفع البدن على اختلاف أنواعه، كما قال ﷺ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سَلَامٍ مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيَعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ يَمْشِيهَا

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٩).

الرجل إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة»^(١).

ك- ومن السخاء سخاء الإنسان بعرضه لمن نال منه، كما جاء في خبر أبي ضمضم: قال النبي ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضيغم، أو ضمضم - شك ابن عبيد^(٢) - كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك»^(٣).

□ قيل للشعبي: «فلان يَتَقَصُّكُ وَيُشْتِمُكَ، فتمثل الشعبي بقول كثير عزة:

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ لِعَزَّةٍ من أعراضنا ما استحلّت
أسيئ بني أو أحسنني لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تَقَلَّتْ^(٤)

وفي هذا السخاء من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق - ما فيه.

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة الضحى (ص ٧٢٠).

(٢) هو محمد بن عبيد بن حساب.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٨٦)، والعقيلي في «الضعفاء» (١٨٠/٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص ٦٥)، والخطيب البغدادي في «موضح أوهام الجمع والتفريق» (٣٥-٣٦) كلهم عن أنس، وضعفه العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء» (١٦٣/٣)، وكذلك الألباني في «إرواء الغليل» (٣٢/٨)، ولكن له شاهد عند أبي هريرة أخرجه ابن بشكوال في كتابه «الغوامض والمبهات» (ص ٤٤٩)، ونصه: «أن رجلاً من المسلمين قال: اللهم إنه ليس لي مال أتصدق به، فأيا رجل من المسلمين أصاب من عرضي شيئاً - فهو له صدقة، فأوحى الله إلى النبي ﷺ أنه قد غفر له». قال عنه ابن حجر في «الإصابة» (٥٥٠/٢): «صحيح».

(٤) «بهجة المجالس» (٤٣٦/٢).

ل- ومن السخاء السخاء بالصبر والاحتمال، والإغضاء.

وهذه مرتبة شريفة من مراتب السخاء، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعزُّ له، وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها، ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

□ وينسب لأُمير المؤمنين - علي ابن أبي طالب - عليه السلام قوله:

أَغْمَضُ عَيْنِي عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ وَإِنِّي عَلَى تَرْكِ الْغَمُوضِ قَدِيرٌ
وما من عَمَى أَغْضِي وَلَكِنْ لِرَبِّهَا تَعَامَى وَأَغْضَى الْمَرْءَ وَهُوَ بَصِيرٌ
وَأَسْكُتُ عَنْ أَشْيَاءَ لَوْ شِئْتُ قُلْتُهَا وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْمَقَالِ أَمِيرٌ
أُصْبِرُ نَفْسِي بِاجْتِهَادِي وَطَاقَتِي وَإِنِّي بِأَخْلَاقِ الْجَمِيعِ بَصِيرٌ^(١)

م- ومن جميل السخاء سخاء المرء بالخلق، والبشر، والتبسم، والبشاشة، والبسطة، ومقابلة الناس بالطلاقة.

فذلك فوق السخاء بالصبر والاحتمال، والعفو، وهذا هو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في الميزان، وفيه من المنافع والمسار، وأنواع المصالح ما فيه^(٢).

□ قال ابن حبان رحمته الله: «البشاشة إدام العلماء، وسجية الحكماء؛ لأنَّ البشر يطفئ نار المعاندة ويحرق هيجان المباغضة، وفيه تحصين من الباغي، ومنجاة من الساعي»^(٣).

(١) «ديوان الإمام علي» (ص ١٠٦)، وانظر سوء الخلق مظاهره - أسبابه - علاجه للكتاب (ص ١٠٣-١١٦).

(٢) انظر: «سوء الخلق» (ص ٨١-٩٠ و ١٠١-١٠٢).

(٣) «روضة العقلاء» (ص ٧٥).

□ قيل للعتابي: «إنك تقى الناس كلهم بالبشر!».

قال: دفع ضغينة بأيسر مؤونة، واكتساب إخوان بأيسر مبدول»^(١).

□ وقال محمد بن حازم:

وما اكتسب المحامد حامدوها بمثل البشر والوجه الطليق^(٢)

ن- ومن السخاء حض الناس على الخير، وحثهم على الجود والإنفاق.

* ولهذا قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّينِ ۖ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ ﴿٢﴾ وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۖ ﴿٣﴾﴾ [الماعون].

فَذَكَرَ اللَّهُ ﷻ مَنْ لَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ فِي مَعْرِضِ الدِّمِّ، وَفِي هَذَا أَمْرٌ لِلْعَبْدِ بِأَنْ يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ إِطْعَامَهُ بِنَفْسِهِ.

س- ومن ذلك دلالة الناس على وجوه الخير، وتذكيرهم بطرقه؛ فالدال على الخير كفاعله.

ع- ومن ذلك شكر الأسخياء، والدعاء لهم، وتشجيعهم على مزيد من البذل.

* ولهذا لما أمر الله نبيه ﷺ بِأَنْ يَأْخُذَ الصَّدَقَاتِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ - أَمْرُهُ بِالْإِعْطَاءِ لَهُمْ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

فَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: ادْعُ لَهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أَي: طَمَآنِينَةٌ لِقُلُوبِهِمْ، وَاسْتَبْشَارٌ لَهُمْ^(٣).

(١) «بهجة المجالس» (٢/ ٦٦٥).

(٢) «بهجة المجالس» (٢/ ٥٩٨).

(٣) «تفسير ابن سعدي» (٢/ ٢٨٣).

ف- ومن صور السخاء الخفية الجميلة - سخاوة النفس بترفعها عن الحسد، وحبّ الاستئثار بخصال الحمد.

وذلك بأن يحب المرء لإخوانه ما يحب لنفسه، فيفتح المجالات أمامهم، ويعطيهم فرصة للإبداع، والحديث، والمشاركة، ونحو ذلك بعيداً عن الأثرة، وحب التفرد بالخير.

ومما يَجْمُلُ في ذلك أن يفرح لفرحهم، ويحزن لإخفاقهم، فهذه من الصور الخفية للسخاء، وقَلٌّ من يتفطن لها، ويأخذ نفسه بها.

ص- ومن جميل السخاء ومحموده سخاء المرء عما في أيدي الناس، فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله ولا لسانه.

□ قال ابن المقفع: «عَوِّذْ نَفْسَكَ السَّخَاءِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ سَخَاءٌ أَنْ سَخَاوَةَ

نَفْسِ الرَّجُلِ بِمَا فِي يَدَيْهِ، وَسَخَاوَتِهِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ.

وسخاوة نفس الرجل بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أن تدخل في

باب المفاخرة.

وتركه ما في أيدي الناس أَخْصُ في التكرم، وأبرأ من الدنس.

فإنّ هو جمعها، فبذل، وعَفٌّ فقد استكمل الجود والتكرم»^(١).

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فلسان القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم

أعطك ما تجود به على الناس فَجُدْ عليهم بزهدك في أموالهم، وما في

أيديهم - تَفَضَّلْ عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتتفرد عنهم بالراحة»^(٢).

(١) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص ١٤٤).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٨٢).

ق- وأروع ما في السخاء سخاء المرء بنفسه، وأجل ما في ذلك ما كان في سبيل الله.

هذا وقد مر الحديث عن هذا النوع فيما سبق.

□ قال أبو فراس:

ويدعى كريماً من يجود بهاله ومن يبذل النفس الكريمة أكرم^(١)

تفاضل الناس بالسخاء^(٢):

يتفاضل الناس بالسخاء على قدر همهم، وإليك تفصيل ذلك:

أ- يتفاضلون من جهة حال الإنفاق؛ فالذي ينفق في السر أكمل في السخاء من الذي لا ينفق إلا في العلانية، قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾

[البقرة: ٢٧١].

ب- ويتفاضلون من جهة استصغار ما يُنفق واستعظامه؛ فالذي ينفق في الخير، وينسى أو يتناسى أنه أنفق - هو أسخى ممن ينفق ثم لا يزال يذكر ما أنفق، ولا سيما ذكره في معرض الامتنان.

ج- ويتفاضلون في جهة السرعة إلى البذل، والتباطؤ عنه؛ فمن يبذل المال لذوي الحاجة لمجرد ما يشعر بحاجتهم - يُفضّل من لا يبذل المال إلا بعد أن يسألوه.

د- ومن يقصد بالبذل موضع الحاجة - عرفه أو لم يعرفه - يكون

(١) «ديوان أبي فراس» (ص ٦٢).

(٢) انظر: «الهداية الإسلامية» (ص ٨٦-٨٩).

أَسْخَى مَنْ يَخْصُ بِالنَّوَالِ مَنْ يَعْرِفُهُ وَيَعْرِفُونَهُ.
«أَعْطَى رَجُلٌ امْرَأَةً سَأَلَتْهُ مَا لَّا عَظِيمًا، فَلَامُوهُ، وَقَالُوا: إِنَّهَا لَا تَعْرِفُكَ،
وَإِنَّمَا كَانَ يَرْضِيهَا الْيَسِيرَ.
فَقَالَ: إِنْ كَانَتْ تَرْضَى بِالْيَسِيرِ فَإِنِّي لَا أَرْضَى إِلَّا بِالكَثِيرِ، وَإِنْ كَانَتْ لَا
تَعْرِفُنِي فَأَنَا أَعْرِفُ نَفْسِي»^(١).
هـ- وَمَنْ يَعْطِي عَنْ ارْتِيَاكِ وَتَلَذُّ بِالْعَطَاءِ يَعِدُّ أَسْخَى مَنْ يَحْسُنُ وَفِي
نَفْسِهِ حَرْجٌ.

□ قَالَ زَهِيرُ ابْنِ أَبِي سَلْمَى يَمْدَحُ حَصْنَ بْنَ حَذِيفَةَ بْنَ بَدْرٍ:
تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مَتَهَلَّلًا كَأَنَّكَ تَعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ^(٢)
□ وَقَالَ بَشَارُ بْنُ بَرْدٍ يَمْدَحُ عَقْبَةَ بْنَ سَلَمٍ:
لَيْسَ يَعْطِيكَ لِلرَّجَاءِ وَلَا الْخَوْفِ وَلَكِنْ يَلْذُّ طَعْمَ الْعَطَاءِ
لَا وَلَا أَنْ يَقَالَ شَيْمَتُهُ الْجَوِّ دَوْلَكُنْ طِبَاعُ الْآبَاءِ^(٣)
و- وَمِنْ عِلَامَاتِ رَسُوخِ الرَّجُلِ فِي السَّخَاءِ أَلَّا يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ طَالِبِي
الْعَرَفِ حِجَابًا غَلِيظًا.

ز- وَمِنْ عِلَامَاتِ رَسُوخِ الرَّجُلِ فِي السَّخَاءِ أَنْ يَلَاقِي خَدْمَهُ الزَّائِرِينَ
وَالْمُسْتَجِدِينَ بِأَدَبٍ جَمِيلٍ، وَأَنْ يَسْتَقْبِلَهُمْ بِالْبَشَرِ وَالتَّرْحَابِ؛ حَتَّى يَحْفَظَ
عَلَيْهِمْ عِزَّتَهُمْ.

(١) «عيون الأخبار» (١/ ٣٣٧).

(٢) «ديوان زهير ابن أبي سلمى» (ص ٥٢).

(٣) «ديوان شعر بشار بن برد»، السيد بدر (ص ١٤).

□ قال ابن هرمة يمدح رجلاً:

هَشُّ إِذَا نَزَلَ الْوَفُودَ بِبَابِهِ سهل الحجاب مؤدَّب الخدام^(١)

ح- وأبلغ ما يدلُّك على أصالة الرجل أن يَرِقَّ عطفه، حتى ييسط إحسانه إلى ذي الحاجة وإن كان من أعدائه؛ فذلك من كِبَر النفس، ومن ضروب الأنفة والعزة.

□ قال أحدهم:

وأمنحه مالي ووُدِّي ونصرتي وإن كان مُخَيِّ الضلوع على بغضي

□ حكى عن مصعب بن الزبير: «أنه لما ولي العراق جلس يوماً لعطاء الجند، وأمر مناديه فنادى: أين عمرو بن جرموز - وهو الذي قتل أباه الزبير - فقيل له: إنه قد تباعد في الأرض.

فقال: أيعظن الجاهل أني أقيده بأبي عبد الله - يعني والده الزبير -؟ فليظهر آمناً؛ ليأخذ عطاءه موقراً!.

فعدَّ الناس ذلك من مستحسن الكبير^(٢).

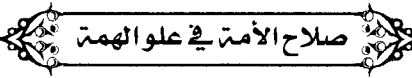
ط- ومن علامات الرسوخ في السخاء أن يتألم المرء، وأن يتأسف أشد الأسف إذا سئل شيئاً وهو غير واجد له.

□ قال الشافعي رحمه الله:

يا لهف نفسي على مالٍ أفرَّقه على المقلين من أهل المروءات

(١) «عيون الأخبار» (١/ ٨٩).

(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٥٣).



إن اعتذاري لمن قد جاء يسألني ما ليس عندي لمن إحدى المصيات^(١)

□ قال سفيان بن عيينة رحمته الله: «كان سعيد بن العاص إذا أتاه سائل فلم يك عنده ما سأل قال: اكتب عليّ بمسألتك سجلاً إلى يوم يسري»^(٢).

ي- ومن الأسخياء من تسمو به الحال، فيرى أن الفضل والمنة إنما هي لمن جاءه يستجديه؛ حيث تكرم عليه، وأحسن الظن به، فهذا من غرائب السخاء.

فهذا حبر الأمة، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه يقول: «ثلاثة لا أكفائهم: رجل بدأني بالسلام، ورجل وسع لي في المجلس، ورجل اغبرت قدماه في المشي إليّ؛ إرادة التسليم عليّ، أما الرابع فلا يكافئه عني إلا الله عز وجل».

قيل: من هو؟

قال: رجل نزل به أمر، فبات ليلته يفكر بمن ينزله، ثم رأني أهلاً لحاجته فأنزلها بي!«^(٣).

□ وينسب له رضي الله عنه أبيات جميلة في هذا المعنى يقول فيها:

إذا طارقاتُ الهُمُّ ضاجعت الفتى	وأعمل فكر الليل والليل عاكراً
وباكربي في حاجة لم يجد بها	سواي ولا من نكبة الدهر ناصر
فرجت بما لي همّ من مقامه	وزايله همّ طروق مسامر

(١) «ديوان الشافعي» تحقيق الزغبى .

(٢) «عيون الأخبار» (١/ ٣٧٠).

(٣) «عيون الأخبار» (٤/ ١٧٦).

وكان له فضل عليّ بظنه بي الخير إني للذي ظنّ شاكر^(١)

ك- وأرفع درجات السخاء أن يكون الرجل في حاجة مُلِحَّةٍ إلى ما عنده، فيدع حاجته، ويصرف ما عنده في وجوه الخير، وذلك ما يسمى بالإيثار.

* قال تعالى في معرض الثناء على الأنصار ﴿لَقَدْ أَضَلَّتْ سَبِيلَ الْمُشْرِكِينَ وَتُؤْثِرُونَ عَلَىٰ

أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

* وقال تعالى في معرض الثناء على عباده المؤمنين: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَطْعَامًا عَلَىٰ حَبِّهِمْ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان].

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ثم أخبر عنهم بإطعام الطعام على محبتهم له، وذلك يدل على نفاسته عندهم، وحاجتهم إليه».

وما كان كذلك فالنفوس به أشح، والقلوب به أعلق، واليد له أمسك.

فإذا بذلوه في هذه الحال فهم لما سواه من حقوق العباد أبذل^(٢).

□ قال دعبل الخزاعي:

وليس الفتى المعطي على اليسر ولكنه المعطي على العسر واليسر^(٣)

□ وقال بعض الشعراء:

ليس جود الفتيان من فضل مال إنما الجود للمقل المواسي^(٤)

(١) «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده» لابن رشيق القيرواني (١/ ٣٧).

(٢) «جامع الرسائل» لابن تيمية (١/ ٧٢).

(٣) «عيون الأخبار» (١/ ٣٤٤).

(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٣٤٤).

فإذا كان السخاء بتلك المثابة فما أجدر العاقل أن يأخذ نفسه به، وأن يجاهدها على اكتسابه.

وإذا كان من أعظم الأسباب لعلو الهمم وسيادة الأمم - فما أحرانا أن نربي نَشَانًا على هذا الخلق العظيم، وأن نلقنهم أنه مرقاة السيادة والفلاح. كما كان فرضًا علينا أن ننذرهم سوء المنقلب الذي ينقلب إليه البخلاء والمبذرون.

فإذا نحن فعلنا هذا أخرجنا للناس أمة تسمو أن تنحدر في تلك المدنية الهازلة المزدولة، ولا يجد خصومها لقهرها أو سلب حق من حقوقها طريقًا.

٥٧- الإعراض عن الجاهلين:

فهذا العمل سبب لعلو الهمة، ورفعة المنزلة، ووفور الكرامة، والبعد عن موجبات الذلة.

فمن أعرض عن الجاهلين حمى عرضه، وأراح نفسه، وسلم من سماع ما يؤذيه.

❖ قال **عَلَاءٌ**: ﴿حُذِّ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٣٩)

[الأعراف].

فهذه الآية جمعت أصول الأخلاق؛ فهي علاج رباني للراحة من شياطين الإنس.

فبالإعراض يحفظ الرجل على نفسه عزتها؛ إذ يرفعها عن مجارة الطائفة التي تلذ الإقذاع والمهاترة.

□ قال الشافعي:

أعرض عن الجاهل السفية
ما ضر نهر الفرات يوماً
فكل ما قال فهو فيه
لو خاض بعض الكلاب فيه^(١)
□ وقال:

إذا سبني نذل تزايدت رفعة
ولو لم تكن نفسي علي عزيزة
وما العيب إلا أن أكون مسابه
لمكثتها من كل نذل تحاربه^(٢)
□ وقال السموأل:

رب شتم سمعته فتصائم
ت وعي تركته فكفيت^(٣)
□ وقال المثقب العبدئي:

وكلام سيي قد وقرت
فتعزيت؛ خشاة أن يرى
أذني عنه وما بي من صمم
جاهل أني كما كان زعم
ذلي الخنا أبقى وإن كان ظلم^(٤)
□ وقال الأصمعي: «بلغني أن رجلاً قال لآخر: والله لئن قلت واحدة

لتسمعن عشراً.

(١) «ديوان الشافعي» (ص ٩٠).

(٢) «ديوان الشافعي» (ص ٢٢).

(٣) «الأصمعيات» (ص ٨٥).

(٤) «الفضليات» (ص ٢٩٤).

فقال له الآخر: لكنك إن قلت عشرًا لم تسمع واحدة»^(١).

□ وشتم رجل الحسن وأربى عليه، فقال له: «أما أنت فيما أبقيت شيئًا، وما يعلم الله أكثر»^(٢).

□ وقال بعض الشعراء:

إني لأعرض عن أشياء أسمعها حتى يقول رجال إن بي مُحمّقا

أخشى جواب سفيه لا حياء له فسئل وظن أناس أنه صدقا^(٣)

□ قال ابن المقفع: «واعلم أنك ستبتلى من أقوام بسفه سيطلع منك حقدا.

فإن عارضته أو كافأته بالسفه فكأنك رضيت ما أتى به؛ فأحببت أن تحتذي مثاله.

فإن كان ذلك عندك مذموماً فحَقِّقْ ذَمَّكَ إياه بترك معارضته.

فأما أن تذمه وتمثله^(٤) فليس في ذلك سداد»^(٥).

□ وقال الخطابي: «أنشدني ابن مالك، قال: أنشدني الدَّغُولِي في سياسة

العامة:

إذ أَمِنَ الجُهالُ جهلك مرة فَعَرَضُكَ للجَهاالِ غُنْمٌ مِنَ الغُنْمِ

وإن أنت نازيت السفيه إذا نزا فأنت سفيه مثله غير ذي حلم

ولا تعرض للسفيه وداره بمنزلة بين العداوة والسلام

(١) «عيون الأخبار» (٣/ ٢٨٥).

(٢) «عيون الأخبار» (٣/ ٢٨٧).

(٣) «عيون الأخبار» (٣/ ٢٨٤).

(٤) تمثله: تحتذيه وتسلك مسلكه.

(٥) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص ١٥٥).

فيخشاك تاراتٍ ويرجوك تارة وتأخذ فيما بين ذلك بالحزم^(١)

٥٨- إِبَاءَةُ الضَّيْمِ:

الضيم: الظلم والاضطهاد، وإِبَاءَتُهُ: كراهته والنفور منه.

والنفور الصادق من الضيم يستلزم الغضب عند وقوعه.

ولهذا الخلق صلة محكمة بخلقين عظيمين، هما: عزة النفس،

والبطولة؛ فمن لم يكن عزيز النفس لم يتألم من أن يضام، ومن لم يكن بطلاً

احتمل الضيم؛ رهبة أو حرصاً على الحياة.

□ قال أبو النشاش النهشلي:

فمت معدماً أو عش كريماً؛ فإنني أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه^(٢)

□ وقال عَدِيُّ بن رعاء الغساني:

ليس من مات ما ستراح بميتٍ إنما الميتُ ميّتُ الأحياء

إنما الميتُ من يعيش ذليلاً سيئاً باله قليلُ الرجاء^(٣)

□ وقال سويد ابن أبي كاهل يمدح قومه:

وإِبَاءٌ لِلدَّنِيَّاتِ إِذَا أُعْطِيَ الْكَثُورُ^(٤) ضَيْمًا فَكَنَعُ^{(٥)(٦)}

(١) «العزلة» للخطابي (ص ٢٠٦-٢٠٧).

(٢) «الأصمعيات» (ص ١٩٩).

(٣) «الأصمعيات» (ص ١٥٢).

(٤) المكثور: المغلوب.

(٥) كنع: خضع.

(٦) «الأصمعيات» (ص ١٩٧).

فإبادة الضيم من علامات الهمة العالية، ومن مقوماتها الأساسية. ولهذا فإن الرجل الذي يغار على ذوي القرابة والصداقة والجوار، ويبذل في إنقاذهم من الضيم دمه، أو ماله، أو جاهه - يعظم بهذه المزية في أعين من يقدرُون المكارم قدرها.

وأكبرُ أباءِ الضيم همةً، وأرقاهم في سماء السيادة مقامًا - هو من يغار على الأمة في دينها، ويأبى أن تمسها لفحةٌ من ضيم، فيجاهد في سبيل سلامتها من أن يهضم حق من حقوقها، أو يغتصب شبر من أوطانها^(١). ويصور لك إباء الرجل؛ لأن يضام قول عتبان الشيباني حين نزلت ثقيف متقلبة على أرض قومها:

فلا ضُلحَ ما دامت أرضنا يقوم عليها من ثقيفَ خطيبُ^(٢)

□ أو قل إن شئت:

فلا ضُلحَ ما دامت منابرُ أرضنا يقوم عليها من أمريكا صليبُ

٥٩- النظر إلى من هو أعلى في الفضائل وإلى من هو أدنى في أمور الدنيا :

فهذا من مقومات الهمم، ومن أسباب النهوض للمعالي؛ فينبغي لمتطلب الكمالات أن ينظر إلى من فوقه في أمور الدين، والتقوى، والصلاح، والعلم، والعبادة، والكرم، ومحاسن الأخلاق، وسائر الفضائل.

وأن ينظر إلى من دونه في أمور الدنيا من منصب، أو جاه، أو مال، أو

(١) «رسائل الإصلاح» (٢/ ٧٢).

(٢) «العفو والاعتذار» للرقام البصري (١/ ١٨٦).

صحة، أو بناء، أو مركب أو نحو ذلك..

□ قيل في مثور الحكم: «وإذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجاهل، ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء»^(١).

□ وقال ابن العميد:

من شاء عيشًا هنيئًا يستفيد به في دينه ثم في دنياه إقبالاً
فليُنظرَنَّ إلى من فوقه أدبًا وليُنظرَنَّ إلى من دونه مالا^(٢)

فإذا أخذ المرء بهذا الأدب السني، وتوفر على اقتناء الفضائل، وألزم نفسه على التخلص بالمحاسن، ولم يرص من منقبة إلا بأعلاها، ولم يقف عند فضيلة إلا وطلب الزيادة عليها، واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلاً، ويبقى لها الذكر الجميل آجلاً - لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام، ويرتقي إلى النهاية في الكمال، فيحوز السعادة الإنسانية، والرئاسة الحقيقية، ويبقى له حسن الثناء مؤبداً، وجميل الذكر مخلداً^(٣).

• وإلى هذا المعنى العظيم يسير قول النبي ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخلق - فليُنظر إلى من هو أسفل - منه ممن فُضِّل عليه»، وزاد مسلم: «فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»^(٤).

□ قال ابن بطال رحمه الله: «هذا الحديث جامع لمعاني الخير؛ لأن المرء لا

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ٧٢).

(٢) المصدر السابق (ص ٧٣).

(٣) انظر: «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص ٦٠ - ٦١).

(٤) رواه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢١٣/٨).

يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهداً فيها - إلا وجد من هو فوقه؛ فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله، فيكون أبداً في زيادة تقربه من ربه، ولا يكون على حال خسيصة من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أحسن حالاً منه.

فإذا تفكر في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فُضِّل عليه بذلك من غير أمر أوجبه، فيلزم نفسه الشكر، فيعظم اغتباطه بذلك في معاده»^(١).

٦٠ - إدامة النظر في السيرة النبوية:

فالسيرة النبوية مليئة بالأحداث العظام، التي تبعث الهمة، وتوقظ العزيمة.

فحياة النبي ﷺ كلها مليئة بالجهاد، والصبر، والمصابرة، وصدق العزيمة، وعلو الهمة.

ولا عجب في ذلك فهو سيد البشر، وخيرة الله من خلقه، وهو قدرة الناس أجمعين.

ولذلك لما بعثه الله؛ ليخرج العباد من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد أنشأ ﷺ يؤسس مبادئ العزة والكرامة، فاجتث من الأنفس شجرة الذلة من جذورها، وأعتق رقاب الأمة من الاستكانة؛ مخافة أن تهوي بها إلى أدنى درجات الضعة والدناءة، ولم يأل جهداً في إجراء دم الشهامة وكبر الهمة في عروقه الميته، حتى أخرجها في قالب الكمال، لا تتردد إلا على أبواب الفضائل، ولا تبسط ساعديها إلا

(١) «فتح الباري» (١١ / ٣٣٠).

لمهمات الأمور^(١).

□ قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: «من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها - فليقتدِ بمحمد رسول الله ﷺ وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الاتساء به بِمَنْه آمين»^(٢).

٦١- الرحلة والتقلب في كثير من البلاد:

ولا سيما التقلب في بلاد تختلف بعاداتها، وأساليب تربيتها، ومناهج حياتها العلمية والسياسية.

«ولعل نبوغ ابن خلدون في شؤون الاجتماع ذلك النبوغ الرائع - إنما جاءه من نشأته في تونس، ثم سياحته في بلاد الجزائر، والمغرب الأقصى، والأندلس، ثم مصر - سياحة اعتبار، سياحةً اتصل فيها برؤساء حكوماتها، وأكابر علمائها، بل سياحة كان يقبض فيها أحياناً على طرف

(١) انظر: «حياة الأمة» (ص ٢٩-٣٠)، وانظر: «العظمة» (ص ٢٤-٢٨) لمحمد الخضر حسين.

(٢) «الأخلاق والسير» (ص ٢٤)، وانظر تفصيل ذلك في «صيد الخاطر» (٢/ ٤١٠-٤١٣)، وانظر: «الشمال المحمدية» للترمذي (ص ١٨٦-٢١٠) و(٣٦٢-٢٨٣) تحقيق محمد عفيف الزغبى، وانظر «الأنوار في شمائل النبي المختار» للبغوي تحقيق الشيخ إبراهيم اليعقوبي (١/ ١٦١-٣٥٨)، و«أخلاق النبي ﷺ وآدابه» لأبي الشيخ الأصبهاني تحقيق عصام الدين الصباطي (ص ١٣-٩٨)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني (ص ٥٥١-٦٥٦)، و«إحياء علوم الدين» (٢/ ٣٥٧-٣٨٧)، و«شمائل الرسول ودلائل نبوته» لابن كثير (١/ ٧٣-١٥٢)، ومحمد رسول الله وخاتم النبيين لمحمد الخضر حسين.

من سياسة تلك البلاد»^(١).

وإذا درسنا تاريخ العلماء والأدباء الذين رحلوا عن أوطانهم، ووجهنا النظر إلى ما نتج عن رحلاتهم من فوائد تعود عليهم أنفسهم وعلى قومهم، أو على الأوطان التي حلوا بها - وقفنا على فوائد عديدة، وعوائد حميدة، يقدرها الباحثون عن وسائل رقي الأفراد والجماعات.

فمن أنفس ما يكتسبه الرجل في رحلته أن يعلم أشياء لم يكن يعلمها من قبل؛ فكم من عالم لم يبلغ المقام الذي يشار إليه بالبنان إلا بالرحلة.

كما أن في الرحلة عوناً على التمكن من بعض الأخلاق السامية، مثل خلق الصبر؛ لكثرة ما يلاقيه الراحل من متاعب بدنية، وآلام نفسية.

ومثل أدب المدارة؛ فإن البعيد عن وطنه أشد شعوراً بالحاجة إلى الأدب ممن يعيش بين قوم يعرفون من حسبه ومكانة بيته ما يجعل صراحته خفيفة على أسماعهم.

كما أن الراحل لا يخلو من أن يلاقي في رحلته رجالاً صاروا مثلاً عالية في مكارم الأخلاق، فيزداد بالافتداء بهم كما لا على كمال.

ثم إن الأملعي قد ينشأ في نبوغ، فيضيق بلده عن أنظاره الواسعة، وتطلعاته البعيدة، فيرحل إلى مدينة تكون أوسع مجالاً للآراء والأخذ والرد، فتعظم مكانته، ويكثر الانتفاع بحكمته.

ولولا الرحلة لما عظم شأنه، ولما كثرت ثمرات نبوغه.

ومما ذكر في هذا الصدد «أن القاضي يوسف بن أحمد بن كج الدينوري

١. «رسائل الإصلاح» (١/ ١٨١)، وانظر: «حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته

الاجتماعية» لمحمد الخضر حسين.

قد بلغ في العلم مرتبة كبيرة، وقال له بعض من لقيه: يا أستاذ، الاسم لأبي حامد الغزالي، والعلم لك؟!

فقال القاضي: ذاك رفعته بغداد، وأنا حطتني الدَّيْنُورُ! (١).

وربما أدرك الرجل في وطنه ضيق عيش يخشى أن يعوقه عن الازدياد في العلم، أو التفرغ لنشره بالتدريس والمذاكرة، فيرحل حيث يلقي كفافاً أو يساراً يساعده على أن يقبل على الدرس والبحث بنفس مطمئنة.

أما البلاد التي يُرحل منها فإنها تستفيد من جهة أن العالم يرحل من وطنه وهو يحمل علماً غزيراً، أو يتحلّى بأدب سنيٍّ، ثم ينزل بين جماعات مختلفة، فيرونه مثلاً لأهل العلم والأدب من قومه، فيرتفع شأن قومه في أنظارهم.

ثم إن البلاد التي يُرحل منها قد تحظى بالعلم بعد انقطاعه عنها، أو تقوم سوقه فيها بعد خمولها، والفضل في ذلك لرجال يرحلون إلى الحواضر التي هي منبع العلوم، ثم يعودون وقد امتلأوا مما اغترفوا من العلوم والفنون (٢).

أما البلاد التي يُرحل إليها فإنها تُفيد أيها فائدة ممن يفد إليها من العلماء والأدباء وأهل الفضل.

فرحلات العلماء والأدباء تنقل العلم والأدب من بلد إلى آخر على وجه أثبت وأنفع مما تنقله المؤلفات وحدها.

والأمثلة والشواهد على ما مضى كثيرة جداً، ولا أدل على ذلك في

(١) «رسائل الإصلاح» (٢/ ٧٩).

(٢) انظر: «رسائل الإصلاح» (٢/ ٧٥-٨٥)، و«الرحلات» لمحمد الخضر حسين.

العصور الحديثة من رحلة العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - عليه
رحمة الله - فلقد رحل من بلاده شنقيط إلى الديار السعودية، فأفاد
واستفاد، وارتفع شأنه، وعلت مكانته؛ حتى أصبح في مقدمة أهل زمانه
في العلم والفضل^(١).

وقل مثل ذلك في شأن الشيخ الداعية عبد الله القرعاوي - عليه رحمة
الله - الذي رحل إلى جنوب المملكة العربية السعودية، فدعا إلى الله،
وحرص على نشر العلم، فففع الله به نفعاً عظيماً ترى آثاره إلى يومنا
الحاضر^(٢).

هذا وإن مما ينبغي التنبيه عليه أن السفر لا يذكي همة صاحبه، ولا يربي
له ملكة الأدب - إلا إذا قارنته فطنةٌ مستيقظة، تبحث عن أسرار
الاجتماع، وتدقق النظر في تمييز الحسن من المعيب؛ لأن من الناس من لا
يزيدهم الاغتراب إلا خوراً في طباعهم، وانحلالاً في أخلاقهم، وعقائدهم.
قد غمسوا وجوههم في الخبائث، حتى نضب منها ماء الحياة، وانسدل
عليها من السحابة قناعٌ كثيف.

بل إن منهم من تتهدى به القحمة، فيُغَيَّرُ على العقائد تسفيهاً وتضليلاً
خصوصاً ممن ارتقى في أحضان أعداء الله، فسافر إلى بلادهم بلا عقيدة
تردعه، ولا إيمان يزمه.

(١) انظر: «رحلة الحج إلى بيت الله الحرام» للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وترجمة الشيخ
محمد الأمين الشنقيطي، للشيخ عبد الرحمن السديس.

(٢) انظر: «الشيخ عبد الله بن محمد القرعاوي ودعوته في جنوب المملكة العربية
السعودية» تأليف موسى السهلي.

ولو انزوت هذه الفئة في حنايا بيوتهم لكان خيراً لهم، وأخفّ فتنه على السماعيلين لهم؛ فالسفر النافع - إذاً - ليس هو مبارحة الأوطان كيفما اتفق، ولا الجولان بالبلدان كيفما كان الحال ^(١).

٦٢ - استشعار المسؤولية:

• وذلك بأن يستشعر الإنسان مسؤوليته، ويعمل ما في وسعه ومقدوره، ويحذر كل الحذر من التهرب من المسؤولية، والإلقاء باللائمة والتبعة على غيره؛ فذو الهمة العالية يخوض معركة الحياة بعزم وإيمان؛ فلا ينتحل الأعذار للتخلص من الواجب، ولا يخلق الأسباب للتنصل من المسؤولية، بل لقد رَوَّض نفسه على تحمل المسؤوليات، والنهوض بالواجبات من غير ما ترددٍ أو إحجام؛ ذلكم أن المسؤولية في الإسلام عامة، تشمل كل فرد من المسلمين؛ فهم جميعاً داخلون في عموم قوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» ^(٢).

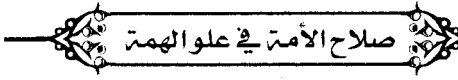
فالمسؤولية مشتركة، كل امرئ بحسبه، هذا بتعليمه وكلامه، وهذا بوعظه وإرشاده، وهذا بقوّته وماله، وهذا بجاهه وتوجيهه إلى السبيل النافع وهكذا.

فاستشعار المسؤولية مما يبعث الهمة، ويقود إلى التنافس في الخير، وبه تستجلب الخيرات، وتنال الهداية والبركات.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ

(١) انظر: «السعادة العظمى» (ص ١٢٩ - ١٣٢).

(٢) رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).



تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَيْنَهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدِيَنَّهُمْ سِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ [النساء].

٦٢- الحرص على الإفادة من كل أحد ومن كل موقف:

□ قال الشيخ محمد إبراهيم أحمد: «فقد تساعف الإنسان الأمور، فتسير على نحو ما يريد، وقد تخالفه الأمور، فتجري على خلاف ما يشتهي».

وقد يوفق بمن يعينه ويأخذ بيده، وقد يخذل فلا يجد إلا من يعوقه ويقف في طريقه.

وكثير من الناس يفيد من الأمور التي تجري في صالحه، ولكنه يقف مكتوف الأيدي إذا وقف أمامه أمر، أو حال دون بغيته حائل.

أما العاقل الحازم، ذو الهمة العالية، والبصيرة النافذة - فيحرص كل الحرص على أن يوظف الأمور كي تسير في صالحه، وأن يفيد من جميع المواقف التي تمر به مهما اختلفت عليه، فتراه «ينتفع بكل من خالطه وصاحبه، من كامل، وناقص، وسيئ الخلق، وحسنه، وعديم المروءة، وغزيرها».

وكثير من الناس يتعلم المروءة ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها، ما روي عن بعض الأكابر أنه كان له مملوك سيئ الخلق، فظ، غليظ، لا يناسبه.

فسئل عن ذلك، فقال: إني أدرس عليه مكارم الأخلاق!

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق في ضد أخلاقه، ويكون بتمرين

النفس على مصاحبته، ومعاشرته، والصبر عليه»^(١).

□ قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: «ولكل شيء فائدة، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه توقد طبعي، واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيج نشاطي، فكان ذلك سبباً إلى تواليف لي عظيمة، ولولا استثارتهم نشاطي، واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التواليف»^(٢).

□ وهذا الأديب الكبير عباس محمود العقاد يقول في صدد الحديث عن أساتذته، وعن استفادته منهم: «استفد في مرحلة التعليم الابتدائي من أستاذين اثنين على اختلاف بينهما في طريق الإفادة؛ فإن أولهما قد كان قاصداً، والآخر أفادني على غير قصد منه، فحمدت العاقبة على الحالين.

كان أحد الأستاذين الشيخ فخر الدين محمد الدشناوي، وكان يميل إلى التجديد والابتكار في التعبير، ويمنح أحسن الدرجات للتلميذ المتصرف في مناحي الكلام، وأقلها للتلميذ الذي يقتبس من نماذج الكتب.

وكانت دروسه تلهب حماسة ووطنية، ولها تأثيرها البليغ في نفوس التلاميذ، خصوصاً في زمن كانت تئن فيه البلاد من وطأة الاحتلال.

أما الأستاذ الثاني فمدرس الحساب»^(٣).

□ ثم تحدث عن مدرس الحساب فقال: «كان يؤمن بالخرافات، وشفاعات الأولياء، وكان محدود الفهم في دروسه، ولا سيما المسائل

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٣٥).

(٢) «الأخلاق والسير» (ص ٤٨).

(٣) «ذكرياتي مع عباس العقاد»، لطاهر الجبلاوي، إعداد عباس طاهر الجبلاوي (ص ٢٥).

العقلية في دروس الحساب»^(١).

□ وبعد أن ذكر بعض المواقف مع ذلكم الأستاذ قال: «ولكن الدرس الأكبر الذي أحسبه أكبر ما استفدته مع جميع الدروس في صباي كان بصدد مسألة حسابية من تلك المسائل العقلية.

كنت شديد الولع بهذه المسائل، لا أدع مسألة منها دون حل مهما يبلغ من إعصالها.

وكان الأستاذ يحفظ منها عددًا كبيرًا محلولًا في دفتره يعيده على التلاميذ كل سنة، وقلنا يزيد عليه شيئًا من عنده.

وعُرضت في بعض الحصص مسألة ليست في الدفتر، فعالجنا حلها في الحصة على غير جدوى، ووجب في هذه الحالة أن يحلها الأستاذ لتلاميذه فلم يفعل، وقال على سبيل التخلص: إنها عرضتها عليكم؛ امتحانًا لكم؛ لتعرفوا الفرق بين مسائل الحساب، ومسائل الجبر؛ لأنها تشتمل على مجهولين.

لم أصدق صاحبنا، ولم أكُفَّ عن المحاولة في بيتي، وقضيت ليلةً ليلاً حتى الفجر، وأنا أقوم وأقعد عند اللوحة السوداء حتى امتلأت من الجايين بالأرقام، وجاء الفرج قبل مطلع النهار، فإذا بالمسألة محلولة، وإذا بالمراجعة تثبت لي صحة الحل، فأحفظ سلسلة النتائج وأعيدها؛ لاستطيع بيانها في المدرسة دون ارتباك أو نسيان.

قلت: لقد حللت المسألة.

(١) «ذكرياتي مع عباس العقاد» (ص ٢٥).



قال الأستاذ: أية مسألة.

قلت: المسألة التي عجزنا عن حلها في الحصة الماضية.

قال: أو صحيح؟ تفضل، أرنا همتك يا شاطر!

وحاول أن يقاطعني مرة بعد مرة، ولكن سلسلة النتائج كانت قد انطبعت في ذهني؛ لشدة ما شغلتنني، وطول ما راجعتها، وكررت مراجعتها، وانتظرت ما يقال.

فإذا الأستاذ ينظر إليّ شزراً وهو يقول: لقد أضعت وقتك على غير طائل؛ لأنها مسألة لن تعرض لكم من امتحان. وإذا بالتلاميذ يُعقَّبون على نفحة الأستاذ قائلين: ضيّعت وقتنا، ما الفائدة من كل هذا العناء؟^(١).

□ ثم عقب العقاد على هذا الحدث بقوله: «كانت هذه الصدمة خليقة بأن تكسرنى كسرًا لو أن اجتهادي كان محل شك عندي، أو عند الأستاذ، أو عند الزملاء.

أما وهو حقيقة لا شك فيها، فإن الصدمة لم تكسرنى، بل نفعتني أكبر نفع حمدته في حياتي، وصح قول: «نيتشه»^(٢): كل ما لم يقتلني يزيدني قوة. لأنني لم أحفل بعدها بإنكار زميل، ولا رئيس، وعلمت أن الفضل قيمته فيه، لا فيما يقال عنه أيًا كان القائلون»^(٣).

(١) «ذكرياتي مع عباس العقاد» (ص ٢٧-٢٨).

(٢) يعني به: فريدريك نيتشه، فيلسوف ألماني. انظر: «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية

المعاصرة» لعبد الرحمن الميداني (ص ٥٦٠).

(٣) «ذكرياتي مع عباس العقاد» (ص ٢٨).

بل إن كثيرًا من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أمورًا تنفعه في معاشه، وأخلاقه، وصناعته، وحربه، وحزمه، وصبره.

قيل لرجل: مَنْ عَلَّمَكَ البكور في حوائجك أوَّل النهار لا تُحِلُّ به؟
قال: مَنْ عَلَّمَ الطير تغدو خماصًا كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها، لا تسأم ذلك، ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض.
وقيل لآخر: مَنْ عَلَّمَكَ السكون، والتحفظ، والتماوت حتى تظفر بإربك، فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته؟

قال: الذي علم الهرة أن ترصد جحر الفأرة، فلا تتحرك، ولا تتلوى، ولا تختلج حتى كأنها ميتة، حتى إذا برزت الفأرة وثبت عليها كالأسد.

وقيل لآخر: من علمك حسن الإيثار والبذل والسماحة؟

قال: من علم الديك يصادف الحبة في الأرض، وهو يحتاج إليها ولا يأكلها، بل يستدعي الدجاج، ويطلبهن طلبًا حثيثًا حتى تجيء الواحدة منهن، فتلتقطها وهو مسرور بذلك، طيب النفس به.

فإذا وضعت له الحبَّ الكثير فرَّقه ههنا وههنا، وإن لم يكن له دجاج؛ لأن طبعه قد أَلِفَ البذل والجودَ، فهو يرى أنه من اللؤم أنه يستبد وحده بالطعام.

وكذلك كرام الأسود وأشرافها يُتعلَّم منها الأنفة وعزة النفس؛ فهي لا تأكل إلَّا من فريستها، وإذا مرت بفريسة غيرها لم تدن منها ولو جهدها الجوع^(١).

(١) انظر ذلك مفصلاً في «شفاء العليل» لابن القيم (ص ١٤٧ - ١٦٤).

ومن جميل ما ينبغي على المرء في هذا الشأن أن يفيد من تجارب الآخرين؛ فالحياة كلها تجارب، واستفادة من التجارب، وميزة إنسان على إنسان، وأمة على أمة هي القدرة على الاستفادة من التجارب وعدمها؛ فالحادثة تمر أمام جمع من الناس فيستفيد منها أحدهم بمقدار مئة، وآخر بمقدار خمسين، وثالث تمر منه الحادثة على عين بلهاء، فلا يستفيد منها شيئاً؛ فكم من الناس من لهم أعين ولكن لا يبصرون بها، وأذان ولكن لا يسمعون بها، وقلوب ولكن لا يعقلون بها.

والفرق بين من يستفيد من التجربة ومن لا يستفيد أن الأول يستطيع أن ينتهز الفرص في حينها، وأن يتجنب الخطر قبل وقوعه، على حين أن الثاني لا ينتهز فرصة، ولا يشعر بالخطر إلا بعد وقوعه.

وحينما تقرأ كتب التاريخ تقرأوها؛ لتستفيد من أعمال الناس، وما وقع لهم، وما صدر منهم، وما كان من نتائج أعمالهم، وتقرأ سير العظماء؛ لتتشبه بهم، وتذكر مواضع عظمتهم»^(١) اهـ^(٢).

٦٤- السلامة من الغرور ومن المبالغة في احتقار النفس^(٣) :

«فهذان الأمران من أعظم الأسباب لدنو الهمم، والسلامة منهما من أعظم الأسباب لعلوها.

أما الغرور فهو أن يحتقر المرء كل من عداه، وأن يتناول إلى ما ليس في قدرته، وأن يتدخل فيما ليس من شأنه، وأن يحكم على ما لم يُحِط به علمه.

(١) انظر: «فيض الخاطر» (١٠/ ٢١١).

(٢) «الهمة العالية» (ص ٢٣٠ - ٢٣٤).

(٣) المصدر السابق (ص ٢٥٤ - ٢٥٦).

حتى إن المغرور ليرتفع عن الإصغاء إلى نصيحة، أو الاستماع لرأي، أو الخضوع لكبير، أو الإجلال لعالم.

وهذا المرض متفش في أمتنا؛ فكم من أمتنا من قضى عليه الخمول والكسل، ولو سألتهم عن ذلك لأجابوك: من نحن؟ وما قيمتنا؟ وماذا نستطيع أن نعمل؟ وهل بإمكاننا أن نوقف الشمس؟ أو أن نؤخر عجلة الزمن؟

كلا يا صاح، إنك شيء عظيم، تستطيع أن تفعل أشياء وأشياء، وما هؤلاء الذين تراهم ممن يملأون التاريخ بجلائل الأعمال إلا أناس مثلك، لهم مثل ما لك في الذكاء والموهبة، ولكنهم وثقوا بأنفسهم، وعرفوا قيمة مواهبهم.

وهذا المرض تبتلى به الأمم الضعيفة، المتقلبة من طور الخمول إلى دور اليقظة، أو المتردية من شامخ العزة إلى درك الضعف والذلة.

وإنه لمرض يتفشى في أمتنا اليوم، وحسبك أن تستمع إلى أحاديث الناس في المجتمعات العامة؛ لترى كيف يحمل كثير منهم مبضع الطبيب، يجرح به هذا، ويقطع به ذلك، وكيف ينطوي على غرور يجعل رأيه فوق الآراء، ونظره فوق الأنظار، وعلمه فوق كل علم.

وهو لا يفتأ في حديثه يصف الناس بالحقاقة، وأهل العلم بالجهالة ونحو ذلك..

وحين تبتلى الأمة بهذه البلية فإنها تستعصي على نصح الناصحين، وتنحدر وهي تظن أنها في أعلى عليين، وتتراكم عليها المصائب، وهي تظن أنها أقوى من جميع أعدائها، تهزمهم بصرخة، وتردهم بإشارة،

وتدفعهم عنها بالضجة، والثرثرة.

□ أما المرض الثاني فهو المبالغة في احتقار النفس؛ فتجد من الناس من هو محطم النفس، مسلوب الإرادة، فاقد الأمل، قليل الثقة بنفسه وبأتمته، لا يرى أن باستطاعته أن يقوم بشيء في هذه الحياة.

وما أقسى هذا الداء، وما أَمَرَّه على الأمة؛ إذ يشل حركتها، ويجعلها ذليلة أمام كل جبار، ضعيفة أمام كل قوي.

أما أنت فقد قعدت بك همتك، فازدريت نفسك، وانتقصت أمتك، ورضيت لنفسك أن تكون نسيًا منسيًا.

مثل هؤلاء في أمتنا كثير، وأعجب من ذلك أنك ترى في هؤلاء المصابين بمرض الخمول والاحتقار للنفس من هو مصاب في الوقت نفسه بداء الغرور أيضًا؛ فهو يضع نفسه في أتمته موضع المتكبر المتبجح المغرور.

ولكنه يطرق رأسه أمام الأعداء حطة، وذلة، ومهانة.

والسلامة كل السلامة أن يسلمك الله من هذه الأدواء؛ فالإنسان العاقل السوي، الذي ينظر إلى الأمور كما هي - هو ذلك الذي يسير على حد الاعتدال، فلا يُعَرَّبُ بما أوتي من ذكاء، وعلم، وقوة، فيزعم لنفسه كل فضيلة، ويتطاول بغروره إلى كل منزلة.

ولا يركن في الوقت نفسه إلى جوانب الضعف فيه، فيقوده ذلكم إلى المبالغة في احتقار نفسه، وازدراء إمكاناته ومواهبه، فيقعد عن كل فضيلة،

ويعيش في هذه الحياة كأنه همل مضاع، ولقيّ مزدري»^(١) اهـ.

٦٥- الشجاعة والإقدام، واطراح المبالغة في تعظيم شأن الخوف:

«الشجاعة فضيلة عظيمة، وخصلة من خصال الخير عالية، فهي من أعظم مقومات الهمة، ومن أهم أسباب اكتسابها.

فالشجاع يخاف من العار الذي يلحقه من احتمال الضيم، أو يرغب في أن يدرك مجداً شامخاً، فيقوده ذلك إلى أن يلقي بنفسه في مواضع الدفاع، لا يلوي جبينه عن طعان أو نضال.

والأمة لا تحوز مكانة يهابها خصومها، وتقرُّ بها عين حلفائها - إلا أن تكون عزيزة الجانب، صلبة القناة.

وعزة الجانب، وصلابة القناة لا ينزلان إلا حيث تكون قوة الجأش، والاستهانة بملاقاة المكاره، وذلك ما نسميه شجاعة»^(٢).

«وحد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين، والحريم، وعن الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهزيمة ظلماً في المال، والعرض، وفي سائر سبل الحق»^(٣).

والشجاعة لا تقتصر على الأقدام في ميادين الوغي، بل هي أعم من ذلك، فتشمل الشجاعة الأدبية في التعبير عن الرأي، وبالصدع بالحق، وبالإعتراف بالخطأ، وبالرجوع إلى الصواب إذا تبين، ونحو ذلك مما

(١) انظر: «أخلاقنا الاجتماعية» (ص ١٠ - ١٢)، و«لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم» (ص ١٤١ - ١٥١).

(٢) انظر: «رسائل الإصلاح» (١/ ٧٧).

(٣) «الأخلاق والسير» لابن حزم (ص ٣٢).

سيمر بنا.

وليس من شرط الشجاعة ألا يجد الرجل في نفسه الخوف جملةً من الهلاك، أو الإقدام، أو نحو ذلك؛ فذاك شعور يجده كل أحد من نفسه إذا هو همٌّ بعمل كبير أو جديد.

بل يكفي في شجاعة الرجل ألا يعظم الخوف في نفسه حتى يمنعه من الإقدام، أو يرجع به إلى الانهزام.

□ قال هشام بن عبد الملك لمسلمة: «يا أبا سعيد، هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو؟

قال مسلمة: ما سلمت في ذلك من ذعر يُنبّه على حيلة، ولم يَغْشني فيها ذعر سلبني رأيي.

قال هشام: هذه هي البسالة»^(١).

بل إن أشجع الشجعان يجدون في أنفسهم ذلك الشعور إذا هم خاضوا المعمعان، وغشوا ساحات الوغى.

لكن ذلك لا يحملهم على الإحجام والانهزام.

□ فهذا عمرو بن معدي كرب^(٢) الزبيدي - وحسبك به شجاعة إقدامًا - يصف نفسه، ويصور حالته في ساحة الوغى، ويبين أن الخوف يداخله، ولكن لا يحمله على الفرار والإحجام، فلا ينقص ذلك من قدره، ولا ينزل من مكانته، حيث يقول:

(١) «رسائل الإصلاح» (١/٧٨).

(٢) انظر: «عمرو بن معدي كرب الزبيدي» لمطاع الطرابيشي.

ولقد أَجْمَعُ رَجُلِي بِهَا حَذَرَ المَوْتِ وإني لفرورُ
ولقد أعْطَفُها كارهةً حين للنفس من الموت هريزُ
كُلُّ ما ذلِكَ مني خَلَقُ وبكُلِّ أنا بالروع جديرُ^(١)

فالشجاعة إذا هي مواجهة الألم أو الخطر أو نحو ذلك عند الحاجة في ثبات، وليست مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض الناس.

فالذي يرى النتائج، ويخاف وقوعها، ثم يواجهها في ثبات - رجل شجاع.

فالقائد الذي يقف على خط النار، فترتعد لذلك فرائصه؛ خشية من نزول الموت به، ثم يضبط نفسه، ويؤدي عمله كما ينبغي، هو رجل شجاع.

بل هو شجاع - أيضًا - إذا رأى أن خير عمل يعمله أن يتجنب الخطر، وأن الواجب يقضي عليه أن ينسحب بجنوده حيث لا خطر. فإن هو أضاع في موقفه رشده، أو ترك موقفًا يجب أن يقفه، أو فر بجنوده من خطر كان عليه أن يقفه - فهو جبان.

فالشجاعة لا تعتمد على الإقدام والإحجام فحسب، ولا على الخوف وعدمه، وإنما تعتمد على ضبط النفس، وعمل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي.

□ قال عمرو بن العاص لمعاوية رضي الله عنه: «لقد أعياني أن أعلم: أجبان أنت أم شجاع؟ فقال:

(١) «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (ص ٨٢).

شجاعاً إذا ما أمكنتني فرصة وإلا تكن لي فرصة فجبان^(١)

بل ليس بالمحمود أن يتجرد الإنسان من كل خوف؛ فقد يكون الخوف فضيلة، وعدمه رذيلة؛ فالخوف عند الإقدام على أمر مهم تتعلق به مصالح الأمة، أو يحتاج إلى اتخاذ قرار حاسم - فضيلة وأي فضيلة؛ إذ هو يحمل على الرؤية، والتأني، والتؤدة، حتى يختمر الرأي، وينضج في الذهن^(٢)؛ فلا خير في الرأي الفطير، ولا الكلام القضيبي^(٣)، والعرب تقول: «الخطأ زاد العَجُول»^(٤).

□ كما أنها تمدح من يترث ويتأني، ويقَلِّب الأمور ظهرًا لبطن، وتقول فيه: «إِنَّهُ لَحَوَّلُ قَلْبٍ»^(٥).

ولهذا ما زال الحكماء ينصحون الناس ألا يقدموا على مواقع الخطر إلا أن تكون فائدة الإقدام أكبر من خسارته.

□ قال أبو الطيب المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

وإذا هما اجتمعَا لنفسٍ حُرَّةٍ حازت من العلياء كل مكان^(٦)

(١) «عيون الأخبار» (١/١٦٣).

(٢) انظر: «الأخلاق» (ص ٢٠٥-٢٠٦).

(٣) الرأي الفطير: هو الذي لم ينضج، والكلام القضيبي: هو المرتجل انظر: «زهر الآداب» للحصري القيرواني (١/١٥٤).

(٤) «مجمع الأمثال» للميداني.

(٥) «الأمثال» لأبي عبيد (ص ١٠٠).

(٦) «ديوان المتنبي» (٤/١٧٤).

□ وقال:

وكل شجاعة في المرء تغني ولا مثل الشجاعة في الحكيم^(١)

وإنما الجبن المذموم، والخوف المرذول - هو ما بالغ صاحبه فيه مبالغة تخرجه عن طوره، فهذا هو خوف الجبان الرعيد، الذي يغلب جانب الشر، ويخشى سوء عواقبه.

أما الشجاع فلا يفكر كثيرًا في احتمال الشر، ثم إذا وقع لم يطر قلبه شَعَاعًا، بل يصبر، ويتحمّله بثبات؛ إن مرض لم يضاعف مرضه بوهمه، وإن نزل به مكروه قابله بجأش رابط فخفف شدته؛ فمن الحكمة والعقل ألا يجمع الإنسان على نفسه بين الألم بتوقع الشر، والألم بحول الشر؛ فليسعد ما دامت أسباب الحزن بعيدة عنه، فإذا حدثت فليقابلها بشجاعة واعتدال.

□ قال أبو علي الشبل:

ودع التوقع للحوادث إنه للحي من قبل الممات ممات^(٢)

وبالجملة فالشجاع ليس بالمتهور الطائش الذي لا يخاف مما ينبغي أن يخاف منه، ولا هو بالجبان الرعيد الذي يَفَرُّ من ظله، ويخاف مما لا يخاف منه^(٣).

ثم إن الشجاعة ليست هي قوة البدن؛ فقد يكون الرجل قوي البدن

(١) «ديوان المتنبي» (٤/ ١٢٠).

(٢) «صيد الخاطر» (٢/ ٣٣٩).

(٣) انظر: «الأخلاق» (ص ٢٠٥ - ٢٠٦)، و«فيض الخاطر» (٢/ ٢٠٥)، و«المسؤولية» (ص ٣١ - ٣٢).

ضعيف القلب، وإنما هي قوة القلب وثباته.

والمحمود منها ما كان بعلم ومعرفة، دون التهور الذي لا يفكر صاحبه، ولا يميز بين المحمود والمذموم.

ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح.

فأما المغلوب حين غضبه فليس بشجاع ولا شديد^(١).

أمور تعين على اكتساب الشجاعة:

□ هذا ومما يعين على اكتساب الشجاعة، واطراح المبالغة في تعظيم شأن الخوف - زيادة على ما مضى - ما يلي:

أ- الدربة، والمران، والتعود: فإن قلة الإلف لأمر من الأمور - تقود إلى الجبن؛ فالإنسان إذا لم ير الشيء ويألفه يجبن أمامه، كالطالب إذا لم يتعود الخطابة، فإن هو حاول تهذج صوته، وجف ريقه، وارتعشت أطرافه.

وكذلك من لم يتعود غشيان المجالس، ومخالطة الناس - فإنه يخاف منهم، ويلجئه الخوف إلى إثارة العزلة.

فإذا هو اضطر يومًا إلى الاجتماع بهم علاه الخجل، وزاد ارتباكاه، واضطربت حركاته، وثقل على الناس، وثقلوا عليه.

وعلاج ذلك يكون بالدربة، والمران، والتعود، والممارسة، فلا يزال يتكلف الخطابة حتى يصير خطيبًا، والجرأة حتى يصير جريئًا^(٢).

(١) انظر: «الاستقامة» لابن تيمية (٢/ ٢٧١).

(٢) انظر: «الأخلاق» (ص ٢١٠).

□ قال الباروري:

وَاعْتَدُ عَلَى الْخَيْرِ؛ فَاَلْمَوْفُقُ مِنْ هَذَّبِهِ الْاَعْتِيَادَ وَالْدَّرَبُ^(١)

ب- توطئ النفس على وقوع المكروه، والحذر من تضخيم النتائج:

فمما يفيد في هذا الباب أن يفرض وقوع المكروه، ثم يهونه ويوطن نفسه على احتماله، ثم يشرع في إنقاذه ما يمكنه إنقاذه.

فلو تصور أنه خطب ولم يُجِدْ، وانتقده السامعون، ثم صَغَّرَ النتيجة وهَوَّنَهَا، وقال في نفسه: كُلُّ خَاطِبٍ مُعَرَّضٌ لِمِثْلِ ذَلِكَ - لتشجع، ولم يجبن.

بل ربما أصبح فيما بعد خطيباً مَضْعَعًا، لَا تُقَيِّدُهُ حُسْبَةٌ، وَلَا يثنيه جَمَاحٌ. وكذا لو قرر الأطباء أن تعمل له عملية جراحية فَقَدَّرَ الموت، واستصغره - لِقَابِلِ الْأَمْرِ بِثَبَاتٍ وَهَكَذَا^(٢)..

□ قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَطَّنَ نَفْسَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ يَقَلُّ هُمُكَ إِذَا أَتَاكَ، وَيَعْظُمُ سُرُورُكَ وَيَتَضَاعَفُ إِذَا أَتَاكَ مَا تَحِبُّ مِمَّا لَمْ تَكُنْ قَدَّرْتَهُ»^(٣).

ج- النظر في العواقب: وذلك بأن ينظر إلى عواقب كُلِّ مِنَ الْجَبَنِ وَالشَّجَاعَةِ، فَإِذَا ظَهَرَ لَهُ أَنَّ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ إِنْ هُوَ تَشَجَّعَ أَعْظَمُ مِمَّا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْجَبَنِ - استحثه ذلك على الشجاعة.

فَمَنْ جَبِنَ عَنْ أَنْ يَرْحَلَ عَنْ بَلَدِهِ لَطَلَبِ رِزْقٍ أَوْ عِلْمٍ - فليُنْظَرِ فِي

(١) «ديوان البارودي» (ص ٧٩).

(٢) انظر: «الأخلاق» (ص ٢١١).

(٣) «الأخلاق والسير» (ص ٢٦)، وانظر: «صيد الخاطر» (١/ ١١٠ - ١١١)، و«دع

القلق» (ص ٣٥ - ٤٤).

الأمر، فسيري أن من المحتمل أن يصيبه مرض في رحلته، وأنه قد يموت في أرض غربته.

ولكن من المؤكد أنه إذا لم ير حل ضاق رزقه، أو قل علمه، أو كان جباناً، أو جاهلاً حتماً.

فالنظر في العواقب قد يحمل المرء على أن يكون شجاعاً، لا سيما إذا علم أن ليست الحياة بنبض القلب، ولا بالأكل والشرب، وإنما هي بالعمل الجاد، والإفادة والاستفادة، وإلا أصبح الإنسان من سقط المتاع لا قيمة له عند أحد..

وما للمرء خير في حياة إذا ما عدت من سقط المتاع
□ قال أعرابي من باهلة:

فَلَمَمْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ يُرَى لَهَا عَلَى الْحَرْبِ الْإِقْلَالُ وَسِيمُ هَوَانٍ^(١)

* ولهذا كانت عناية القرآن بخصلة البطولة والإقدام؛ حيث أقبل على النفوس، وأخذ ينقيها من رذيلة الجبن والإحجام، ويذكرها بسوء عاقبة الجبناء، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨].

فقد أشارت الآية إلى أن عاقبة الجبناء أن يتلوا بذى قوة لا يعرف للعهد حرمة، ولا يقيم للعدل وزناً.

ومن الذي يرتاب أن الموت في مواطن البطولة أشرف من حياة يغمرها الذل والهوان؟^(٢).

(١) «عيون الأخبار» (١/٢٣٩).

(٢) انظر: «الهداية الإسلامية» (ص ٣٩).

□ قال أبو الطيب المتنبي:

غير أن الفتى يلاقي النايا كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا
وإذا لم يكن من الموت بدٌ فمن العجز أن تموت جباناً^(١)

د- اطراح المبالاة بكلام الناس: فذلك هو باب العقل والراحة كلها، كما قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ^(٢).

ولا يعني اطراح المبالاة بكلام الناس أن يتقصد المرء مخالفة الناس، وأن يعمد إلى مخاشتهم، والإغلاظ عليهم؛ لأن الحكمة تقتضي مداراة الناس، ومعرفة أحوالهم، وإنزالهم منازلهم؛ فالحكيم الحازم العاقل يزن عقول من يلاقونه، ويحس ما تكن صدورهم، وتنزع إليه نفوسهم، فيصاحبهم وهو على بصيرة مما وراء ألسنتهم من عقول، وسرائر، وعواطف، فيتيسر له أن يسايرهم إلا أن ينحرفوا عن الرشد، ويتحامى ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق^(٣).

فإذا قام المرء بما تقتضيه الحكمة - فليقدم على ما قصد إليه دونها التفات أو مبالاة بكلام أحد؛ فلا لوم ولا تثريب عليه حينئذ.

هـ- أن يستحضر المرء أن لا سلامة من الناس: فالسلامة من الناس عزيزة المنال، خصوصاً إذا كان المرء ممن يتصدر ويقوم بجلال الأعمال.

□ قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: «من قدّر أنه يسلم من طعن الناس وعيهم -

(١) «ديوان المتنبي» (٢٤١/٤).

(٢) انظر: «الأخلاق والسير» (ص ١٧).

(٣) انظر: «رسائل الإصلاح» (١/٩٥).

فهو مجنون»^(١).

فإذا كان الأمر كذلك كان حريًا بالمرء ألا يعظم شأن الناس في قلبه،
وألا يجعل مراقبتهم والخوف من ثلبهم وعييهم حائلًا بينه وبين تحقيق
مآربه النافعة له، ولأتمته، ووطنه.

□ قال بشار بن برد:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج^(٢)

□ وقال سلم الخاسر:

من راقب الناس مات هماً وفاز باللذة الجسور^(٣)

وبالجملة فاحرص على أن تركز جهدك، وتستفرغ طاقتك في العمل
الذي تراه صوابًا، ثم بعد ذلك أدِرْ ظهرك، وصمِّ أذنيك عن كل ما ينالك
من لوم اللائمين، ونقد الظالمين، الذين يفسدون في الأرض ولا
يصلحون.

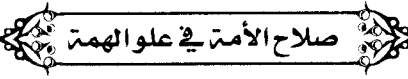
ومما يعينك على ذلك أن تستشعر أن كلام الناس لا يضرّك أبدًا إلا إذا
اشتغلت به، وأن تتذكر جيدًا، بأن النقد الظالم إنما هو اعتراف ضمني
بقدرتك وعلوّ كعبك؛ فبقدر ذلك يكون النقد الموجه إليك.

ثم اعلم عِلْمَ اليقين بأن الناس لا يشغلهم أمرُك كثيرًا؛ فهم
مشغولون بأنفسهم في غالب أمرهم؛ فأدنى شيء يحدث لهم ينسيهم ما

(١) «الأخلاق والسير» (ص ١٧).

(٢) «ديوان بشار بن برد» (ص ٦٠).

(٣) «بهجة المجالس» (١/ ١٢٢).



سمعه عنك^(١).

و- **معرفة قدر النفس**: وذلك بأن يعرف المرء قدر نفسه، فلا يقدم على عمل إلا وهو عالم بقدرته عليه، ولا يكلف نفسه إلا ما تطيقه؛ «فالذي يُقدِّر نفسه فوق قدرها إنما يرهقها، والذي يقدر نفسه أقل من قدرها إنما يضع إمكاناتها سدى.

وأما الذي يقدر نفسه حق قدرها، فإنها يضعها في مكانها دون إرهاق لطاقاتها، ودون إهدار لميزاتها»^(٢).

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «ينبغي للعاقل ألا يقدم على العزائم حتى يزن نفسه هل يطيقها، ويجرب ركوب بعضها سرًّا من الخلق؛ فإنه لا يأمن أن يُرى في حالة لا يصبر عليها، فيفتضح»^(٣).

ز- **أن يستحضر أن الإخفاق لا يضر**: فإذا أخفق المرء في بداية أمره مرة أو أكثر - فلا يتزعج لذلك، وليعد الكرة بعد الكرة، وليعلم أن الإخفاق طريق النجاح، وأن الخطأ طريق الصواب؛ فليس الإخفاق عارًا إذا كنت بذلت جهدك بإخلاص، ولا يعد المرء مخفَقًا حتى يتقبل الهزيمة كأنها دائمة ويتخلى عن المحاولة؛ فهذا أديسون مخترع المصباح الكهربائي - أخفق عشرة آلاف مرة قبل أن يصنع المصباح؛ فلا تقلق إذا أنت أخفقت مرة أو أكثر»^(٤).

(١) انظر: «دع القلق» (ص ٢٢٤ - ٢٣٠).

(٢) «أنت وقدراتك» تأليف فرجينيا بيلارد، ترجمة د. عطية محمود هنا، إشراف ومراجعة

تقديم د. عبد العزيز القوصي (ص ٧).

(٣) «صيد الخاطر» (٢/ ٢٤٣).

(٤) انظر: «طاقتك الكامنة»، سمير شيخاني (ص ٢٧١).



ح- الثقة بالنفس؛ وذلك بألا يقتصر على تذكر جوانب الضعف فيها؛ لأن ذلك يقود إلى المبالغة في احتقارها، وبالتالي تحجم ولا تقدم. بل يتذكر مع ذلك جوانب القوة والإبداع فيها؛ حتى تنبعث إلى الإقدام، وتكتسب شيئاً من الهدوء والثقة.

□ قال الرافعي رَحِمَهُ اللهُ: «الذي يحيا بالثقة تحييه الثقة»^(١).

ط- أخذ الأهبة والاستعداد: فإذا أراد أن يتكلم في مجمع - على سبيل المثال - فليَقُمْ بأخذ الأهبة والاستعداد؛ حتى لا يُرْتَجَ عليه، خصوصاً إذا كان في بداياته؛ فإن التقصير بالأخذ بالأسباب مما يضعف المرء ويربكه. ومما ينفع في ذلك أراحة الجسم؛ ذلك أن الخوف يتبع التعب الذي ينال المجموع العصبي، كالذي ينال الشخص عقب مجهود كبير بذله، أو تفكير طويل فكره، أو حادثة جلية هزته؛ فهذه الأشياء وأمثالها تضعف المجموع العصبي، فإذا أخذ الجسم قسطاً من الراحة استرد الإنسان راحته، وزال خوفه^(٢).

فإذا هو قام بالأسباب فليتوكل على الله، وليفوض الأمر إليه.

ي- الإيمان بالقضاء والقدر والتسليم لله في الأمر؛ فالإيمان بالقضاء والقدر يقتضي أن يوقن العبد بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه.

وهذا يبعثه إلى أن يقدم غير هياب ولا مبال بما سيناله، فإذا كتب الله له حياة فلن تفوته وإن وقف في جفن الردى، وإن كتب له موتاً فلن يفوته أو

(١) «وحي القلم» (١/ ٢٣٢)، وانظر: «قوة الإرادة وطرق تنميتها» (ص ٢٣).

(٢) انظر: «فيض الخاطر» (١٠/ ٢٢٣).

يفلت منه ولو كان في بروج مشيدة؛ فما يغني الفرار، وما يضر الإقدام؟

□ يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله:

أي يومي من الموت أفر يوم لا يُقَدَّر أو يوم قدر
يوم ما قدر لا أرهبه وإذا قدر لا ينجي الحذر^(١)

﴿٣٤٠﴾ ﴿٣٤٠﴾

□ وكان معاوية رضي الله عنه يتمثل بهذين البيتين:

كأن الجبان يرى أنه سيقتل قبل انقضاء الأجل
وقد تدرك الحادثات الجبان ويسلم منها الشجاع البطل^(٢)

﴿٣٤٠﴾ ﴿٣٤٠﴾

□ قال ابن القيم رحمته الله: «والذي يحسم مادة الخوف هو التسليم لله؛ فمن سلم لله، واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب له - لم يبقَ لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضاً؛ فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها، وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب لها، وأن ما كتب لها - لا بد أن يصيبها؛ فلا معنى للخوف من غير الله بوجه.

(١) «ديوان الإمام علي» (ص ٧٩ - ٨٠).

(٢) «بهجة المجالس» (٢/ ٤٨٠).

وفي التسليم أيضًا فائدة لطيفة، وهي أنه إذا سلمها الله فقد أودعها عنده، وأحرزها في حرزه، وجعلها تحت كنفه؛ حيث لا تنالها يدُ عدُوٍّ عادٍ، ولا بغْيُ باغٍ عاتٍ^(١).

ك- الصبر عند الصدمة الأولى: فإذا كان الإنسان في أول الطريق للخطابة، أو للحروب أو نحو ذلك - فإنه يحتاج إلى الصبر عند الصدمة الأولى؛ لأنه معرض للإخفاق، فإذا صبر في بداية الأمر هان عليه استدراك ما مضى.

وأما إذا أيس وترك الأمر من بدايته، فإنه لن ينال مجداً ولا رفعة.

ل- الخطار بالنفس: فهذا مما تنال به الشجاعة، ويُطرح فيه الجبن، فقد يحتاج إليه الإنسان في بعض الأحيان؛ فالتاجر قد يحتاج إليه، والمتكلم، والمحارب كذلك.

□ قال معاوية لعمر بن العاص رضي الله عنه: «من طلب عظيمًا خاطر بعظيمة»^(٢).

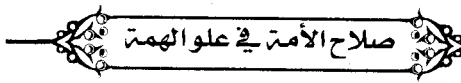
□ وكان عمرو يقول: «عليكم بكل أمر مزلة مهلكة»، أي: عليكم بجسام الأمور»^(٣).



(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٢).

(٢) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣١).

(٣) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣١).



□ وقال كعب بن زهير رضي الله عنه:

وليس لمن لم يَرْكَبِ الهولَ بُغْيَةً وليس لرحلٍ حطَّه الله حاملُ
إذا أنت لم تُقْصِرْ عن الجهل والحنا أصبت حليماً أو أصابك جاهل^(١)



□ وقال آخر:

الذلُّ في دعةِ النفوس ولا أرى عزَّ المعيشةِ دون أن يسعى لها^(٢)



□ وقال آخر:

لا بد أن أركبَها صعبةً وقاحةً تحتَ علامٍ وقاح
أُجْهِدُها أو تشني دونه دون الذي أُمّلت أو بالنجاح
إما فتى نال المنى فاشتفى أو بطل ذاق الردى فاستراح^(٣)



□ وقال علي بن المقرب العيوني:

سأمضي على الأيام عزم ابن حُرّة يرى العودَ فيما تكره النفس أحدا

(١) «ديوان كعب بن زهير» (ص ١٣٤).

(٢) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣٢).

(٣) «أدب الطلب» للشوكاني (ص ١٢٩).

فإما حياة لا تذهب حميدةً يُحدث عنها من أغار وأنجدا
أنال المنى فيها وإما منيّة تريح فؤاداً أحّ^(١) من غلّة الصدى^(٢)

٠٣٤٠٤٠٠٣٤٠٠٣٤٠

م- **التقوى**: فتقوى الله **وَعَزَّ وَجَلَّ** هي أعظم باعث على الشجاعة؛ لأن من عرف ربّه، وقدره حقّ قدره، وعظم وقاره وجلاله في قلبه - هانت عليه الدنيا، وزال من قلبه مهابة الخلق، وانقلبت في حقه المخاوف أمناً.

فالتقوى هي العدة في الشدائد، والعون في الملمات، وهي منزل السكينة، ومهبط الرّوح والطمأنينة، وهي مبعث القوة واليقين، ومعراج السمو إلى السماء، وهي التي تثبت الأقدام في المزالق، وتربط على القلوب في الفتن^(٣).

□ قال الشيخ محمد الخضر حسين **رَحِمَهُ اللهُ**: «ومن تفقّه في التقوى عرف أنها الوسيلة الكبرى للعظمة الصادقة؛ فإنها بذل الإنسان جهده وسعيه في طرق الفلاح».

ومن تقوى الرجل الذي رزق المعية متوقّدة، وهمة سامية - أن يقتحم الأخطار، ويقذف في نفسه في معالي الأمور، فإذا هو في جلال وعظمة،

(١) أحّ: سعل، والصدى: العطش.

(٢) «علي بن المقرب العيوني حياته - شعره» (ص ٣٢٢).

(٣) انظر: «عيون البصائر» (ص ٢٩١).

وإن لم يجد الزهو والكبر إلى نفسه منفذاً»^(١).

ن- الإكثار من ذكر الله: فبذكر الله تطمئن القلوب، وتسكن النفوس.

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد].

وبذكر الله يقوى القلب، ويُغلب العدو، وتهون الصعاب.

ولهذا أرشدنا الله - تبارك وتعالى - إذا لقينا العدو أن نثبت وأن نذكره

وَعَجَّلَ لما في ذكره من الطمأنينة والثبات.

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ

كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال].

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض حديثه عن فضائل الذكر: «إن

الذكر يعطي الذاكر قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه،

وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام بن تيمية في «سننه»، وكلامه، وإقدامه

أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة

وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمراً عظيماً»^(٢).

وأفضل الذكر بعد القرآن تلك الكلمات الأربع: سبحان الله، والحمد

لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وكذلك: «لا حول ولا قوة إلا بالله»؛ فلها أثر عظيم في شجاعة

(١) «العظمة» (ص ١٥-١٦).

(٢) «الوابل الصيب» لابن القيم (ص ١٠٦).



القلب وثباته.

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْعَظِيمَةِ: «وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معاناة الأشغال، والدخول على الملوك ومن يُخَافُ، وركوب الأهوال ولها أيضًا تأثير في دفع الفقر»^(١) اهـ^(٢).

٦٦- الإقبال على ما ينفع، والإعراض عن كل ما لا ينفع:

وهذا الأمر جماع لما مضى من الأسباب المعينة على اكتساب الهمة العالية.

فمن شأن متطلب الكمال، والساعي إلى حميد الفعال - أن يقبل على كل أمر ينفعه، وأن يسلك السبل المفضية إلى ما رامه وأمله، وأن يتجنب كل أمر يعوقه ويقطع سيره، وأن ينأى بنفسه عن كل ما من شأنه أن ينزل قدره، ويدني همته.

□ وللإمام ابن القيم في هذا الشأن كلام قيم؛ فإليك أيها القارئ هذا الكلام النوراني من ذلك العالم الرباني:

قال رَحِمَهُ اللهُ: «طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة، بل وإلى كل علم، وصناعة، ورئاسة بحيث يكون رأسًا في ذلك، مقتدى به فيه - يحتاج أن يكون شجاعًا مقدامًا، حاكمًا على وهمه، غير مقهور تحت سلطان تخيُّله، زاهدًا في كل ما سوى مطلوبه، عاشقًا لما توجه إليه، عارفًا بطريق

(١) «الوابل الصيب» لابن القيم (ص ١٠٧).

(٢) «الهمة العالية» (ص ٢٥٦ - ٢٧٠).

الوصول إليه، والطرق القواطع عنه، مقدم الهمة، ثابت الجأش، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم، ولا عذل عاذل، كثير السكون، دائم الفكر، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم، قائماً بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تستفزه المعارضات، شعاره الصبر، وراحته التعب، مُجَبِّاً لمكارم الأخلاق، حافظاً لوقته، لا يخالط الناس إلا على حذر كالطائر الذي يلتقط الحب بينهم، قائماً على نفسه بالرغبة والرغبة، طامعاً في نتائج الاختصاص على بني جنسه، غير مرسل شيئاً من حواسه عبثاً، ولا مُسَرَّحاً خواطره في مراتب الكون.

وملاك ذلك هجر العوائد، وقطع العلائق الحائلة بينك وبين المطلوب»^(١) اهـ^(٢).

٦٧- نُبْلِ النَّفْسِ:

□ قال الجوهري: «النُّبْلُ: النَّبَالَةُ وَالْفَضْلُ. وَالنَّابِلُ هُوَ الْحَازِقُ بِالْأَمْرِ، الْعَلِيمُ بِمَا يُصْلِحُهُ.

□ وَالنُّبْلُ: خُلُقٌ حَمِيدٌ يَتَحَلَّى صَاحِبُهُ بِالذِّكَاةِ وَالنَّجَابَةِ فِي ذَاتِهِ، وَالْفَضْلِ وَالرَّفْقِ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ النَّاسِ مَعَ حَذْقٍ فِي الرَّأْيِ وَالْعَمَلِ.

• عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلْقُرْشِيِّ مِثْلِي قُوَّةَ الرَّجُلِ مِنْ غَيْرِ قُرَيْشٍ». قُلْتُ لِلزُّهْرِيِّ: مَا عَنَى بِذَلِكَ؟ قَالَ: نُبْلُ

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص ٢٧١-٢٧٢).

(٢) «الهمة العالية» (ص ٢٧٠-٢٧١).

الرأي^(١).

والنبيل: سيّد في قومه:

• عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكرٍ وعمر: «هذان سيّدَا كُھولٍ^(٢) أهلُ الجنةِ مِنَ الأوّلينَ والآخِرِينَ إِلَّا النَّبِيَّينَ وَالْمُرْسَلِينَ»^(٣).

• عن كعب بن مالكٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لبني ساعدة: «مَنْ سَيِّدُكُمْ؟». قالوا: جُدُّ بن قيسٍ. قال: «بِمَ سَوَّدْتُمُوهُ؟». قالوا: إِنَّهُ أَكْثَرُنَا مَالًا، وَإِنَّا عَلَى ذَلِكَ لَنَزَنُهُ^(٤) بِالْبُخْلِ؟. فقال النبي ﷺ: «وَأَيُّ دَاءٍ مِنَ الْبُخْلِ؟». قالوا: مَنْ سَيِّدُنَا؟ قال: «بِشَرِّ بَنِي الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ»^(٥).

(١) رواه أحمد (٨١/٤) - واللفظ له - وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧٨/١): «رواه أحمد ورجال أحمد رجال الصحيح».

وكذا رواه ابن حبان، والحاكم، والطيالسي، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «سننه»، والطحاوي، وصحّحه الألباني في «الصحيحة» (١٦٩٧)، و«صحيح الجامع» (٢١٨١).

(٢) الكهل من الرجال ما زاد على ثلاثين سنة إلى الأربعين، وقيل: إلى تمام الخمسين، وَوَحَطَهُ الشَّيْب.

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٣٦٦٥، ٣٦٦٦) عن أنس، وعلي، وصحّحه الألباني في «الصحيحة» (ص ٨٢٢)، و«صحيح الجامع» (٧٠٠٥).

(٤) زَنَّهُ: ظَنَّهُ بِهِ وَاتَّهَمَهُ.

(٥) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرک» (١٦٣/٤) عن أبي هريرة واللفظ له وصحّحه ووافقه الذهبي، ورواه البخاري في «الأدب المفرد»، والطبراني في «الأوسط»، والخطيب عن جابر، والطبراني في «الأوسط» والخرائطي عن كعب بن مالك،

□ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «ما رأيتُ أحدًا كان أسودَ من معاويةَ بنِ ابنِ سُفْيَانَ». قلتُ: ولا عُمَرُ؟ قال: «كان عُمَرُ خيرًا مِنْ معاويةَ، وكان معاويةَ أسودَ مِنْهُ»^(١).

□ قيل لمعاويةَ: مَنْ أسودُ الناسِ؟ قال: «أَسْخَاهُمْ نَفْسًا حِينَ يُسْأَلُ، وَأَحْسَنُهُمْ فِي الْمَجَالِسِ خُلُقًا، وَأَحْلَمُهُمْ حِينَ يُسْتَجْهَلُ»^(٢).

ذَكَرَ بَعْضُ خِصَالِ النَّبَلَاءِ:

□ قال ابن الجوزي: «خُلِقْتُ لِي هِمَّةٌ عَالِيَةٌ تَطْلُبُ الْغَايَاتِ. فَقُلْتُ السَّنُّ وَمَا بَلَغْتُ مَا أَمَلْتُ، فَأَخَذْتُ أَسْأَلُ تَطْوِيلَ الْعُمَرِ، وَتَقْوِيَةَ الْبَدَنِ، وَبَلُوغَ الْأَمَالِ. فَأَنْكَرْتُ عَلَيَّ الْعَادَاتِ، وَقَالَتْ: مَا جَرَتْ عَادَةٌ بِهَا تَطْلُبُ. فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَطْلُبُ مِنْ قَادِرٍ يُخْرِقُ الْعَادَاتِ».

□ وَقَدْ قِيلَ لِرَجُلٍ: «لَنَا حَوَاجَةٌ». فَقَالَ: اطْلُبُوا لَهَا رَجِيلاً». □ وقيل لآخر: «جِئْنَاكَ فِي حَاجَةٍ لَا تَرَوْكَ، فَقَالَ: هَلَّا طَلَبْتُمْ لَهَا سَفَاسِيفَ النَّاسِ؟».

فَإِذَا كَانَ أَهْلُ الْأَنْفَةِ مِنْ أَرْبَابِ الدُّنْيَا يَقُولُونَ هَذَا، فَلِمَ لَا نَطْمَعُ فِي فَضْلِ كَرِيمٍ قَادِرٍ؟»^(٣).

وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٠٤).

(١) «المنتقى من مكارم الأخلاق» (ص ١١٥)، والسَّوَادُ هُنَا مِنَ السُّودِّ، وَهُوَ النَّبَلُ.

(٢) «المنتقى من مكارم الأخلاق» (ص ١١٦).

(٣) «صيد الخاطر» (٢٩٧).

إلى أَنْ يَقُولَ: فالله الله، وعليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانيفهم، وأخبارهم فلاستكثر من مُطالعة كتبهم رؤية لهم، كما قال:

فَاتَنِي أَنْ أَرَى الدِّيَارَ بِطَرْفِي فَلَعَلِّي أَرَى الدِّيَارَ بِسَمْعِي

وإني أخبر عن حالي، ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أره، فكأنني وقعت على كنز. ولقد نظرت في ثبث الكتب الموقوف في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثبث كتب أبي حنيفة، وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب وابن ناصر، وكتب أبي محمد بن الحشّاب، وكانت أحمالاً، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه.

ولو قلت: إنني طالعتُ عشرين ألف مجلدٍ كان أكثر وأنا بعد في الطلب. فاستفدتُ بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم، وقدر همهم، وحفظهم، وعباداتهم، وغرائب علومهم، ما لا يعرفه من لم يطالع. فصرتُ أسترزي ما الناس فيه، وأحتقر هم الطلاب والله الحمد.

وقال أيضاً: ما يتناهى في طلب العلم إلا عاشق العلم، والعاشق ينبغي أن يضرب على المكاريه، ومن ضرورة المشاغِل به البعد عن الكسب، ومُنْذُ فَقَدْ التَّفَقَّدُ لهم من الأمراء ومن الإخوان لازمهم الفقر ضرورة. والفضائل تُنادي: ﴿هَذَاكَ أَتَبَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَلًا شَدِيدًا﴾ (١١)

[الأحزاب].

فَكُلُّهَا خَافَتْ مِنْ ابْتِلَاءٍ قَالَتْ:

لَا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمَرًا أَنْتِ أَكِلُهُ لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَ

□ ولَمَّا أَثَرَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ طَلَبَ الْعِلْمَ وَكَانَ فَقِيرًا، بَقِيَ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتَشَاغَلُ بِهِ وَلَا يَتَزَوَّجُ، فَيَنْبَغِي لِلْفَقِيرِ أَنْ يُصَابِرَ فَقْرَهُ كَمَا فَعَلَ أَحْمَدُ. وَمَنْ يُطِيقُ مَا أَطَاقَ؟! فَقَدْ رَدَّ مِنَ الْمَالِ خَمْسِينَ أَلْفًا، وَكَانَ يَأْكُلُ الْكَامَخَ وَيَتَأَدَّمُ بِالْمَلْحِ. فَمَا شَاعَ لَهُ الذِّكْرُ الْجَمِيلُ جُزَافًا، وَلَا تَرَدَّدَتِ الْأَقْدَامُ إِلَى قَبْرِهِ إِلَّا لِمَعْنَى عَجِيبٍ، فَيَالَهُ ثَنَاءً مَلَأَ الْأَفَاقَ!، وَجَاهِلًا زَيْنَ الْوُجُودِ، وَعِزًّا نَسَخَ كُلَّ ذُلٍّ. هَذَا فِي الْعَاجِلِ، وَثَوَابُ الْآجِلِ لَا يُوصَفُ. فَالصَّبْرُ الصَّبْرُ أَيُّهَا الطَّالِبُ لِلْفَضَائِلِ، فَإِنَّ لَذَّةَ الرَّاحَةِ بِأَهْوَى، أَوْ الْبَطَالَةَ، تَذْهَبُ، وَيَبْقَى الْأَسَى، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَا نَفْسُ مَا هُوَ إِلَّا صَبْرٌ أَيَّامَ كَأَنَّ مُدَّتَهَا أَضْغَاثُ أَحْلَامِ
يَا نَفْسُ جُوزِي عَنِ الدُّنْيَا مُبَادِرَةً وَخَلَّ عَنْهَا فَإِنَّ الْعَيْشَ قُدَّامِي^(١)

﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾

□ قَالَ عِكْرَمَةُ: «السَّيِّدُ الَّذِي لَا يَغْلِبُهُ غَضَبُهُ»^(٢).

□ قَالَ الضَّحَّاكُ: «السَّيِّدُ الْحَسَنُ الْخَلْقِ»^(٣).

□ قَالَ الضَّحَّاكُ: «السَّيِّدُ: الْحَلِيمُ التَّقِيُّ»^(١).

(١) «صيد الخاطر» (ص ٥٥٢-٥٥٣).

(٢) «المنتقى من مكارم الأخلاق» (ص ١١٥).

(٣) المرجع السابق (ص ١١٥).



□ قال كُشَاجِمُ:

لا أَسْتَلِدُّ الْعَيْشَ لَمْ أَذْأَبْ لَهُ طَلَبًا وَسَعْيًا فِي الْهَوَاجِرِ وَالْغَلَسِ
وَأَرَى حَرَامًا أَنْ يُوَاتِنِي الْغَنَى حَتَّى يُحَاوَلَ بِالْغِنَاءِ وَيُلْتَمَسَ
فَاصْرِفْ نَوَالِكَ عَنْ أَخِيكَ مُوَفَّرًا فَالَلَيْثُ لَيْسَ يُسْبَغُ إِلَّا مَا افْتَرَسَ^(٢)

﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٨﴾

□ قال الشاعر:

تَفْضُلُ عَلَى مَنْ شِئْتَ وَاعْنِ بِأَمْرِهِ فَأَنْتَ وَلَوْ كَانَ الْأَمِيرَ أَمِيرُهُ
وَكُنْ ذَا غِنَى عَنْ مَنْ تَشَاءُ مِنَ الْوَرَى وَلَوْ كَانَ سُلْطَانًا فَأَنْتَ نَظِيرُهُ
وَمَنْ كُنْتَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ وَوَاقِفًا عَلَى طَمَعٍ مِنْهُ فَأَنْتَ أَسِيرُهُ^(٣)

﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٨﴾

(١) المرجع السابق (ص ١١٥).

(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٨٨).

(٣) «صيد الخاطر» (ص ٤٢٦).

أَقْوَالُ عَطْرَاتٍ:

كُنْ خَبْرًا يَرُوقُ جَمِيلًا:

□ قال الشاعر:

تَلَقَّى الْكَرِيمَ فَتَسْتَدِلُّ بِبِشْرِهِ وَتَرَى الْعُبُوسَ عَلَى اللَّئِيمِ دَلِيلًا
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ صَائِرٌ خَبْرًا، فَعُنْ خَبْرًا يَرُوقُ جَمِيلًا^(١)

□ والله در القائل: «مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ لَمْ يَنْلِ الرَّغَائِبَ، وَمَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ الَّذِي لَعَلَّهُ أَنْ يَنْالَ مِنْهُ حَاجَتُهُ مَخَافَةً مَا لَعَلَّهُ يُوقَاهُ فَلَيْسَ بِبَالِغٍ جَسِيمًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ ذَا الْمُرُوءَةِ لَيَكُونُ خَامِلُ الذِّكْرِ خَافِضُ الْمَنْزَلَةِ، فَتَأْبَى مَرُوءَتُهُ إِلَّا أَنْ يَسْتَعْلِيَ وَيَرْتَفِعَ، كَالشُّعْلَةِ مِنَ النَّارِ الَّتِي يَصُورُهَا صَاحِبُهَا وَتَأْبَى إِلَّا أَنْ تَرْتَفَعَ»^(٢).

□ قال حبيب الطائي:

أَعَاذَلَنِي مَا أَخْشَنَ اللَّيْلَ مَرْكَبًا وَأَخْشَنُ مِنْهُ فِي الْمِلْمَاتِ رَاكِبُهُ
ذَرِينِي وَأَهْوَالَ الزَّمَانِ أَفَاسِهَا فَأَهْوَالُهُ الْعُظْمَى تَلِيهَا رَغَائِبُهُ^(٣)

□ قال كعب بن زهير:

وَلَيْسَ أَنْتَ لَمْ تَرْكَبِ الْهَوَلَ بُغْيَةً وَلَيْسَ لِرِجْلِ حَطَّهَ اللَّهُ حَامِلُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِ وَالْخَنَا أَصَبْتَ حَلِيلًا أَوْ أَصَابَكَ جَاهِلُ^(٤)

(١) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص ١٩٤).

(٢) «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٣/ ١٨).

(٣) «العقد الفريد» (٣/ ١٩).

(٤) «العقد الفريد» (٣/ ١٩).

الفرق بين العزم والإرادة والهمم:

□ قال الكفوي: «دواعي الإنسان إلى الفعل من خيرٍ وشرٍّ على مراتب، منها: الإرادة، ومنها الهمم، ومنها: العزم. وذكر الفرق بين هذه الثلاثة فقال:

الهمم: اجتماع النفس على الأمر، والإِزْماع عليه، والعزم هو القصدُ على إِمضائه، فالهمم فوق الإرادة ودون العزم، وهو «أي: الهمم» أوَّلُ العزيمة^(١).
• عن شَداد بن أوس رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يقول في صلاته: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرُّشد، وأسألك شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وحُسْنَ عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تَعَلَّم، وأعوذُ بك من شرِّ ما تَعَلَّم، وأستغفرك لما تَعَلَّم»^(٢).

• وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله، فأما الذين يحبهم الله: فرجل أتى قومًا فسألهم بالله ولم يسألهم بقراءة بينه وبينهم فمنعوه، فتخلف رجلٌ بأعقابهم فأعطاه سرًّا لا يعلمُ بعطيته إلا الله، والذي أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النومُ أحبَّ إليهم مما يُعَدِّلُ به نزلوا فوضعوا رؤوسهم، فقام أحدهم يتملَّقني ويتلو آياتي.

(١) «الكُلِّيَّات» للكفوي (ص ٩٦١).

(٢) صحيح: رواه النسائي (٣/ ٥٤) واللفظ له، والترمذي (٣٤٠٧)، وأحمد (١٢٥/٤)،

وقال مُحَقِّقُ «جامع الأصول» (٤/ ٢٥٩): ورواه الحاكم وصحَّحه، ووافقه الذهبي،

وابن حبان في «صحيحه» برقم (٢٤١٦).

ورجل كان في سرية فلقي العدو فهزموا، وأقبل بصدرة حتى يقتل أو يفتح له، والثلاثة الذين يُغضهم الله: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم»^(١).

❦ أخِي: علو الهمة بذُر النعم، والهمة راية الجد^(٢).

□ قال الشاعر عن عالي الهمة:

إِذَا هُمْ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبًا
وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي أَمْرِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبًا^(٣)

□ عكف أبو صالح أيوب بن سليمان على كتاب العروض حتى حفظه، فسأله بعضهم عن إقباله على هذا العلم بعد الكبر، فقال: «حضرت قوماً يتكلمون فيه فأخذني ذلٌّ في نفسي أن يكون بابٌ من العلم لا أتكلَّم فيه»^(٤).

اليقظة.. اليقظة:

□ قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعِيشُ شَقِيًّا جِيفَةً اللَّيْلِ غَافِلَ الْيَقْظَةِ

(١) حسن: رواه أحمد (١٥٣/٥)، والترمذي (٢٥٦٨) واللفظ له، وقال: هذا حديث صحيح، والنسائي (٨٤/٥) وهو في «المشكاة» حديث (١٩٢٢)، وحسنه محقق «جامع الأصول» (٥٦٤/٩).

(٢) «أدب الدنيا والدين» للهارودي (ص ٣٢٧).

(٣) «أسرار البلاغة» (ص ١١٥).

(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص ٥٤).

فَإِذَا كَانَ ذَا حَيَاءٍ وَدِينٍ رَاقِبَ اللَّهَ وَاتَّقَى الْحِفْظَةَ
إِنَّمَا النَّاسُ سَائِرٌ وَمَقِيمٌ وَالَّذِي سَارَ لِلْمَقِيمِ عِظَةُ

□ قال العزِّي: «اليقظة هي القومة لله، المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِثْلٍ بَهِيمٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، فالقومة لله هي اليقظة من سنة الغفلة»^(١).

□ وقال أيضًا: «إن العبد إذا نهض من ورطة الغفلة استنار قلبه برؤية نور التنبيه فأوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة، وكلما حذق قلبه وطرفه فيها شاهد عظمته وكثرتها فيئس من عدها والوقوف على حدّها»^(٢).

□ وقال أيضًا: «اعلم أن العبد قبل وصول الداعي إليه في نوم الغفلة قلبه نائم وطرفه يقظان، فصاح به الناصح وأسمعه داعي النجاح وأذن به مؤذن الرحمن: حي على الفلاح»^(٣).

□ وقال الفيروزآبادي: «واليقظة عند القوم أول منازل العبودية، وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، والله ما أنفع هذه الروعة، وما أعظم قدرها وخطرها، وما أقوى إعانتها على السلوك، فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه وتيقظ شمر بهمة إلى السفر إلى منازل الأولى، فأخذ في أهبة السفر وانتقل إلى منزلة القوم، وهو العهد الجازم على الشيء، ومفارقة كل قاطع

(١) «لسان العرب» (٧/٤٦٦-٤٦٧).

(٢) «تهذيب مدارج السالكين» (ص ١٠١).

(٣) «تهذيب مدارج السالكين» (ص ١٠١).

وَمُعَوَّقٌ، وَمُرَافِقَةٌ كُلُّ مَعِينٍ وَمَوْصِلٍ، وَبِحَسَبِ كِهَالِ انْتِبَاهِهِ وَيَقْظَتِهِ تَكُونُ عَزِيمَتُهُ، وَبِحَسَبِ قُوَّةِ عَزْمِهِ يَكُونُ اسْتِعْدَادُهُ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ أُوجِبَتْ الْيَقْظَةُ الْفِكْرَةُ، وَهِيَ تَحْدِيقُ الْقَلْبِ نَحْوَ الْمَطْلُوبِ الَّذِي قَدْ سَعَدَ بِهِ مُجْمَلًا وَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى تَفْصِيلِهِ وَطَرِيقِ الْوَصُولِ إِلَيْهِ، فَإِذَا صَحَّتْ فِكْرَتُهُ أُوجِبَتْ لَهُ الْبَصِيرَةُ وَهِيَ نُورٌ فِي الْقَلْبِ تَرَى بِهِ حَقِيقَةَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ»^(١).

□ والله در ابن قيم الجوزية إذ يقول:

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتٍ عَدْنٍ فَإِنَّهَا مَنَازِلَكَ الْأَوَّلَى وَفِيهَا الْمَخِيْمُ
وَلَكِنَّا سَبِيَّ الْعَدُوِّ فَهَلْ تُرَى نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ:

* قَالَ تَعَالَى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات].

□ قَالَ الطَّبْرِي: «عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ -: «اهْرُبُوا أَتِيهَا النَّاسُ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ إِلَى رَحْمَتِهِ بِالْإِيْمَانِ بِهِ وَاتَّبَاعِ أَمْرِهِ وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ»^(٢).

□ وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ، أَيُّ لِقَوْمِكَ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات]. أَيُّ: فِرُّوا مِنْ مَعَاصِيهِ إِلَى طَاعَتِهِ. وَذَكَرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَوْلَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: فِرُّوا إِلَى اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَرُويَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَيْضًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ: فِرُّوا مِنْهُ إِلَيْهِ وَاعْمَلُوا بِطَاعَتِهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فِرُّوا مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى

(١) «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي (٥/٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) «تفسير الطبري» (١١/٤٧٣).

طاعة الرحمن، وقيل: فَرُّوا مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ، وَمِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ،
وقيل: فَرُّوا إِلَى مَا سَبَقَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَلَا تَعْتَمِدُوا عَلَى حَرَكَاتِكُمْ»^(١).

□ وقال الشَّوكَانِيُّ: «فَرُّوا إِلَى اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِكُمْ عَنِ الْكُفْرِ
وَالْمَعَاصِي، وَقِيلَ مَعْنَى فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ: أَخْرُجُوا مِنْ مَكَّةَ».

□ وقال الحسين بن الفضل: «احْتَرِزُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ فَرَّ
إِلَى غَيْرِهِ لَمْ يَمْتَنِعْ مِنْهُ، قِيلَ: فَرُّوا مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ،
وقيل: فَرُّوا مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ»^(٢).

ففروا إلى الله:

□ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: الْجَأُوا إِلَيْهِ وَاعْتَمِدُوا فِي أُمُورِكُمْ
عَلَيْهِ»^(٣).

□ وقال النيسابوري: «أَي: التَّجَوُّوا إِلَيْهِ، وَلَا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ، أَمْرٌ
بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَالْإِعْرَاضِ عَمَّا سِوَاهُ»^(٤).

□ وقال الجنيد: «الشَّيْطَانُ دَاعٍ إِلَى الْبَاطِلِ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ يَمْنَعُكُمْ مِنْهُ».
□ وقال ذو النون المصري: «فَفَرُّوا مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ، وَمَنِ الْكُفْرِ
إِلَى الشُّكْرِ».

□ وقال عمرو بن عثمان: «فَفَرُّوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، فَرُّوا إِلَى سَبْقِ
لَكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَلَا تَعْتَمِدُوا عَلَى جَوَارِيكُمْ».

(١) «تفسير القرطبي» (٣٦-٣٧/١٧) باختصار وتصرف يسير.

(٢) «فتح القدير» (٩١/٥).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢٣٨/٤).

(٤) «حاشية السندي على تفسير ابن جرير الطبري» (١٦/٧).

- وقال سهل بن عبد الله: «فَرُّوا مِمَّا سِوَى اللَّهِ إِلَى اللَّهِ»^(١).
- وقال أبو حيان: «فَرُّوا إِلَى اللَّهِ: أَمْرٌ بِالْذُّخُولِ فِي الْإِيمَانِ وَطَاعَةِ اللَّهِ، وَجُعِلَ الْأَمْرُ ذَلِكَ بِلَفْظِ الْفِرَارِ لِيُنَبَّهَ عَلَى أَنَّ وَرَاءَ النَّاسِ عِقَابًا وَعَذَابًا وَأَمْرًا حَقُّهُ أَنْ يُفَرَّ مِنْهُ، فَجُمِعَتَ لَفْظَةً فَفَرُّوا بَيْنَ التَّحْذِيرِ وَالِاسْتِدْعَاءِ».
- وقال الزَّخَشَرِيُّ: «فَرُّوا إِلَى طَاعَتِهِ وَثَوَابِهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَعِقَابِهِ وَوَحْدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»^(٢).
- فَالْفِرَارُ: أَنْ يَفْزَعَ الْإِنْسَانُ وَيَهْرُبُ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَمِنَ الشَّيْطَانِ وَالْمَعَاصِي وَالْجَهْلِ وَكُلِّ مَا عَدَا اللَّهَ إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ وَالْذُّخُولِ فِي الْإِيمَانِ.
- قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنْ مَنَازِلِ ﴿إِنَّا نَعْبُدُكَ وَإِنَّا نَسْتَعِيبُ﴾^(٣) [الْفَاتِحَةِ]: مَنَزَلَةُ الْفِرَارِ:
- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ وَحَقِيقَةُ الْفِرَارِ: الْهَرَبُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، وَهُوَ نَوْعَانِ: فِرَارُ السُّعَدَاءِ، وَفِرَارُ الْأَشْقِيَاءِ.
- فَفِرَارُ السُّعَدَاءِ: الْفِرَارُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَفِرَارُ الْأَشْقِيَاءِ الْفِرَارُ مِنْهُ لَا إِلَيْهِ.
- وَأَمَّا الْفِرَارُ مِنْهُ إِلَيْهِ: فَفِرَارُ أَوْلِيَائِهِ.
- قَالَ صَاحِبُ الْمَنَازِلِ: «هُوَ الْهَرَبُ مِمَّا لَمْ يَكُنْ إِلَى مَنْ لَمْ يَزَلْ. وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: فِرَارُ الْعَامَّةِ مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ عَقْدًا وَسَعْيًا. وَمِنَ الْكَسَلِ إِلَى التَّشْمِيرِ جِدًّا وَعَزْمًا، وَمِنَ الضَّيْقِ إِلَى السَّعَةِ ثَقَّةً وَرَجَاءً.
- يُرِيدُ بِمَا لَمْ يَكُنْ «الْخَلْقُ»، وَبِمَا لَمْ يَزَلْ «الْحَقُّ».

(١) «تفسير القرطبي» (٩/٣٦، ٣٧).

(٢) «البحر المحيط» (٨/١٤٢).

وقوله: «فراُرُ العامّةِ من الجهلِ إلى العلمِ عقدًا وسعيًا»: فالفراُرُ المذكورُ: هو الفراُرُ من الجهلَيْن: مِنَ الجهلِ بالعلمِ إلى تحصيله، واعتقادًا ومعرفةً وبصيرةً، وَمِنْ جهلِ العملِ إلى السَّعيِ النَّافعِ، والعملِ الصَّالحِ قصدًا وسعيًا.

وقوله: «وَمِنَ الكسلِ إلى التَّشْمِيرِ جدًّا وعزمًا»: أي يَفِرُّ مِنْ إجابةِ دَاعيِ الكسلِ إلى دَاعيِ العملِ والتَّشْمِيرِ بالجدِّ والاجتهادِ، والجدُّ ههنا هو صدقُ العملِ، وإخلاصُهُ مِنْ شوائِبِ الفُتُورِ، ووعودِ التَّسْوِيفِ والتَّهْاُونِ، وهو تحت السَّينِ وسوف، وعسى ولعلَّ، فهي أضْرُ شيءٍ على العبد، وهي شجرةٌ ثمرها الخسران والنَّدَامَاتُ.

وقوله: «مِنَ الضِّيقِ إلى السَّعةِ ثَقَّةً ورجاءً»: يريد هروب العبد مِنْ ضيقِ صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التي تعترّيه في هذه الدَّارِ مِنْ جهةِ نفسه. وما هو خارجٌ مِّنْ نفسه ممَّا يتعلَّقُ بأسبابِ مصالحه، ومصالح مِّنْ يتعلَّقُ به، وما يتعلَّقُ بما له وبدنه وأهله وعدُوّه، يهربُ مِنْ ضيقِ صدره بذلك كُلِّهِ إلى سعةِ فضاءِ الثَّقَّةِ باللهِ تبارك وتعالى، وصدقِ التَّوَكُّلِ عليه، وحسنِ الرَّجاءِ لجميلِ صُنْعِهِ به، وتوقُّعِ المَرْجُوِّ مِنْ لطفه وبرّه.

وكَلِّمًا كان العبدُ حسنَ الظَّنِّ باللهِ ، حسنَ فيه أَلْبَتَّةَ، فإنه سبحانه لا يَحِبُّ أَمَلَ آمِلٍ، ولا يُضَيِّعُ عملَ عاملٍ. وعَبَّرَ عن الثَّقَّةِ وحسنِ الظَّنِّ بالسَّعةِ، فَإِنَّهُ لَا أَشْرَحَ لِلصَّدْرِ، ولا أَوْسَعَ لَهُ - بعد الإيمان - مِنْ ثِقته باللهِ ورجائه له وحسن ظنه به.

وبالجملة فصلاً يسكن إليه دون

الله، ولا يفرح بها حصل له دون الله، ولا يأسى على ما فاتهُ سِوَى الله، ولا يستغني برُتْبَةٍ شريفة، وإنْ عَظُمَتْ عنده أو عند الناس، فلا يستغني إلَّا بالله. ولا يفتقر إلَّا إلى الله، ولا يفرح إلَّا بموافقة لمرضاة الله، ولا يحزن إلَّا على ما فاتهُ من الله، ولا يخاف إلَّا من سقوطه من عِينِ الله. واحتِجَابِ الله عَنْهُ، فَكُلُّهُ بالله، وَكُلُّهُ لله، وَكُلُّهُ مع الله، وَسِرُّهُ دائِمًا إلى الله، وقد رُفِعَ له عِلْمُهُ فَشَمَّرَ إِلَيْهِ، وَتَجَرَّدَ له مطلوبه فعمل عليه، تَنَادِيهِ الأَغْيَارِ: إِلَيَّ، وهو يقول: إِنَّمَا أريد مَنْ إذا حصل لي حصل لي كُلُّ شيءٍ، وَإِنْ فاتني فاتني كُلُّ شيءٍ، فهو مع الله مجرَّدٌ عَنْ خَلْقِهِ، ومع خَلْقِهِ مجرَّدٌ عَنْ نَفْسِهِ، ومع الأمر مجرَّدٌ مِنْ حَظِّهِ، أَعْنِي الحَظَّ المَراحِمَ للأمر، وَأَمَّا الحَظُّ المَعِينِ على الأمر: فَإِنَّهُ لَا يَحِطُّهُ تَنَاوُلُهُ عَنْ مَرْتَبَتِهِ، وَلَا يُسْقِطُهُ مِنْ عَيْنِ رَبِّهِ.

وهذا أيضًا مَوْضِعٌ غَلِطَ فِيهِ مَنْ غَلِطَ مِنَ الشُّيُوخِ فَظَنُّوا أَنَّ إِرَادَةَ الحَظِّ نَقْصٌ فِي الإِرَادَةِ.

والتَّحْقِيقُ فِيهِ: أَنَّ الحَظَّ نَوْعَانِ: حَظٌّ يَزَاحِمُ الأَمْرَ، وَحَظٌّ يُوَازِرُ الأَمْرَ. فالأَوَّلُ هو المذموم، والثاني ممدوحٌ وتناوله من تمام العبودية، فهذا لَوْنٌ، وهذا لَوْنٌ^(١).

الرحلة إلى الله وما يعترضها:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إذا عزم العبد على السَّفرِ إلى الله تعالى وإرادته عرضت له الخَوادِعُ والقَوَاطِعُ، فينخدعُ أولًا بالشَّهَوَاتِ والرِّيَاسَاتِ والمَلَاذِّ والمَنَاحِكِ والملابس، فَإِنْ وَقَفَ معها انقطع وَإِنْ رَفَضَهَا، وَلَمْ يَقِفْ

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٠٤ - ٥١٠) باختصار.

معها وصدق في طلبه ابتلي بوطء عقبه^(١)، وتقبيل يده، والتوسعة له في المجلس، والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته، ونحو ذلك، فإن وقف معه انقطع به عن الله، وكان حظه منه، وإن قطعه، ولم يقف معه ابتلي بالكرامات والكشوفات، فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظه، وإن لم يقف معها ابتلي بالتجريد والتخلي ولذة الجمعية، وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا، فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود، وإن لم يقف معه وسار ناظرًا إلى مُراد الله منه، وما يُحبه منه، بحيث يكون عبده الموقوف على محابه ومراضيه، أين كانت؟ وكيف كانت، تعب بها أو استراح، تنعم أو تألم، أخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليه وسيده، واقف مع أمره ينفذه بحسب الإمكان، ونفسه عنده عليه أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره، فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء^(٢) أَلْبَتَّةُ.

• عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أخذت مضجعك^(٣) فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت وجهي إليك^(٤) وفوضت أمري إليك، وألجأت

(١) أي: السير خلفه.

(٢) «الفوائد» (ص ١٧٢).

(٣) «إذا أخذت مضجعك»: معناه إذا أردت النوم في مضجعك.

(٤) «أسلمت وجهي إليك». وفي الرواية الأخرى. «أسلمت نفسي إليك»: أي استسلمت وجعلت نفسي منقاداً لك طائعة لحكمك. قال العلماء: الوجه والنفس هنا بمعنى الذات كلها، يقال: سلم وأسلم واستسلم بمعنى.

ظهري إليك^(١)، رغبة ورهبة إليك^(٢)، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، واجعلهن من آخر كلامك، فإن مُتَّ من ليلتك، مُتَّ وأنت على الفطرة^(٣) قال: فرددتهن لأستذكرهن فقلت: آمنتُ برسولك الذي أرسلت. قال: «قُل: آمنتُ بنبيك الذي أرسلت»^(٤).

الرجولة والفتوة والمروءة والإنسانية:

هذه صفات أربع يرجع اشتقاقها إلى جنس الذكور وما يتحلون به من صفات القوة ونحوها، فالرجولة نسبة إلى الرجل والفتوة ترجع إلى الفتى، والمروءة إلى المرء، والإنسانية ترجع إلى الإنسان، وفي المجال الأخلاقي «أو الاصطلاحي»، نجد المقصود بالمروءة والإنسانية^(٥) أعم من نظيرتها الفتوة والرجولة؛ لأن المرء أو الإنسان قد يكون فتى شاباً أو رجلاً كهلاً، والرجولة في أظهر معانيها تعني اتصاف الإنسان بما يوصف به الرجال عادة من نحو تحمّل الأعباء الثقّال، ومن أبرز ذلك تحمّل الرُّسل الكرام لأعباء الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧]، ومن ذلك صدق الرجل فيما عاهد عليه ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ

(١) ألجأت ظهري إليك: أي توكلت عليك واعتمدت في أمري كله، كما يعتمد الإنسان بظهره إلى يسنده.

(٢) رغبة ورهبة: أي طمعا في ثوابك وخوفاً من عذابك.

(٣) الفطرة: أي الإسلام.

(٤) البخاري «الفتح» (١/٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠) واللفظ له.

(٥) سَوَّى ابن القيم بين صفتي المروءة والإنسانية وجعلهما مترادفين انظر: «مدارج السالكين» (٢/٣٦٦).

صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴿[الأحزاب: ٢٣]﴾، ومنها حُبُّ التَّطَهُّرِ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨]، ومنها أَنَّ الرجلَ لَا تشغله العوارِضُ عن ذكرِ الله والعملِ لِلآخِرَةِ مُصَدِّقٌ ذَلِكَ قولُ الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، فالرَّجلُ الحَقُّ على ذلك هو من يتَحَمَّلُ الأعباءَ وينهضُ بها، ويصدقُ العهدَ، ويحبُّ الطَّهْرَ، ولا تشغلهُ سَفاسِفُ الأمورِ عَنْ معاليها، أَمَّا الفُتُوَّةُ فإنَّها تعني اتِّصافُ المرءِ بما يُوصَفُ به الفتى من النَجْدَةِ والنَّشاطِ وتوقُّدِ الذِّكَاةِ، قال طرفة:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى؟ خِلْتُ أَنِّي عُنَيْتُ، فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ ^(١)

□ وقال بعضُ الشعراء:

إِنَّ الْفَتَى حَمَالٌ كُلُّ مِلْمَةٍ لَيْسَ الْفَتَى بِمُنْعَمِ السُّبَّانِ

□ ولا تتوقَّفُ الفُتُوَّةُ على المالِ أو الجاهِ، وإنَّما على شرفِ الأعمالِ

والخصالِ..

قَدْ يُدْرِكُ الشَّرَفَ الْفَتَى، وَرِدَاؤُهُ خَلْقٌ، وَجَيْبُ قَمِيصِهِ مَرْقُوعٌ ^(٢)

□ لقد لاحظ العربُ بعضَ هذه المعاني، فقال الجوهريُّ: «الفتى:

السَّخِيُّ الكَرِيمُ ^(٣)، يقال: هو فَتَى بَيْنَ الْفُتُوَّةِ، ويتأكَّدُ هذا المعنى اللَّغَوِيُّ

لِلْفُتُوَّةِ بما جاء في الذِّكْرِ الحَكِيمِ مَنْ وَصِفَ أَهْلُ الْكَهْفِ بِأَنَّهُمْ ﴿فَتِيَّةٌ

ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣]، وفي وهذا إشارةٌ واضحةٌ إلى أَنَّ صِفَةَ الْفُتُوَّةِ

(١) «ديوان طرفة» المعلقة.

(٢) عن «لسان العرب» (١٥/١٤٦) - ط. بيروت.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

فيهم تُفِيدُ قُوَّةَ تَحْمُلِهِمْ وَصَلَابَةَ عَزِيمَتِهِمْ وَكَمَالَ عَقُولِهِمْ الْمُمَثِّلِ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى، يَقُولُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ فَتِيَّةٌ وَهُمْ الشُّبَابُ وَهُمْ أَقْبَلُ لِلْحَقِّ وَأَهْدَى لِلْسَّبِيلِ مِنَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ قَدْ عَتَوْا وَانْغَمَسُوا فِي دِينِ الْبَاطِلِ، وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ شَبَابًا، وَأَمَّا الشُّيُوخُ مِنْ قَرِيشٍ فَعَامَّتُهُمْ بَقُوا عَلَى دِينِهِمْ وَلَمْ يُسَلِّمْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ^(١).

وَبِهَذَا يَتَّضِحُ أَنَّ الْفُتُوَّةَ تُشِيرُ إِلَى مَعَانٍ ذَاتِ قِيَمَةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ عَظْمَى، حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ فِي الْأَصْلِ لَا تُشْعِرُ بِمَدْحٍ وَلَا ذَمٍّ كَمَا يَقُولُ الْفَيْرُوزْآبَادِيُّ^(٢)، ثُمَّ انْتَقَلَتِ اللَّفْظَةُ بَعْدَ ذَلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى «اسْتِعْمَالِ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ مَعَ الْخَلْقِ»، كَمَا يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: ^(٣) وَمَعْنَى هَذِهِ الْعِبَارَةِ: أَنَّ الْفُتُوَّةَ هِيَ التَّطَبُّقُ الْعَمَلِيُّ وَالتَّنْفِذُ الْفِعْلِيُّ لِمَا تَقْتَضِيهِ الْأَخْلَاقُ الْحَمِيدَةُ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا مَنْ اتَّصَفَ بِالْفُتُوَّةِ، وَقَدْ عَدَّهَا رَحِمَهُ اللَّهُ، مِنْ مَنَازِلِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٥ أَهْدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ [الْفَاتِحَةُ] فَقَالَ: حَقِيقَةُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ هِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ وَكَفُّ الْأَذَى عَنْهُمْ، وَاحْتِمَالُ أَذَاهُمْ: «وَهِيَ إِذَنْ نَتِيجَةُ حَسَنِ الْخَلْقِ، وَاسْتِعْمَالُهُ «أَي: إِخْرَاجُهُ إِلَى حَيْزِ الْوُجُودِ بَعْدَ أَنْ كَانَ هَيْئَةً رَاسِخَةً فِي النَّفْسِ».

وَأَقْدَمُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْفُتُوَّةِ جَعْفَرُ الصَّادِقُ ثُمَّ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَسَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّسْتَرِيِّ وَالْجَنْدِيُّ، «وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ»، وَقَدْ سُئِلَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ عَنِ الْفُتُوَّةِ فَقَالَ لِلْسَّائِلِ: مَا تَقُولُ

(١) «تفسير ابن كثير» (٧٨/٣).

(٢) «بصائر ذوي التمييز» (١٧١/٤).

(٣) «مدارج السالكين» (٣٥٣/٢).

أنت؟ قال: إن أعطيتُ شكرتُ، وإن مُنعتُ صبرتُ، فقال «جعفر»: لكن المروءة عندنا: أعطينا أثرنا، وإن مُنعنا شكرنا.

□ وقال الفضيل: «الفتوة: الصفح عن عثرات الإخوان».

□ وقال الإمام أحمد: «الفتوة: ترك ما تهوى لما تحشى».

□ وقال الجنيذ: «الفتوة: ألا تُنافر فقيراً، ولا تُعارض غنياً».

□ وقال لمحاسبي: «الفتوة: أن تُنصف ولا تتنصف».

□ وقال الترمذي: «الفتوة: أن تكون خصيماً لربك على نفسك،

وقيل: هي ألا ترى لنفسك فضلاً على غيرك»^(١).

□ وقد لحّص ابن القيم رحمه الله هذه الأقوال عندما ذكر أن أصل الفتوة

عندهم هي أن يكون العبد أبداً في أمر «خدمة» غيره^(٢).

□ وهذا الخلق الرفيع لا يتأتى بكماله إلا لرسول الله ﷺ كما يقول

الدقاق: «فإن كل أحد يقول يوم القيامة: نفسي نفسي، وهو يقول: أمّتي

أمّتي»^(٣).

وفما يتعلق بالفرق بين المروءة^(٤) والفتوة فيتمثل في أن بينهما عمومًا

وخصوصًا يقول ابن القيم موضحًا لهذا الفرق: الفتوة نوع من أنواع

المروءة إذ المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد، أو متعد إلى

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٤)، و«بصائر ذوي

التمييز» (٤/ ١٧٠) وما بعدها.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٥).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٥)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ١٧١).

(٤) انظر: «صفة المروءة» ووفقًا لما ذكر ابن القيم، فإن الإنسانية والمروءة يستويان في

المعنى.

غيره، وَتَرَكُ مَا يُدْنِسُ وَيُشِينُ مَا هُوَ مُخْتَصَّ أَيْضًا بِهِ أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِغَيْرِهِ، أَمَّا الْفِتْوَةُ فَهِيَ اسْتِعْمَالُ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ مَعَ الْخَلْقِ ^(١)، أَيْ إِنَّ الْمَرْوَةَ تَتَعَلَّقُ بِالنَفْسِ وَبِالْغَيْرِ، وَالْفِتْوَةُ تَتَعَلَّقُ بِالْغَيْرِ فَقَطْ إِذْ هِيَ أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ فِي خِدْمَةِ غَيْرِهِ، أَمَّا صِفَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فَهِيَ وَالْمَرْوَةُ سَوَاءٌ ^(٢).

يَا هَذَا كُنْ رَجُلًا: وَسِرْ بِهَمَّتِكَ عَلَيْكَ تَلْحَقْ بِهِؤُلَاءِ الرِّجَالُ:

* قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾

[الأحزاب: ٢٣].

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُجْبَرُونَ أَنْ يَنْطَهَرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨].

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ بُحْرَةً وَلَا بُيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

* وَقَدْ نَعَتَ اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ بِكَوْنِهِمْ رِجَالًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا

نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧].

كَمَا فُسِّرَ عَلَى دَرَجَةِ الرِّجَالِ.

حَسَنُ السَّمْتِ وَالْهُدَى وَالِدَلُّ مَوْقُوفٌ عَلَى عُلَاةِ الْهَمِّ الْبَانِيَيْنِ الصَّالِحِينَ:

مَادَّةُ (س م ت) تَدُلُّ - كَمَا يَقُولُ ابْنُ فَارَسٍ - عَلَى نَهْجٍ وَقَصْدٍ وَطَرِيقَةٍ.

يُقَالُ: سَمَتَ إِذَا أَخَذَ النَّهْجَ.

وَيُقَالُ: إِنْ فَلَانًا لِحَسَنِ السَّمْتِ: إِذَا كَانَ مُسْتَقِيمَ الطَّرِيقَةِ مُتَحَرِّيًا لِفَعْلِ

الْخَيْرِ.

وَالسَّمْتُ (أَيْضًا) هَيْئَةُ أَهْلِ الْخَيْرِ يُقَالُ: مَا أَحْسَنَ سَمْتَهُ.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٣).

(٢) «نصرة النعيم» (٥/ ٢٠٤٢ - ٢٠٤٤).

□ قال أبو عبيد: «السَّمْتُ يكونُ في حُسْنِ الهيئةِ والمنظرِ من جهةِ الخيرِ والدينِ لا من جهةِ الجمالِ والزينة».

فحسن السَّمْتُ هو حسن المظهر الخارجي للإنسان طريقة الحديث والصَّمت، والحركة والسُّكُون والدُّخُول والخروج والسَّيرة العلميَّة في الناس بحيثُ يستطيع من يراه أو يسمعه أن ينسبهُ لأهلِ الخيرِ والصَّلاحِ والديانةِ والفلاح^(١).

• عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْهَدْيَ الصَّالِحَ وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ وَالْاِقْتِصَادَ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعَشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ»^(٢).

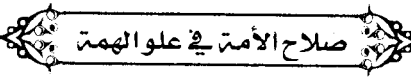
□ عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أنه قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ أَضْحِيَّانٍ^(٣)، فَجَعَلْتُ أَنْظُرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى الْقَمَرِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، فَإِذَا هُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ الْقَمَرِ»^(٤).

(١) «مقاييس اللغة» لابن فارس (٣/ ٩٩)، و«النهاية» لابن الأثير (٢/ ٣٩٧)، و«لسان العرب» (ص ٢٠٨٧) طبع دار المعارف، و«المفردات» للراغب (ص ١١٨).

(٢) أبو داود (٤٧٧٦) واللفظ له، وأحمد (١/ ٢٩٦) وقال أحمد شاکر: إسناده صحيح (٤/ ٢٤٤) رقم (٢٦٩٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٦٧) رقم (٧٩١)، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: «إسناده حسن» (١٠/ ٥٠٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٩٢) بلفظ: «إن الهدى الصالح، والسَّمْتُ الصالح، جزءٌ من سبعين جزءاً من النبوة» من رواية الطبراني في «المعجم الكبير».

(٣) ليلة أضحيان: أي مضيئة.

(٤) صحيح: رواه الترمذي (٢٨١٢) في «الأدب» باب ما جاء في الرُّخصة في لبس الحمرة للرجال، وقال: هذا حديث حسن غريب وهو كما قال، ورواه الحاكم (١/ ١٨٧)، وصححه ووافقه الذهبي.



• عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: «كان النبي ﷺ مربوعاً، وقد رأيته في حلة حمراء، ما رأيته شيئاً أحسن منه».

□ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى هَذِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلْيَنْظُرْ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْأَسَدِ»^(١).

□ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يوصي الرجال والنساء: «مَنْ أَدْرَكَ فَيَكُنَّ مِنْ امْرَأَةٍ أَوْ رَجُلٍ فَالَسَّمْتُ الْأَوَّلَ، السَّمْتُ الْأَوَّلُ، فَإِنَّا عَلَى الْفَطْرَةِ». قال عبد الله: السَّمْتُ: الطَّرِيقُ»^(٢).

□ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إنكم في زمانٍ كثيرٌ فقهاؤه، قليلٌ خطبائهم قليلٌ سؤالهم، كثيرٌ معطوهم، العملُ فيه قائدٌ للهوى، وسيأتي من بعدكم زمانٌ قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ خطبائهم، كثيرٌ سؤالهم، قليلٌ عطاؤهم، الهوى فيه قائدٌ للعمل. اعلّموا أنّ حُسْنَ الهدي في آخر الزمانِ خيرٌ من بعض العمل»^(٣).

□ قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: «الْقَصْدُ وَالتَّوَدُّعُ وَحَسَنُ السَّمْتِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعَشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ»^(٤).

□ قالت عائشة رضي الله عنها: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ سَمْتًا وَدَلًّا وَهَذِيًّا

(١) «حلية الأولياء» (١٥٦/٥) وهو في «الحلية» بهذا اللفظ، وذكره الحافظ في «الفتح» (١٠/٥١٠) وعزاه لأحمد.

(٢) الدارمي (٨٢/١) رقم (٢١٣).

(٣) «الأدب المفرد» (ص ٢٧٥، ٢٧٦) وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: «سنده صحيح» (١٠/٥١٠) ولا يُقال مثله من قبل الرأي.

(٤) «الموطأ» (٩٥٤)، وقال محمد فؤاد عبد الباقي: رواه الطبراني في «الكبير» مرفوعاً ومثله لا يُقال بالرأي.



برسول الله ﷺ في قيامها وقعودها من فاطمة عليها السلام ^(١).

□ قال إبراهيم النخعي رحمته الله: «كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى صلاته وإلى سمته وإلى هيئته، ثم يأخذون عنه» ^(٢).

□ قال الأعمش رحمته الله: «كانوا يتعلمون من الفقيه كل شيء حتى لباسه ونعليه» ^(٣).

□ قال الأوزاعي رحمته الله: «كُنَّا نَمْرُحُ ونضحك فلَمَّا صَرْنَا يُقْتَدَى بنا خشيتُ أن لا يسعنا التَّبَسُّمُ» ^(٤).

□ قال الحسن البصري رحمته الله: «كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه ولسانه وبصره ويده» ^(٥).

□ قال أبو العالية رحمته الله: «أرَحَلُ إلى الرجل مسيرة أيام فأول ما أتفقَدُ من أمره صلاته، فإن وجدته يقيمها ويتمها أقمتُ وسمعتُ منه، وإن وجدته يضيعها رجعتُ ولم أسمع منه وقلتُ هو لغير الصلاة أضيع» ^(٦).

□ قال مالك رحمته الله: «إنَّ حَقًّا على من طلب العلم أن يكون له وقارٌ وسكينةٌ وخشيةٌ، وأن يكون مُتَّبِعًا لآثر من مضى قبله» ^(٧).

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٨٧٢) واللفظ له بسياق طويل، وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواه أبو داود (٥٢١٧)، والنسائي في «عشرة النساء» (ص ٣٠١) رقم (٣٥٤)، والحاكم (٢٧٢/٤)، (٣٧٢/٤) والبيهقي في «السنن» (١٠١/٧).

(٢) «الآداب الشرعية» (١٤٩/٢).

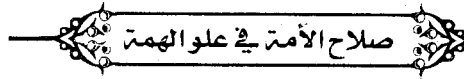
(٣) المصدر السابق (١٤٩/٢).

(٤) المرجع السابق (٤٤/٢).

(٥) «شعب الإيمان» (٤٢٧/٨)، و«الآداب الشرعية» (٤٥/٢).

(٦) «حلية الأولياء» (٢٢٠/٢).

(٧) «الآداب الشرعية» (٤٥/٢).



□ قال أيضًا رَحِمَهُ اللهُ: «كَانَ عُمَرُ أَشْبَهَ النَّاسِ بِهَذِي رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَشْبَهَ النَّاسَ بِعَمْرِ ابْنِهِ عَبْدِ اللهِ، وَبِعَبْدِ اللهِ ابْنِهِ سَالِمٍ»^(١).

□ قال أبو عبيد رَحِمَهُ اللهُ: «كَانَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ يَرْحَلُونَ إِلَى عَمْرِ ﷺ فَيَنْظُرُونَ إِلَى سَمْتِهِ وَهَذِيهِ وَدِهِ فَيَتَشَبَّهُونَ بِهِ»^(٢).

□ قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: «لِرَجُلٍ سَأَلَهُ أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: إِلَى الْبَصْرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: مَنْ بَقِيَ؟ قَالَ: «ابْنُ عَوْنٍ أَخَذَ مِنْ أَخْلَاقِهِ، أَخَذَ مِنْ آدَابِهِ»^(٣).

□ قال الوليد بن يزيد رَحِمَهُ اللهُ: «مَا رَأَيْتُ الْأَزْوَاعِيَّ ضَاحِكًا حَتَّى يُقَهِّقَهُ قُطٌّ، وَلَا مُلْتَفِتًا إِلَى شَيْءٍ، وَلَقَدْ كَانَ إِذَا أَخَذَ فِي ذِكْرِ الْمَعَادِ وَمَا أَشْبَهُهُ أَقُولُ فِي نَفْسِي: لَا يَرَى أَحَدٌ فِي الْمَجْلِسِ لَمْ يَبْكِ قَبْلَهُ»^(٤).

□ قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: «لَمْ يَكُنْ بِالْمَدِينَةِ أَحَدٌ أَشْبَهَ بِأَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ ابْنِ عَجْلَانَ، كُنْتُ أَشْبَهُهُ بِالْيَاقُوتَةِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ»^(٥).

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ:

مَنْ كَانَ مُلْتَمِسًا جَلِيسًا صَالِحًا فَلَيَأْتِ حَلَقَةً مَسْعَرٍ بِنِ كِدَامٍ
فِيهَا السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ وَأَهْلُهَا أَهْلُ الْعَفَافِ وَعَلِيَّةُ الْأَقْوَامِ^(٦)

□ كتب عبد الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ اللهُ فِي وَصِيَّتِهِ الَّتِي أَوْصَى بِهَا أَهْلَهُ

(١) «الفتح» (١٠/٥١٠).

(٢) «الصحاح» الجوهري (٤/١٦٩٩)، و«لسان العرب» (٣/١٤٢٣).

(٣) «الآداب الشرعية» (٢/١٤٩).

(٤) «الجرح والتعديل» (١/٢١٧).

(٥) المرجع السابق (١/٢٧٣).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (٧/١٧٠).

وولده: «انظروا ما كان عليه أيوب ويونس وابن عون واسألوا عن هدي ابن عون فإنكم ستجدون من يحدثكم عنه»^(١).

□ قال عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله: «كنا نأتي الرجل ما نريد علمه ليس إلا أن نتعلم من هديه وسمته ودله»^(٢).

□ وقال أيضاً: «كان علي بن المديني وغير واحد يحضرون عند يحيى ابن سعيد القطان ما يريدون أن يسمعوها شيئاً إلا أن ينظروا إلى هديه وسمته»^(٣).

□ قال أبو عاصم النبيل رحمه الله: «مات حماد بن زيد يوم ولا أعلم له في الإسلام نظيراً في هيئته ودله وسمته»^(٤).

□ قال عبيدة بن عثمان رحمه الله: «من نظر إلى الأوزاعي اكتفى به مما يرى عليه من أثر العبادة، كنت إذا رأيته قائماً يصلي كأنها تنظر إلى جسد ليس فيه رُوح»^(٥).

□ قال الحسن بن الربيع رحمه الله: «ما شبّهت أحمد بن حنبل إلا بـابن المبارك في سمته وهديه»^(٦).

□ قال ابن علي بن المديني رحمه الله: «رأيت في كتب أبي ستة أجزاء: مذهب أبي عبد الله وأخلاقه، ورأيت أحمد يفعل كذا ويفعل كذا، وبلغني

(١) «أصول الاعتقاد» (١/ ٦٢).

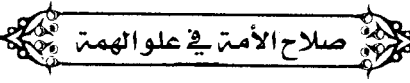
(٢) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٤٩).

(٣) الموضع السابق نفسه.

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٥٩)، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر (٣/ ١٠).

(٥) «الخرج والتعديل» (١/ ٢١٨).

(٦) مقدمة «المسند» للشيخ أحمد شاكر نقلاً عن «تاريخ الإسلام» للذهبي (ص ٦٦).



عنه كذا وكذا»^(١).

□ قال الميموني رَحِمَهُ اللهُ: «ما رأيتُ أحداً أنظفَ ثوباً، ولا أشدَّ تعاهداً لنفسه في شاربهِ وشعرِ رأسه وشعرِ بدنه ولا أنقى ثوباً وأشدَّ بياناً من أحمد ابن حنبلٍ»^(٢).

□ قال محمد بن مسلم: «كنا نهابُ أن نُرَادَّ على أحمد بن حنبلٍ في الشيءِ أو نَحَاجَّهُ في شيءٍ من الأشياءِ، يعني لجلالته ولهيبته الإسلام الذي رُزِقَهُ»^(٣).

□ قال المروزي رَحِمَهُ اللهُ: «لم أرَ الفقيرَ في مجلسٍ أعزَّ منه في مجلس أبي عبدالله^(٤)، كان مائلاً إليهم مقصراً عن أهل الدنيا، وكان فيه حلمٌ، ولم يكن بالعجول، وكان كثير التواضع تعلوه السكينة والوقار، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يُسأل، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدَّر، يقعدُ حيث انتهى به المجلس»^(٥).

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «لقيتُ عبد الوهاب الأنماطي فكان على قانون السلف لم يسمع في مجلسه عيبٌ، ولا كان يطلبُ أجراً على سماع الحديث، وكنت إذا قرأتُ عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكاءً فكان وأنا صغير السن حينئذٍ يعمل بكاءً في قلبي، ويبيني قواعد الأدب في

(١) «الآداب الشرعية» (٢/١٤٩).

(٢) المرجع السابق (٢/١٢).

(٣) المرجع السابق (٢/١٢).

(٤) يعني: أحمد بن حنبل.

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١/٢١٨).

نفسى، وكان على سَمْتِ المشايخ الذين سَمِعْنَا أوصافهم في النَّقْلِ»^(١).
 □ وقال: «قد كان جماعةٌ من السلفِ يقصدُونَ العبدَ الصالحَ للنَّظَرِ إلى سَمْتِهِ وهُدْيِهِ، ولا لافْتِيَّاسِ علمه، وذلك أَنَّ ثمرَةَ علمه هُدْيُهُ وسَمْتُهُ»^(٢).

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ: «الكَمالُ عزيزٌ، والكمالُ قليلُ الوجودِ، فأوَّلُ أسبابِ الكمالِ تناسُبُ أَعْضَاءِ البدنِ، وحسن صورةِ الباطنِ، وصورةُ البدنِ تُسمَّى خَلْقًا، وصورةُ الباطنِ تسمَّى خَلْقًا. ودليلُ كمالِ صورةِ البدنِ حسنُ السَّمْتِ واستِعْمالُ الأدبِ، ودليلُ صورةِ الباطنِ حسنُ الطَّبَائِعِ والأخلاقِ، فالطَّبَائِعُ: العِفَّةُ والنَّزَاهَةُ والأنفَةُ من الجهلِ، ومباعدةُ الشَّرِّ. والأخلاقُ: الكرمُ والإيثارُ وسِتْرُ العيوبِ وإبتداءُ المعروف والحلمُ عن الجاهلِ»^(٣).

□ قال الحافظ في «الفتح»: «خَرَجَ أبو عبيدٍ في غريب الحديث: أَنَّ أصحاب ابن مسعودٍ رضي الله عنه كانوا ينظرون إلى سَمْتِهِ وهُدْيِهِ ودَلَّهُ فيتشبهُونَ به»^(٤).

□ قال البدرُ العينيُّ صاحبُ «عمدة القاري على صحيح البخاري» رَحِمَهُ اللهُ: «ينبغي للناسِ الاقتداءُ بأهل الفضلِ والصالحِ في جميع أحوالهم في هيئَتهم وتواضعهم للخلقِ ورحمتهم وإنصافهم من أنفسهم وفي مآكلهم

(١) «صيد الخاطر» (ص ١٤٣).

(٢) المرجع السابق (ص ٢١٦).

(٣) المرجع السابق (ص ٢٨٩).

(٤) «فتح الباري» (١٠/ ٥١٠).

ومشربهم واقتصادهم في أمورهم تبرُّكًا بذلك»^(١).

□ قال الشاعر:

انطِقْ مُصَيِّبًا لَا تَكُنْ هَذِرًا عِيَابَةً نَاطِقًا بِالفُحْشِ وَالرَّيْبِ
وَكُنْ رَزِينًا طَوِيلَ الصَّمْتِ ذَا فِكْرٍ فَإِنْ نَطَقْتَ فَلَا تُكْثِرْ مِنَ الْخُطْبِ
وَلَا تُجِبْ سَائِلًا مِنْ غَيْرِ تَرْوِيَةٍ وَبِالَّذِي عَنْهُ لَمْ تُسْأَلْ فَلَا تُجِبْ^(٢)

دناءة الهمة :

«دنو الهمة مسلك دنيء، ومركب وطيء، وخلق ساقط، وعمل مردول، لا يليق بأهل الفضل، ولا ينبغي من أهل النبل والعقل. والناس إنما تتفاوت أقدارهم بتفاوت هممهم.

ولذلك فدنيء الهمة لا قيمة له ولا قدر؛ لأنه مَيَّالٌ للدعة، مؤثر للراحة، مخلص للأرض، قاعد عن المكارم، كَلِفٌ بالصغائر، مولع بمحقرات الأمور، هُمٌّ خاصةً نَفْسِهِ، فِكْرُهُ محصورٌ في مطعمه وملبسه، وقوت يومه وليلته.

أما تطلاب المعالي، نشدان الكمالات - فلا يخطر له ببال، ولا يحوم له حول ما يشبهه خيال.

هذه بعض ملامح دنو الهمة، وتلك بعض صفات داني الهمة، تلك الصفات التي تجعل من صاحبها غرضًا للذم، وعُرْضَةً لِللُّوم.

□ ولهذا عيب على امرئ القيس قوله:

(١) «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» (٢٢/١٥٤).

(٢) «حُسن السمْت في الصمت» للسيوطي (ص ٤٧).

لنا غنمٌ نُسَوِّقُهَا غِزار
كأن قرون جلَّتْهَا العِصِيُّ
وتملأ بيتنا إقطاً وسمناً
وحسبك من غنى شيعٍ وريٍّ^(١)

□ وعيب على طرفة بن العبد قوله^(٢):

ولولا ثلاثٌ هنَّ من عيشة الفتى
وجدك^(٣) لم أحفل^(٤) متى قام عُودِي^(٥)
فمنهنَّ سبقي العاذلاتِ بشربة
كُمَيْتٍ^(٦) متى ما تُعلَّ بالماءِ تُزْبِدِ
وكرِّي إذا نادى المضاف^(٧) مُحَنِّباً^(٨)
كسَيْدٍ^(٩) الغضا نَبَّهَتْهُ المتورِّدُ^(١٠)
وتقصيرُ يومِ الدَّجنِ^(١١) والدجنُ
بَبْهَكْنَةٍ^(١٢) تحت الخباءِ^(١٣) المَعْمَدِ

يقول: لولا حبي ثلاث خصال هن من اللذات - لم أبال متى قام

(١) «ديوان امرئ القيس» (ص ١٧١).

(٢) «ديوان طرفة بن العبد» (ص ٣٢ - ٣٣).

(٣) جدك: قسم، والجد هو الحظ والبخت.

(٤) لم أحفل: لم أبال.

(٥) عُودِي: جمع عائد من العيادة للمريض.

(٦) كميته: وصف للخمرة، وهي التي لونها بين السواد والحمرة.

(٧) المضاف: المذعور الذي ضافته الهموم.

(٨) محنَّباً: المحنَّب هو الفرس الذي في يديه الخناء.

(٩) سيد الغضا: نوع من الذئاب، وهو أحبُّها، ويسمى ذئب الغضا.

(١٠) المتورِّد: الذي ورد الماء.

(١١) الدجن: الغيم في السماء، وتقصير يوم الدجن: تقطيعه بالعبث، وجعله قصيراً باللعب.

(١٢) البهكنة: المرأة الجميلة الحسنة الخلق.

(١٣) الخباء المعمد: الخيمة.

عودي من عندي؛ آيسين من حياتي.
وهذه الثلاث هي: شرب الخمر، وإغاثة المذعور، وتقطيع اليوم الذي
تلبدت سماؤه بالغيوم - بالتمتع بامرأة حسناء تحت الخباء المعمد.
هذا هو غاية همته، ومنتهى طموحه، ولولا ذلك - كما يقول - لم يبال
بالمنية متى نزلت به ^(١)!.

□ وقريب من ذلك قول أبي نواس:

إنما العيش سماع ومــــدام ونــــدام
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام ^(٢)

فتراه يقصر العيش اللذيذ على السماع، والمدام، والندام، وما عدا هذه
الثلاثة - عنده - لا قيمة له تذكر!.

فأي معنى لحياة هؤلاء وأمثالهم؟ وأي عظمة يبتغونها؟ وأي فضيلة
يسابقون إليها؟.

فتلك الهمم والأمانى وما شاكلها وجرى مجراها لا تعد من معالي
الأمور، التي تتسابق فيه الهمم، بل إنها من سفولِ الهمة، ومما يأنفه الكرام،
ويأباه ذوو المروءة والطبع السليم، ويجزع من أن يوصف به أهل الفضل
والمكانة.

□ ولذلك جزع الزبرقان بن بدر أيما جزع، وذلك عندما هجاه
الخطيئة بقوله:

دع المكارم لا ترحل لبغيتهَا واقعد فإنك أنت الطاعمُ الكاسي ^(٣)

(١) انظر: «شرح المعلقات العشر» للزوزني (ص ١١٢-١١٣).

(٢) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/٢٥٩).

(٣) «ديوان الخطيئة برواية وشرح ابن السكيت» (ص ٥٠)، وانظر: «عيون الأخبار»

وبلغ من جزعه أن استعدى على الخطيئة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب عليه السلام فجعل عمر يهون البيت على الزبرقان، ويحمله على أنه معاتبة لا هجاء؛ كراهة أن يتعرض لشأن الخطيئة.

ولكن الزبرقان صعب، وعزّ، وأنكر ألا تبلغ به مروءته وهمته إلا أن يأكل ويلبس^(١).

ولذلك أيضًا فلا غرو أن يتردد على الألسنة ذمُّ الهمم الدانية وأصحابها.

□ قال حاتم الطائي:

لحى الله صعلوكًا مناه وهمُّه من العيش أن يلقي لبوسًا ومطعما
يرى الخُمص تعذيبًا وإن يلقَ شُعبةً يَبْتَ قَلْبُهُ من قِلَّةِ الهمِّ مبهما^(٢)

□ وقال الآخر:

إذا ما الفتى لم يبعِغ إلا لباسه ومطعمه فالخير منه بعيد^(٣)

□ وقال المعري:

وإن كان في لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمده والحمايل^(٤)

□ وقال علي بن المقرب العيوني:

(١/٢٣٦).

(١) انظر: «العفو والاعتذار» للرقام البصري (١/٧٢-٧٣)، و«تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري» لطفة أحمد إبراهيم (ص ٣٦).

(٢) «ديوان حاتم» (ص ٤٥)، وانظر: «عيون الأخبار» (١/٢٣٣).

(٣) «عيون الأخبار» (١/٢٣٨).

(٤) «شرح ديوان سقط الزند» للمعري (ص ٥٧).

عَدِمْتُ فَوَادًا لَا يَبِيتُ وَهْمُهُ كَرَامُ الْمَسَاعِي وَارْتِقَاءٌ إِلَى الْمَجْدِ
لِعَمْرِي مَا دَعَدْتُ بِهَمِّي وَإِنْ دَنْتُ وَلَا لِي مِنْ هَنْدِ غَرَامٍ وَلَا وَجْدِ
لَكِنْ وَجَدِي بِالْعَلَا وَصَبَابَتِي لِعَارِفَةٍ أُسْدِي وَمَكْرَمَةٍ أُجْدِي^(١)

□ وقال:

وَذُو الدَّنَاءَةِ لَوْ مَزَّقْتَ جِلْدَتَهُ بِشْفَرَةِ الضَّيْمِ لَمْ يَحْسِنْ لَهَا الْمَا^(٢)

□ وقال البارودي:

وَمَا أَنَا مِنْ تَأْسِيرِ الْخَمْرِ لَبِّهِ وَيَمْلِكُ سَمْعِيهِ الْيِرَاعُ الْمُثَقَّبُ^(٣)

□ وقال الرافعي رَحِمَهُ اللهُ: «وأما ضعف الهمة فمنزلة الحيوان الذي لا هم له إلا أن يوجدَ كيفما وجد، وحيثما جاء موضعه من الوجود؛ إذ هو يولد ويكدح ويكد؛ ليكون لحمًا، وعظمًا، وصوفًا، ووبرًا، وشعرًا أثنًا، ومتاعًا، وكأنه ضربٌ من النبات إلا أنه نوعٌ آخر من المنفعة»^(٤) أهـ^(٥).

أسباب دُنُو الهمة:

نُجْمِلُ هُنَا مَا سَبَقَ أَنْ أوردناه من أسباب دناءة الهمة، ونضيف إليها أسباب أخرى:

١ - الوَهْنُ «حب الدنيا وكرهية الموت».

(١) «علي بن المقرب العيوني حياته - شعره»، تأليف د. علي الخضير (ص ٢٣٨).

(٢) «علي بن المقرب» (ص ٢٥٨).

(٣) «ديوان البارودي شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم» (ص ٤٢).

(٤) «وحي القلم» لمصطفى صادق الرافعي (٣/ ٣٧٩).

(٥) «الهمة العائية» لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص ٢٥ - ٢٨).

٢- التمني.

٣- التسويف.

٤- إهدار الوقت في كثرة للأقارب والأصحاب، بدون هدف شرعي صحيح، وفائدة مُعْتَبَرَة.

٥- كثرة التمتع بالمباح، والترفُّ الزائد، والترفُّ في النعيم.

٦- كثرة الخلطة، وصحبة البطالين الذين سُفِلَتْ هِمَّتُهُمْ.

٧- العجز والكسل.

٨- الغفلة.

٩- الفتور.

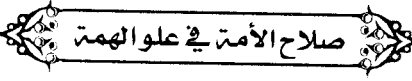
١٠- الفناء في مُلاحظة حقوق الأهل والأولاد، واستغراق الجهد في التوسُّع في تحقيق مطالبهم: «فقد تكون الزوجة فتنة لزوجها، فتصده عن العبادة، وتعوِّقه عن طلب العلم، والسعي للمعالي، وذلك بسبب رِقَّة دينها، أو كثرة طلباتها، وتحذيلها لزوجها.

وكذلك الأولاد قد يكونون فتنة وبلاء لوالدهم، فتراه يخاف عليهم، ويحرص على تأمين مستقبلهم، ويخشى من ضياعهم بعد فراقه الدنيا.

أما إذا انحرفوا عن سواء السبيل فلا تسل عن شقاء الأب وحسرتة.

﴿وَصَدَقَ اللَّهُ ﷻ إِذْ يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِتٍ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾﴾ [التغابن: ١٤].

﴿وَإِذْ يَقُولُ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾﴾ [الأنفال: ٢٨].



• وقال ﷺ: «إِنَّ الولد مبخله، مجبنة، مجهلة، محزنة»^(١).

فألزوجة والأولاد كثيرًا ما يشنون ذا الهمة عن مراده؛ ولهذا فكم عانى الكرام والشجعان منهم من تحذيلهم.

□ فهذا أحدهم يقول مبيّنًا عاقبته عندما أطاع زوجته في الشهوات:
أطعت العرس^(٢) في الشهوات حتى أعادتني عسيفًا عَبْدَ عَبْدٍ
إذا ما جثتها قد بعثت عِدْقًا تعانق أو تُقبّل أو تُفدي^(٣)

□ وهذا مالك بن الريب يصور حوار مع ابنته، التي تحاول ثنيه عن الذهاب للجهاد في سبيل الله فيقول:

تقول ابنتي إن انطلاقك واحدًا إلى الروع يومًا تاركي لأباليا
ذريني من الإشفاق أو قدّمي لنا من الحدّثانِ والمنية واقيا
ستتلف نفسي أو سأجمع هجمة ترى ساقيتها يألمان التراقيا^(٤)

□ وهذا جؤية بن النضر، يحكي لنا ما دار بينه وبين زوجته طريفة عندما لامته على كثرة بذله وعطائه فيقول:

قالت طريفة ما تبقى دراهمنا وما بنا سرف فيها ولا خرق
إنّا إذا اجتمعنا يومًا دراهمنا ظلّت إلى سبل المعروف تستبق

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (٢٩٦/٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٤١/٢٤) برقم (٦١٤)، وصححه الألباني كما في «صحيح الجامع» (١٩٩٠).

(٢) العرس: هي الزوجة.

(٣) «عيون الأخبار» (١/٢٤٣).

(٤) «عيون الأخبار» (١/٢٣٨).

ما يَأْلَفُ الدرهمُ المضروبُ خرقتنا
إلا يمر عليها ثم ينطلق
حتى يصيرَ إلى نذلٍ يخلده
يكاد من صرّه إياه ينمزق^(١)

□ وهذا أحدهم يوصي بالخطر بالنفس، ويرى أن الجلوس مع العيال لا يليق بذِي الهمة فيقول:

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة
إن الجلوس مع العيال قبيح^(٢)

وهذا لا يعني الدعوة على الزوجة والأولاد، وهضمهم حقوقهم، والتقصير في رعايتهم، بقدر ما هو دعوة للتوازن ووضع الأمور في نصابها، ومكانها اللائق بها، من غير ما إفراط أو تفريط^(٣).

١١ - اتباع الهوى.

١٢ - العشق:

□ قال ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ: «وما كان العشق إلا لأرعنَ بطلًا، وقلَّ أن يكون في مشغول ولو بصناعة، أو تجارة، فكيف بعلوم شرعية أو حكيمة؟!»^(٤).

□ فهذا أحد الذين ابتلوا بالعشق ممن قَصَرَ همته على ملاحقة النساء، لما استنفر للجهد أجاب بقوله:

(١) تُنسب الأبيات لحاتم الطائي، وطريقة كانت جارية له انظر: «الحماسة» للتبريزي (٨٢٦/٤)، و«ديوان حاتم الطائي» (ص ٣٠٢)، وانظر: «الإسلام والحضارة الغربية» د. محمد محمد حسين (ص ٢٤٦ - ٢٤٧).

(٢) «عيون الأخبار» (١/٢٣٨).

(٣) «الهمة العالية» (ص ٧١ - ٧٣).

(٤) «الآداب الشرعية» (٣/١٢٦).

يقولون جاهذاً جميلاً بغزوة وأي جهادٍ غيرهن أريدُ
لكلِّ حديثٍ بينهن بشاشةٌ وكل قتيلاً عندهن شهيدٌ^(١)

فالعشق من مظاهر دنو الهمة، وهو شغل الفارغ، فهو يمثل صورة المعشوق للعاشق في خلوته، فيكون تمثيله لها إلقاءً في باطنه، فإذا تشاغل بما يوجب اشتغال القلب بغير المحبوب درس الحب، ودثر العشق وحصل التناسي^(٢).

«فمن لم تكن له همة أبية لم يكدر يتخلص من هذه البلية؛ فإن ذا الهمة يأنف أن يملك رقة شيء، وما زال الهوى يذل أهل العز»^(٣).

□ فأين هذا الذي يطلق العنان لرغباته، ويرسف في أغلال شهواته من الإمام الشافعي الذي يقول: «لو علمت أن الماء البارد يثلم مروءتي لما شربته»^(٤).

□ قال الأعشى:

أرى سفهاً للمرء تعليق قلبه بغانيةٍ خودٍ متى تدنُ تبعدُ^(٥)

□ وقال ابن المعتز:

(١) «ديوان جميل بثينة» (ص ٢١).

(٢) «ذم الهوى» لابن الجوزي (ص ٤٧٣)، و«صيد الخاطر» لابن الجوزي (١/ ١٥٤ - ١٥٧).

(٣) «ذم الهوى» (ص ٤٧٧).

(٤) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» لابن القيم (ص ٤٦٨).

(٥) «ديوان الأعشى» (ص ٤٧).

وإني وإن حنَّ إليك ضمائي فما قدرُ حبي أن يذل له قدري ^(١)

□ وقال أبو فراس الحمداني مفتخرًا بعلو همته، عائبًا على من سفلت همته، واسترقه هواه:

لقد ضلَّ من تحوي هواه خريدهً

وقد ذلَّ من تقضي عليه كعابُ

ولكنني والحمد لله حازمٌ

أعزُّ إذا ذلت لهن رقابُ

ولا تملك الحسنة قلبي كله

ولو شملتْها رقة وشبابُ

وأجري ولا أعطي الهوى فضل ^(٢)

وأهفو ولا يخفى علي صواب

□ وقال عبد الواحد بن نصر:

وقد رام هذا الحبُّ أن يسْتَرْقني

فأنجدي صبرٌ علي جميل ^(٣)

□ وقال أبو علي الشبل:

وأنف أن تعناق قلبي خريدهً

بلحظ وأن يروي صداي رضابُ

وللقلب مني زاجرٌ من مروءة

يجنبُه طُرُق الهوى فيجباب ^(٤)

□ وقال منصور الهروي:

خلقت أبي النفس لا أتبع الهوى

ولا أستقي إلا من المشرب الأصفى

ولا أحمل الأثقال في طلب العلا

ولا أبتغي معروف من سامني خسفا

(١) «ذم الهوى» (ص ٤٧٩).

(٢) «ديوان أبي فراس الحمداني» (ص ١٣).

(٣) «ذم الهوى» (ص ٤٨٠).

(٤) «ذم الهوى» (ص ٤٨٠).

وَلَا أَتَحَرَّى الْعَزَّ فِيمَا يُذِلُّنِي وَلَا أَخْطِبُ الْأَعْمَالُ كَيْ لَا أَرَى صَرْفًا
وَلَسْتُ عَلَى طَبْعِ الذَّبَابِ مَتَى يُدْذَذُ عَنْ الشَّيْءِ يَسْقُطُ فِيهِ وَهُوَ يَرَى الْحُفَا^(١)

□ وقال ابن المقفع: «اعلم أن من أوقع الأمور في الدين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأقتلها للعقل، وأزراها للمروءة، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار - الغرام بالنساء».

ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك يأجم^(٢) ما عنده وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن، وإنما النساء أشباه.

وما يتزين في العيون والقلوب من فضل مجهولات على معروفات باطلٌ وخدعة، بل كثير مما يَرْغَبُ عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه منهن.

وإنما المرتغب^(٣) عما في رحله منهن إلى ما في رحال الناس كالمرتغب عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس.

بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام، وما في رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلًا وتفاوتًا مما في رحالهم من النساء^(٤).

□ وقال: «ومن العجب أن الرجل الذي لا بأس بلبه ورأيه يرى المرأة من بعيد مُتَكَلِّفَةً في ثيابها، فيصور لها في قلبه الحسن والجمال، حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر».

(١) «ذم الهوى» (ص ٤٨٠).

(٢) يأجم: بكره ويميل.

(٣) المرتغب: الراغب إلى غير ما عنده.

(٤) «الأدب الصغير والأدب الكبير» لابن المقفع (ص ١٤٩ - ١٥٠).



ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح، وأدمّ الدمامة، فلا يعظه ذلك، ولا يقطعه عن أمثالها، ولا يزال مشغولاً بها لم يدق، حتى ولو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظنّ أن لها شأنًا غير شأن ما ذاق، وهذا هو الحمق، والشقاء، والسفة^(١) اهـ^(٢).

١٣- التعلُّق بغير الله.

١٤- لا تتعدّى اللباس والمظهر.

١٥- تَعَلُّقُ الهمة بالمال والجاه.

١٦- تَعَلُّقُ الهمة بالأكل.

١٧- حب الراحة وكثرة النوم.

١٨- الانحراف عن عقيدة أهل السُّنة والجماعة.

١٩- التأثر بالصوفيّة.

٢٠- اضطهاد العاملين للإسلام، والشعور بالإحباط في النفوس التي لا تفقه حقيقة البلاء.

٢١- التقليد الأعمى، والتبعيّة المطلقة للغرب وألتمشح بأعباه.

٢٢- الرياء وعدم تجرّد النية.

٢٣- كَذِبُ العزيمة وتردُّدُها.

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فما على العبد أضرّ من عشائره وأبناء جنسه؛ فنظره قاصر، وهمّته واقفة عند التشبّه بهم ومباهاتهم، والسلوك أين

(١) المصدر السابق (ص ١٥٠).

(٢) «الهمة العالية» (ص ٤٦-٤٩).

سلكوا، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لأحبَّ أن يدخلَ معهم»^(١).
□ لسان حاله كما يقول دريد بن الصَّمَّة: «وما أنا إلَّا من غَزِيَّةٍ إن غوت غويت وإن ترشد غَزِيَّةٌ أرشد»^(٢).

٢٤- ضعف العقل.

٢٥- ضعف البصيرة.

٢٦- طول الأمل.

٢٧- الابتعاد عن الأجواء الإيمانية فترة طويلة.

٢٨- الابتعاد عن القدوة الصالحة.

٢٩- هجر القرآن وترك تدبره.

٣٠- ضَعْفُ الإِيْمَانِ وأُلْفَةُ المعاصي.

٣١- ضَعْفُ الغَيْرَةِ، وضعف تعظيم الحرمات.

٣٢- طبيعة الإنسان:

«فهناك من الناس من جُبِلَ على دنو الهمة، والإخلاد إلى الأرض،
والميل إلى الراحة الدعة، والكلف بالصغائر ومحقرات الأمور.
فلا يسعى في تطلاب الكمال، ولا يأخذ بالأسباب التي تعلي من همته،
وترفع من قدره، فيعيش العمر كله وهو قابع في مكانه، لا يتقدم للأمام
خطوة، ولا يرقى في سلم المجد درجة، بل ربما نزل للحضيض دركة بعد
دركة.

(١) «الرسالة التبوكية» لابن القيم (ص ٨٦).

(٢) «الأصمعيات» (ص ١٠٧).

٣٣- التربية المنزلية:

فالتربية المنزلية لها دور عظيم في توجيه الأولاد سلبيًا أو إيجابًا؛ فالييت هو المدرسة الأولى للأولاد، والولد قبل أن تربيه المدرسة والمجتمع يربيه البيت والأسرة، وهو مدين لوالديه في سلوكه المستقيم، كما أن والديه مسؤولان إلى حد كبير عن انحرافه وفساده^(١).

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وكم ممن أشقى ولده، وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله، وترك تأديبه، وإعاقته على شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه.

ففاتته انتفاعه بولده، وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة.

وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت أن عامته من قبل الآباء»^(٢).

فكم من الناس من يربي أولاده على الجبن، والخوف، والهلع، والفرع، فيخوِّفهم بالغول، وبالغفريت؛ ليكفوا عن عبثهم.

وأسوأ ما في ذلك أن يخوفهم بالطبيب أو المعلم.

ومن هنا ينشأ الولد جبانًا رعديدًا يَفِرُّ من ظله، ويخاف مما لا يخاف منه.

وكم من الناس من يربي أولاده على الميوعة والترف، والبذخ، والطيش؛ فينشأ الولد مترفًا منعمًا، همه خاصة نفسه فحسب، فلا يهتم بالآخرين، ولا يسأل عن إخوانه المسلمين، فلا يشاركهم أفراحهم، ولا

(١) انظر: «أخلاقنا الاجتماعية» للدكتور مصطفى السباعي (ص ١٥٥)، و«نظرات في

الأسرة المسلمة» للدكتور محمد الصباغ.

(٢) «تحفة المودود في أحكام المولود» لابن القيم (ص ١٤٦-١٤٧).

يشاطرهم أتراحهم.

فهذه التربية مما يفسد المروءة، ويقتل الاستقامة، ويقضي على الشهامة والشجاعة.

وكم من الناس من لا يربي أولاده على معالي الأمور، وإنما يربيهم كما تربى الخراف سواء بسواء؛ فلا هم له من أولاده إلا مطعمهم وملبسهم، وتلبية كافة رغباتهم، أما ما عدا ذلك فلا يخطر له ببال.

وما هنا ينشأ الولد بليداً، ساقط الهمة، قليل المروءة.

ومن الناس من هو بعكس ما مضى؛ حيث تجده يشتد على أولاده، ويقسو عليهم أكثر من اللازم، فيضربهم ضرباً مبرحاً عند أدنى خطأ، ويبالغ في تعنيفهم عند كل صغيرة وكبيرة.

ومنهم من يهزأ بأولاده، ولا يرى أنهم أهل لشيء من المكرمات. ومنهم من لا يأبه بمحادثة أولاده، ولا يلقي بالاً لتعليمهم آداب الحديث وطرائقه؛ فلا يصغي إليهم إذا تحدثوا، ولا يجيب عن أسئلتهم إذا سألوا، بل ربما كذبهم إذا أخبروا، ونهرهم وأسكتهم إذا تكلموا.

ومنهم من يشتد بالتقدير عليهم، وربما قصر عليهم في حاجاتهم الضرورية مع قدرته على توفيرها لهم، مما يشعرهم بالنقص والحاجة، وربما قادهم ذلك إلى البحث عن المال بأية طريقة، إما من السرقة، أو من مسألة الناس، أو بالارتقاء في أحضان رفقة السوء.

ومنهم من يحرم أولاده من العطف والشفقة والحنان، مما قد يقودهم إلى البحث عن ذلك خارج المنزل.

إن هذه الأنماط من التربية مما يحول بين الأولاد وبين عزة النفس، وما



يتبعها من قوة القلب، وأصالة الرأي.

بل هي مما يولد الخوف في نفوسهم، ومما يورثهم الذلة، والمهانة،
والخجل الشديد، وفقدان الثقة بالنفس.

إن «التربية النافعة ما كانت أثراً لمحبة يطفئ البأس شيئاً من حرارتها،
وصرامة تطف الشفقة نبذة من شدتها، وهي التي يستوجب بها الوالدان
دعاء الولد بقوله: ﴿رَبِّ اَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا﴾»^(١).

أضف إلى ذلك أن الأولاد يرثون طباع والديهم كما يرثون قاماتهم
وأشكالهم.

□ ولذلك قيل: «إذا أردت ولداً صحيحاً فتخير له آباء أصحاء
أقوياء»^(٢).

□ ويقول الشاعر العربي في وصف ابنه:

أعرف منه قِلَّةَ النَّعَاسِ وَخِفَّةَ فِي رَأْسِهِ مِنْ رَاسِي^(٣)

□ وقال عدي بن الرقاع:

والمرء يورث جوده أبناءه ويموت آخر وهو في الأحياء^(٤)

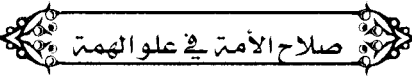
فإذا كان الوالد عديم المروءة، ساقط المهمة فإن ذلك الأثر سيلحق
بالأبناء في الغالب.

(١) «حياة الأمة» (ص ٢٥)، و«السعادة العظمى» لمحمد الخضر حسين (ص ٩٩).

(٢) «الأخلاق» لأحمد أمين (ص ٤٣).

(٣) المصدر السابق (ص ٤٣).

(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣٣).



٣٤- البيئة والمجتمع:

فلهذين الأمرين أهمية كبرى في علو الهمة وسفولها، فقد يكون ذلك سبباً لترقي الإنسان، وقد يكون بالعكس من ذلك تماماً.

* والشأن في ذلك كالشأن في النبات؛ فالنبات في المنبت السوء لا تزال بيئته به حتى تضعفه وتميته، وفي المنبت الصالح ينمو ويتزعرع، وينبت من كل زوج بهيج، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ، وَالَّذِي بِرَبِّهِ، وَالَّذِي خُبْتُ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

كذلك الإنسان إذا نشأ في بيئة صالحة؛ من بيت طيب، ومجتمع تشيع فيه الفضيلة، ومدرسة تُعنى بدين الطلاب وخُلُقهم، وكان يحكمه دين صحيح - نبت خير منبت، وتربى خير تربية، وإلا فما أحراء أن يكون سافل القدر، شريراً، لا خير فيه^(١) أهـ^(٢).

٣٥- قلة وجود المربين الأفذاذ والمعلمين القدوات:

«وهذا الأمر من أعظم أسباب دنو الهمة، فمما يؤسف عليه قلة المربين الأفذاذ، والمعلمين الناصحين القدوات، الذين يربون طلابهم على نشدان المعالي، وتطلاب الكمالات.

فتجد من المعلمين، من لا هم له إلا إلقاء الدرس فحسب، بغَضِّ النظر عن توجيه الطلاب، وتربيتهم، والنصح لهم.

وتجد فيهم من يؤدي درسه بكل ثاقل وبرود، وكأن الدرس جبل على عاتقه يسعى لإزاحته، وبالتالي يفقد الدرس الحرارة والروح، فتقل فائدة

(١) «الأخلاق» (ص ٤٨، ٤٩).

(٢) «الهمة العالية» (ص ٦٧ - ٧٠).



الطلاب من الدرس، فلا يجدون اليدَ الحانيةَ، والقلبَ الرحيمَ، والنفسَ الأبيةَ، التي تنشد عَزَّهم، وتروم فلاحهم.

وتجد من المعلمين من هو ضعيف النفس، مهزوم الوجدان، مهزوز الشخصية، ساقط الهمة، ضيَّقَ النظرةَ، يربي الطلاب على الجبن والخور، والتقليد الأعمى.

ومن هنا يخرج الجيل الذي تربي على أمثال هؤلاء جيلاً جباناً، ضعيف النفس، قانعاً بالدون، يرى أستاذه عقبة كؤوداً لا يستطيع تجاوزها.

٣٦- وسائل الإعلام:

فوسائل الإعلام لها دور خطير في التربية، ولديها قدرة كبيرة على الإقناع، وصياغة الأفكار، ولها دور بالغ في تنحية دور الأسرة والمدرسة. فإذا ما انحرفت تلك الوسائل قادت الناس إلى الهاوية، وأصبحت معاول هدم وتخريب، وأدوات فساد وانحلال، ومدارس لتميع الأخلاق، وقتل المروءة والرجولة.

وهذا سبب عظيم يقود إلى سفول الهمم ودنوها^(١).

٣٧- قلة التشجيع:

فكثيراً ما يبرز أحد في ميدان من الميادين، ثم لا يجد من يأخذ بيده، ويعينه على نفسه.

بل ربما وجد من يُحَدِّلهُ، ويضع العقبات في طريقه، ومن هنا تخبو ناره،

(١) «الهمة العالية» (ص ٧٠ - ٧١).

وتدنو همته.

٣٨- الإعجاب بالنفس والاستبداد بالرأي:

«فالإعجاب بالنفس، والاستبداد بالرأي آية الجهل، ودليل السفه ونقص العقل؛ فالمعجب بنفسه لا يستشير العقلاء، ولا يستنير برأي الأكياس الفطناء، من أهل العقول الراجحة، والتجارب السالفة، ممن جمعوا إلى جانب سداد الرأي والحكمة - النصح والتقوى والديانة؛ ذلك لأن خيالات الغرور ذهبت بذلك الإنسان كل مذهب، فجعلته معتدًا بنفسه، مستبدًا برأيه.

وهكذا يقضي العمر وهو يراوح مكانه، لا يتقدم لمكرمة، ولا يرتقي لمنزلة..

مثلُ المُعْجَبِ في إعجابه مثلُ الواقِفِ في رأسِ الجبل
يصر الناس صغارًا وهو في أعين الناس صغيرًا لم يزل»^(١)

٣٩- استشارة النوكى^(٢) والمخذلين:

فكما أن الإعجاب بالنفس، والاستبداد بالرأي سبب لدنو الهمة - ف كذلك الاستشارة إذا لم تطلب من أهلها، وتُبْتَغى من مظانها تكون سببًا لدنو الهمة.

وذلك كحال من يستشير النوكى، والمرجفين، والمخذلين؛ فإن استشارتهم توردهم المهالك، وتثني عن المعالي.

(١) المصدر السابق (ص ٧٥).

(٢) النوكى: جمع أنوك وهو الأحمق فالنوكى: الحمقى.



٤٠- التردد:

فهناك من هو ذو رأي سديد، ومشاورة لأهل الرأي، فتراه يعزم على القيام بعمل من الأعمال بعد اقتناع تام، ومشاورة جادة، ودراسة متكاملة. فإذا لم يبق إلا التنفيذ تردد وتثاقل، وقدم رجلاً وأخر أخرى، ثم يتماهى به الأمر إلى أن يترك ما عزم عليه إلى غير رجعة.

وكثيراً ما يجيء التردد في أمرٍ ما من ناحية الشهوات والعواطف، كالذي يثق - على سبيل المثال - بما في العلم من خير وشرف، ويقعده عنه حبُّ الراحة، وإيثار الدعة، وما تنزع إليه النفس من اللذة الحاضرة. □ والذي يقول:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تترددا

إنما ينبه على التردد الناشئ عن نحو الشهوات والعواطف؛ فلذلك التردد المفسد للرأي، الموقع في خسر.

وإلا فلا يُعدُّ من التردد المذموم، ولا من قلة الحزم والعزم أن يستبين الرجل الحق أو المصلحة، فيقف دون عزمه مانع، كأن يعلم أن عقول الجمهور لا تتسع لقبوله، ويخشى الفتنة، فيرجئه ريثما يمهد له بما يجعله مقبولاً سائغاً.

كما لا يعد من قلة العزم أن يرى الرجل رأياً ويعقد النية على إنفاذه، ثم يبدو له على طريق الحجة أنه غير صالح فينصرف عنه. وبالجمله فقوي العزيمة هو الذي تكون إرادته تحت سلطان عقله، فيقبل بها على ما يراه صواباً، ويدبر بها عما يراه فساداً^(١).

(١) انظر: «رسائل الإصلاح» (١/ ٦٨ - ٦٩).

□ قال عبد قيس بن خفاف:

وإذا تشاجر في فؤادك مرة
وإذا هممت بأمر سوء فاتند
أمران فاعمد للأعفّ الأجل
وإذا هممت بأمر خير فاعجل^(١)

٤١- المبالغة في احتقار النفس:

فكثير من الناس مصابون بهذا الداء؛ فالواحد من هؤلاء يبخس حظه، ويبالغ في احتقار إمكاناته، ولا يثق في نفسه البتة، بل يرى أنه دون الناس؛ وأنه لا قيمة له، ولا أمل في نجاحه، ولا يمكن أن يصدر عنه عمل عظيم، أو ينتظر منه خير كبير.

فهذا شعور بالضععة وصغر الشأن، من شأنه أن يقتل الطموح، ويفقد ثقة الإنسان بنفسه، فإذا هو أقدم على عمل شك في قدرته، وارتاب في إمكان نجاحه.

ومن طبيعة الناس أنهم يحتقرون من احتقر شأنه، ويدوسون بأقدامهم من استذل.

وفي الوقت نفسه يحترمون المقدام الواثق من نفسه، العالم بقدرها؛ فالثقة بالنفس فضيلة، وشتان بينها وبين الغرور الذي يعد رذيلة؛ فثقتك بنفسك تعني معرفتك الصحيحة بها، وبمقدار ما تتحمله من أعباء، وما تلتزمه من واجبات، وكذلك علمك بما لديها من استعداد، وملكات ومواهب.

(١) «الفضليات» للمفضل الضبي (ص ٣٨٥)، و«الأصمعيّات» للأصمعي (ص ٢٣٠).

٤٢- الخور والمبالغة في تعظيم شأن الخوف:

فهذا السبب من أعظم الأسباب الداعية لدنو الهمة إن لم يكن أعظمها؛ فكم من الناس من أقصره الخوف عن تطلب الكمال، والسعي في درج العلا.

فهذا يثنيه الخوف من الإخفاق عن تقديم أي عمل من الأعمال، وهذا يطير قلبه شعاعاً من الموت فيحجم عن منازلة الأعداء، وهذا يفرق من التحدث أمام الناس؛ خشية أن يتلعثم، أو أن يترتج عليه، وهذا لا يسطر حرفاً، ولا ينسب بنت شفة؛ حذراً من انتقاد الناس له وهكذا.. ورب أمور لا تضريك ضيرة وللقلب من مخشاتهن وجيب^(١)

* وللقرآن أبلغ الكلم في تصوير حال الجبناء، فانظروا إليه إذ يصفهم، ويريككم كيف يذوقون موتات الفرع المرة بعد الأخرى، فيقول: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

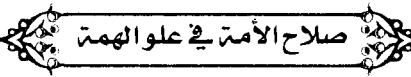
* ويريككم كيف يظهر أثر الجبن في أبصارهم، إذ يُقَلَّبُونَهَا وَهُمْ فِي ذَهُولٍ مَنْ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فيقول: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] ^(٢).

كما أن القرآن نعى على الجبناء، ونبه على أنهم قد فقدوا جانباً في رجولتهم.

* قال تعالى في توبيخ قوم تأخروا عن الجهاد في سبيل الله، وقعدوا مع

(١) مخشاتهن: خشيتهن، والواجب: الاضطراب والخوف، انظر: «الأصمعيات» (ص ١٨٤).

(٢) «رسائل الإصلاح» (١/ ٨٢)، وانظر: «فيض الخاطر» (٤/ ٢٠٣ - ٢٠٤).



مَنْ لَمْ يُخَلِّقَنَّ لِلطَّعْنِ وَالضَّرْبِ: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾

[التوبة: ٨٧].

ولا يتوارى عن أعين القوم، ولا يسئل يده من أيديهم في حرب لهم فيها أمن وسيادة - إلا من كان حظه من الرجولة ضئيلاً أو مفقوداً^(١).

فهذا النوع من الجبن ضرب من الخوف المذموم؛ فهو نوع من الوهم الذي لا حقيقة له، يقوم في الأذهان الحائرة المبلبلة، فيحول بينها وبين الإقدام؛ فهو خوف مبعثه رضا الناس وسخطهم، وليس الخوف على المبدأ والعقيدة.

فالخوف الذي نشكوه خوف سلبي مانع من الإقدام؛ ولذا صح أن يكون وهماً من الأوهام، بخلاف الخوف المحمود الذي يبعث على الإقدام، واستفراغ الجهد، واستنفاد الوسع، وإعداد أعلى العدد^(٢).

٤٣- ضيق الأفق:

فلهذا الأمر علاقة كبرى في دنو الهمة؛ فهو يشل العقل، ويصد عن رؤية الحق، ويؤدي إلى حصر التفكير، وضيق الرؤية، وإصدار الأحكام الناقصة أو الباطلة.

كما يؤدي إلى زيادة صغر النفس، والإفراط في الأثرة، والنكوص عن المعالي.

فهناك من الناس من لا يعنيه في هذه الدنيا إلا نفسه، وذلك كل تفكيره، وسعيه، وغرضه.

(١) انظر: «الهداية الإسلامية» (ص ٣٩).

(٢) انظر: «المسؤولية» للدكتور محمد أمين المصري (ص ٣١ - ٣٢).

فإن عمل خارج هذه الدائرة فلهذه الغاية، فلا يفكر في الآخرين، ولا يعنيه شأنهم، سيات عنه شقوا أم سعدوا.

فهو يجد العالم بحدود نفسه، إذا فكر فكر فيها، وإذا عمل عمل لها، ولا يعنيه من العمل إلا مقدار ربحه، خسر الناس أم ربحوا، قد تعلم درس الأخذ، ولم يتعلم درس العطاء.

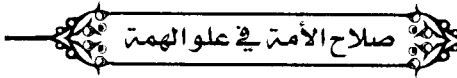
وما الدنيا عنده إلا قنطرة يعبرها للوصول إلى غايته.

وهناك من هو أسوأ من هذا، وهو من رفع نفسه فوق الناس؛ فكأنهم لم يخلقوا إلا له، فلم تخلق عيونهم لا لتقع على مطالبه، ولا أذانهم إلا لتصغي إلى كلمته، ولا أيديهم إلا للعمل في خدمته، يسير في الحياة على ما يهوى، ويجب أن يسير الناس على ما يهوى، فهذا - في الحقيقة - طفل كبير، وكم من الناس من أطفال كبار، وهم في طفولتهم أشكال وألوان؛ فهو طفل في نفسه، وإن كان كبيراً في سنه وجسمه؛ فالأمر في النفس ليس كالأمر في الجسم؛ فقد ينضج الجسم والنفس لا تزال على حالها نفس طفل، والشاعر كان حقاً حين قال:

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم جسم البغال وأحلام العصافير^(١)

وضيق الأفق جبان رعديد، يخاف الأمور الصغيرة، ويشد فزعه من الحوادث التافهة، ويغضب أشد الغضب للكلمة النابية، ويصل إلى أقصى حد من الانفعال للحوادث اليومية التي يكفي لمرورها غص الطرف عنها، ويمكن بقليل من سعة العقل، وكبر النفس أن ينظر إليها ويتسم من

(١) «ديوان حسان بن ثابت» (ص ١٢٩).



حدوثها، ولكنه يمعن في الألم منها؛ لضيق أفقه، وصغر نفسه، وخفة عقله. فالذي يؤمن أن يسير الناس كما يشتهي، ويعملوا ما يريد - فخير له ألا ينتظر طويلاً؛ لأنه قد رام مستحيلاً، ولكن خير من ذلك أن تأخذ الناس كما هم، وأن تتلقى شرورهم وأعمالهم الصغيرة بصدر رحب، وأفق واسع، ونفس مطمئنة.

وبالجملة فمن ضاق أفقه ضاق صدره، ودنت همته، وتنغصت حياته، ولم يصدر عنه خير كثير، أو عمل كبير^(١).

٤٤- الاندفاع الزائد:

فتجد من الناس من يقبل على عمل من الأعمال باندفاع زائد، ونشاط خارج عن طوره، فيكلف نفسه من المهام ما ينوء بحمله، وما لا تطيقه نفسه، وما هي إلا مدة وتني همته، وتثني عزمته.

٤٥- المبالغة في تطلب الكمال:

فتجد من الناس من تهفو نفسه لغاية شريفة، فيعمل ما في وسعه؛ كي ينالها، ويصل إليها.

فإذا ما حال حائل دون الوصول إليها نزع عنها، ولم يحاول السعي لها مرة أخرى.

□ قال العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللهُ: «والخطأ أن ينزع الرجل إلى خصلة شريفة، حتى إذا شعر بالعجز عن بلوغ غايتها البعيدة انصرف عنها جملة، والتحق بالطائفة التي ليس لها في هذه الخصلة من نصيب.

(١) انظر: «فيض القدير» (٣/ ١٩٤)، (٥/ ١٧٠ - ١٧١، ١٨٠).

والذي يوافق الحكمة، ويقتضيه حق التعاون في سعادة الجماعة أن يذهب في همه إلى الغايات البعيدة، ثم يسعى لها سعيها، ولا يقف دون النهاية إلا حيث ينفذه جهده، ولا يهتدي للمزيد على ما فعل سبيلاً^(١).
٤٦- قلة الصبر، واستطالة الطريق؛

فتجد من الناس من يسلك طريق المجد والمعالي، سواء في طلب العلم، أو في الدعوة إلى الله، أو الجهاد في سبيل الله أو غير ذلك، فإذا ما استقلَّ الطريق، وتوغل في السير، ورأى كثرة العوائق دونه - نفذ صبره، ولم تسعفه همته، فيترك ما هم بالقيام به، ويقف راجعاً من منتصف الطريق.

□ أما صاحب المهمة العالية، والعزيمة الصادقة - فلا يستطيل الطريق، ولا يلتفت إلى بُنيَّاتها، بل يسير ولسان حاله يقول:

عليَّ طلاب العزم من مستقره ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر^(٢)

□ ولهذا لما ذهب امرؤ القيس إلى قيصر الروم مستنجداً به على بني أسد، وردَّ ملك أبيه الذي زال - صحب معه عمرو بن قميئة، وكان من أقدم شعراء بكر، فلما سارا في تلك الرحلة، واستقلا طريقها - بكى عمرو بن قميئة؛ لطول الطريق، فقال امرؤ القيس:

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أننا لاحقان بقيصرا

(١) «رسائل الإصلاح» (٢/ ٨٧).

(٢) «ديوان البارودي» (ص ٢٣٩).

فقلت له: لا تبكِ عينك إنما نحاول ملكًا أو نموت فنعذرا^(١)

فهو يقول: نحن نطلب الملك، فإذا بلغنا إربنا منه، وإلاّ ألحنا في الطلب، حتى نموت دونه، وفي هذا أشرف العذر لنا.

٤٧- كثرة الشواغل والقواطع:

من أهل، وصحب، وعوائد، وعوائق، ولهث وراء حطام الدنيا، كل ذلك مما يصرف الإنسان عن تطلاب المعالي، وبلوغ الأرب في المجد.

□ قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

لو أن لقمان الحكيم الذي سارت به الركبان بالفضل

بُلي بفقر وعيال لما فرّق بين التبن والبقل^(٢)

٤٨- اختلاق المعاذير:

فمن أعظم أسباب دنو الهمم اختلاق المعاذير، والتماس المسوغات، التي نسوغ بها أخطاءنا وإخفاقنا، ونعلق عليها عجزنا وقعودنا.

وكثيراً ما تكون تلك المعاذير، والمسوغات مجرد أوهام لا حقيقة تحتها، فلا تزال تلك الأوهام تكبر شيئاً فشيئاً حتى تكوّن لنا سدّاً كبيراً منيعاً، حجارته سوء الظن أحياناً، وتخذيل النفس أحياناً، والشك في النتائج والخوف من الإخفاق أحياناً أخرى.

وقد تكوّن تلك المعاذير حقيقية، كحال من يتعلل بقلة الذكاء، أو عدم النبوغ، وكحال من يتعلل بسوء الحظ، وقلة التوفيق، وبأن الظروف لم

(١) «ديوان امرئ القيس» (ص ٦٤).

(٢) «ديوان الشافعي» (ص ٧٠).

تواته، ولم تأت على وَفْق ما يريد، وكحال من يتعلل بتربيته الأولى، وأنه قد قُصِّر فيها، فلم يُوجَّه الوجهة الصحيحة، فأخفق ولم يعد قادرًا على استدراك ما فات.

وكحال من يتعلل بالبيئة التي يعيش فيها، أو الصحبة التي ابتلي بها، وكحال من يتعلل بكبر سنه، وضعف قواه، وقلة تحمله، فيُسَوِّغ بذلك قعوده وعجزه.

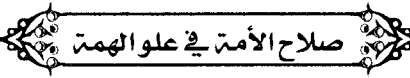
فمثل تلك الأعذار والأعالي قد يكون سببًا حقيقيًا لدنو الهمة؛ إلا أنه لا يليق بالعاقل أن يستسلم لها، أو أن يسترسل معها؛ فمهما يكن من شيء فإن الفرصة متاحة، وإن الباب لمفتوح على مصراعيه لمن أراد المعالي وسعى لها سعيها.

فالإنسان بتوفيق الله، ثم بعزمه، وهمته، وتربيته لنفسه - قادر على التغلب على كثير من العقبات والصعاب.

وما الصعاب في هذه الحياة إلا أمور نسبية؛ فكل شيء صعب جدًا عند النفوس الصغيرة جدًا، ولا صعوبة عظيمة عند النفس العظيمة؛ فبينما النفس العظيمة تزداد عظمة بمغالبة الصعاب إذا بالنفوس الهزيلة تزداد سقمًا بالفرار منها.

وإنما الصعاب كالكلب العقور؛ إذا رآك خفت منه وجريت نبحك، وعدا وراءك، وإذا رآك تهزأ به، ولا تعيره اهتمامًا أفسح الطريق لك، وانكمش في جلده منك.

فإذا اعتقدت بأنك مخلوق للصغير من الأمور لم تبلغ في الحياة إلا الصغير، وإذا اعتقدت أنك مخلوق لعظائم الأمور، وسلكت السبل



الموصلة لها - شعرت بهمة تكسر الحدود والحواجز، وتنفذ منها إلى الساحة الفسيحة، والغرض الأسمى.

ومصدق ذلك حادث في الحياة المادية؛ فمن عزم على المسير ميلاً واحداً أدركه الإعياء إذا هو قطعه، وإذا هو عزم على قطع خمسة أميال قطع ميلاً، وميلين، وثلاثة من غير تعب؛ لأن غرضه أوسع، وهمة المدخرة أكبر.

إذا كان الأمر كذلك فلا تقنع بالدون، ولا تلتمس المسوغات وتخلق المعاذير.

فلا تتعلل بقلة الذكاء، وإنما استعمل ذكاءك خير استعمال.

نعم إنك لا تقدر أن تكون في الذكاء مئة إذا خلقت وذكاؤك في قوة عشرين، ولكنك قادر على استعمال ذكائك خير استعمال حتى يفيد أكثر ممن ذكاؤه مئة إذا هو أهمله، كمصباح الكهرباء إذا نظف مما علق به، وكانت قوته عشرين شمعة - كان خيراً من مصباح قُوته خمسون إذا علته الأتربة، وأهمل شأنه.

ولا تتعلل بأنك لست نابغة، ولا أن الظروف لا تواتيك، فالعالم لا يحتاج إلى النوابع وحدهم، والنجاح ليس مقصوراً على النوابع دون سواهم، ولا على من تواتيهم الظروف.

ولا تتعلل بسوء الحظ؛ فلا يوجد مَنْ منحوا قدرة على التفوق من غير جهد، وعلى الإتيان بالعجائب من غير مشقة، وعلى قلب التراب ذهباً بعضاً سحرية؛ فلا يكن سوء الحظ - كما ترعم - عائقاً لك عن النجاح.

ولا تعتذر بتريبتك الأولى، ولا بعامل البيئة أو الوراثة؛ فهذه لا تعوق



الإنسان عن إسعاد حياته، وملئها بالجد والاجتهاد إذا منح المهمة العالية، والإرادة القوية، والتفكير الصحيح.

ولا تتعلل بكبر السن، وضعف القوى، فتقعد عن كل فضيلة، وتُقصِر عن كل مكرمة، بل جدد نشاطك، واستثر همتك، واعمل ما في وسعك. ولا يعني ذلك أنه يراد منك حال كبرك ما يراد منك حال شبابك، واكتمال نشاطك وفتوتك.

وإنما يراد أن نَجِدَ في الاستفادة من طاقاتك الكامنة، وخبراتك السابقة قدر الإمكان، فلو سرت على هذا النحو لعادات لك الروح، ولتجدد فيك العزم^(١).

□ على أن هناك من أصحاب الهمم العالية من يكبر وتكبر معه همته فهذا ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: «وإني لأجد من حرصي على العلم، وأنا في عُشر الثمانين أشدَّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة»^(٢).

٤٩- قلة الحياء:

فلقلة الحياء أثر عظيم في دنو الهمة، وسفول القدر، فقليل الحياء لا يأبه بدنو همته، ولا يبالي بسفول قدره، فلا يجد ما يبعثه للنهوض إلى الفضائل، ولا ما يرفعه عما هو مستغرق فيه من الرذائل..

يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقي للحاء
إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشاء

(١) انظر: «فيض الخاطر» (٦/١٢٧-١٢٩، ٢٤٤).

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب الحنبلي (١/١٤٦).

٥٠- قلة الإنصاف:

فقلة الإنصاف خصلة غير حميدة، تنساق بصاحبها إلى دركات سحيقة، فتقوده إلى الظلم، والكبر، وإيثار العاجلة على الآجلة.

□ وقلة الإنصاف تجر إلى التقاطع، وتبعد ما بين الأقارب والأصدقاء،

قال الحكيم العربي:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعةً بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم

وقلة الإنصاف تسقط الاحترام من العيون والقلوب، وتحول بين الرجل وبين أن يزداد علمًا، كما أنها تخذل العلم، وتطمس شيئًا من معالمه، وتحدث فيه فسادًا كبيرًا.

فمن قلة الإنصاف إلصاق التهم بالمخالف، وحمل كلامه على أسوأ المحامل، ورد الحق الذي معه، وأخذه بلازم قوله دون أن يلتزمه.

ومن ذلك ألا ينصف المرء أقرانه، أو من هم أحدث سنًا منه؛ إما حسدًا من عند نفسه، أو خوفًا من ظهور مزيتهم عليه.

ومن قلة الإنصاف إصرار المرء على خطئه بعد ما يتبين له فساده، وأنفته من قبول الحق والرجوع إليه بعد أن يتبين له وجهه؛ إما خوفًا من سقوط منزلته، أو لحسد تنطوي عليه دخيلة نفسه، أو حذرًا من تفوق الخصم، وحرصًا على الانفراد بخصال الحمد، أو متابعة للأصحاب، ومسايرة لمن هم على الشاكلة، أو لإرادة الإضلال، ومحاولة قتل الحق وطمس معالمه، أو غير ذلك من أسباب رد الحق والإصرار على الباطل^(١).

(١) انظر: «رسائل الإصلاح» (١/٣٨ - ٤٧)، وانظر: «أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة» لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص ٧١ - ٧٥).

٥١- الحسد:

فالحسد ناتج عن ضعف الإيمان، وضيق العطن، والشح بالخير على عباد الله.

وهذه الأسباب وغيرها من موجبات سفول الهمة؛ ولذلك فالحاسد لا تعلو له مكانة، ولا ترتفع له منزلة؛ لأنه دنيء الهمة، مهين النفس؛ ولأنه بحسده اشتغل بما لا يعنيه، فأضاع ما يعنيه، وما يعود عليه بالنفع والخير.

□ قال ابن المقفع: «ليكن ما تصرف به الأذى عن نفسك ألا تكون حسوداً؛ فإن الحسد خلق لئيم، ومن لؤمه أنه موكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب، والأكفاء، والمعارف، والخلطاء، والإخوان.

فليكن ما تعامل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين مع من هو خير منك، وأن غُنْمًا حسنًا لك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقتبس من علمه، وأفضل منك في القوة فيدفع عنك بقوته، وأفضل منك في المال فتفيد من ماله، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه، وأفضل منك في الدين فتزداد صلاحًا بصلاحه»^(١).

٥٢- الطمع والجشع:

□ ذلك أن الطمع والجشع من موجبات الذلة والحقارة، وسقوط الجاه والمنزلة، قال الإمام الشافعي:

العبد حرٌّ إن قنع والحر عبدٌ إن طمع
فانقعه ولا تقنع فلا شيء يشين سوى الطمع^(٢)

(١) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص ١٤٤-١٤٥).

(٢) «ديوان الإمام الشافعي» (ص ٥٧).

□ وقال:

حسبي بعلمي إن نفع ما الذل إلا في الطمع^(١)

□ وقال الآخر:

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرا

٥٣- الفرقة والاختلاف:

فلو أجلت النظر في حال المسلمين اليوم لوجدتهم متفرقين مختلفين، عن اليمين وعن الشمال عزين، وكل حزب بما لدين فرحون إلا من رحم ربك وقليل ما هم.

* فالفرقة والاختلاف من أسباب الهزيمة والضعف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُشْلُوا دَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وبسبب ذلك ينال العدو نيله من الأمة، ويتمكن من التغلغل فيها، والإيضاع خلالها؛ ابتغاء فتنتها وصددها عن دينها، وتوهين قواها. وبسبب الخلاف تتفرق الكلمة، وتتبدد الجهود، وتنقبض الأيدي عن التعاون.

وإن المصيبة لتعظم، وإن الخطب ليجل عندما يقع الخلاف بين خاصة المسلمين، وبين أهل العلم والفضل.

ولن يغرق المرء في المثالية، فيحلم بالألا يوجد خلاف البتة؛ فذلك غير ممكن؛ فسنة الله اقتضت وجود الخلاف، فليست المشكلة أن نختلف، وإنما هي ألا نعرف كيف نختلف.

(١) «ديوان الشافعي» (ص ٥٦).

وليس الحل بالأ نختلف أبداً، وإنما هو بالأ نُصعّد الخلاف، وألا نسعى في إذكائه، وبأن نعرف كيف نختلف كما نعرف كيف نتفق، كما كان الصحابة رضي الله عنهم.

فهم خير الناس حال الوفاق وحال الخلاف؛ فمع أن الخلاف وقع بينهم في العديد من المسائل إلا أن قلوبهم كانت متوادة، متراحمة، متقاربة، متألّفة.

بل لقد كانوا رضي الله عنهم مثلاً يحتذى، ونهجاً يقتفى حتى في حال الفتنة والقتال؛ فبرغم ما حصل بينهم من قتال وفتنة إلا أن منار العدل والتقوى كان قائماً فيهم؛ فلم يكفر بعض بعضاً، ولم يبدع بعضهم بعضاً.

بل لقد كانوا يأخذون العلم من بعض، ويلتمسون المعاذير لبعض، بل كانوا يشنون على بعض، ويترحمون على بعض.

٥٤- الانحراف في مفهوم الإيمان بالقدر:

لما انحرف كثير من المسلمين في مفهوم الإيمان بالقدر في العصور المتأخرة - قادهم ذلك إلى التخلف والانحطاط.

وذلك عندما اتخذ كثير منهم من الإيمان بالقدر مسوغاً واهياً لعجزهم وانهيارهم؛ حيث جعلوه ثكأة للإخلاق إلى الأرض، وذريعة لترك الحزم والجد، والتفكير في معالي الأمور وسبل العزة والفلاح، تاركين الأخذ بالأسباب، ناسين - أو متناسين - أن أقدار الله إنما تجري وفق سننه الثابتة التي لا تبدل ولا تتغير، ولا تحايي أحداً كائناً من كان.

فكان المخرج لهؤلاء أن يتكل المرء على القدر، وأن الله هو الفعال لما يريد، وأن ما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن؛ فلتمضي إرادته، ولتكن

مشيئته، وليَجْرِ قضاؤه وقدره، فلا حول لنا ولا طول، ولا يد لنا في ذلك كله.

هكذا بكل يسر وسهولة، استسلام للأقدار دون منازعة لها في فعل الأسباب المشروعة والمباحة.

فلا أمر بالمعروف، ولا نهى عن المنكر، ولا جهاد لأعداء الله، ولا حرص على نشر العلم ورفع الجهل، ولا محاربة للأفكار الهدامة، والمبادئ المضللة، كل ذلك بحجة أن الله شاء ذلك!.

والحقيقة أن هذه مصيبة كبرى، وضلالة عظمى، أدت بالأمة إلى هوة سحيقة من التخلف والانحطاط، وسببت لها تسلط الأعداء، وجرت عليها ويلات وإثر ويلات.

وإلا فالإيمان بالقدر على الوجه الصحيح يقضي على ذلك كله؛ فالأخذ بالأسباب لا ينافي بالإيمان بالقدر، بل هو من تمامه؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ أراد بنا أشياء، وأراد منا أشياء، فما أراد بنا طواه عنا، وما أراد منا أمرنا بالقيام به، فالخلط بين هذين الأمرين يُلبس الأمر، ويوقع في المحذور.

وهذا ما لاحظته وألح إليه أحد المستشرقين الألمان، فقال وهو يؤرخ لحال المسلمين في عصورهم المتأخرة: «طبيعة المسلم التسليم لإرادة الله، والرضا بقضائه وقدره، والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار.

وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان؛ ففي العصر الإسلامي الأول لعبت دورًا كبيرًا في الحروب، وحقت نصرًا متواصلًا؛ لأنها دفعت في الجندي روح الفداء.

وفي العصور المتأخرة كانت سببًا في الجمود الذي خيم على العالم

الإسلامي، فقدف به إلى الانحدار، وعزله وطواه عن تيار الأحداث العالمية»^(١).

٥٥- العدوان الخارجي:

من غزو فكري، واحتلال عسكري، ومكر يهودي صليبي، وما ينصوي تحت ذلك من تنصير واستشراق.

فلقد كان لهذا العدوان على اختلاف طرائقه وأساليبه - أثر بالغ في تخدير الأمة، والوقوف في طريق نهضتها، والحيلولة دون تبوؤها مكانها اللائق بها.

ولقد كان الأعداء يرومون إخراج المسلمين من دينهم، وإبقاء الشعوب المسلمة هزيلة مستعبدة، ذليلة لا حول لها ولا طول، بل تكون تابعة للغرب، خاضعة لنفوذه.

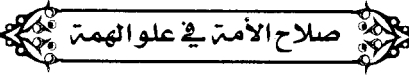
وكانوا يرمون إلى قطع حاضر الأمة عن ماضيها؛ حتى تجهله، وتنكر له، فتلحق بالغرب، وتسير في ركابه.

وكانوا كذلك يريدون الحد من انتشار الإسلام، ونهب الثروات من بلاد المسلمين، وتسخيرها لأطماعهم.

ولقد سلكوا لتحقيق تلك المآرب سبلاً شتى، من تأليف، واستغلال للإعلام، وسيطرة على التعليم إلى غير ذلك مما قاموا به.

وفي ظل ذلك الانحراف نجح الأعداء في تحقيق كثير مما أرادوه، ومما تحقق لهم فآدى إلى إضعاف الهمم أو إماتتها ما يلي:

(١) «الإسلام قوة الغد» بأول شمس (ص ٩٠)، وانظر: «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم» لشكيب أرسلان.



أ- تعطيل الحكم بما أنزل الله، وإحلال القوانين الوضعية محلها في أكثر بلاد المسلمين.

ب- نشر الفساد، والرذيلة، والإباحية الجنسية عن طريق دور السينما، والصحف، والمجلات، ومختلف وسائل الإعلام.

ج- نشر الأدب المتهتك، المستهتر بالقيم والثواب.

د- إشغال الأمة بالتوافه من رياضة، وفن، ونحوها، حتى ماتت همم كثير من الشعوب، وتبلدت أحاسيسهم، ولم يعودوا يميزون بين ما ينفع وما يضر.

هـ- بلبلة الأفكار، وتشكيك الناس في معتقداتهم، وذلك من خلال الطعن المتواصل في دين الإسلام، وبنبي الإسلام، والقول بأن الإسلام قد استنفذ أغراضه، ولم يعد صالحاً لهذا العصر.

و- إثارة الشبهات حول كثير من القضايا، كإثارتهم لقضية تحرير المرأة، وهي في حقيقتها دعوى يهدف من ورائها إلى تحطيم القيم، والأخلاق، والأسر، ونشر الفساد والانحلال.

وكذلك إثارتهم لبعض المسائل الخلافية، وتضخيم ذلك، وعرضه بصورة يخيل لقليل البضاعة من العلم أن الدين لا يوجد فيه شيء يتفق عليه. وكذلك إثارتهم لمسألة الحدود الشرعية، وتشنيعهم عليها، وزعمهم بأنها تمثل الوحشية والهمجية.

وكذلك إثارتهم لقضية الميراث، وزعمهم بأنه هضم لحق المرأة، حيث لم تساوَ بالرجال، إلى غير ذلك مما يثيرونه من قضايا.

ز- تهوين شأن الحضارة الإسلامية، وتشويه التاريخ الإسلامي، بهدف ترهيد الناس فيه، ولفت نظرهم إلى الحضارة الغربية التي أضفوا

عليها دعاية مغرية.

ح- احتلالهم لأكثر بلاد المسلمين، ولم يسلم من ذلك إلا أقل القليل.

ط- القضاء على الحركات الجهادية.

ي- تمزيق الأمة، وتفريق شملها، وإثارة العداوات والأحقاد داخل صفوفها؛ كي يسهل القضاء عليها.

ك- إحداث الهزيمة النفسية لدى كثير من المسلمين، حيث فقدوا الثقة بأنفسهم وبدينهم، فقادهم ذلك إلى الإعجاب بالغرب، والنظر إليه بإكبار، وإجلال، وأخذ ما عنده دونها نظر أو تمحيص، مما أدى إلى ضياع الشخصية، وفقدان التميز.

ل- التحكم بمصير الشعوب، وامتصاص خيراتها.

م- السيطرة على وسائل الإعلام ووسائل التعليم والتوجيه في كثير من بلاد الإسلام.

ن- اصطناع العملاء من أبناء المسلمين؛ كي يقوموا بالدور المناط بهم من قبل أسيادهم.

س- استهلاك جهود العلماء والدعاة في مقاومة ما يروجونه من فساد وتغريب.

ش- رفع الأقدام من ممثلين ولاعبين ومنحرفين، وإضفاء الألقاب الرنانة عليهم، وفي مقابل ذلك يحط من شأن الأعلام من العلماء والقادة العظام.

هذه بعض آثار العدوان الخارجي، وواحدٌ منها كافٍ في إنهاك الأمة،

وإماتة هممها؛ فكيف بها إذا اجتمعت كلها؟^(١).

مظاهر دنو الهمة :

- ١ - دنو الهمة في طلب العلم.
- ٢ - الكسل في الدعوة إلى الله.
- ٣ - التهرب من المسؤولية.
- ٤ - البخل.
- ٥ - المنة وتعداد الأيادي.
- ٦ - التكاسل في أداء العبادات.
- ٧ - التكلف والتصنع.
- ٨ - الإغراق في المظهرية الجوفاء.
- ٩ - الاشتغال بما لا يعني، والانصراف عما يعني.
- ١٠ - الانهماك في الترف.
- ١١ - الاشتغال بسفاسف الأمور ومحقرات الأعمال.
- ١٢ - العشق.
- ١٣ - التحسر على ماضي وترك العمل.
- ١٤ - كثرة التلاوم وقلة العمل.
- ١٥ - كثرة الشكوى إلى الناس.
- ١٦ - الاسترسال مع الأماني الكاذبة.
- ١٧ - التسويف والتأجيل.
- ١٨ - الافتخار بالآباء العظام والعيش على أمجادهم.

(١) انظر: «أسباب دنو الهمة» من كتاب «الهمة العالية» (ص ٦٧-٩٧).

١٩ - كثرة المزاح والإسفاف فيه.

٢٠ - اليأس من الإصلاح.

٢١ - استجداء الناس ومسألتهم.

٢٢ - الكبر والتعالي.

٢٣ - الكذب.

٢٤ - قلة الحياء.

٢٥ - الحقد.

٢٦ - مجارة السفهاء.

٢٧ - تتبّع العثرات، والفرح بالزلات.

• والأمل كله في رحمة الله ومَنَّه وفضله وكرمه أن يتدارك المرء برحمته
«يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث فأصلح لي شأني كُلَّه، ولا تكلني إلى نفسي
طرفة عَيْنٍ»^(١).

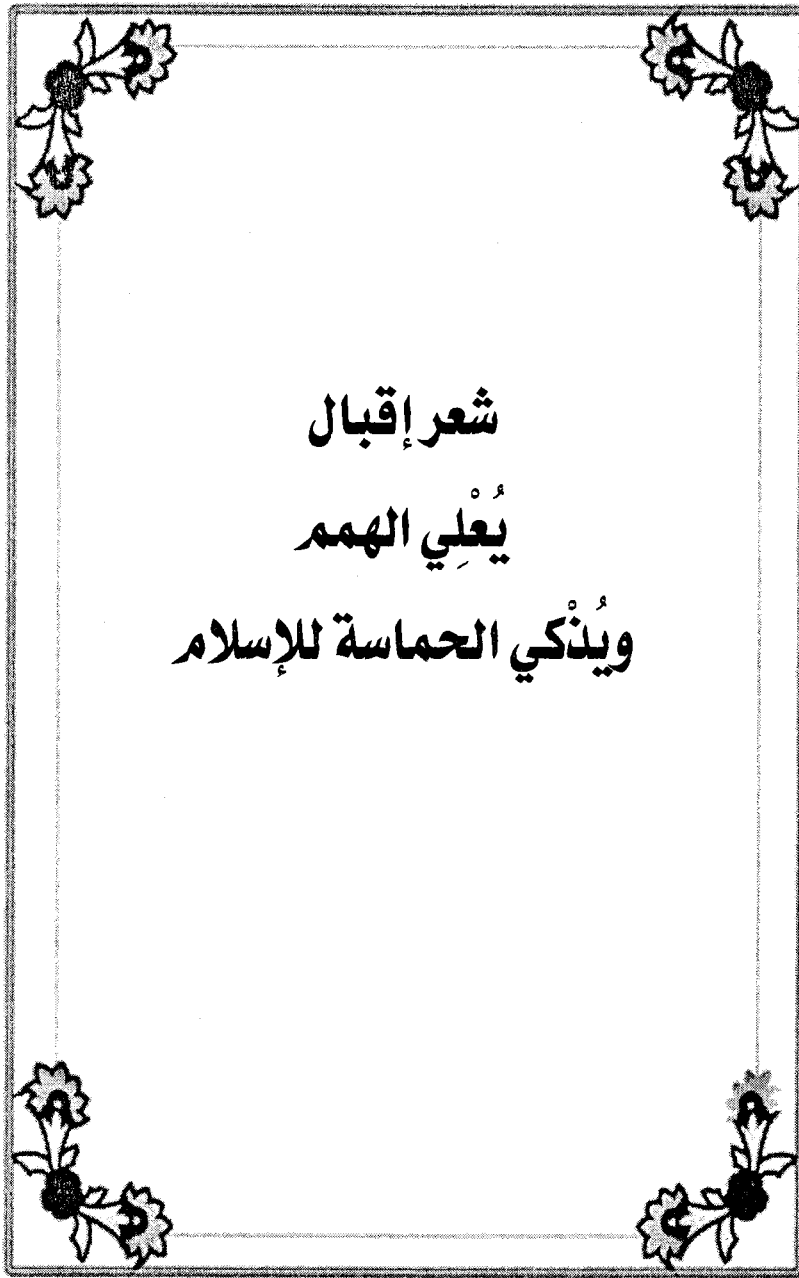
• عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: كان إذا كَرَبَهُ أمرٌ قال: «يا حيُّ يا
قيُّوم برحمتك أستغيث»^(٢).

اللهم لا كرب يعدل ما أمتنا فيه، فارزقنا همة عالية نصلح به شعث أمورنا
ونسير على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها ولا يزيغ عنها إلَّا هالك.



(١) صحيح

(٢) حسن: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٧٧٧).





شعر إقبال يُعلي الهمم ويذكي الحماسة للإسلام

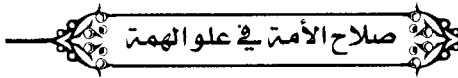
□ قال العلامة أبو الحسن الندوي عن محمد إقبال: «... إني أحببته، وشُغِلْتُ به كشاعر «الطموح»، والحب والإيمان، وكشاعر له عقيدة، ودعوة، ورسالة، وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادية، وكأعظم ناقد لها، وحاقدٍ عليها، وكداعية إلى المجد الإسلامي، وسيادة المسلم.. أشهد على نفسي أنني كلما قرأتُ شعره جاش خاطري، وثارت عواطفني، وشعُرتُ بديب المعاني والأحاسيس في نفسي للحماسة الإسلامية في عروقي، وتلك قيمة شعره، وأدبه في نظري».

□ وقال الأستاذ عباس العقّاد: «... إن إقبالاً هو طرازُ العظمة الذي يتطلبه الشرق في الوقت الحاضر، وفي كُلِّ حين؛ لأنها عظمةٌ ليست بالدينيّة المادية، وعظمةٌ ليست بالأخروية المُعرضة عن هذه الدنيا، وهو زعيم العمل بين العدوّتين من الدنيا والآخرة قوام بين العالمين كأحسن ما يكون القوام».

□ وقال الدكتور طه حسين: «شاعران إسلاميان رفعا مجد الآداب الإسلاميّة إلى الذروة، وفرضا هذا المجد الأدبيّ الإسلاميّ على الزمان، أحدهما إقبال شاعر الهند والباكستان..».

□ وقال الدكتور عبد الوهاب عزّام: «لا أعرف كشعر إقبال، معرّفًا بالحياة، داعيًا إليها، معظّمًا الإنسان، مُشيدًا بمكانته في هذا العالم، نافثًا الأمل، والهمّة، والإقدام في نفوس الناس».

□ وقال الدكتور أحمد الشرباصي: «... ولم أر شاعرًا يتصوّر للمسلم صورةً مثاليّةً عاليةً كتلك الصورة التي يرسمها إقبال في مواضع كثيرة عن



شعره، إِنَّه يَصَوِّرُ المسلم حيناً كأنه ماء في رَقَّتْه، وحديد في شِدَّتْه يهزأ بالصَّعَابِ، ويعلو على التراب، ويسري مع الأفلاك، ويجري مع الأملاك...». □ وقال الدكتور أحمد حسن الزيات: «.. فإذا كان حَسَّانَ رحمته الله شاعر الرسول ﷺ، فَإِنَّ إقبالاً شاعر الرسالة»^(١). □ قال رحمته الله:

إِنْ تَضِقْ بِالْجِهَادِ فِي الْأَرْضِ ذَرَّعَا فحرامٌ مسراكَ فوقَ السَّحَابِ^(٢)

□ وقال عن الصبح الذي يريده:

إِنَّا لَنَجْهَلُ مَطْلَعَ الصُّبْحِ الَّذِي يُدْعَى يَوْمَ أَوْ غَدٍ فِي الْأَزْمَنِ
لَكِنَّا الصُّبْحُ الَّذِي ارْتَجَّتْ لَهُ ظَلَمُ الْعَوَالِمِ، مِنْ أَذَانِ الْمُؤْمَنِ

كلمات للحياة:

□ لصرعى الحضارة الغربية من تَدَنَّتْ همهم يقول إقبال: «لم يستطع بريقُ العلوم الغربية أن يُبهر لَبِّي، ويعشي بصري، وذلك لأنني اكتحلت بإثم المدينة».

□ ويقول: «مكثت في أثون التعليم الغربي؛ وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود».

□ ويقول: «لم يزل، ولا يزال فراعنةُ العصر يرصدونني، ويكمنون لي، ولكنني لا أخافهم، فإني أحمل اليدَ البيضاء، إِنَّ الرجل إذا رُزِقَ الحبَّ

(١) ديوان «محمد إقبال» (٢/ ١٣، ١٤) - إعداد سيد عبد الماجد الغوري - دار ابن

كثير - سررية.

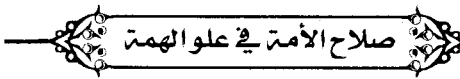
(٢) المصدر السابق (٢/ ١٩).



الصادق، عرف نفسه، واحتفظ بكرامته، واستغنى عن الملوك والسلاطين، لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم، وانقادت لي الصَّعاب، فإني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرفت بوطأته الحصباء، فصارت أعلى قدرًا من النُّجوم، وجرى في إثره الغبار، فصار أعقب من العبير».

□ وفي ذكر مقومات حياة الأمة الإسلامية لا بدَّ من علو المهمة في الاتصال الدائم بنبيِّها، والتشبع بتعاليمه واتباعه، والتفاني في حبه، يقول إقبال: «إنَّ قلب المسلم عامر بحبِّ المصطفى ﷺ، وهو أصلُ شرفنا، ومصدر فخرنا في هذا العالم، إنَّ هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى، كان يرقد على الحصر، إنَّ هذا السيد الذي نام عبيده على أسرة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد، فكان أن وُجدت أُمَّة، ووُجد دستور، ووُجدت دولة، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعًا، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دمًا، لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين، بأبي هو وأمي، لم تلد مثله أم، ولم تُنجب مثله الإنسانية، افتتح في العالم دورًا جديدًا، وأطلع فجرًا جديدًا، كان يساوي في نظرتة الرفيع والوضيع، ويأكل مع مولاه على خِوانٍ واحدٍ، جاءته بنت حاتم أسيرةً مقيدةً سافرة الوجه، خجلةً مطرقةً رأسها، فاستحيا النبي ﷺ، وألقى عليها رداءه».

نحن أعرى من السيدة الطائية، نحن عراةٌ أمام أمم العالم، لطفه وقهره كلُّه رحمة، هذا بأعدائه، وذلك بأوليائه، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة، وقال: لا تثريبَ عليكم اليوم! نحن المسلمون من الحجاز، والصين، وإيران، وأقطار مختلفة، نحن غيُضٌ من فيضٍ واحدٍ، نحن أزهارٌ كثيرة العدد، واحدة الطيب، واحدة الطائفة، لماذا لا أحبه، ولا أحنُّ إليه،



وأنا إنسان، وقد بكى لفراقه الجذع، وحنَّت إليه سارية المسجد؟! إنَّ تربة المدينة أحبُّ إليَّ من العالم كله، أنعم بمدينة فيها الحبيب!«^(١).

□ ويقول في دعائه لربه: «أنت غنيٌّ عن العالمين، وأنا عبدك الفقير، فاقبل معذرتي يوم الحشر، وإن كان لا بدَّ من حسابي فأرجوك يا رب، أن تحاسبني بنجوة من المصطفى ﷺ، فإني أستحي أن أنتسب إليه وأكون في أمته، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي»^(٢).

□ من تتبَّع التاريخ علم أن محبة سلفنا لنبيهم وعلوَّ همتهم في اتباعه والإيمان به كانت مصدرَ علمهم العميق، وحكمتهم الرائعة، ومعانيهم البديعة، وبطولتهم الفائقة، وشخصياتهم الفذة، وعبقريتهم النادرة، إليه يرجع الفضلُ في غالب عجائب الإنسانية، ومعظم آثارهم الخالدة في التاريخ، فلما تجرَّد الخلفُ من ذلك، كانوا صورًا من لحم ودم، وكانوا قطيعًا من غنم.

لقد «اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبي الأمي حلةً أنيقة، وانبتت زهرةً يانعة، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبي، بل ترعرعت ونمت في حجره، وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مدينةً لأمره.

لقد وضع قلبًا نابضًا خفاقةً في جسد الإنسان البارد، وأزاح الستار عن طلعه الجميلة الرضاءة.

هزم كلَّ طاغوت، وحطَّم كلَّ صنم، وأورق به كلُّ غصن يابس وأزهر وأثمر، إنه رُوح معركة بدر وحُنين، وإنه مربِّي الصديق والفاروق

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٠ - ٣١).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣١).

والحسين.

أذانُ صلاة الحرب وجرسُ سورة «الصفات» غيَّضَ من فيضه، جعل
سيف صلاح الدين البتار، ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة.
جرعةٌ من كأسه أورت العقل والقلب.

واجتمع بها العلم والحكمة والدين والشرع، والإدارة والحكم مع
قلوب أواهة مخبئة منية في الصدور.

إن جمال قصر الحمراء، والتاج الذي نال خراج الملائكة، وإعجاب
القديسين هو نفحةٌ من نفحاته، ولمحةٌ قصيرة من لمحاته، وومضته من
أنواره وبركاته.

ظاهره تلك التجليات والنفحات، وباطنه درٌّ مكنون لم يطلع عليه
العارفون، ولم يصل إلى كنهه السالكون.

فلا ريب أنه يستحق ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم؛ لأنه أسبغ نعمة
الإيمان على هذه الحفنة من التراب.

شفةٌ تُحيي وعينٌ تجذب وحدا الأشتات هذا عجبٌ^(١)

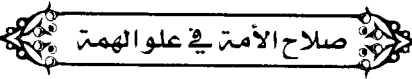
يَهْبُ النَّاسَ جَدِيدَ النَّظَرِ يَجْعَلُ الْبَيْدَ كَرَوْضٍ نَضِرٍ^(٢)

فترى الأئمة منه سائره بلهيب منه حررى ثائره

شرراً في قلبها قد أشعلا فأحال الطين فيها شعلا

(١) كلامه ونظره يجذب البعيد إليه حتى يصيرا كنفس واحدة.

(٢) يهب الناس نظراً جديداً فيرون الأشياء على غير ما رأوها قبلاً، فرب حسن
يصير قبيحاً، وقبيح يصير حسناً.



- سيره يعطي التراب البصرا
عاري العقل بجداوه كسا
ينفخ الجمرة في موقده
وفك العبد من أغلاله
يجذب الإنسان شطر المقصد
نكتة التوحيد يوحىها إليه
- (١) فإذا الذرة سيناء ترى
(٢) وهب الثورة هذا المفلسا
(٣) ويذيب الغش من عسجده
ويجير القن من أقياله
جاعل الشرع زماما في اليد
أدب الطاعة يمليه عليه (٤)

نشيد علا الهمة

- الصين لنا والعرب لنا
أضحى الإسلام لنا ديننا
توحيد الله لنا نور
الكون يزول ولا تمحى
بُنيت في الأرض معابدها
هو أول بيت نحفظه
في ظل السيف تربينا
والهند لنا والكُل لنا
وجميع الكون لنا وطننا
أعدنا الروح له سكنا
في الدهر صائف سودنا
والبيت الأول كعبتنا
بحياة الروح وبحفظنا
وبئنا العز لدولتنا

- (١) ترى الذرة على ضالتها طور سيناء. الذرة لا ترى إلا في نور الشمس، ولكن هذا الرسول الذي يتحدث عنه الشاعر يحى الموات، وينير الظلم، فترى الذرة طور سيناء.
- (٢) العقل عريان مفلس حتى يمدّه الرسول فيكسوه ويغنيه أي: هو يهدي العقل ويقويه.
- (٣) يشعل العقل، ويميز له الخبيث من الطيب.
- (٤) يقوده بالشرعية ليجذبه إلى المقصود ويعلمه توحيد الله وأدب الطاعة فترى الإنسان حراً من عبادة الكبراء مقيداً بالشرع.

مِ شِعَارِ الْمَجْدِ لِمَتَنَا
وَيُمَثِّلُ خِنْجَرَ سَطَوَتَنَا
فِي الْغَرْبِ صَدَى مِنْ هِمَّتِنَا
طَاوَلْنَا السَّنَجَمَ بِرِفْعَتِنَا
نِيرَانِ الشَّدَّةِ عَزَمَتَنَا
فِي الْخَوْفِ سَفِينَةَ قَوَّتِنَا
عَمَرَتْ بِطَلَائِعِ نَشَانَتِنَا
شَطِيطِكَ مَا أَثَرُ عَزَّتِنَا
وَتُعِيدُ جَوَاهِرَ سِيرَتِنَا
بِنِ وَيَا مِيلَادَ شَرِيعَتِنَا
فِي أَرْضِكَ رَوَاهَا دُمْنَا
بِ يَقُودُ الْفُوزَ لِنَصْرَتِنَا
رُوحَ الْأَمَالِ لِنَهْضَتِنَا
جَرَسًا يَجِدُو فِيهِ الرِّمْنَا
فِي الْمَجْدِ وَيَبْعَثُ أُمَمَتَنَا^(١)

عَلَّمَ الْإِسْلَامَ عَلَى الْآيَا
بِهَلَالِ النَّصْرِ يُضِيءُ لَنَا
وَأَذَانُ الْمُسْلِمِ كَانَ لَهُ
قُولُوا لِسَمَاءِ الْكَوْنِ لَقَدْ
يَا دَهْرُ لَقَدْ جَرَّبْتَ عَلَى
طُوفَانِ الْبَاطِلِ لَمْ يُغْرِقْ
وَعَلَى أَغْصَانِكَ أَوْ كَارُ
يَا دَجَلَةُ هَلْ سَجَلْتَ عَلَى
أَمْوَاجِكَ تَرْوِي لِلدُّنْيَا
يَا أَرْضَ النُّورِ مِنَ الْحَرَمَيْنِ
رَوْضُ الْإِسْلَامِ وَدَوْحَتُهُ
وَمُحَمَّدٌ كَانَ أَمِيرَ الرُّكُـ
إِنْ اسْمَ مُحَمَّدٍ الْهَادِي
دَوَّتْ أَنْشُودَةُ «إِقْبَالِ»
لِيُعِيدَ قَوَائِلَنَا الْأُولَى

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٩١ - ٩٢).

الشكوي وجواب الشكوي

«حديث الروح»

لا بد لعالي الهمة أن يعرف قدر نفسه وقدر أمته.

□ يقول محمد إقبال رَحِمَهُ اللهُ:

شكواي أم نجواي في هذا الدجى	ونجوم ليلى حُسدي أو عودي
أُمسيتُ في الماضي أَعِيشُ كأنما	قطع الزمانُ طريق أُمسى عن غدي
والطيرُ صادحةٌ على أفنانها	تبكي الربى بأنينها المتجدد
قد طالَ تسهيدي وطالَ نشيدها	ومدامي كالطلّ في الغُصن الندي
فإلى متى صمتي كأني زهرةٌ	خرساء لم تُرزق براعة مُنشد

(٣٨٥) (٣٨٥) (٣٨٥)

قِيَّارَتِي مِلَّتْ بِأَنَاتِ الْجَوَى	لَا بُدَّ لِلْمَكْبُوتِ مِنْ فَيْضَانِ
صَعَدْتُ إِلَى شَفْتِي بِلَابِلُ مُهَجَّتِي	لِيَبِينَ عَنْهَا مَنْطَقِي وَلِسَانِي
أَنَا مَا تَعَدَّيْتُ الْقَنَاعَةَ وَالرِّضَا	لَكِنَّمَا هِيَ قِصَّةُ الْأَشْجَانِ
أَشْكُو فِي فَمِي التُّرَابُ وَإِنَّمَا	أَشْكُو مُصَابَ الدِّينِ لِلدِّيَّانِ
يَشْكُو لَكَ اللَّهُمَّ قَلْبٌ لَمْ يَعِشْ	إِلَّا لِحَمْدِ عُلَاكَ فِي الْأَكْوَانِ

(٣٨٥) (٣٨٥) (٣٨٥)

قد كَانََ هَذَا الْكَوْنُ بِلِ وَجُودِنَا	رَوْضًا وَأَزْهَارًا بِغَيْرِ شَمِيمِ
وَالْوَرْدُ فِي الْأَكْهَامِ مَجْهُولُ الشَّدَا	لَا يُرْتَجَى وَرْدٌ بِغَيْرِ نَسِيمِ
بَلْ كَانَتْ الْآيَامُ قَبْلَ وَجُودِنَا	لِيَلَّا لَهَا وَلِلْمَظْلُومِ

واخْضَرَ في البُسْتَانِ كُلَّ هَشِيمٍ
فإذا الْوَرَى في نُضْرَةٍ وَنَعِيمٍ

لَمَّا أَطْلَلَ مُحَمَّدٌ زَكَاةَ الرَّبِّي
وَأَذَاعَتِ الْفِرْدَوْسُ مَكْنُونَ الشَّدَا

﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾

مَنْ كَانَ يَهْتَفُ بِاسْمِ ذَاتِكَ قَبْلَنَا
عَبَدُوا تَمَائِيلَ الصُّخُورِ وَقَدَّسُوا
لَمْ يَبْلُغُوا مِنْ هَدْيِهَا أَنْوَارًا
وَهَدَى الشُّعُوبَ إِلَيْكَ وَالْأَنْظَارَا
لَمْ نَخْشَ يَوْمًا غَاشِمًا جَبَّارَا

مَنْ كَانَ يَهْتَفُ بِاسْمِ ذَاتِكَ قَبْلَنَا
عَبَدُوا تَمَائِيلَ الصُّخُورِ وَقَدَّسُوا
عَبَدُوا الْكَوَاكِبَ وَالنُّجُومَ جَهَالَةً
هَلْ أَعْلَنَ التَّوْحِيدَ دَاعٍ قَبْلَنَا
كُنَّا نُقَدِّمُ لِلسُّيُوفِ صُدُورَنَا

﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾

رُومَانٍ مَدْرَسَةً وَكَانَ الْمُلْكُ فِي سَاسَانٍ
فِي الْمَالِ أَوْ فِي الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ
يَكْفِي الْيَهُودَ مَوْؤَنَةَ الشَّيْطَانِ
فِي الصِّينِ أَوْ فِي الْهِنْدِ أَوْ طُورَانِ
نَهَجَ الْهُدَى وَمَعَالِمِ الْإِيمَانِ

قَدْ كَانَ فِي الْيُونَانِ فَلَسَفَةٌ وَفِي الْـ
لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ قُوَّةٌ أَوْ نَرُوءَةٌ
وَبِكُلِّ أَرْضٍ سَامِرِيٍّ مَا كَرَّ
وَالْحِكْمَةُ الْأُولَى جَرَتْ وَثْنِيَّةٌ
نَحْنُ الَّذِينَ بَنُورٍ وَحَيْكَ أَوْضَحُوا

﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾

مَكَ فَوْقَ هَامَاتِ النُّجُومِ مَنَارَا

مَنْ ذَا الَّذِي رَفَعَ السُّيُوفَ لِرَفَعِ

(١) في الأصل هكذا، وفيه اضطراب، ويمكن أن يستقيم الوزن على حساب المعنى فيكون:

رَسَةً، وَكَانَ الْمُلْكُ فِي سَاسَانِ

قَدْ كَانَ فِي «اليونان» و«الرومان» مَذَّ

كُنَّا جِبَالًا فِي الْجِبَالِ وَرُبَّمَا
بِمَعَابِدِ الْإِفْرَنْجِ كَانَ أَذَانُنَا
لَمْ تَنْسَ إِفْرِيقِيَّةَ وَلَا صَحْرَاؤُهَا
وَكَانَ ظِلُّ السَّيْفِ ظِلٌّ حَدِيقَةٍ
سِرْنَا عَلَى مَوْجِ الْبَحَارِ بِحَارًا
قَبْلَ الْكَتَائِبِ يَفْتَحُ الْأَمْصَارَا
سَجَدَاتِنَا وَالْأَرْضُ تَقْذِفُ نَارَا
خَضِرَاءَ تُنْبِتُ حَوْلَنَا الْأَزْهَارَا

﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾

لَمْ نَخْشَ طَاغُوتًا يَحَارِبُنَا وَلَوْ
نَدْعُو جِهَارًا لَا إِلَهَ سِوَى الَّذِي
وَرُؤُوسُنَا يَا رَبِّ فَوْقَ أَكْفُنَا
كُنَّا نَرَى الْأَصْنَامَ مِنْ ذَهَبٍ
لَوْ كَانَ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ لِحَازَهَا
كُنْزًا وَصَاغَ الْحِلْيَ وَالذِّئْبَارَا
نَصَبَ الْمَنَابِيا حَوْلَنَا أَشْوَارَا
صَنَعَ الْوُجُودَ وَقَدَّرَ الْأَقْدَارَا
تَرْجُو ثَوَابَكَ مَغْنَمًا وَجَوَارَا
فَنَهْدِمُهَا وَنَهْدِمُ فَوْقَهَا الْكُفَّارَا

﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾

كَمْ زُلْزَلَ الصَّخْرُ الْأَشْمُ فَمَا وَهَى
لَوْ أَنَّ آسَادَ الْعَرَيْنِ تَفَرَّعَتْ
وَكَأَنَّ نِيرَانَ الْمَدَافِعِ فِي صُدُوءِ
تَوْحِيدِكَ الْأَعْلَى جَعَلْنَا نَقْشَهُ
فَغَدَتِ صُدُورُ الْمُؤْمِنِينَ مَصَاحِفًا
فِي الْكُونِ مَسْطُورًا بِهَا الْقُرْآنُ
مَنْ بِأَسِنَا عَزَمَ وَلَا إِيْمَانُ
لَمْ يَلَقَ غَيْرَ ثَبَاتِنَا الْمِيدَانُ
رِ الْمُؤْمِنِينَ الرُّوحُ وَالرَّيْحَانُ
نُورًا يُضِيءُ بِصُبْحِهِ الْأَزْمَانُ

﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾

مَنْ غَيْرُنَا هَدَمَ التَّمَاهِلَ الَّتِي
حَتَّى هَوَتْ صُورُ الْمَعَابِدِ سُجْدًا
كَانَتْ تُقَدِّسُهَا جَهَالَاتُ الْوَرَى؟
لِحَالِ مَنْ خَلَقَ الْوُجُودَ وَصَوَّرَا

وَمَنْ الْأُلَى حَلُّوا بِعِزِّ أَكْفَهُمْ بَابُ الْمَدِينَةِ يَوْمَ غَزْوَةِ خَيْبَرٍ (١)
 أَمَّنْ رَمَى الْجُوسَ فَأُطِفْتُ وَأَبَانَ وَجْهَ الْحَقِّ أَبْلَجَ نِيرًا (٢)؟
 وَمَنْ الَّذِي بَذَلَ الْحَيَاةَ رَخِيصَةً وَرَأَى رِضَاكَ أَعَزَّ شَيْءٍ فَاشْتَرَى

﴿٣﴾ ﴿٤﴾ ﴿٥﴾ ﴿٦﴾ ﴿٧﴾ ﴿٨﴾

نَحْنُ الَّذِينَ اسْتَيْقِظْتُ بِأَذَانِهِمْ دُنْيَا الْخَلِيقَةِ مِنْ تَهَاوِيلِ الْكَرَى
 نَحْنُ الَّذِينَ إِذَا دُعُوا لِلصَّلَاةِ وَالْحَرْبُ تَسْقِي الْأَرْضَ جَاثِمًا أُخْرَا
 جَعَلُوا الْوَجْهَ إِلَى الْحِجَازِ وَكَبَّرُوا فِي مَسْمَعِ الرُّوحِ الْأَمِينِ فَكَبَّرَا
 مَحْمُودٌ مِثْلَ إِيَّازٍ (٣) قَامَ كِلَاهُمَا لَكَ بِالْخُشُوعِ مَطْلَبًا مُسْتَغْفِرَا
 وَالْعَبْدُ وَالْمَوْلَى عَلَى قَدَمِ التَّقَى سَجَدَا لَوَجْهِكَ خَاشِعِينَ عَلَى الثَّرَى

﴿٩﴾ ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾

بَلَغْتَ نَهَايَةَ كُلِّ أَرْضٍ خَيْلُنَا وَكَأَنَّ أَبْحَرَهَا رِمَالُ الْبَيْدِ
 فِي مَحْفَلِ الْأَكْوَانِ كَانَ هَلَاكُنَا بِالنَّصْرِ أَوْضَحَ مِنْ هَلَالِ الْعِيدِ
 فِي كُلِّ مَوْقِعَةٍ رَفَعْنَا رَايَةً لِلْمَجْدِ تُعْلِنُ آيَةَ التَّوْحِيدِ
 أُمُّ الْبَرَايَا لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُنَا إِلَّا عَيْدًا فِي إِسَارِ عَيْدِ
 بَلَغْتَ بِنَا الْأَجْيَالُ حَرِّيَّاتَهَا مِنْ بَعْدِ أَصْفَادٍ وَذُلِّ قِيُودِ

﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾

(١) هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) هو السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي.

(٣) إِيَّاز: هو مولى السلطان محمود السبكتكين.

رُحْمَاكَ رَبِّ هَلْ بَغِيرَ جِبَاهِنَا
كَانَتْ شِغَافُ قُلُوبِنَا لَكَ مُضْحَفًا
إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَفَاءً صَادِقًا
مَلَأَ الشُّعُوبَ جُنَاتُهَا وَعُصَاتُهَا
فَإِذَا السَّحَابُ جَرَى سَقَاهُمْ غَيْثَهُ
عُرِفَ السُّجُودُ بَيْتِكَ الْمَعْمُورِ
يَحْيِي جَلَالَ كِتَابِكَ الْمَسْطُورِ
فَالْخَلْقُ فِي الدُّنْيَا بَغِيرُ شُعُورِ
مِنْ مُلْحِدِ عَاتٍ وَمِنْ مَغْرُورِ
وَاخْتَصَّنَا بِصَوَاعِقِ التَّذْمِيرِ

﴿٣٤٥﴾ ﴿٣٤٦﴾ ﴿٣٤٧﴾

قَدْ هَبَّتِ الْأَصْنَامُ مِنْ بَعْدِ الْبَلَى
وَالْكَعْبَةُ الْعَلِيَا تَوَارَى أَهْلُهَا
وَقَوَافِلُ الصَّحَرَاءِ ضَلَّ حُدَاتُهَا
أَنَا مَا حَسَدْتُ الْكَافِرِينَ وَقَدْ عَدَّوْا
بَلْ مَحْتَتِي أَلَا أَرَى فِي أُمَّتِي
وَاسْتَيْقَظْتُ مِنْ قَبْلِ نَفْخِ الصُّورِ
فَكَأَنَّهُمْ مَوْتَى لَغَيْرِ نُشُورِ
وَعَدْتُ مَنَازِلَهَا ظِلَالُ قُبُورِ
فِي أَنْعُمٍ وَمَوَاكِبِ وَقُصُورِ
عَمَلًا تَقَدَّمَهُ صَدَاقُ الْحُورِ^(١)

﴿٣٤٥﴾ ﴿٣٤٦﴾ ﴿٣٤٧﴾

لَكَ الْبَرِّيَّةُ حَكْمَةً وَمَشِيئَةً
إِنْ شِئْتَ أَجْرِيَتِ الصَّحَارَى أَنْهَرًا
فَإِذَا دُهِىَ الْإِسْلَامُ فِي أَبْنَائِهِ
فَسَرَاؤُهُمْ فَقَرٌّ وَدَوْلَةٌ مَجْدُهُمْ
عَاقَبْتَنَا عَدْلًا فَهَبْ لِعَدُوِّنَا
أَغْيَيْتَ مَذَاهِبُهَا أُولَى الْأَبَابِ
أَوْ شِئْتَ فَلْأَنْهَارُ مَوْجُ سَرَابِ
حَتَّى انْطَوَوْا فِي مَحْنَةٍ وَعَذَابِ
فِي الْأَرْضِ نَهْبٌ ثَعَالِبٌ وَذَنَابِ
عَنْ ذَنْبِهِ فِي الدَّهْرِ يَوْمَ عِقَابِ

﴿٣٤٥﴾ ﴿٣٤٦﴾ ﴿٣٤٧﴾

(١) الصداق: المنهر.

عاشُوا بَثْرَوتَنَا وعَشْنَا دُونَهُمْ
 الدِّينَ يَحْيَا فِي سَعَادَةِ أَهْلِهِ
 أين الذين بنار حَبِّكَ أَرْسَلُوا الـ
 سَكَبُوا اللَّيَالِي فِي أَنِينِ دُمُوعِهِمْ
 والشمسُ كانت من ضيَاءِ وُجُوهِهِمْ
 للموت بين الدُّلِّ والإِملاقِ
 والكأسُ لا تبقى بغير السَّاقِي
 أنوارَ بين محافل العَشَّاقِ
 وتوضَّؤُوا بمدامع الأشواقِ
 تُهْدِي الصَّبَاحَ طلائعَ الإِشراقِ

﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾

كيفَ انطوت أيامُهُم وهمُ الأُلى
 هَجَرُوا الدِّيَارَ فَأَيْنَ أَزْمَعُ ^(٢) رَكْبُهُمْ
 يا قلبُ حَسْبُكَ لَمْ تُلَمَّ ^(٣) بِطَيْفِهِمْ
 فازُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَجْدِ خَالِدِ
 ياربُّ أَهْمُنَا الرَّشَادَ فَمَا لَنَا
 نشُرُوا الهُدَى وَعَلَوْا مَكَانَ الْفَرْقَدِ ^(١)
 مَنْ يَهْتَدِي لِلْقَوْمِ أَوْ مَنْ يَقْتَدِي
 إِلَّا عَلَى مَصْبَاحِ وَجْهِ مُحَمَّدِ
 وَلَهُمْ خُلُودُ الْفُوزِ يَوْمَ الْمَوْعِدِ
 فِي الْكَوْنِ غَيْرُكَ مَنْ وَلِي مُرْشِدِ

﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾

ما زَالَ قَيْسٌ والغَرَامُ كَعَهْدِهِ
 وَهَضَابُ نَجْدٍ مِنْ مَرَاعِيهَا الْمَهَا
 والعشْقُ فَيَاضٌ وَأُمَّةٌ أَحْمَدِ
 لو حَاولْتُ فَوْقَ السَّمَاءِ مَكَانَةً
 وَرَبُوعٌ لَيْلِي فِي رَبِيعِ جَاهِلِهَا
 وَظَبَاؤُهَا الْخَفَرَاتِ مَلَأُ جَبَاهِهَا
 يَتَحَفَّرُ التَّارِيخُ لِاسْتِقْبَالِهَا
 رَفَّتْ عَلَى شَمْسِ الضُّحَى بِهَلَالِهَا

(١) الْفَرْقَدُ: وهو نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً، ولذا يُهْتَدَى بِهِ، وهو الْمَسْمَى «النجم القطبي».

(٢) أَزْمَعُ: قَصَدَ وَتَوَجَّهَ.

(٣) لَمْ تُلَمَّ: لَمْ تَنْزَلْ بِهِمْ.

ما بالها تَلْقَى الجُدودَ عَوائِرًا^(١) وتَصُدُّها الأَيَّامُ عن آمالِها

﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾

هَجَرُ الحبيبِ رَمَى الأُحبةَ بالنَّوى وأصَابَهُمْ بِتَصَرُّمِ الآمَالِ
لو قد مللنا العِشْقَ كَانَ سَبِيلُنَا أو نَسْتَكِينُ إِلَى هَوَى وَضَلَالِ
أو نَصْنَعُ الأصْنَامَ ثُمَّ نَبِيعُهَا حَاشَا المُوَحِّدَ أَنْ يَذَلَّ لِمَالِ
أَيَّامُ سَلَمَانَ بَنَا مَوْصُولَةً وَتُقَى أُوَيْسَ فِي أَذَانِ بِلَالِ

﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾

يا طَيْبَ عَهْدٍ كُنْتَ فِيهِ مَنَارُنَا فَبَعَثْتَ نَوْرَ الحَقِّ مِنْ قَارَانِ
وَأَسْرَتْ فِيهِ العَاشِقِينَ بِلَمَحَةٍ وَسَقَيْتَهُم رَاحًا بِغَيْرِ دَنَانِ
أَحْرَقْتَ فِيهِ قُلُوبَهُمْ بِتَوَقُّدِ الإِيْمَانِ لَا يَبْتَلُهُبِ النَّيِّرَانِ
لَمْ نَبْقَ نَحْنُ وَلَا القُلُوبُ كَأَنَّهَا لَمْ تَحْظَ مِنْ نَارِ الهَوَى بِدُخَانِ
إِنْ لَمْ يُنَرِ وَجْهَ الحبيبِ بِوَصْلِهِ فَمَكَانُ حُزْنِ القَلْبِ كُلُّ مَكَانِ

﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾

يا فرحة الأَيَّامِ حِينَ نَرَى بِهَا رَوْضَ التَّجَلَّى وَارْفَ الأغْصَانِ
وَيَعُودَ مَحْفَلُنَا بِحُسْنِكَ مَسْفَرًا كَالصُّبْحِ فِي إِشْرَاقِهِ الفَيْنَانِ
قَدْ هَاجَ حَزْنِي أَنْ أَرَى أَعْدَاءَنَا بَيْنَ الطَّلَا^(٢) وَالظَّلِّ وَالْأَلْحَانِ
وَنَعَالِجِ الأنْفَاسِ نَحْنُ وَنَصْطَلِي فِي الْفَقْرِ حِينَ القَوْمِ فِي بَسْتَانِ

(١) الجُدود العَوَائِر: الحظوظ الخائبة.

(٢) الطَّلَا: الخمر.

أشرق بنورك وابعث البرق القديم بموضئة لفرأشك الظمآن

﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾

أشواقنا نحو الحجاز تطلعت كحنين مُغترِب إلى الأوطان
 إن الطيور وإن قصصت جناحها تسمو بفطرتها إلى الطيران
 قيثارتى مكبوتة ونشيدها قد ملّ من صمتٍ ومن كتمان
 واللحن في الأوتار يرجو عازفاً ليوحّ من أسرارهِ بمعانٍ
 والطور^(١) يرتقب التجلّي صارخاً بهوى المَشُوقِ ولَهْفَةِ الحيرانِ

﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾

أكبادنا احترقت بأنات الجوى ودماؤنا نهر الدُمُوع القاني
 والعطر فاض من الخمائل والرّبا وكأنّه شكوى بغير لسان
 أو ليس من هَوْلِ القيامة أن يكو ن الزّهر تَمَاماً^(٢) على البُستانِ
 النمل لا يخشى سليماناً إذا حرّست قُراه عناية الرّحمن
 أرشد براهمة الهنود ليرفعوا إل إسلام فوق هياكل الأوثانِ

﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾

ما بال أغصان الصنوبر قد نأت عنها قماريها^(٣) بكلّ مكانٍ
 وتعرّت الأشجار من حُلل الرّبا وطيورها فرّت إلى الوديانِ

(١) الطور: هو الجبل الذي تجلّى الله عليه لموسى عليه الصلاة والسلام وكلمه.

(٢) نَمَاماً: هو من يُزَيِّن للناس الكلام بالكذب.

(٣) القماري: هو ضرب من الحمام مطوّق حسن الصوت.

جواب الشكوى

كلام الرُّوح للأرواح يَسْري
هتفتُ به فطارَ بلا جناح
ومعدنُه نُرابيُّ ولكِنْ
لقد فاضت دموع العِشق فيه
فَحَلَّقَ في رِبا الأفلاكِ حتَّى
وتدركه القلوب بلا عناءٍ
وشقَّ أنينُه صدرَ الفضاءِ
جَرتُ في لفظه لغةُ السماءِ
حديثًا كانَ علويَّ النداءِ
أهَّاجَ العالمِ الأعلى بكائي



(١) صَبَا: رِيح طَيِّبَةٌ تهبُّ من جهة المشرق.

وقيل هو ابن آدم في غُرُورٍ تجاوزَ قَدْرَهُ دُونَ ارْعَواءٍ^(١)
لقد سَجَدَتْ ملائكةُ كرامٍ لهذا الخلق من طينٍ وماءٍ
يُظَنُّ العِلْمُ في كيفٍ وكمٍ وسُرَّ العَجْزُ عنه في انطواءٍ
وملءٌ كُوُوسِهِ دمعٌ وشكوى وفي أنغامه صوتُ الرَّجاءِ
فيا هذا لقد أبلغتَ شيئاً وإنْ أَكْثَرْتَ فيه مِنَ المراءِ

﴿٣٤٥﴾ ﴿٣٤٦﴾ ﴿٣٤٧﴾

عطايانا سحائبُ مُرْسَلاتٍ ولكن ما وجدنا السَّائِلينا
وكلُّ طريقنا نُورٌ^(٢) ونورٌ ولكن ما رأينا السَّالِكينا
ولم نجدِ الجواهرَ قابلاتٍ ضياءَ الوحي والنُّورِ المبينا
وكان تراب آدم غيرَ هذا وإنْ يَكُ أصله ماءً وطينا
ولو صدقوا وما في الأرض نهرٌ لأجرينا السَّماءَ لهم عُيونا

﴿٣٤٥﴾ ﴿٣٤٦﴾ ﴿٣٤٧﴾

وأخضعنا لِلْكَهْمِ الثَّريَّا وشيّدنا النُّجُومَ لهم حُصونا
ولكنْ أَلْحَدُوا في خيرِ دينٍ بنى في الشَّمْسِ مُلْكَ الأوَّلينا
تُراثُ مُحَمَّدٍ قد أهملوه فعاشوا في الخلائق مُهْمَلينا
تولَّى هادِئُ الأصنامِ قُدْماً فعاد لها أولئك يصنعونا
أباهم كان إبراهيمَ لكن أرى أمثالَ آزرَ^(٣) في البنينا

(١) ارعواء: كف وارتداع.

(٢) النُّور: الزهر.

(٣) آزر: اسم والد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كان ينحت الأصنام حِرْفَةً.

وفي أسلافكم كانت مزايا
تضوع^(١) شقائق الصحراء عطرا
فهل بقيتم محاسنهم لديكم
لقد هاموا بخالقهم فناء
وكوثر أحمد منكم قريب
بكل فم لذكرها نشيد
برياها وتبسم الورود
فيجمل في دلائكم الصدود
فلم يكتب لغيرهم الخلود
ولكن شوقكم عنه بعيد

﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾

وكم لاح الصباح سنا^(٢) وبشرى
وكبرت الخائل في رباها
ونوم صباحكم أبدا ثقیل
وأضحى الصوم في رمضان قيذا
تمدن عصركم جمع المزايا
وأذنت القماري والطيور
مطلية فجأوبها الغدير
كأن الصبح لم يدركه نور
فليس لكم به عزم صبور
وليس بغائب إلا الضمير

﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾

لقد ذهب الوفاء فلا وفاء
إذا الإيمان ضاع فلا أمان
ومن رضى الحياة بغير دين
وكيف ينال عهدي الظالمينا
ولا دنيامن لم يحيي دينا
فقد جعل الفناء لها قرينا

حُرْفَةٌ.

(١) تضوع: تفرح وتنتشر.

(٢) السنا: الضياء.



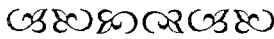
وفي التوحيد للههم اتحاد
ولن تبناوا العلامتفرقينا
تساندت الكواكب فاستقرت
ولولا الجاذبية ما بقينا



غدوتم في الديار بلا ديار
وأنتم كالطيور بلا وكور
وكل صواعق الدنيا سهام
ليدركم وأنتم في غرور
أهذا الفقر في علم ومال
وأنتم في القطيعة والنفور
وبيع مقابر الأجداد أضحي
لدى الأحفاد مدعاة الظهور
سيعجب تاجرو الأصنام قداما
إذا سمعوا بتجار القبور

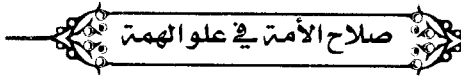


من المتقدمين إلى المعالي
على نهج الهداية والصواب
ومن جهاتهم أنوار بيتي
وفي أخلاقهم يتلى كتاب
أما كانوا جودكم الأولي
بناة المجد والفن العجائب
وليس لكم من الماضي تراث
سوى شكوى اللغوب^(١) والاكتئاب
ومن يك يومه في العيش يأسا
فما غده سوى يوم العذاب



أتشكوا أن ترى الأقوام فازوا
بمجد لا يراه النائمونا
مشوا بهدي أوائلكم وجدوا
وضيعتم تراث الأولينا
أئحرم عامل ورد المعالي
ويسعد بالرقى الخاملونا

(١) اللغوب: التعب والإعياء.



أليس من العدالة أن أَرْضِي يكون حصادها للزَّارعينا
تَجَلِّي النُّور فوق الطُّور باقٍ فهل بقيَ الكليمُ ^(١) بطُورِ سينا؟



ألم يُبْعَثْ لأُمَّتكم نبيٌّ يوحدكم على نهج الوئام
ومصحفكم وقبلتكم جميعاً منارٌ للأخوة والسَّلام
وفوق الكل رحمنٌ رحيمٌ إلهٌ واحدٌ ربُّ الأنام
فما نارُ ألفتكم تولى وأمسيتم حيارى في الظَّلام
وحسن اللؤلؤ المكنونِ رهنٌ صوغ العِقد في حُسن النِّظام



وكيف تغيَّرت بكمُ اللَّيالي وكيف تفرَّقت بكمُ الأمانِ
تركتم دينَ أحمدَ ثم عُدْتُم ضحايا للهوى أو للهوانِ
رقيُّ الشعب قد أضحى لديكم تقرُّوه صلاحيةَ الزمانِ
وكيف تُقاسُ أوهامٌ ولغوٌ بحكمة منزل السَّبعِ الثاني
أرى ناراً قد انقلبت رماداً سوى ظل مريض من دخانِ



أرى الفقراء عبَّاداً تقاةً قياماً في المساجد راعيناً
هم الأبرارُ في صوم وفطرٍ وبالأَسحارِ هم يَسْتَغْفِرُونَا
وليس لكم سوى الفقراء سترٌ يوارى عن عيوبكم العيونا

(١) الكليم: لقب سيدنا موسى عليه والصلاة والسلام.

أضَلَّتْ أغنياءكم المِلاهِي فهم في ريبهم يتردّدونَا
وأهلُ الفقر ما زالوا كنوزًا لـدين الله ربّ العالمينَا

﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾

أرى التفكيرَ أدركهُ خمولٌ ولم تبقَ العزائمُ في اشتعال
وأصبحَ وعظُمكم من غيرِ سحرٍ ولا نورٌ يُطلُّ من المقال
وعند النَّاسِ فلسفةٌ وفكرٌ ولكن أين تلقين (الغزالي^(١))
وجلجلةُ الأذانِ بكلِّ أرضٍ ولكن أين صوتٌ من بلالٍ
منائرُكم علتْ في كلِّ حيٍّ ومسجدُكم من العباد خالي

﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾

فأين أئمةٌ وجنودٌ صدقٍ تهابُ شِباةً^(٢) عزمهمُ الحرابُ
إذا صنعوا فصنعهمُ المعالي وإن قالوا فقولهمُ الصّوابُ
مرادهمُ الإلهُ فلا رياءُ ونهجمُ اليقينِ فلا ارتيابُ
لأمتهمُ وللأوطانِ عاشوا فليس لهم إلى الدُّنيا طِلابُ
كمثل الكأسِ تُبصرُها دِهاقًا^(٣) وليس لأجلها صُنِعَ الشَّرابُ

﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾

جهادُ المؤمنين لهم حياةٌ ألا إنَّ الحياةَ هي الجهادُ

(١) الغزالي: هو أبو حامد محمد الغزالي، أحد أعلام المسلمين، لقب «بحجة

الإسلام» صاحب مصنفات سائرة، توفي عام ٥٠٥ هـ بمدينة «طوس».

(٢) شِباة، جمعها الشِّبَا والشِّبوات: شِباة كل شيء، أي حدُّ طرفه.

(٣) دِهاق: مُمتلئ، يقال: كأس دِهاق، أي ممتلئ.

عقائُدُهم سِوَا عُدْ ناطِقَاتُ وبِالأَعْمَالِ يَثْبُتُ الاعتِقَادُ
وِخُوفُ المَوْتِ لِلأَحْيَاءِ قَبْرُ وَخُوفُ اللَّهِ لِلأَحْرَارِ زَادُ
أَرى مِيراثَهُم أَضْحى لَدَيْكُم مِضَاعًا حَيْثُ قَدْ ضَاعَ الرَّشَادُ
وَلَيْسَ لَوَارِثٍ فِي الخَيْرِ حِظُّ إِذَا لَمْ يَحْفَظِ الإِرْثُ اتِّحَادُ

﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾

لَأَيِّ مَآثِرِ القُومِ انْتَسَبْتُمْ؟ لَتَكْتَسِبُوا فِخَارَ المُسْلِمِينَا
فَأَيْنَ مَقَامُ ذِي النُّورِينِ^(١) مِنْكُم وَدَوْلَةُ عِزِّهِ دُنْيَا وَدِينَا
وَفَقْرٌ عَلَيَّ الأَوَابِ هَلَا رِبْحَتُمْ فِيهِ كَنْزَ الفَاتِحِينَا
أَقِمْتُمْ فِي الذُّنُوبِ وَفِي الخَطَايَا وَتَغْتَابُونَ حَتَّى الصَّالِحِينَا
وَهُم سَتَرُوا عِيُوبَ الخَلْقِ فَضْلًا وَإِنْ كَانُوا أَبْرَرَ المُتَّقِينَا

﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾

أَرِيكَتُهُ قِصْرُ^(٢) وَسَرِيرُ كِسْرِي^(٣) قَدْ اخْتَمَيَا بِمُلْكِهِمُ العَمِيمِ
وَأَنْتُمْ تَطْمَحُونَ إِلَى الثُّرَيَّا بَلَا عِزْمٍ وَلَا قَلْبِ سَلِيمِ
تَضِيعُونَ الإِخَاءَ وَهُمْ أَقَامُوا صُرُوحَ إِخَائِهِمْ فَوْقَ النُّجُومِ
طَلَبْتُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَعَدْتُمْ بَلَا زَهْرِ يَضُوعٍ^(٤) وَلَا شَمِيمِ
وَكَانَ لَدَيْهِمُ البُسْتَانُ مُحْضًا وَهُمْ أَصْحَابُ جَنَاتِ النِّعَمِ

(١) هو لقب الخليفة الراشد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) قِصْر: لقلب ملوك الروم.

(٣) كِسْرِي: لقب ملوك الفرس.

(٤) يَضُوع: يفروح وينتشر.

﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾

يُعِيدُ الْكَوْنَ قَصَّتَهُمْ حَدِيثًا وَيُنْشِئُ مِنْ حَدِيثِهِمُ الْفُنُونَا
فَكَمْ نَزَحُوا عَنِ الْأَوْكَارِ شَوْقًا إِلَى التَّخْلِيقِ فَوْقَ الْعَالَمِينَا
وَيَأْسُ شَبَابِكُمْ أَدْمَى خَطَاهُمْ فَظَنُّوا فِيهِ بِالذِّينِ الظُّنُونَا
هِيَ الْمَدِينَةُ الْحَمَقَاءُ أَلْقَتْ بِهِمْ حَوْلَ الْمَذَاهِبِ حَائِرِينَا
لَقَدْ صَنَعْتُ لَهُمْ صَنَمَ الْمَلَاهِي لَتَحْجَبَ عَنْهُمْ الْحَرَمَ الْأَمِينَا

﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾

لَقَدْ سَمَّيْتُ الْهَوَى فِي الْبَيْدِ قَيْسَ (١) وَمَلَّ مِنَ الشَّكَايَةِ وَالْعَذَابِ
وَيَحَاوُلُ أَنْ يُبَاحَ الْعِشْقُ حَتَّى يَرَى لَيْلَاهُ (٢) وَهِيَ بِلا حِجَابِ
يَرِيدُ سَفُورَ وَجْهِ الْحُسْنِ لَمَّا رَأَى وَجْهَ الْغَرَامِ بِلا نِقَابِ
فَهَذَا الْعَهْدُ أَحْرَقَ كُلَّ غَرَسٍ مِنْ الْمَاضِي وَأَغْلَقَ كُلَّ بَابِ
لَقَدْ أَفْنَتُ صَوَاعِقُهُ الْمَغَانِي وَعَاثَتْ (٣) فِي الْجِبَالِ وَفِي الْهَضَابِ (٤)

﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾

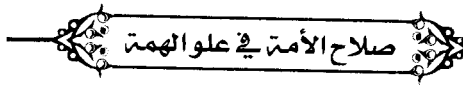
هِيَ النَّارُ الْجَدِيدَةُ لَيْسَ يُلْقَى لَهَا حَطْبٌ سِوَى الْمَجْدِ الْقَدِيمِ
خُذُوا إِيمَانَ إِبْرَاهِيمَ تَبَّتْ لَكُمْ فِي النَّارِ رَوْضَاتُ النَّعِيمِ
وَيَذْكُو مِنْ دَمِ الشَّهْدَاءِ وَرْدٌ سَنِيَّ الْعَطْرِ قَدْسِي النَّسِيمِ

(١) قيس: من أشهر عشاق العرب.

(٢) ليلي: من أشهر عاشقات العرب.

(٣) عَاثَتْ: أَفْسَدَتْ.

(٤) هَضَاب: جمع هَضْبَة، وهو جبل منبسط ممتد على وجه الأرض.



ويلمُعُ في سماء الكون لونٌ من العُباب مخضوبُ الأديم
فلا تفزعُ إذا المَرْجَانُ ^(١) أضحى عقودًا للبراعم والكُروم



فَكَمْ زالت رياضُ منرباها وكم بادَتْ نخيلٌ من في البوادي
ولكنْ نخلةُ الإسلام تنمو على مرِّ العواصف والعوادي
ومجدُك في حمى الإسلام باقٍ بقاء الشمس والسَّبع الشَّدادِ
وإنَّك يوسفُ في أيِّ مصر يرى كنعانه ^(٢) كلَّ البلادِ
تسير بك القوافلُ مُسرعاتٍ بلا جرس ولا ترجيع حادي



ضياؤك مشرقٌ في كلِّ أرض لأنك غير محدود المكانِ
بَغَتْ أُمُّ التَّار ^(٣) فأدرَكنها من الإيمان عاقبةُ الأمانِ
وأصبح عابدو الأصنام قُدَمًا حماة الحِجر ^(٤) والركن اليماني ^(٥)
فلا تجزع فهذا العصر ليل وأنت النجم يشرق كلَّ آنٍ
ولا تحشَّ العواصف فيه وانهض بشُعلتك المضيئة في الزَّمانِ

(١) المَرْجَان: صغار اللؤلؤ.

(٢) كنعان: أرض فلسطين.

(٣) التَّار: قبائل كانت تسكن في أواسط آسيا، أصلهم من المغول، اشتهروا بغزواتهم، وأسلم كثير منهم بعد هجومهم على بغداد.

(٤) الحجر: يريد به الشاعر حجر الكعبة.

(٥) الركن اليماني: هو ركن الكعبة الذي فيه الحجر الأسود.



﴿٣٤٤﴾ ﴿٣٤٤﴾ ﴿٣٤٤﴾

أعد من مشرق التوحيد نوراً يتمُّ به اتحاد العالمينا
وأنت العطرُ في روض المعالي فكيفَ تعيش محتبساً دفيناً
وأنت نسيمه فاحملْ شذاه ولا تحملْ غبارَ الخاملينا
وأرسل شعله الإيهان شمساً وضغ من ذرة جبلاً حصينا
وكن في قمة الطوفان موجاً ومزناً يطر الغيث الهتونا

﴿٣٤٤﴾ ﴿٣٤٤﴾ ﴿٣٤٤﴾

فباسم محمد شمس البرايا أقيمت خيمة الفلك المنير
تلاً في الرياض وفي الصحارى وفوق الموج والسيل المغير
ونبض الكون منه مُستمدٌ حرارته على مرّ العصور
ومن مراکش^(١) يغزو صدهاء ربوع الصّين بالصّوت الجهير
وما مشكاة هذا النور إلا ضمير المسلم الحرّ الغيور

﴿٣٤٤﴾ ﴿٣٤٤﴾ ﴿٣٤٤﴾

ورفع الذكر للمختار رفعٌ لقدرك نحو غايات الكمال
فكن إنسانَ عينِ الكون وأشهد مقامك عاليّاً فوق المعالي
بخنجر عزمك الوثاب لاحت على الأعلام أنوارُ الهلال
ندائك في العناصر مستجابٌ إذا دوى بصوت من بلال
وعقلك في الخطوب أجلُّ درع وعشقك خير سيف للنضال

(١) مراکش: مدينة تقع في المغرب الأقصى.



بمجدك وهو للدنيا سماء
صغيراً كل ما ضمّ الفضاء
وأيقظ صدق غيرته الوفاء
تشاهد أن ساعدك القضاء
وشأنك والخلود كما تشاء^(١)



□ والله در القائل:

أيها الساقى! من النور اسقني
شعلة الماء التي من زمزم
مقلعة المبصر منها أبصر
تجعل الريشة طوداً قاهرا
هي تسمو للثريا بالثرى
املا الكأس بصفو ونير

وأس في قلبي جراح الزمن
قصر يعنوها كالخدم
وشعاب الفكر منها أنور
وتري الثعلب ليثاً زائرا
وتعي القطرة منها أبحرا
نور الفكر بنور القمر^(٢)



(۱) «دیوان اقبال» (۱/۹۳ - ۱۱۰).

(۲) «دیوان اقبال» (۱/۱۲۹).



حياة الذات بعلو هممتها بتخليق المقاصد وتوليدها :

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللهُ :

جَرَسُ في ركبها ما تَقْصِدُ ^(١)	إنَّما يُبْقِي الحياة المقْصِدُ
أَصْلُهُ في أَمَلٍ مُسْتَرُ	سِرُّ عِيشٍ في طِلابِ مُضْمَر
لا يَحُلُّ طِينُكَ قَبْرًا مُهْمَلًا	أَحْيَ في قلبِكَ هذا الأَمَلَا
هو في صَدْرِكَ مِرْآةٌ تُنِيرُ	يَخْفِقُ القلبُ به بين الصُدُورُ
ولموسَى العقل خَضْرًا يُرْشِدُ ^(٢)	يَهْبُ التَرَبُّ جَنَاحًا يَصْعَدُ
وَإِذَا حَيٍّ يَمُوتُ الباطِلُ	إنَّما يَحْيَا الفُؤَادُ الأَمَلُ
هِبْضٌ سِقْطَاهُ وَأَوْدَى وَهْنَا	فَإِذَا عَيَّ بِتَخْلِيْقِ المُنَى
أَوْ هو المَوْجُ الَّذِي لا يَسْتَقِرُّ	أَمَلُ الذَّاتِ لَهِيْبٌ يَسْتَعِرُّ
إنَّه خَيْطُ كِتَابِ العَمَلِ ^(٣)	وَهَقُّ المقْصودِ حَبْلُ الأَمَلِ
يُطْفِئُ الشَّعْلَةَ فَقْدَانُ الهَوَاءِ ^(٤)	وَمَمَاتُ الحَيِّ فَقْدَانُ الرِّجَاءِ

﴿٣٥٥﴾ ﴿٣٥٥﴾ ﴿٣٥٥﴾

(١) المقصد مثل جرس القافلة ينبهها للسير.

(٢) هو من العقل كالخضر من موسى يهديه ويبين له الحقائق. في بيان: أن حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها.

(٣) الوهق: حبل فيه أنشودة تمسك به الخيل المسبية، ويصاد به. وخيط الكتاب: الخيط الذي تجمع به أوراقه بعضها إلى بعض.

(٤) «ديوان إقبال» (١/١٣٦).

□ وعن دناءة الهمم يقول:

حين صار القوتُ هذا العلفا
جوهراً المرأه فيها صديدا
وهيامُ السعي خلف الأمل
والسنا والعزُّ والمجدُ الأثيل
واستكان القلب في قبرِ البدن
قَطَعَ الخوفُ جذورَ الهمة
يُعمل الأحياء مثل الرَّمَم
سَمَّت العجزَ ارتقاء الأمم^(١)

جوهراً الآسادِ أضحي خزفا
ذلك القلبُ عن الصدر نأى
فدوى في القلب شوق العمل
ذهب الإقدام والعزمُ الأيل
بُرثن الفولاذ فيها قد وهنُ
ونما الخوفُ بنقص المنّة
كلُّ داءٍ في سقوط الهمم
نامت الأسد بسحر الغنم

وقال في الخور والعجز:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللهُ:

لصروف الدهر ذلٌّ طائعُ
قلْبُهُ خَوْفاً وَكِذْباً يُضْمَرُ
ليشه في كلِّ خبيثٍ والغُ
فاحذرن يا صاحبَ العقلِ السليمِ
إنَّه الحِرْبَاءُ في تلوينه
لَبَسَ الحقَّ عليهم واستتر

يحسب العجزَ قنوعاً خانعُ
قاطعُ سُبُلِ الحياة الخورُ
قلْبُهُ مِنْ كُلِّ خيرٍ فارغُ
في كمينٍ راصدٌ هذا اللئيمِ
احذرن يا صاحٍ مِنْ تزيينه
إنَّه يخفي على أهل النظر

(١) «ديوان إقبال» (١/١٤٦ - ١٤٧).

وهو حينًا في اتضاع يُسْتَرُ
وهو طورًا في حجابِ القَدَرِ
يُلبَسُ الصُّحَّةَ ثوبَ الدَّنَفِ^(١)

في ثياب اللين حينًا يظهرُ
وهو طورًا في ثيابِ المُجْبِرِ
وهو حينٌ في لباسِ التَّرفِ

وعالي الهمّة:

□ يقول عنه إقبال رَحِمَهُ اللهُ:

شُعْلَةٌ يرمي بها الكونَ الغدُ
ضَاءٌ من صبحِ غدٍ أبصارنا^(٢)
أنت يا نورًا العين الممكنِ
وتمكنُ في سوادِ الأعْيُنِ
واملا الآذانَ زهرَ النِّعَمِ
وأدرها كأسَ حبٍّ وصفاءِ
وأعدُ في الأرض أيامَ الوئامِ
أنت من ركب الحياة المنزلُ
فاغدُ في الروض ربيعًا نضرا
في جهاد الكون نمضي كالشُّعْلِ^(٣)
أنت في الكونين أعلى منزلا

في رماد اليوم منّا ترقُدُ
روضةٌ تُضمّرها أكمأنا
أنت يا فارسَ طرفِ الزَّمنِ!
موكبَ الإنشاءِ هيّا زَيْنِ
فمُ فسكن من ضَجيجِ الأممِ
جدّدن في الناس قانون الإخاءِ
أبلغ الناس رسالاتِ السَّلامِ
من بني الإنسان أنت الأملُ
أذبلت كفَّ الخريف الشجرا
نحن من فيضك نسمو للقللِ
أيها الغافل عمّا حُمِّلَا

(١) «ديوان إقبال» (١/ ١٥٨ - ١٥٩).

(٢) الأكماء جمع كَم: الزهرة قبل أن تفتح، يقول: إن الكم عندنا سيفتح عن روضة، وعيوننا تضيء بنور المستقبل.

(٣) «ديوان إقبال» (١/ ١٥٧ - ١٥٩).

تُبصر الحقَّ طريقاً مُعلماً^(١)

افتحنُ عينا وأدنا وفما

قوة الذات وعلو الهمة:

وكنِ الألباس لا تقطر الندى

قوة الذات احفظنها أبدا

حاملاً غيماً مُفيضاً أنهرا

أنضج القطرة كالطود تُرى

فِضةً كن بالتئام الزئبق^(٢)

أثبت الذات وفيها حَقَّق

حرَّكن عن لحنها أوتارها^(٣)

ومن الذات أبْن أسرارها

قصة الألباس والفحم:

يفتح الحقُّ بها باباً عليك:

قصة أخرى بها أدلي إليك

يا حليف النور طول الزمن!

قال للألباس فحمُ المعدن:

أصلنا في الكون أصلٌ واحدٌ

نحن صنوان نمانا والدُّ

وأنا في التُّرب حظِّي الذَّلَّة

وعلى التيجان أنت الزينة

وأنا من كَفَّ ترب أضيع

لك حسنٌ في المرايا يسطعُ

ورماداً آض في الجوهر

من ظلامي قد أضاء المجرُّ

قدرموا في مهجتي بالشرر

مَوطى الأقدام بين البشر

هل ترى أصلي وفصلي هل ترى؟

إنَّ حالي ببكاء لَحَرى

(١) «ديوان إقبال» (١/١٥٧ - ١٥٩).

(٢) كن في صلابة الفضة باجتماع الذرات المضطربة كالزئبق.

(٣) «ديوان إقبال» (١/١٦٣).

إِنِّي مَوْجٌ دُخَانٍ يُعْقَدُ كُلُّ مَا فِي شَرَارٍ يَصْعَدُ
وَمِنَ الْأَنْجَمِ فِيكَ الرَّوْنُقُ كُلُّ جَنْبٍ فِيكَ نَوْرٌ يُشْرِقُ
تَارَةً نَوْرٌ بَعَيْنِي قِصْرَا تَارَةً فَصٌّ يَزِينُ الْخَنْجَرَا

﴿﴾﴿﴾﴿﴾﴿﴾﴿﴾﴿﴾

قال: فاسمع يا رفيقي وافهما ينضج التُّرْبُ فيغدو خَائِماً
شَنَّ فِيهَا حَوْلَهُ حَرْبًا وَمَرَّ وغدا بالحرب صلبًا كالحجر
هَيْكَلِي مِنْ نَضْجِهِ قَدْ نَوَّرَا وبصدري كم شعاع أسفرا
أَنْتَ مِنْ ضَعْفٍ وَكِيَانٍ تَنْفَقُ وبلبين في قوام تُحْرِقُ
أَهْجُرُنْ خَوْفًا وَغَمًّا لَا تَهْنُ وانضجَنُ كالصَّخَرِ والألماس كُنْ
مِنْ أَجَادِ السَّعْيِ وَالْأَخْذِ مَعَا فهو في الدَّارَيْنِ بَدْرٌ طَلَعَا
وَبِحَجَرِ الْكَعْبَةِ انْظُرْ حَجْرَا كَانَ مِنْ قَبْلُ تَرَابًا حَقْرَا
جَاوَزَ الطُّورَ عِلَاءً لَا جَرَمَ وَرَجَتْ تَقْيِيلُهُ كُلُّ الْأُمَمِ
قُوَّةُ الْأَحْيَاءِ عَزُزٌ وَنَجَاةُ والوئى والذلُّ مِنْ ضَعْفِ الْحَيَاءِ (١)

﴿﴾﴿﴾﴿﴾﴿﴾﴿﴾﴿﴾

محاورة نهر الجنح وجبل همالا.. ومعنى دوام حياة الأمة في التمسك بسنتها:

جاش نهر الجنح يوماً جائلاً	في سفوح من همالا قائلاً: ^(١)
صاغك الحق نجياً للسماء	وحى رجلك سيراً في العراء
قيدت رجلك عن سير فما	هيبة فيك ورأس قد سما؟
إنما العيش مسيراً ووصلاً	وحياة الموج في أن يجفلاً
غضب الطود لقول النهر	فرمت أنفأسه بالشر
قال: يا مرآة وجهي! ويلكا	كم حوى صدري بخاراً مثلكا
إن هذا السير فيه الحين لك	من يزُل عن نفسه يوماً هلك
بمقام لك هلاً تابّه!	أفخار بالردى يا أبله!
يا وليد الفلك المرتفع!	صرت دون السّاحل المتّضع
قد وهبت النفس بحراً غاصبا	وأبحت الروح لصاً سالبا
كُن كوردٍ في رباه عاكف	لا ترم للريح كف القاطف ^(٢)
إنما العيش ناءً في المكان	وبروض الذّات قطف الأحقوان
في دهورٍ لم تُرَحَزْ أرجلي	أتراني زائلاً عن منزلي؟

(١) الخطاب من نهر الجنح لجبل همالا، وخلاصة المحاورة: أن النهر يعير الجبل بالعجز عن المسير فيجيب الجبل بأن البقاء في ثبات الكائن في مقامه، وأن الفناء في زواله عن مقوماته. وهذه المحاورة تصوّر رأي إقبال في إثبات الإنسان ذاته وتقويتها، وأن نفيتها، أو الغفلة عنها يودي بها.

(٢) الريح: الرائحة. لا ترم أن يقطفك الناس لتفوح رائحتك.

فعلى سفحي الثريا ترقد
وقلالي مسجداً للأنجم
وبسمعي طيرانُ الملك
قد حوى صدري صنوفَ الجوهر
ليس للسما إلى ناري ممرٌ
جاهد الأمواج واجنب بأسكا
ثم كن قُرْطاً على وجهٍ وضيء
يُشعل البرق ويهمي أبجراً^(١)
شاكياً من فاقةٍ يرجو الندى
وهو في جدواك بادي الدَّلَّة^(٢)
يا وليدَ الحقِّ صرَّت الباطلا
شمعةً في محفل الأحرارِ كُنْ
كيف تدري ما خلود الحيوان^{(٣)(٤)}

وإلى الأفلاك قدي يصعد
أنت تَفنى في خِصْمٍ خُصِم
وبعيني لاح سرُّ الفلكِ
وبنارِ الجدد طولَ الدَّهرِ
«صخرٌ قلبي وناري في الصَّخرِ
قطرةٌ إن كنت فاحفظ نفسك
وابتغِ النُّورَ وكن درًّا يُضيءُ
أو فزد واعلُّ سحاباً ممطرا
ييسط البحرُ لجدواك يدا
فهو في فيضك دون الموجة
من كانوا علّة الهمم وزينة الدنيا:
صرَّت يا أكسيرُ تُربّاً سافلا
اقطع الأكوان حُرّاً لا تهِنُ
إيه يا غافلُ عن أصل الزَّمانِ

(١) إن كنت ماءً فاحفظ نفسك في البحر حتى تصير لؤلؤة، أو كن سحاباً.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ١٦٥ - ١٦٧).

(٣) الحيوان: الحياة.

(٤) انظر «ديوان إقبال» (١/ ١٧٤).

□ وقال:

أَيْنَ أَيَّامٌ بِهَا سَيْفُ الدَّهْرِ
قَدْ غَرَسْنَا الدِّينَ فِي أَرْضِ الْقُلُوبِ
وَمِنَ الدُّنْيَا حَلَلْنَا الْعُقَدَا
مَنْ كُؤُوسَ الْحَقِّ صَرَّفْنَا الرَّحِيقَ
كَأُسْنَا كَانَتْ سِرَاجَ الْمُحْفِلِ
إِنَّ هَذَا الْعَصْرَ مِنْ أَثَارِنَا
رَوْضَةُ الْحَقِّ ارْتَوَتْ مِنْ دَمِنَا
كَبَّرَ الْعَالَمُ مِنْ تَكْبِيرِنَا
«اقْرَأْ» الْحَقُّ لَنَا قَدْ عَلَّمَا
فَلَدِينَا عِزَّةً مِنْ «لَا إِلَهَ»
قَدْ تَرَكْنَا غَمَّ أَمْسٍ وَغَدِ
نَحْنُ وَرَأَتْ هِدَاةً لِلْبَشَرِ
لَا تَزَالُ الشَّمْسُ تُبْدِي نَوْرِنَا
ذَاتُنَا الْمِرَاةَ لِلْحَقِّ، اَعْلَمْ

صَرَفْتُهُ فِي أَيَادِينَا الْقُدْرَا!
وَجَلَوْنَا الْحَقَّ مِنْ سِتْرِ الْغُيُوبِ
وَاسْتَنَارَ التُّرْبُ مَنْ سَجْدَا
وَهَدَمْنَا حَانَةَ الْعَصْرِ الْعَتِيقِ
صَدْرُنَا كَانَ لِقَلْبٍ مُشْعَلِ
مَنْ عَجَاجِ ثَارٍ فِي تَسْيَارِنَا
عَزَّ أَهْلُ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا بِنَا
كَعَبَاتٍ شَادَ مِنْ تَعْمِيرِنَا
بِيَدِينَا رِزْقُهُ قَدْ قَسَمَا^(١)
نَحْنُ لِلْكَوْنَيْنِ حُرَّاسُ أَبَاهِ
وَوَفِينَا الْحَبِيبَ أَوْحَدِ
نَحْنُ عِنْدَ الْحَقِّ سِرٌّ مَدَّخِرِ
غَيْمُنَا فِيهِ بِرُوقٍ وَسَنَا
آيَةُ الْحَقِّ وَجُودُ الْمُسْلِمِ^(٢)

﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾.

(٢) «ديوان إقبال» (١/١٧٦ - ١٧٧).

عالي الهمّة:

نَائِحٌ وَاللَّيْلُ سَاجٌ سَادُلٌ
تَصْطَلِي رُوحِي بِحُزْنٍ وَأَلَمٍ
أَمَلًا فِي الصَّدْرِ صَيَّرْتُ دَمًا
مَا احْتَرَا قِي كَشَقِيقٍ أَبَدًا
أَنَا كَالشَّمْعِ دَمُوعِي غُسْلِي
مَحْفَلُ النَّاسِ بِنُورِي يُشْرِقُ
مَا لِنَارِي فِي الْحَشَا مِنْ فِتْرَةٍ
إِنَّ رُوحِي فِي سَحِيقِ الْجَسَدِ
مُذْ بَرَانِي الْحَقُّ فَجَرَ الْخَلْقَةَ
أَنَّهُ لِلْعِشْقِ تُفْشِي سِرَّهُ
تَعْمَلُ الْعَصْفَ لَهْيًا يُحْرِقُ

ଓଡ଼ିଶାର ଓଡ଼ିଆ

- (١) الشقيق: زهر أحمر بجعله الشعراء مثلاً للاحتراق. ويقول إقبال: ما هذا الاحتراق الذي هو لون لا حقيقة له، ولماذا أستجدي الندى من الفجر كالشقيق وغيره من الزهر. أنا أحترق بناري كالشمع وأتخذ من دمعي ندى.
- (٢) أيامه كلها عملٌ وجهدٌ، ليس فيها يوم راحة.
- (٣) روحه آفة والجسد تراب يسترها كما يتردى الإعصار بالغبار.
- (٤) تجعل العصف - وهو الهشيم ضعيف اللهب - ناراً قوية تحرق غيرها، وتخلق من التراب فراشاً هائماً يهفو على النار.
- (٥) «ديوان إقبال» (١/ ١٨٩).

لا .. لا يا قيود الأرض .. الأرض لا تحدني وتعوقني :

لا يُرَى في تيهٍ «أنى وكم» ^(١)	لا تحدُّ الأرضُ قلبَ المسلم
حائرٌ في قلبه كلُّ وطنٍ ^(٢)	ليس للمسلم في الأرض عَطنٌ
ضلَّ هذا الكونُ في فسحته	حصِّلَ القلبُ ففي وسعته
هجر الدارَ الإمامُ الأعظم ^(٣)	عقدةُ الأقوات حلَّ المسلمُ
جعل التَّوحيدَ فيها أسسا	أمةٌ ملء الدُّنَى قد أسسا
إذ أشاعَ الفضلَ فينا وهدي	صارتِ الأرضُ لدينا مَسجدا
ذلكَ المحفوظُ بالله الرَّحيم	ذلكَ المحمودُ في الذِّكرِ الحكيم
في ارتعادٍ من سَنا طلعتِه	تفرَّغُ الأعداءُ من هيبته
أتراه خشيّة الأعداء فرّ؟	فلماذا أرض أهليه هجر؟
غلطوا في فهم معنى الهجرة	حجبَ القصَّاصُ معنى القصّة
هجرةٌ سرُّ ثباتِ المسلم	هجرةٌ شرَّعُ حياةِ المسلم

(١) أي: لا يتيه في عالم العِلل والمقادير.

(٢) يقول إقبال في ديوان «ضرب الكليم»:

إنما الكافر حيرا وأرى المؤمن كوثا
ن له الآفاق تيه تاهت الآفاق فيه

يعني: أن المؤمن المجاهد لا تعوقه ولا تحيره عقبات هذا العالم، بل يسخرها كما يشاء.

(٣) الإمام الأعظم رسول الله ﷺ.

إنها التسيار نَحْو الوُسْعَةِ ولأجل اليمِّ ترك القطرة^(١)
 اهجر الزهرة أجل الروضة إن هذا الخسر ربُّح الكثرة
 شرف الشَّمْسِ مسيرٌ مطلق فيه من فوق البرايا تخفُّق
 لا تكن نهرًا من السُّحْبِ يُمدِّ وكن البحرَ، عُبَابًا لا يُحدِّ
 اقصدن تسخير كلِّ العالم لترى لسلطان أهل العالم
 لا يقيِّدُك مُقامٌ في الوري وكن الحوتَ يسيحُ الأبحرا
 كلُّ من حرَّره من دُلِّ الجهات فلكُ يزهر من كلِّ الجهات
 ترك الوردَ شذاهُ فسرى في فسيح المَرَجِ عطرًا نَشرا
 يا أسيرًا قد ثوى في روضة عندليبًا هاتمًا في وردة!
 سيرنُ نفسك حرًّا كالصِّبا ثم عانق كلَّ أزهار الرُّبى
 فانتظم في سلكه كالدرر أو غبارًا في الرياح انتشر^(٢)



إنما الحياة هكذا: علو الهمة والعيش بين الخطر:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللهُ:

سرُّ هذا الأمر يا ذا البصر: «الحياة العيش بين الخطر»

(١) في القرآن الكريم: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] فالهجرة ترك المكان الذي يعسر فيه العمل إلى المكان الذي يتيسر فيه أداء الواجب.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٢١٧ - ٢١٨).

فِي امْتِحَانٍ لِقَوَاكَ الْعَاتِيهِ
وَبِحَدِّ السِّيفِ فَاصْهَرْ صَخْرَهَا
حَمَلٌ يَرْجَفُ فِي ذَلَّتِهِ
فَهُوَ كَالصَّعْوَةِ وَاهٍ خَائِرٌ
لَكَ هَذَا اللُّوْحُ، لَوْحَ الْقُدْرَةِ
وَيَرْقِيكَ لِأَعْلَى مَنْزِلٍ
وَيَرْبِّي مِنْكَ طَوْدًا مَا خَوَى
شَرْعُهُ لِلنَّاسِ قَانُونُ الْحَيَاةِ
وَيَرْبِّيكَ كَمَا الْحَقُّ يَشَاءُ
وَيَنْقِي الرِّينَ مِنْ قَلْبِ الْحَدِيدِ
ضَيَّعُوا رَمَزَ بَقَاءٍ عُرِفَا
مُسْلِمُ الصَّحْرَاءِ رَبُّ الْجَمَلِ
وَرِيَا حُ الْبِيدِ رَبَّتْ نَفْسُهُ
صَيَّرَتْهُ النَّسَايَ رَوْحُ الْعَجَمِ
وَطَءُ نَمَلٍ مَسَّهُ بِالْأَلَمِ
رَاعَهُ الْبَلْبَلُ فِي تَصْفِيرِهِ
غَلَّ بِالتُّكْلَانِ رَجُلًا وَيَدَا
يَلْدِمُ الصَّدْرَ وَيَدْمَى قَلْبُهُ
قِيَّدَتْ رَجُلَاهُ فِي خُلُوتِهِ

يَتَحَدَّكَ بِرُضْوَى الْعَالِيهِ
وَيَنَادِيكَ أَنْ اقْصِمْ ظَهْرَهَا
لَيْسَ كِفَاءَ اللَّيْثِ فِي صَوْلَتِهِ
إِنْ حَكَى الصَّعْوَةَ صَقَرٌ كَاسِرٌ
كَتَبَ الشَّارِعُ رَبُّ الْحِكْمَةِ
يَشْحَذُ الْعِزْمَ بِنَارِ الْعَمَلِ
وَإِذَا تَلَفَبُ يَعْطِيكَ الْقَوَى
إِنَّ دِينَ الْمِصْطَفَى دِينَ الْحَيَاةِ
إِنْ تَكُنْ أَرْضًا يَصِيرُكَ السَّمَاءُ
يَصْقِلُ الْمِرَاةَ مِنْ صَخَرٍ شَدِيدٍ
ضَيَّعَ الْقَوْمُ شِعَارَ الْمِصْطَفَى
ذَلِكَ الْغَصْنُ الْعَسِيُّ الْمَعْتَلِي
الَّذِي الْبَطْحَاءُ أَزَكَّتْ غَرْسَهُ
أَذْبَلَتْهُ الْيَوْمَ رِيحُ الْعَجَمِ
قَاتَلَ الْأَسَادَ ذَبَحَ الْغَنَمِ
مَنْ أَذَابَ الصَّخَرَ مِنْ تَكْبِيرِهِ
مَنْ عَلَا الطَّوْدَ سَرِيعًا مُصْعِدًا
مَنْ بَرَى الْأَعْنَاقَ ضَرْبًا عَضْبُهُ
مُوقِظَ الْآفَاقِ مِنْ خَطَوَاتِهِ

مَنْ أَطَاعَ النَّاسَ طَرًّا أَمْرَهُ واجتدى دارا وكسرى برّه
رضى القنع وأكدى جدّه وارتضى الكذبة عزّا جدّه

﴿٣٤٥﴾ ﴿٣٤٦﴾ ﴿٣٤٧﴾ ﴿٣٤٨﴾

كمات الفرد تفتى الأمم ولها يومًا قضاء يُحتم
أمة الإسلام تأبى أجلا أصلها الميثاق في ﴿قَالُوا بَلَى﴾ (١)
لا تخاف الموت هذي الأمة ﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾ لديها حجة (٢)
دام ذكر ما أقام الذّاكر بدوام الذّكر دام الذّاكر (٣)
ذلك المصباح أنى يُطفأ؟ قال ربي عالمًا: ﴿أَنْ يُطْفِئُوا﴾ (٤)
أمة الحقّ إلى الحقّ تُنب أمة يُعشقها أهل القلوب (٥)
مُضِلَّتْ بِالْحَقِّ ذَا السَّيْفِ الصَّقِيلِ مُضِلَّتْ مِنْ غَمْدِ آمَالِ الْخَلِيلِ (٦)

(١) إشارة إلى الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] يعني: أنها قائمة على عقيدة أزلية عامة خالدة فهي دائمة بدوام هذه العقيدة.

(٢) إشارة إلى الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر].

(٣) المعنى: إن كان الذكر محفوظًا فلا بد أن يدوم الذّاكر، فلا ذكر بدون ذاكر.

(٤) الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

(٥) إلى الحقّ تنيب: الحق هنا الله تعالى.

(٦) إبراهيم الخليل: كان يأمل أن تخرج من ذريته أمة موحدة فانجلت آماله عن هذه الأمة.

ما سوى الحقِّ محاهُ برُّقه
لنعيد الحقَّ حيًّا نطقه
نحنُ للتَّوحيدِ أقوى حجة
للكتابِ اختارنا والحكمة^(١)
روضنا كان لهيبُ التترِ
حلينا كان نثارُ الشرِّ^(٢)
فلإبراهيمَ فينا فطرةٌ
وإلى المولى لدينا نسبةٌ
من لهيبٍ قد جنينا زهرا
نار نمرودٍ ردَدنا كوثرنا
كلُّ نارٍ يوقدُ الدَّهرُ لنا
زهرا تُ حين تأتي روضنا

﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾

ذهب الرومُ وفُضَّ الموكبُ
شرقها أقوى وأقوى المغربُ
كأسُ ساسانٍ من الغمِّ دمٌ
حانُ يونانٍ خرابٌ مُظلمٌ^(٣)
عابدُ الواحدِ! وحَّد واهجرن
كلَّ تفريقٍ وللحقِّ ارجعن
أثيها المغفل معنى الكلم
أثبتن في القلب ألفاظَ الفم
قوَّةُ الإيمانِ زِدْ بالعمل
مات إيمانٌ إذا لم يعمل^(٤)

(١) إشارة إلى الآية: ﴿وَعَلِّمُوا كُتُبَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةَ وَعَلِّمُوا مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ

﴾ [البقرة: ١٥١].

(٢) يعني: كانت نار التتر علينا بردًا وسلامًا، بل كانت روضة لنا كما كانت النار لإبراهيم.

(٣) ساسان الذي تنسب إليه دولة الفرس الساسانية التي سيطرت من القرن الثالث الميلادي.

(٤) «ديوان إقبال» (١/ ٢٣٦ - ٢٣٨).

□ قال رَحِمَهُ اللهُ:

ଓଡ଼ିଶା ଓଡ଼ିଆ

(١) **إِنْ أَخْلَصَ الْإِنْسَانُ لِلَّهِ، وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ لَا يَقِيدُهُ مَا يَقِيدُ النَّاسَ مِنْ أَسْبَابٍ، بَلْ يَخْلُقُ هُوَ وَسَائِلُهُ إِلَى غَايَاتِهِ، وَلَيْسَتْ الْحَيَاةُ دَوْرَاتٍ آلِيَةٍ بَلْ فِيهَا إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ وَعِزِّمَتُهُ.**

(٢) الضمير يرجع إلى الدنيا.

وقبيل عن سواء صدفا
واترك الأرباب، والله اعبدن^(١)

حَيُّ فَرْدٌ نَفْسَهُ قَدْ عَرَفَا
عن طريق المصطفى لا تذهبن
عالي الهمة سما فوق السماوات العلى:
□ قال إقبال رَحِمَهُ اللهُ:

ليس يرضى بمُسام في السَّما
﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ تاجُ المَفْرِقِ
وحوى برًّا وبحرًا صدره
صدره لِلْبَرْقِ إِمَّا نَزَلَا
أمره المِيعَارِ في خيرٍ وشرٍ
جوهرٌ فيه كمالٌ للحياه
نِعمَةٌ إِلَّا أَذَانَ الْمُسْلِمِ
وهو حين القَهَرِ ذو طبعٍ كريمٍ
قَهْرُهُ في الحربِ صَهْرٌ لِلْحَجَرِ
وهو في اليَدِ انقِضَاضُ الْأَجَدَلِ
هو فوق الزُّهْرِ ما إن يَسْتَقَرَّ
طائرًا فيما وراءَ الْفَلَكَ

قد سما المسلم أعلى مَنْ سَمَا
وَرْدُهُ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ في المَازِقِ
حمل الكونين طرًّا ظَهْرُهُ
أذنه للزُّعْدِ إِمَّا جَلَجَلَا
قَاتِلُ الزُّورِ، وللحقِّ وَزَرُ
جمره كُلُّ لَهِيبٍ في حِشَاهِ
ليس في ضوضاء هذي الأممِ
هو في العفو وفي البذلِ عَظِيمِ
لُطْفُهُ في الحَفْلِ جَبْرُ الْمُنْكَسِرِ
هو في الرِّوَضِ صَفِيرُ الْبُلْبُلِ
قلبه تحت سَمَاءٍ لا يَقَرُّ
طائرٌ يَنْقُرُ نَجْمَ الْحَبْكِ

(١) «ديوان إقبال» (١/٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١).

دليلُ القلب لا يرضى نزولاً ولا يرضيه مأوك والترابُ
فلا تحسبه في جسدٍ مقيماً فلا يرضى بشطّ ذا العُباب

﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾

إلام تعيش في رثّ الإهاب؟ إلام تعيش نملاً في تراب؟
فَطِرُ كالصَّقر معزماً وحلّق إلام أسيرُ حبّ في اليّاب؟
نصيحة صقر لفرخه:

تعلّم بنيّ بأنّ الصُّقور فكنْ مُحكّم الرأى شهماً جسورا
لها قلبٌ ليثٌ وجسمٌ صغير بُغاث الطيور اهجرها بعيدا
عليّ السجايا أيباً غيورا فتلك الرعايدُ نسلُ اللئام
ودعها إذا لم تُردْ أن تصيدا أرى البازَ صيداً لما اصطاده
تدسّ مناقيرها في الرّغام فكم باشقٍ قد أتاه النّوى
إذا قلّد الصيد ما اعتاده فنفسك فاحفظْ وعش في جذل
بصحبة لقاطٍ حبّ هوى ودغ للدراريج^(٢) لينّ الجسدُ
جريئاً متيناً قويّ العضل متاعُ الحياة، تعلّم، جهادُ
وكن مخلّباً كالمدى أو أحد نقول لفرخ عقاب عتيق
وصبرٌ على محنة واجتهادُ «بريق الدماء يفوق العقيق»

(١) يعني: إنّ قلّد الصقر الطيور الضعيفة التي يصطادها في عاداتها كان هو صيداً لها مغلوباً على أمره.

(٢) الدراريج: جمع دراج وهو طائرٌ معروف.

تَوَحَّدَ كَقَوْمِكَ مِنْذِ الْقِدَمِ
بِأَلَّا نَقِيمَ بَظْلًا وَسَاقِ
فَسِيحُ الْفِيَا فِي لَنَا وَالْجِبَالِ
حَبَانَا إِلَهَ عَنَانِ السَّمَاءِ
فَأَشْرَفُ مِنْهُ هِمَامٌ مُرِيبٌ
يَحْدُ نَحَالِبَهُنَّ الصَّخَرِ
كَأَنَّكَ عَنَقَاءَ جَوْ مَتِينِ
كَفِيلِ بِنَاسَانِ عَيْنِ النَّمْرِ
مِنَ الشَّهْبِ ^(٢) فَيْكَ كَرِيمِ الْعُرُوقِ
وَكُلُّ مَا أَصَبْتَ يَسًّا وَرَطْبًا
وَكُنْ رَاشِدًا وَاسْتَمِعْ لِلرَّشْدِ ^(٣)

وَلَا تَبْغِ سِرْبًا كَسِرْبِ الْغَنَمِ
سَمِعْتُ وَصَاةَ الصُّقُورِ الْعِتَاقِ
فَلَيْسَ لَنَا فِي رِيَاضِ مَجَالِ
وَلَقَطْتُكَ حَبًّا بِأَرْضِ خَطَاءِ
فَأَمَّا خَطِي فِي التَّرَابِ النَّجِيبِ ^(١)
فَإِنْ بِسَاطِ الْبَزَاةِ الْحَجَرِ
نَمَاكَ الْأَوَابِدُ زَرْقِ الْعَيُونِ
أَصِيلٌ أَبِي يَوْمِ الْخَطَرِ
جَنَاحُكَ مِنْ سَطَوَاتِ الْبُرُوقِ
فَطَرُ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تَخْشِ خَطْبَا
وَلَا تَقْبَلَنَّ طَعْمَةً مِنْ أَحَدٍ
حَيَاتِكَ فَابِغِ فِي الْخَطَرِ الْجَلِيلِ؛

فَقَالَ سَاقِصُدُ الْبَلَدِ الْحَرَامَا
فَلَا أَسْتَطِيعُ فِي أَرْضِ مُقَامَا
وَأَنْفِي الْغَمِّ عَنْ قَلْبِي الْمَعْنَى
حَيَاتِكَ فَابِغِ فِي الْخَطَرِ الْجَلِيلِ

غَزَالٌ بَثُّ شَكْوَاهِ غَزَالًا
أَرَى الصَّيَّادَ حَوْلِي كُلَّ حِينٍ
أَبْدَلْ خَيْفَةَ الصَّيَّادِ أَمْنًا
أَجَابَ رَفِيقُهُ أَنْ يَا خَلِيلِي

(١) يعني: الصقر ونحوه.

(٢) الشهب: أي البيض، وفيها تورية بشهب السماء.

(٣) «ديوان إقبال» (١/ ٢٨٥ - ٢٨٦).

وعش أمضى من السيف اليماني
لأرواح وأجساد عيار^(١)

ونفسك فاشحذن في كل آن
ففي الأخطار للهيم اختبار
فطرتي لا ترتضى دعة المنازل:

لا ترتضى دعة المنازل
تهفو الصبا حول الخمائل
رائع حلو الشمائل
يعلوه حسنا في المحافل
إلى الشمس رقي أمل
أعوج على المراحل
الكاس تسري في المفاصل
وربيعي الآتي أغازل
لا ينتهي فيه المسائل
قلبي عن الآمال غافل^(٢)

ماذا أقول وفطرتي
قلبي على قلق كما
فإذا نظرت إلى جميل
خقق الفؤاد إلى الذي
فمن الشرار إلى النجوم
إنني ليهلكني القرار فما
وإذا شربت من الربيع
أشدو بشعر آخر
طلبني النهاية في الذي
لا صابر نظري ولا

شررا كنا:

نحن آثار على مر العصور
فمضينا نقتفي سر الدهور
فإذا شمس على الكون تسير

أمة كانت ومن حكمتها
قد عرفنا سر تقدير مضي
شررا كنا، أجدنا نظرا

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٢٩٥ - ٢٩٦).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٩٧).

أذبلت ريح الصبا فينا الزهور
دون أشراك كما انقضت صقور
كم أمات العزم تدبير الأمور^(١)

صرصر البيداء في فطرتنا
رب صيد قد أخذنا وثبة
كلما أمكن طرف فاركضن
لنا غاية من الشمس أعلى:

إنها الشمس صوة الركتان^(٢)
تطلبين المحال في الأكوان
تطلعني منه درة ذات شان
أنت كان العتيق كالصوان^(٣) ^(٤)

ولنا غاية من الشمس أعلى
إيه يا قطوة عن النفس تاهت
إن عاراً معيشة البحر إن لم
يا جهولاً بقدر نفسك لولا



يا لها من أمنيات:

ذلك البدر التمام
وبعيني اقتحام
ليس يغشاه ظلام
ليس يخبو والهيام
وغدي في زمام

مُنيتي أن يستجلي
فيدي تمسك صدري
ويقول الحسن: صبحي
فيقول الحب: وجدي
ليس من يومي وأمسي

(١) المصدر السابق (١/٣٠٢).

(٢) الصوة: أحجار تجعل علامة على الطريق.

(٣) يعني أن الإنسان جهل قدر نفسه وقدر أشياء ليس لها قيمة إلا بتقديره.

(٤) «ديوان إقبال» (١/٣١٠ - ٣١١).

ليس لي نَجْدٌ و غورٌ
 رِقَّةُ الأسرار أبغي
 ولتسليم الجنان
 بل ونظرٌ للودود
 يا لإنعام الحبيب!!
 □ والله در القائل:

نحنُ تربُّ، وكالنجوم سفارا
 قل لأهل السَّماءِ: إنَّ ترابًا
 نحن في الحبِّ زهرةٌ في نسيم
 لا يستويان:

أينَ مِنْ يَفقُ الشَّواهِدِ
 أينَ مِنْ يَلْقُطُ مِنْ حَبِ
 مَنْ فَتَى يَلْقُطُ عَنقَوِ
 أينَ مِنْ يَسري بِروضِ
 مَنْ بَصيرِ فِي ضَميرِ الزَّهْدِ
 أينَ فَوْقِ الأَرْضِ ظَنُّ
 مَنْ طُمُوحِ جَاوَزِ الأَفْلا
 حَبَّذا عَقْلٌ فَسِيحٌ
 نُورُ أَمَلِكِ وَنَا

من جناح العندليب
 على الأرض تريب
 د الثريا لا يخيب
 كنسيم في هبوب
 ر للسرّ يصيب
 سارا أو شكّ مريب
 ك للمسرى الرّحيب
 قد أحاط العالمين
 ر الأنس فيه دون مين

نحنُ مِنْ خلوةِ عشقٍ قد برزنا بالسَّجَايا
فجعلنا موطئ الأقدام م في الأرض مَرايا
فانظرنَّ همتنا كيـ ف لعننا بالعطايا
قد أضعنا الكونَ جهراً حينَ حزنأه خفايا
قد نزلنا شطَّ نهرٍ نبصرُ الموج سَرايا
تبصرُ الأعينُ سطرًا مِنْ غُدُوٍّ وَعَشايا
شعلةً كُنَّا جميعًا وانتثرنا كالشَّررِ
أهلَ شوقٍ وحنينٍ ورجاءٍ ونَظَرٍ^(١)

□ والله درّه حين يقول:

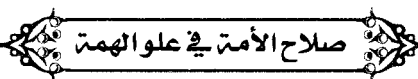
رأيت الحب يأبى كُلَّ وغدٍ كميّتِ الطير تأباه الصقور
□ وحين يقول:

قطوفَ الورد! لا تجزعْ لشوكِ
يا بُيْنِي أوقدي طال المدى:

يا بُيْنِي أوقدي، طال المدى أوقدي علَّ على النَّار هدى^(٢)
أوقدي يا بُنْ قد حارَ الدَّلِيلُ أوقدي النَّارَ لأبناء السبيل
ارفعي النَّارَ وأذكِي جمرها علَّ هذا الركبَ يعيشو شطرها

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢) إشارة إلى الآية في قصة موسى عليه السلام: ﴿لَعَلِّي ءَايِكُمْ مِنْهَا يُفَسِّسُ أَوْ أَعِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى



شَرِّدِي هَذَا الظَّلَامَ الْجَاثِمَا أُرْشِدِي هَذَا الْفَرَّاشَ الْهَائِمَا
 حَبِّذَا النَّارُ بَلِيلَ تَوْقَدُ حَبِّذَا الْمُؤْنَسُ هَذَا الْمَوْقَدُ؟
 حَبِّذَا عِنْدَكَ هَذَا النَّزْلُ لَوْ حَوَانَا فِي سَفَارٍ مَنْزِلُ
 مَا لَذَا الْمَنْزِلِ قَدْ سَارَ الْفَرِيقُ إِنَّمَا النَّيْرَانُ أَعْلَامُ الطَّرِيقِ
 قَدْ تَرَحَّلْنَا مِنَ الْفَجِّ الْعَمِيقِ لَا نَبَالِي بِقَرِيبٍ أَوْ سَحِيقِ
 رَنَّ فِي آفَاقِنَا هَذَا النَّدَاءُ فَأَمْنَمَا الْبَيْتَ يَحْدُونَا الرَّجَاءُ^(١)
 قَدْ غَنِينَا عَنْ مَبِيتٍ وَمَقِيلٍ وَعَنْ الْأُمُوَاهِ وَالظِّلِّ الظَّلِيلِ
 وَعَنْ الرَّغْبَةِ وَالْخَوْفِ سُوَى خُلِعَ النَّعْلَانِ فِي وَادِي طَوَى^(٢)
 نَحْنُ لَا نَرْضَى بِنَارِ الْغَسَقِ نَحْنُ لَا نَرْضَى بِنُورِ الشَّفَقِ
 نَحْنُ لَا نَرْضَى بِنَجْمِ الصُّبْحِ لَاحٍ لَا وَلَا نَرْضَى تَبَاشِيرَ الصَّبَاحِ
 نَحْنُ لَا نَرْضَى نَجُومًا لَامِعَةً إِنَّمَا نَبْغِي شَمُوسًا طَالِعَةً
 قَدْ رَحَلْنَا بِالْجَوَى وَالْحَرْقِ وَغَنِينَا عَنْ رَسِيمِ الْأَيْنِقِ
 أَيْنَ مَنَا طَائِرَاتٍ سَبَقَ جَمَعَ الْغَرْبُ لَهَا وَالْمَشْرِقُ
 نَحْنُ رَكْبٌ فِي جَوَاهِ مُوَضِعٍ لَمْ يَسْعُهُ فِي جَوَاهِ مُوَضِعُ
 كُلُّ حُرٍّ ضَاقَ عَنْهُ الْمَوْطِنُ وَانْطَوَى دُونَ مَنَاهِ الزَّمْنُ

(١) إشارة إلى الآية: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

(٢) النعلان هنا كناية عن الرغبة والخوف والإشارة إلى الآية في قصة موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ [طه: ١٠].

وعلى متن هيام لا يقر
طائرٌ من تحته ذا الفلكُ
كلُّ غاياتٍ لديه مبدأُ
زوّدي يا لَبَنَ مِنْ هذا اللهب

كلُّ طيَّارٍ على متن الفكر
طائرٌ منه يغارُ الملك
بارقٌ في اللّوح لا ينطفئُ
زوّينا بهيام ووجيب

﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾

مُزَّقَتْ مِنْهُ دِجَاجِرُ الظُّلَمِ
أَمْ كَلَامٌ مِنْهُ نَوْرٌ لائِح؟
أطربَ الناشدَ صَوْتُ المنشد^(١)
ينبتُ الرُّوحُ بسهبٍ مقفّر
بشّر الغارقَ في بحر الرّمال
صاح في أذني فقيّد مبلّس
وهدهُ الصَّوْتُ شَطْرَ القافله
كبلالٍ لصلاةٍ أذنا
دورة الإبرة شطر القطب
ابركي يا ناقتي! تمّ السُّرور
نعمَ ما روّحتَ يا ریح الصّبا

جال في الظلماء نورٌ من نغم
أشعاعٌ فيه صوتٌ صائح
أذن الرّكب لهذا المنشد
سال في القلب مسيل المطر
أو خربير الماء من نبع زلال
رنّ في نفسى رنين الجرس
طوت البيداء عنه السَّابله
سبق القلبُ إليه الأذنا
دار قلبي شطر هذا المطرب
«غنني يا منيتي! لحن النُّشور
عُدّت يا عيدي إلينا مرحبا

﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾

(١) المنشد في الشطر الأول: منشد الشعر، وفي الثاني: الذي يدلُّ على الضّالة،
الناشد من ينشدها.

ومن الهائف بالقلب الكسير؟
ومن البارق في هذي الغيوم؟
هاديًا في الأرض جيلًا مظلمًا؟
يعرف النهج وقد حار اللبيب؟
وإلى الأصنام سَيرَ الأمم؟
سورة الإخلاص في هذا النغم؟
من قيود الأسر هذا الأدهما؟
ومن القاطع أغلال العبيد؟
ثورة العزة من هذي الهمم؟
بصّ كالجمرة في هذا الرماد
ضلّ فيه المقتدي والمرشد
وطوى اللجج على تياره
فرسًا كالصخر في هذا الخضم
داعيًا والناس غرقى في النهر
تَقَذِفُ اللُّجَّةُ قلبًا خامدًا
جائش في الدهر لا يتبدّد
همم الأحرار في أسفارها^(١)
فهي نور وهي نار حاميّه؟

حبذا الصّوتُ فَمَنْ هذا البشير؟
وَمَنْ المُسعدُ في هذي الهموم؟
ومن الهابط في نور السّما
ومن الهادي إلى أرض الحبيب
ومن السّائق شَطْرَ الحَرَمِ
ومن القارئ في بيت الصنم
وَمَنْ الحرُّ الذي قد حطما
وَمَنْ الآبي على كل القيود
وَمَنْ الباعث في ميت الأمم
لاح الغُرة في هذا السّواد
جرف النَّاس أُنًى مزيد
عارض الموج على أغماره
وطغى اللُّجج عليه والتطم
سبح اللُّجج وبالشطّ استقر
يجرفُ التّيار جسمًا جامدًا
إنَّ عزم الحرّ بحرٌ مُزبد
هذه الأقدارُ في تيسارها
ومن الشّاعر يُذكي القافيّه

(١) هذه: مبتدأ، وهمم: خبر.

تَقْشَعُرُ الْأَرْضُ مِنْ أَوْزَانِهِ
هُوَ بِالْأَشْعَارِ بِحَرِّ فَائِضٍ
حَدَّثَتْهُ الْأَرْضُ عَنْ أَخْبَارِهَا
هُوَ بِالْأَمْسِ خَيْرٌ بِغَدٍ
كَشَفَ اللَّهُ عَنِ الْغَيْبِ لَهُ
عَرَفَ الشَّرْقَ وَرَادَ الْمَغْرِبَا
فَرَأَى الْعِلْمَ سَبِيلًا لِلرَّدَى
صَوْتُ هَمَّامٍ عَلَى شَطِّ الْمَزَارِ



فطرةُ الله التي أودعها
إنها سرُّ الحياة الخالدة
إنَّها التَّيارُ مثلَ الكَهْرَباءِ
إنَّما العيشُ جهادٌ لا يقرّر
من يضيء ذا السرِّ في أعماقه
وتعالى عن حدودِ الأزمنة
شُعْلٌ في قوله تضطرم

(١) انظر «اللمعات» لعبد الوهاب عزّام بتصرف.. «ديوان إقبال» (١/٣٤٦ - ٣٤٩).

مُلَطَّعٌ فِي الْيَأْسِ صُبْحَ الْأَمَلِ نَافِخٌ فِي الْمَوْتِ رُوحَ الْعَمَلِ
أَرَأَيْتَ الْغَيْثَ فِي أَرْضٍ مَوَاتٍ مَنِبَتًا فِيهَا أَفَانِينَ النَّبَاتِ
هُمْ الْأَحْرَارَ تَحْيِي الرِّمَّا نَفْخَةُ الْأَبْرَارِ تَحْيِي الْأَمَّا
لَا يُصَدُّ الْحَرُّ عَمَّا يَأْمَلُ أَوْ يَحْدُ الْبَرْقُ فِيمَا يَفْعَلُ
هُوَ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ اتِّصَلَا جَلَّ رَبِّي عَنْ حُدُودٍ وَعَلَا
مَنْ يُضِيءُ فِي قَلْبِهِ إِيْمَانُهُ وَيَنْزِلُ فِي سَبِيلِهِ وَجْدَانُهُ
فَهُوَ بِاللَّهِ عَلِيٌّ وَقَوِيٌّ وَهُوَ بِاللَّهِ غَنِيٌّ وَوَلِيٌّ
جَاهِدْ وَاللَّهُ فِي تَيْسِيرِهِ تَحْسَبُ الْأَقْدَارَ فِي تَقْدِيرِهِ
قَائِمٌ بِالْحَقِّ بَيْنَ الْبَشَرِ مَالُهُ فِي بَاطِلٍ مِنْ وَطَرِ
يُمْسِكُ الدُّنْيَا وَلَا تُمْسِكُهُ يَمْلِكُ الْأَرْضَ وَلَا تَمْلِكُهُ
وَتَرَى الدُّنْيَا انْطَوَتْ فِي كَبِهِ لَيْسَ مِنْهَا ذَرَّةٌ فِي قَلْبِهِ
إِنَّهُ الْقَانُونَ بِاللَّهِ سَرَى عَادِلًا فِي حُكْمِهِ بَيْنَ الْوَرَى
يَسْعُ النَّاسَ جَمِيعًا هُمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَاضٍ عَزْمُهُ
جَاهِدٌ فِي الْخَيْرِ لَا يَتَّخِذُ عَزْمُهُ فِي صَدْرِهِ يَتَّقِدُ
وَفَقِيرٌ وَغَنَاءُ لَا يُحَدُّ فَقَرُهُ اسْتَغْنَاؤُهُ عَنْ كُلِّ يَدِ
هُوَ بِاللَّهِ وَفِي اللَّهِ غَنِيٌّ ضَاقَ عَنْ هَذَا الْغَنَى كُلُّ ثَرِي

صغار الهمم:

جذوة الإقدام فيها خامده	إنَّ في الناس قلوبًا جامده
كلُّ ما تهوى طعامٌ وودُدُ	هُمُّها ما يبتغيه الجسدُ
فحكَّتْ في ضيقها أخلاقها	حدَّدَتْ آرائها آفاقها
عُمِرَ الكونُ به أم خربا	لا تبالي حين تبغي أربا
سُحِّرتْ في نفعها آراؤها	إنما قانونها أهواؤها
كلَّ حينٍ في هوى يجذبها	وترى أهواءها تغلبها
لا تُرى نحو المعالي مُضْعِده	وإلى الأرض تراها مُخْلِده
إنما مَبْرَكها هذا العَطَن	إنما آفاقها هذا البدن
خامداتِ العزمِ موتى الهمم	إنما أحياءها كالرَّمم

صُنَّاعُ الحِياةِ المسلمون نعم العابدون:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللهُ:

كلُّ مَنْ أَحْسَنَ، فيه يَعْبُدُ	إنما العالمُ طُورًا مَعْبُدُ
ينبتُ الخَيْرَ كغيثٍ صَيِّبٍ	كلُّ مَنْ أدلى بقولٍ طَيِّبٍ
كلُّ مَنْ أَحيا مَوَاتًا هَملا	كلُّ مَنْ أَحْسَنَ يَوْمًا عملا
ليقيتِ النَّاسَ والعُجَمَ معا	كلُّ مَنْ في أرضه قد زرعَا
فيه للإنسانِ ظلٌّ وثمر	كلُّ مَنْ يغرُسُ مخضِرَّ الشَّجر
تنفعُ الظَّمآنَ مَنْ حرَّ الغليل	كلُّ مَنْ يَنْبِطُ بثرًا في السَّبيل

كُلُّ مَنْ صَنَعَهُ قَدْ أَتَقْنَا
 يَنْفَعُ النَّاسَ وَلَمْ يَقْصِدْ لِنَفْسِهِ
 يَتَغَيُّ لِلنَّاسِ خَيْرًا عَمَّا
 لَمْ يَضَعْ وَقْتًا بِلَهْوٍ وَدِدٍ
 خَالِدًا لِلْخَيْرِ مَا بَيْنَ الْوَرَى
 فِكْرَةً أَوْ قَوْلَةً أَوْ عَمَلًا
 كُلُّهُمْ لِلْخَيْرِ نَعْمَ الْقَاصِدُ
 وَلِسَانًا وَابْعَ فِي الْخَيْرِ يَدَا^(١)

كُلُّ مَنْ يَبْنِي بِنَاءً حَسَنًا
 كُلُّ مَنْ أَحْدَثَ عِلْمًا لِلْبَشَرِ
 كُلُّ مَنْ أَحْدَثَ فِكْرًا مُحْكَمًا
 كُلُّ مَنْ جَدَّ وَإِنْ لَمْ يَجِدْ
 كُلُّ مَنْ أَثَّرَ فِيهَا أَثَرًا
 كُلُّ مَنْ فِي دَهْرِهِ قَدْ أَجْمَلَ
 كُلُّهُمْ لِلَّهِ نَعْمَ الْعَابِدُ
 فَاصْطَنِعْ لِلْخَيْرِ فِكْرًا وَيَدَا

لا رهبانية في الإسلام :

يَحْبِسُ الْأَعْمَالُ وَالْفِكْرُ مَعَهُ
 فَتَوَى فِي ضَيْقِهِ قَدْ خَنَعَا
 عَابِدًا تَخْشَى الْبِرَايَا وَجَلَا
 مَوْضِعًا فِيهِ سَبِيلًا لِلنَّجَاةِ
 ذَاكِرًا مَوْلَاهُ فِي كُلِّ عَمَلٍ
 يَتَّصِلُ بِالْحَقِّ لَا يَخْشَى الْفِتْنِ
 إِنْ يَفْكَرُ ظَالِمٌ فِي ظُلْمِهِ
 يَطْلُبُ الرِّزْقَ بِعِزِّهِ وَجَنَاحِ
 لَا يُرَى حَوْلَ الدُّنْيَا حَائِلًا

لَيْسَ مَنَا مِنْ تَوَى فِي صَوْمِعِهِ
 ضَاقَ نَفْسًا عَنْ مَجَالٍ وَسَعَا
 لَيْسَ شَيْئًا أَنْ تُرَى مَعْتَزِلًا
 إِنَّمَا الْعَابِدُ مَنْ خَاضَ الْحَيَاةَ
 أَخَذًا بِالذِّلِّ مَا عَنْهُ حَوْلُ
 إِنَّهُ بِالْحَقِّ مَوْصُولٌ وَمَنْ
 ثَوْرَةٌ مَضْمُرَةٌ فِي حِلْمِهِ
 أَرَأَيْتَ الصَّقْرَ فِي مَتْنِ الرِّيَّاحِ
 طَائِرًا فِي الْجَوِ يَسْمُو عَازِمًا

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٥٠ - ٣٥١).

لو يراه الجوع يوماً ما أسفَّ
لم يطق صبراً عليه فهلك
فأسار الحدّ فيه مهلك
عزّ مات الحرّ فيه تُخبر
ليس إلا الحرّ فيه ظافر
وامض فيمن صحّ عزماً واتكل^(١)

يأكل الجوع ولا يرضى الجيف
فإذا الجدّ رماه في الشُّرك
ليس يحوي الحد يوماً سبك
يافتى هذا الجهادُ الأكبر
قلّ في النَّاس عليه صابرٌ
يا أسير الوهم أقدم لا تُبلّ

عُلُو الهمة في التوكّل:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللهُ:

إنّما التكلانُ سعيٌّ متّصل
وائقٌ بالله فيما يأملُ
لا يبالي بعقاب أو محن^(٢)
تطلب الرزق بعزم وجناح
مقدماتٍ لا تبالي بالخطر
تملاً الجوّ وثوقاً ورجاً
طائراً يطلب رزقاً قدراً
خافقاً لا يتشنى دون النَّجاح
أو تبالي بطريقٍ مهلكه

مَنْ يَنْمَ عن سعيه لا يتكل
مُقَدِّمٌ في أمره المتكَلُّ
عازمٌ ماضٍ على خير سنن
أرأيت الطَّير في نور الصَّباح
أنّها تخرجُ في كفِّ القدر
طالباتِ الرزق في كلّ رجا
يا لها من أملٍ قد صوّرا
أرأيت العزْمَ في شكل جناح
لا يصد الطير خوفُ التَّهلكه

(١) المصدر السابق (١/ ٣٥١ - ٣٥٢).

(٢) العقاب: جمع عقبة.

لِلَّذِي يَسْعَى عَظِيمًا أَمَلًا^(١)
 رَاجِيَاتٍ رِزْقَهَا فِي دَارِهَا؟
 لَيْسَ تَدْرِي مَنْ إِلَيْهَا سَاقَهَا
 إِنَّهُ لِلْوَهْمِ وَالْعَجْزِ وَكُلِّ
 إِنَّهُ الْإِقْدَامُ فِي ضَوْءِ الْأَمَلِ
 إِنَّهُ الْحَرُّ إِلَى الْقَصْدِ سَعَى
 هُوَ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ بَعْضُ الْقَدَرِ
 سُنَنُ الْخَلْقِ فِي أَكْوَانِهَا
 مَا هَا كَرُّ اللَّيَالِي حَوْلُ^(٢)

ضَرْبِ الْمَخْتَارِ هَذَا مِثْلًا
 أَرَأَيْتَ الطَّيْرَ فِي أَوْكَارِهَا
 ثَاوِيَاتٍ تَبْتَغِي أَرْزَاقَهَا
 مَنْ وَنَى فِي سَعْيِهِ لَمْ يَتَّكِلْ
 إِنَّمَا التُّكْلَانُ عَزْمٌ وَعَمَلٌ
 إِنَّهُ الْإِعْدَادُ وَالْعَزْمُ مَعًا
 إِنَّهُ التَّقْدِيرُ فِي سَعْيِ الْبَشَرِ
 هَمُّ الْأَحْرَارِ فِي إِيْمَانِهَا
 سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي لَا تَبْدَلُ

□ وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

مُقَدِّمَاتٍ فِي الْمَعَالِي سَاعِيهِ
 آهِ مَنْ يَدْرِكُ هَذَا النِّعْمَا؟
 كُنْتَ فِي الْأَرْضِ جِهَادًا وَهْدَى
 آهِ لِلْقَلْبِ الَّذِي قَدْ صَدِئَا
 فَيُضِيءُ الْأَرْضَ مِنْهَا شُعْلُ
 حَمَدَتْ فَالْقَلْبُ بَرْدٌ وَهَمُودُ

آهِ مَنْ لِي بِقُلُوبٍ وَاعِيهِ
 آهِ مَنْ يَفْقَهُ هَذَا الْكَلِمَا؟
 أَيُّهَا الْمُسْلِمُ مَاذَا قَدْ عَدَا؟
 آهِ لِلنُّورِ الَّذِي قَدْ طَفِئَا
 آهِ لِلنَّارِ الَّذِي تَشْتَعَلُ
 حَمَدَتْ فَالْقَلْبُ بَرْدٌ وَهَمُودُ

(١) كما جاء في الحديث: لو توكلتم على الله حق التوكل؛ لرزقكم كما يرزق الطير؛

تغدو خماصًا، وتروح بطانًا.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٣٥٢ - ٣٥٣).



ليت شعري هل لديه مَنْ شرر
عَلَّه في القلب يذكي ضَرَمَا
عَلَّ جَهْرًا محرقًا تحت الرَّمَاد
عَلَّنِي أُنْحَقُ هذا العَبَثَا
عَلَّنِي أُبْعَثُ فِيهِمْ نَغْمِي
عَلَّهَا تُنْبِتُ أَلْوَانَ النَّبَاتِ^(١)

إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ زِنْدٌ وَحَجَر
إِنَّنِي أُضْرِمُ هَذَا الْأَمَا
إِنَّنِي أَنْفُخُ فِي هَذَا السَّوَادِ
عَلَّنِي أَذْهَبُ هَذَا الْخَبَثَا
إِنَّنِي أُبْعَثُ فِيهِمْ نَغْمِي
إِنَّنِي أُمْطَرُ فِي أَرْضِ مَوَاتِ

الأمل وعلو الهمة :

لَيْسَ مِنْ أَمْتِنَا مَنْ يئْسُوا
وَاقْدَحِ الْعِزْمَ إِذَا الْهَوُلُ دَجَا
وَابْعَثْ مِنْ كُلِّ يَأْسٍ أَمَلَا
وَاخْلُقْ فِي كُلِّ حِينٍ مَا تَشَاءُ
يَصْدَعُ الظُّلُمَاءُ فِي نَوْرِ الْأَمَلِ
وَهُوَ فِي الْكَفِّ جِهَادٌ وَمَضَاءُ
إِنَّهُ النَّجْمُ الَّذِي لَا يَأْفُلُ
يَصْدَعُ الظُّلُمَةَ هَذَا الْكُوكَبُ
وَيُرِيهِ فِي الدِّيَاجِي قَصْدَهُ

لَا تَرَانَا فِي جِهَادٍ نِيَأْسُ
أَشْعِلِ الْإِيمَانَ فِي كُلِّ دُجَى
وَارْفَعْنِي فِي كُلِّ لَيْلٍ شُعَلَا
وَصِلِ الْقَلْبَ بِخَلَّاقِ الرِّجَاءِ
إِنَّمَا الْإِنْسَانُ فِكْرٌ وَعَمَلٌ
أَمَلِ الْإِنْسَانَ فِي الْقَلْبِ ضِيَاءُ
إِنَّهُ النَّارُ الَّتِي تَشْتَعَلُ
إِنْ دَجَا بِالْيَأْسِ لَيْلٌ غَيْهَبُ
هُوَ وَخِي اللَّهُ يَهْدِي عَبْدَهُ

(١) المصدر السابق (١/٣٥٣).

هو نورُ الله في أفق النجاة
إنَّه القطب إليه يَنْزَعُ
إبرة تهدي إلى قَصْدِ السبيل
يا دليلاً هاديّاً في كلِّ واد
يَقْدَحُ القلبُ إذا ما خفقا
فهو نورٌ وهو نارٌ يَلْدَعُ
فأَوْمِلْ لخيرٍ وصابرٍ لا تَمَلْ
وقضاءُ الله عونُ الأملين
لا يَرُدُّ الله قلباً آملاً
ربَّ عبدٍ مخلصٍ قد أقسما
وجهادُ العبدِ أولى أن يُبر
إنَّ عزمَ الحرِّ فيه قَسَمُ
قد تولى الله هذا المَقْسِمُ



(۲) «دیوان اقبال» (۱/۳۵۴).



المعراج^(١):

□ يقول إقبال:

وَذَرَّةٌ طَارَ فِيهَا الشَّوْقُ صَاعِدَةً تُغَيِّرُ فِي عَرَصَاتِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
يَا رِفْقَةَ الْمَرْجِ! تَلْقَى الصَّقْرَ مُقَدِّمَةً دُرَّاجَةً تَمَلَأُ الْأَنْفَاسَ مِنْ شَرَرِ
الْمُسْلِمِ السَّهْمِ، وَالْأَفْلَاكُ غَايَتُهُ سِرَائِرُ الرُّوحِ فِي الْمَعْرَاجِ فَادْكُرْ^(٢)
جَهْلَتَ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ أَسْرَارًا فَلَا عَجَبٌ مَا زَالَ مَدُّكَ مُحْتَاجًا إِلَى الْقَمَرِ^(٣)
□ وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

إِذَا طَغَى الْيَمُّ فَهَيَّا أَقْدَمُنْ مَا حَاجَتِي مَلَّاحَهُ وَالسُّفُنْ
لَقَدْ مَحَا سَحْرَكَ تَكْبِيرِي فَهَلْ تَقْوَى عَلَى جُحُودِهِ يَا وَهْنُ؟^(٤)



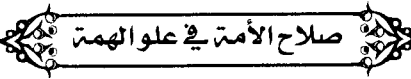
المؤمن عالي الهممة:

□ قال عنه إقبال:

إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ الْعَجِيبِ الشَّانِ كُلَّ حِينٍ جَدِيدَ شَانٍ وَأَنْ

(١) الذرة التي يملؤها الشوق تعلو على الشمس والقمر، والدرّاجة إذا ملأ صدرها الحماس قاتلت الصقر، فإنما القوة الحق قوة الروح، لا شيء يستعصي عليها.
(٢) يريد أن في المعراج سرُّ الروح. وهو رمز إلى أن المسلم سهم هدفه الفلك.
(٣) جهلت أسرار الآيات في أول سورة النجم، التي يذكر فيها الوحي، وتقريب الرسول إلى ربه. وليس جهلك عجيبيًا، فإن نفسك لم تكمل، ولا تزال خاضعة لما يؤثر فيها محتاجة إليه، كما يحتاج البحر إلى القمر في مدّه «ديوان إقبال» (٢٤/٢).

(٤) «ديوان إقبال» (٤١/٢).



على الله واضح البرهان
ومن القهر فيه والغفران
المسلم المستعلي على الحدّثان
ويأبى الحلول في الأوطان
قارئاً وهو صورة القرآن
وهو في العالمين كالميزان^(١)
وبقلب البحار كالطوفان^(٢)
في انسجام كسورة الرحمن^(٣)

هو في قوله السديد وفي الفعل
فيه قدسيّة إلى جبروت
إن تُولف هذي العناصر كان
هو تُربّ سما يجاور جبريل
لست تدري بسرّه فتراه
فيه عزمٌ على القضاء دليل
هو برد الندى بقلب شقيق
ليله والنهار لحنّ حياة

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ:

مُسرّج عين هزبرٍ في الظلام
ليس للحرّ على الأرض حمام

يبلغ المنزل سارٍ لا ينام
إنما للعبد مُنمّى راحة

□ ويقول عن الرجل العظيم:

وهو في البُغض عميق
ومن الحشر طليق

هو في الحب عميق
وهو في المجمع خالٍ

(١) يقول إقبال في مواضع كثيرة: إن عزم المؤمن من القدر أو هو مشير على القضاء والقدر، وإن رأيه وعمله ميزان الصلاح والفساد في الحياة. وهنا يقول: إن ميزان الأعمال في الدارين الدنيا والآخرة.

(٢) هو تارة كالنّدى يبرد قلب الشقائق، وتارة كالموج الهائج في البحر.

(٣) «ديوان إقبال» (٥٣/٢).

مثلُ شمعِ الحفل؛ في الحفل وحيد ورفيق^(١)

مثلُ شمسِ الصُّبح؛ فِكْرٌ فيه نُورٌ وبريقٌ

لفظه حرٌّ يسيرُ لكنِ المعنى دقيقٌ

نظرٌ فيه سديدٌ عن بني العصر سحيق^(٢)

□ ويقول:

لن يكونَ الشَّاهينُ عبدَ بُعَاثٍ الحفظِ الأبدانِ رُوحِي أُبِيرُ؟^(٣)

□ وعن علوِّ همّةِ الزاهد في الدنيا يقول:

تُذِلُّ الحوائِجُ صيدَ الرِّجالِ ترى الليثَ كالثعلبِ المحتقرِ

إِنِ الذَّاتُ أَيَّدَهَا فَقَرَّهَا فعندي وعندك مُلكُ البَشَرِ

قِوَامُ الشُّعوبِ بِحُرِّ فقيرِ إلى سُدَّةِ المُلْكِ ما إِنَ نظر^(٤)

□ ويقول لصريعِ الفرنجة دنيَّ الهمّة:

مِنْ تَجَلَّى الفرنجِ نلتَ وجودًا فهمُ منك هيكلاً قد أقاموا

ومن (الذات) هيكَلُ التُّرْبِ خالٍ أنتَ غِمدٌ مُذَهَّبٌ لا حِسامُ

﴿﴾

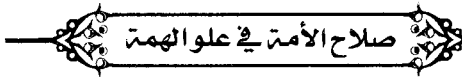
ووجودُ الإلهِ عندك ريبٌ وأرى الريبَ في وجودك أنتا

(١) يكون في جمع من الناس كأنه وحده، له فكره ونظره. مثل الشمعة في الحفل رفيقة الحاضرين، ووحيدة بحرقتها ونورها.

(٢) «ديوان إقبال» (١٠٣/٢).

(٣) «ديوان إقبال» (١٢٥/٢).

(٤) المصدر السابق (١٢٦/٢).



إِنَّمَا الْكَوْنُ جَوْهَرُ (الذات) يُجَلَّى فانظرن أَيَّ جَوْهَرٍ قَدْ دَفْتَنَا^(١)
﴿٣٤٠﴾

□ ويقول عنه أيضًا:

هَوَتْ فِي الْفَخِّ رَجُلَاهُ ^(٢)	بِلَادَيْنِ وَلَا تَيْنِ
«لَا غَلَابَ إِلَّا هُوَ»	دَوَاءُ الْعَاجِزِ الْمَغْلُوبِ
رَجَتْ فِي الْغَرْبِ عَيْنَاهُ	وَصَيَّادُ الْمَعَانِي مَا
غَزَالُ الْمِسْكِ خَلَّاهُ ^(٣)	فَضَاءٌ مُوْنَقٌ لَكِنْ
بَدَمَعَ الْعَيْنِ أَوَاهُ ^(٤)	يَقُومُ ذَاتَهُ سَحَرًا
عَلَى الْأَمْوَاهِ تَلْقَاهُ	فَهَذَا الزَّهْرُ أَحْسَنُهُ
ح وَالْأَلْوَانِ مَعْنَاهُ ^(٥)	وَدِيرُ الْكَوْنِ، زُونُ الرَّيِّ
وَذُو الْإِيمَانِ مَوْلَاهُ ^(٦)	عَلَى الْكُفَّارِ مُسْتَوِلٌ

□ أَمَّا عَالِي الْهَمَّةِ عِنْدَهُ فَهُوَ:

كَالْعَقَابِ صَيْدُهُ لِلنَّيِّرَيْنِ فِي السَّمَاءِ طُوفُهُ بِالْخَافِقَيْنِ^(٧)

(١) «ديوان إقبال» (٢/٣٦).

(٢) يشير إلى مصطفى كمال وأتباعه سياسة لا دينية، واتخاذ الحروف اللاتينية للغة التركية.

(٣) لا يجد صياد المعاني في أوربة غزالاً مسكياً يصيده فإنما هي فضاء لا صيد فيه. أي: لا يجد المعاني الجميلة التي يحبها.

(٤) الأواه: المتعبّد، الرقيق، كثير الدعاء.

(٥) هذا العالم الذي هو معرض لأصنام من الألوان والروائح، يستعبد الكفر، ولكنه مسخر للمؤمن.

(٦) «ديوان إقبال» (٢/١٢٩).

(٧) المصدر السابق (٢/١٦٢). والنيران: الشمس والقمر. والخافقان: المشرق والمغرب.



□ وعن عالي الهمة يقول:

قد عَلَا منزلة الشمس مقامًا ضاربًا في مسبح النجم خيامًا

□ ويقول عن عالي الهمة مشرق الإيمان قدسيّ الضمير:

لا تحاولْ درك المعالي بكأووس وخسرو في غابر الأزمان

طُفْ إذا شئتْ حَوْلَ ذاتِ: حرًّا لا تَطُفْ بالسَّريِر والإيوان

قَدْ تَبَاعَدْتَ عَنْ مَقَامِكَ حَتَّى صِرْتَ فِي ذِلَّةِ الْأَسِيرِ الْعَانِي

لَا تَسِرْ وَاهِنَ الْخُطَى كِبَاثِ الطَّيْرِ بَيْنَ الطُّلُولِ وَالْجُذُرَانِ

كُنْ نَظِيرَ الشَّاهِينَ فِي الْقِمَمِ الشَّمَاءِ لَا فِي مَسَارِبِ الْوُدَيَانِ

تَتَحَرَّى الطُّيُورُ عِنْدَ بِنَاءِ الْعُشِّ أَعْلَى الْفُرُوعِ فِي الْبُسْتَانِ

لَسْتَ دُونَ النَّسُورِ بِأَسَا فَحَاوِلْ دَارَةَ النَّجْمِ أَوْ ذُرَى كَيُوانِ

مِنْ مِهَادِ الثَّرَى إِلَى التَّسْعَةِ الْأَفْلَاكِ فَوْقَ الزَّمَانِ فَوْقَ الْمَكَانِ

غَيْرِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ وَعَمَّرَ فِيهِ دُنْيَا جَدِيدَةَ الْبُنْيَانِ

وَالَّذِي يَنْشُدُ الْجِهَادَ فَنَاءً فِي رِضَا الْحَقِّ وَهُوَ مَاضِي الْجَنَانِ

هُوَ سِرُّ الْأَقْدَارِ وَهُوَ قَضَاءُ الْحَقِّ فِي الْمُمْكِنَاتِ وَالْإِمْكَانِ

فَتَمَثَّلْ نِضَالَ أَسْلَافِكَ الْأَمْجَادِ نَحْوَ الْعُلَى بِغَيْرِ تَوَانِي

وَتَدَبَّرْ كَيْفَ اسْتَهَانُوا بِبَذْلِ الرُّوحِ وَالْمَالِ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ

أَظْهَرَ الْجَوْهَرَ الْكَرِيمَ مِنَ الْأَصْدَافِ وَاجْعَلْهُ بَادِيًا لِلْعَيَانِ

وَتَحَرَّرْ مِنْ هَيْكَلِ الْمَاءِ وَالطِّينِ وَمِنْ ظُلْمَةِ الْهَوَى وَالْهَوَانِ

وَاجْعَلِ الْفُطْرَةَ النَّقِيَّةَ نِبْرَاسًا لِعَيْنِكَ بَيْنَ قَاصِ وَدَانِ

كُلُّ مَنْ ضَاعَ حَظُّهُ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ بَيْنَ الْجُودِ وَالنَّسِيَانِ
 لَمْ يَنْلُ طَوْلَ عُمْرِهِ مِنْ جَمَالِ الْحَقِّ غَيْرَ الْإِبْعَادِ وَالْحِرْمَانِ
 مَبْدَأُ الْعِشْقِ وَالصَّبَابَةِ قَهْرٌ وَخُطُوبٌ مَوْصُولَةُ الْأَشْجَانِ ^(١)
 وَهُوَ مَنْ بَعْدَهَا دَلَالٌ وَتِيَهُ بَيْنَ طَيْبِ الْمُنَى وَصَفْوِ الْأَمَانِ
 وَيَعُودُ الْمَحَبُّ بِالْقُرْبِ مَحْبُوبًا وَيَنْسَى لَوَاعِجَ الْهَجْرَانِ
 الْوَجُودُ الْأَسْمَى هُوَ الْمُؤْمِنُ الْحَرُّ الْأَبْيُّ الْوَفِيُّ فِي كُلِّ آنٍ
 وَبَقَايَا الْوَجُودِ فِيهَا سِوَاهُ مَظْهَرٌ حَائِلٌ وَظِلٌّ فَاِنْ
 حِينَ يَدْعُو أَنْ لَا إِلَهَ سِوَى اللَّهِ الْقَدِيرِ الْمُهَيِّمِ الدِّيَّانِ
 يُذْعَنُ الْكَوْنُ وَالْمَكَانُ وَلَا يُشْرَقُ إِلَّا بِفَوْزِهِ الْقَمَرَانِ ^(٢)

□ ويقول عن العرب المسلمين عِلَاةُ الْهَمَمِ:

يَا لَهَا مَنْ ذَكَرَى لِأَمْجَادِ الْعَرَبِ	آيَةُ كُبْرَى وَتَارِيخُ عَجَبِ
حَرَّرُوا أَقْدَارَهُم بِالْعَزَمَاتِ	فِي جَمِيعِ الْكَوْنِ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ
فَارَزَدَهُمْ مِنْ نُورِهِمْ كُلُّ مَكَانٍ	وَتَغْنَى بِأَسْمِهِمْ كُلُّ زَمَانٍ
لَمْ تَدُمْ عُرَى ^(٣) وَلَمْ تَبْقَ مَنَاةُ ^(٤)	هَوَتْ الْأَصْنَامُ تَحْتَ الضَّرْبَاتِ

(١) الأشجان: الهموم والأحزان.

(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٥٠ - ٣٥١).

(٣) عُرَى: صنم كان لبني كنانة وقريش، أو شجرة من السمر كانت لغطفان بنوا عليها بيتًا وجعلوا يعبدونها، فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه فهدم البيت وأحرق السمرة..

(٤) أحد أصنام العرب في الجاهلية.

حِينَ نَادَى الْمُؤْمِنُونَ (الله أكبر)
أَيُّ سَيْلٍ هَادِرٍ عَمَّ الصَّحَارَى
هَؤُلَاءِ الْعَرَبُ الصَّيْدُ الْأَبَاهِ
شَعْلَةٌ مِنْ نُورِهَا الْحَقُّ أَضَاءُ
قَدْ أَبَادُوا كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ
وَسَمَوْا فَوْقَ الدَّرَارِيِّ مَنَازِلًا
بَيْنَمَا الْعَالَمُ كَالْعَظْمِ الرَّمِيمِ
أَنْشَأُوا دُنْيَاهُ فِي خَلْقٍ جَدِيدٍ
أَيَقِظُوا الدُّنْيَا بِتَكْبِيرِ الْأَذَانِ
كُلُّ خَيْرٍ يُرْتَجَى مِنْ غَرْسِهِمْ
كُلُّ رَوْضٍ بِالْمَعَالِي مُخْصَبٌ
قَدْ أَزَالَ الْعُرْبُ مِنْ لَوْحِ الْقُلُوبِ
فَأَقَامُوا فِي شَمَالٍ وَجَنُوبِ
فَتَرَى فِي أُمَمِ الْغَرْبِ الْعَبِيدِ
أَعْلَنُوا الْحَرْبَ عَلَى سَادَاتِهِمْ

يَا مُقِيمًا فِي زَوَايَا الْحُجُرَاتِ
إِنْ تَكُنْ فِي مِثْلِ نَرَانِ الْخَلِيلِ

(۱) لا: أى لا إله إلا الله.

والذي تبصره حَوْلَ الْفَضَاءِ
كُلُّ حَرٍّ فِي يَدَيْهِ سَيْفٌ (لا) (١)
فهو للعلياء دَوْمًا فِي ضُغُودِ
أَيْهَا الشَّادِي بِقِرَآنِ كَرِيمِ
قُمْ وَاسْمِعْهُ لِكُلِّ الْعَالَمِينَ



عِشْ وَلَوْ يَوْمًا عَزِيزَ الْمَطْلَبِ
مَنْزِلُ الشَّاهِينَ فِي أَوْجِ السَّحَابِ
لَمْ يَزَلْ فِي الرَّوْضِ ظِلٌّ وَثَمَرٌ
كُنْ كَحَدِّ السَّيْفِ فِي صَدَقِ الْمَضَاءِ
إِنَّ فِي رُوحِكَ سَيْلًا كَالْعُبَابِ
انْدِفَاعُ السَّيْلِ اثْبَاتُ الْبَقَاءِ
أَنَا لَمْ أَسْأَلْكَ إِلَى الْفِقْهِ سَبِيلًا
لَمْ أَكُنْ فِي الْفَقْرِ ذَا فَهْمٍ دَقِيقِ
فِكْرَةٌ جَاشَتْ بِهَا الْقَلْبُ اضْطِرَابًا
كُنْتُ فِي الدِّينِ حَدِيدَ الْبَصَرِ
وَانْحَلْتُ وَاحِدَةً بَيْنَ مِائَاتِ

(۱) لا: أى لا إله إلا الله.

(۲) «دیوان اقبال» (۲/ ۳۵۶ - ۳۵۸).

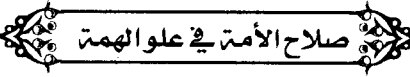
فَاعْتَنِمْ مَنْ فَاقَتِي حَظًّا يَسِيرًا فَعَسَى أَلَا تَرَى مِثْلِي فَقِيرًا
 أَيْهَا الشَّادِي بِقِرَآنِ كَرِيمٍ وَهُوَ فِي رَكْنٍ مِنَ الْبَيْتِ مُقِيمٍ
 قُمْ وَأَبْلِغْ نَوْرَهُ لِلْعَالَمِينَ قُمْ وَأَسْمِعْهُ الْبَرَايَا أَجْمَعِينَ
 إِنْ تَكُنْ فِي مِثْلِ نِيرَانِ الْخَلِيلِ أَسْمَعَ النَّمْرُودَ تَوْحِيدَ الْجَلِيلِ
 مَنْ لَهُ مِنْ ثَرْوَةِ الْهَادِي نَصِيبٍ فَهُوَ مِنْ جَبْرِيلَ فِي الدُّنْيَا قَرِيبٍ
 يَا غَرِيبًا عَنْ مَقَامِ الْمُصْطَفَى عُدْ إِلَى الْحَقِّ تَجِدْ نُورَ الصِّفَا (١)

﴿٣٤٥﴾ ﴿٣٤٥﴾ ﴿٣٤٥﴾

□ وعن الرجل الحرّ من كل قيود الأرض، عالي الهمّة يقول:

فَوْقَ مَسْرِ النَّجْمِ لِلْحَرِّ هَدَفٌ وَرَدُّهُ فِي كُلِّ حِينٍ لَا تَخَفُ
 آمِنٌ فِي سِلْمِهِ فِي حَرْبِهِ رَأْسُهُ فِي الْكَفِّ لَا فِي جَبِيهِ
 عَرَفَ اللَّهُ فَلَمْ يَرْهَبْ سِوَاهُ كَيْفَ يَخْشَى الْخَلْقَ مَنْ خَافَ الْإِلَهَ
 لَا يَرَى قَطُّ مَعَ الْبُؤْسِ الْمُرِيرِ عَبْدَ سُلْطَانٍ وَلَا ظِلَّ أَمِيرٍ
 جَمَلٌ فِي الْبَيْدِ مَوْصُولَ الصِّيَامِ يَحْمِلُ الْأَثْقَالَ وَالشُّوكَ طَعَامِ
 هُوَ نَبْضٌ فِي عُروِقِ الْأَمَلِ وَهُوَ سَعْيٌ فِي طَرِيقِ الْعَمَلِ
 مَنْ عَلَا تَكْبِيرُهُ مِنْ غَيْرِ تَاجٍ يُلْزَمُ التَّيْجَانَ تَقْدِيمَ الْخَرَجِ
 قَدْ ذَكَّتْ نِيرَانُنَا مِنْ جُحْرِه وَجَرَتْ أَنْهَارُنَا مِنْ خَمْرِهِ
 جَنَّةُ الْوَرْدِ شَذًا مِنْ سِخْرِهِ شَعْلَةُ الْمَجْدِ سَنَا مِنْ فِكْرِهِ

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٦٢).



راعشاً من سَهمِ عُرْيَانٍ فَقِيرٍ
 وهو في الدِّينِ شُهُودٌ وَنَظَرُ
 وهو في الدَّارِ وفي طَيْبِ الْمَجَانِي
 نَحْنُ لِلْغَيْرِ نَبِيعُ الْمَسْجِدَا
 كَوَثَرًا عَذْبًا بهِ الْوَرْدُ صَفَا
 في جَبِينِ الْحَرِّ تَقْدِيرُ الْأُمَمِ
 وَاتَّخَذْنَاهُمْ لَدَى الْجُلَى عَتَادَا
 وَجَعَلْنَا وَدَّهَمَ قَبْلَتَنَا
 رِزْقُهُ مِنْ يَدِ جَبَّارِ السَّمَاءِ
 لَغَيْرِ اللَّهِ لَمْ يَخْنِ الْجَبِينِ
 ثُمَّ يَأْسُ ثُمَّ قَبْرٌ وَظِلَامُ
 مَوْتُهُ إِحْدَى مَقَامَاتِ الْحَيَاةِ
 وَنَرَى الْمُمَكْنَ فِي حُكْمِ الْمُحَالِ
 لَا يُضِيعُ الْعَمَرُ فِي زَيْفِ الْخِيَالِ
 حَوْلَ الصَّخْرِ بِحَارًا جَارِيَهُ
 إِنْ تُرِدْ خَيْرًا فَكُنْ مِنْ صَحْبِهِ
 أَهْدَمَ الدَّارَ وَكُنْ صَاحِبَ دَارِ

وَتَرَى فِي قَصْرِهِ رَبَّ السَّرِيرِ
 شَانُنَا فِي الدِّينِ لَا يَعْدُو الْخَبَرَ
 نَحْنُ عِنْدَ الْبَابِ نَسْتَجِدِي الْأَمَانِي
 أَصْبَحَ الدَّيْرُ لَدِينَا مَقْصِدَا
 وَهُوَ يُسْقَى مِنْ يَمِينِ الْمُصْطَفَى
 فِي ضَمِيرِ الْحَرِّ تَكْبِيرُ الْإِلَهِ
 نَحْنُ لِلْإِفْرَنْجِ أَسْلَمْنَا الْقِيَادَا
 وَابْتَغَيْنَا عَنْهُمْ عِزَّتَنَا
 وَشِعَارُ الْحَرِّ عِزٌّ وَإِبَاءُ
 فَلْغَيْرِ اللَّهِ مَا مَدَّ الْيَمِينِ
 مَتَعَةُ الدُّنْيَا لَنَا كُلُّ الْمَرَامِ
 هُوَ فِي الْحَقِّ جِهَادٌ وَثَبَاتُ
 إِنَّنَا نَبْنِي قُصُورًا فِي الْخِيَالِ
 وَهُوَ بِالْأَعْمَالِ فِي كُلِّ مَجَالِ
 لَوْ رَمَى شَمَّ الْجِبَالِ الْعَاتِيَهُ
 اجْتَنِبْ صُحْبَتَنَا وَاشْعَدْ بِهِ
 الزَّمِ الْحَرَّ وَدَعْ أَهْلَ الْبَوَارِ

صحبة الحرِّ إلى العلياء باب
 صحبة الحرِّ تنيرُ العالم
 قُرْبُهُ للعزِّ أصفى منهل
 هُوَ يَوْمَ السَّلْمِ في أوطانه
 بجديد الفكرِ يحي عَصْرَهُ
 وهُوَ يَوْمَ الحَرْبِ في مَيدانها
 سيفُهُ يحفرُ فيها قَبْرَهُ
 ليس زَرْعُ القلبِ في ماءٍ وطن
 إن أردتَ العيشَ حُرًّا صافيا
 هي خيرٌ لكُ من ألفِ كِتَاب
 وَلَقَدْ تَخَلَّقَ مِنْهُ آدَم
 لكُ في البَحْرِ غِنَى عن جَدَوَل
 آيَةُ التَّغْيِيرِ في عُمُرَانِه
 مِثْلَمَا يَنْشُرُ رَوْضَ عَطْرَهُ
 ثَوْرَةُ البُرْكَانِ في نيرانها
 أو يَتمُّ اللهُ فيها نَصْرَهُ
 هينًا إلَّا لأَصْحَابِ اليقين
 فالتزم في الدَّهرِ حُرًّا هاديًا^(١)

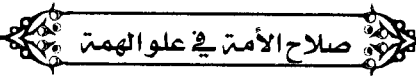
□ وقد أعاد صياغتها الشيخ الشاعر الصاوي شعلان في رباعياتٍ فقال:

أَقْبَلَ الحُرُّ على يومِ الفِداء
 وكانَ الوَحْيَ لِقَاءَ النِّداء
 ومضى يرمي على النَجْمِ الهَدَفَ
 من سماءِ الله أَقْدِمَ لا تَخَفْ

﴿﴾

أَشْرَقَ التَّوْحِيدُ نَوْرًا في هداه
 أَتَرَى مَنْ لَمْ يَخَفْ غَيْرَ الإِلهِ
 وسرى التَّحْرِيرُ مِنْهُ في الضَّمِيرِ
 يَرْهَبُ السُّلْطَانَ أو يَخْشَى الأَمِيرَ

﴿﴾



روحُه تكشفُ أسرارَ الخلود عن حياةٍ ما لها في الدَّهرِ مَوْتُ
يرسلُ التكبيرَ مِنْ قلبِ الوجود لغةٌ تُغْنِيهِ عن حَرْفٍ وَصَوْتُ
(٣٤٨) (٣٤٨) (٣٤٨)

سَلْ ملوكَ الأرضِ عن دُنيا الغُرور في الملاهي خَلَفَ أَسْتارِ الحرير
زَلَزَلَتْهُمْ بين أبراجِ القصور ضربةٌ مِنْ سَهْمِ غُرِيانٍ فقير
(٣٤٨) (٣٤٨) (٣٤٨)

ضَرَبَ البَحْرَ كموسى بعصاه ورمى الصَّخْرَ حُطامًا مِنْ زجاج
ذلكَ الأَوَابُ في ثوبِ تقاه ألْزَمَ التَّيجانِ تقديمَ الحَرَّاج
(٣٤٨) (٣٤٨) (٣٤٨)

قَدْ جَرَتْ أنهارُنَا مِنْ بَحْرِهِ وأضاءَتْ نارُنَا مِنْ خَمْرِهِ
بِسْمَةِ الوَرْدِ شذا مِنْ عَطْرِهِ شَعْلَةُ المَجْدِ سَنَا مِنْ فِكْرِهِ
(٣٤٨) (٣٤٨) (٣٤٨)

شَأْنُنَا في الدِّينِ لا يعدو الخَبْرَ وهو في الدِّينِ شهودٌ ونَظَرُ
نحنُ عندَ البابِ في ظِلِّ الشَّجَرِ وهو في الدَّارِ وفي مَجْنَى الثَّمَرِ
(٣٤٨) (٣٤٨) (٣٤٨)

لبنِي الإفرنجِ في الدُّنيا عَيْدُ في قيودِ من حريرٍ أو حَدِيدِ
كَمْ تَغْنَى بمزايا بايزيد ذورِياءٍ وهو للوردِ مُرِيدِ
(٣٤٨) (٣٤٨) (٣٤٨)

في حديثِ المُصطفى شمسُ الهدى كلُّ أرضٍ مَسْجِدٌ للمؤمنين
كيف تبني فوق أرضٍ مَسْجِدًا إنْ تركتِ الأرضَ للمستَعْمِرِينَ
(٣٤٨) (٣٤٨) (٣٤٨)



لَيْسَ حُرًّا مَنْ يُرَى مُسْتَعْبَدًا لِسَوَى مَنْ فِي يَدَيْهِ رِزْقُهُ
سَيِّدٌ مَنْ لَيْسَ يَرْضَى سَيِّدًا مَا خَلَا رَبِّي فَكُلُّ عَبْدُهُ

﴿٣٤٨﴾ ﴿٣٤٩﴾ ﴿٣٥٠﴾

فِي ضَمِيرِ الْحُرِّ تَكْبِيرُ الْإِلَهِ فِي جَبِينِ الْحُرِّ تَقْدِيرُ الْأُمَمِ
مَوْتُهُ أَعْلَى مَقَامَاتِ الْحَيَاةِ تَرْفَعُ الدُّنْيَا لِذِكْرِهِ الْعَلَمِ

﴿٣٤٨﴾ ﴿٣٤٩﴾ ﴿٣٥٠﴾

هُوَ يَوْمَ السَّلَامِ فِي نَهْضَتِهِ بِيَدِ الْإِصْلَاحِ يَنْبِي عَصْرُهُ
وَيُذِيعُ الْخَيْرَ فِي أُمَّتِهِ مِثْلَمَا يَنْشُرُ رَوْضَ عِطْرِهِ

﴿٣٤٨﴾ ﴿٣٤٩﴾ ﴿٣٥٠﴾

وَهُوَ يَوْمَ الْحَرْبِ فِي سَاحَتِهِ سَيْفُهُ يَخْفِرُ فِيهَا قَبْرُهُ
يَتَحَدَّى الْمَوْتَ فِي وَثْبَتِهِ أَوْ يُتَمُّ الْعَزْمُ فِيهَا نَصْرُهُ

﴿٣٤٨﴾ ﴿٣٤٩﴾ ﴿٣٥٠﴾

إِنَّ غَرْسَ الْحَقِّ فِي نُورِ الْقُلُوبِ غَيْرُ شَأْنِ الزَّرْعِ فِي مَاءِ وَطِينِ
فَالْتَمَسْ لِلْمَجْدِ أَحْرَارَ الشُّعُوبِ إِنَّهُمْ فِي الدَّهْرِ أَعْلَامُ الْيَقِينِ^(١)

﴿٣٤٨﴾ ﴿٣٤٩﴾ ﴿٣٥٠﴾

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ:

وَأَيَّةُ أُمَّةٍ تَرْجُو الْأَمَانِي بِلا جَهْدٍ وَتَمْضِي فِي رُكُودِ^(٢)

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٦٤ - ٣٦٦).

(٢) الرُّكُود: الهدوء والسكون.

يكون مصيرها عَدَمًا ومَحْوًا وينسى نَقْشها سَفَرُ الوجود

□ ويقول عن القلب عالي الهمة:

فيا مَنْ هَامَ بالدُّنيا متاعًا وأصبح هُمُّه شبعًا ورِيًّا^(١)

تَطْلُبُ في حُضُورِ الحقِّ قلبًا وفيَّ صادقُ الإيمانِ حَيًّا

﴿٣٥٠﴾

فهذا القلبُ للدُّنيا سراجٌ له أُمُّ الخليفةِ في انتظار

وهذا القلبُ مَعْدِنُهُ ترابٌ وجَوْهرُهُ فريدٌ في الدَّراري^(٢)

﴿٣٥٠﴾

يفوقُ السَّبْعَةَ الأفلاكَ قَدْرًا بهِمَّتِه ولا يالو رُقِيًّا

يقيمُ على الثَّرَى وله أمانٌ إلى العلياء أدناها الثُّرَيَّا^(٣)

﴿٣٥٠﴾

وفي حربِ ضروسٍ^(٤) كلَّ حينٍ مع التَّاريخِ مُتَّصلِ النُّضالِ

بِضَرْبَتِهِ الجبالُ تصيرُ عَهْنًا وتُرْهَبُهُ الضراغمُ في الجبالِ

﴿٣٥٠﴾

ترى لِشعوره المشبوبِ نارًا تُوقِدُ مِنْ حرارتها ذُكَاءَ

له مَّاسِوى النُّورِ خبْزٌ وَمِنْ غَيْرِ الطَّعامِ له غَدَاءُ

﴿٣٥٠﴾

(١) رِيًّا: مصدر رَوِيَ، أي: شَرِبَ.

(٢) الدراري، جمع الدُرِّي: نسبة إلى الدُرِّ في حُسْنِه وبهائه.

(٣) الثُّرَيَّا: مجموعة النجوم.

(٤) حرب ضروس، أي: شديدة مُهْلِكَة.



حضورُ الحقِّ يملؤه يقينًا فمنه الخوفُ مخضًا والرجاء
شهودُ الحقِّ إنْ هُوَ غَابَ عنه فليسَ له على الدُّنيا بقاءُ

﴿٣٥١﴾

طيفِ الجلواتِ والخلواتِ طُرًّا يضيءُ الكونَ بالرأيِ المنيرِ
وما للعشقِ في سُكْرِ وَصْحُو دليلٌ غَيْرُ أوابٍ فقيرِ

﴿٣٥١﴾

فصاحبٌ منْ له قلبٌ عظيمٌ لعلَّكَ تدركُ الأمرَ العظيمَا
وُلِدْتَ على مهَادِ الدُّلِّ عبداً فجاهدْ ثمَّ مُتْ حُرّاً كريماً^(١)

﴿٣٥١﴾

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ:

قَدْ بَلَوْتُ الرِّقَّ^(٢) مُنْذُ الْإِبْتِدَاءِ لَمْ يَكُنْ مَهْدِي فِي أَرْضِ الْحَرَمِ
مِنْ رَسُولِ اللَّهِ يَعْرُونِي الْحَيَاءُ^(٣) حِينَ يَدْعُو بِاسْمِهِ الْغَالِي فَمِي

﴿٣٥١﴾

لَكَ قَلْبٌ وَمَعَ الْقَلْبِ ضَمِيرُ أَمْ غَدَا صَدْرُكَ لِلْأَصْنَامِ دَيْرًا^(٤)
أَنْتَ لِلْغَاصِبِ مُحْكُومٌ أَسِيرُ تَحْتَ حُكْمِ الْغَيْرِ لَنْ تَصْنَعَ خَيْرَا

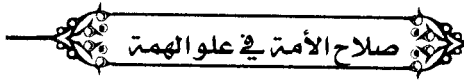
﴿٣٥١﴾

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٧٢ - ٣٧٣).

(٢) الرِّقُّ: العبودية.

(٣) يعروني الحياءُ: يُصيبني الحياءُ.

(٤) دَيْرًا، مصدر من دَارَ يدورُ، أي: طَافَ حوله.



تَدَّعِي الْحَبَّ لَخَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ أَكْذَبُ الْأَقْوَالِ مَا لَمْ يَبْدُ فِعْلاً
وَإِذْ لَمْ يَتَّبِعِ الْقَوْلَ اقْتِدَاءً لَمْ يَكُنْ لِلْحَبِّ أَوْ لِلْقُرْبِ أَهْلاً

﴿٣٥٢﴾

لَذَّةُ الْإِيمَانِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ قَلَّ أَنْ يُذَرِكَهَا عَبْدٌ ذَلِيلٌ
مُسْلِمٌ مُسْتَسْلِمٌ لِلطَّامِعِينَ آزَرِي^(١) حَادٌّ عَنْ دِينِ الْخَلِيلِ

﴿٣٥٢﴾

صَلَوَاتُ الْحَرِّ بَعَثٌ لِلشُّعُورِ فَهِيَ مِعْرَاجٌ إِلَى الْعَيْشِ الْكَرِيمِ
وَصَلَاةُ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ حُضُورٍ عَادَةٌ جَوْفَاءٌ فِي رَسْمٍ قَدِيمِ

﴿٣٥٢﴾

إِنَّ لِلْأَحْرَارِ فِي الْعِيدِ السَّعِيدِ مَظْهَرُ الْعِزَّةِ فِي دُنْيَا وَدِينِ
وَلَدَى الْأَسْرَى وَفِي عَيْشِ الْعَبِيدِ يُصْبِحُ الْعِيدُ هَجْوَ الْمُؤْمِنِينَ

﴿٣٥٢﴾

إِلَى الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ:

□ قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي حَالٍ: «أَيُّهَا الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ! الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لِبَادِيَتِهَا
وَصَحْرَائِهَا الْخُلُودَ، مَنْ الَّذِي سَمِعَ الْعَالَمَ مِنْهُ نَدَاءَ «لَا قِيَصَرَ وَلَا كَسْرَى»
لأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي التَّارِيخِ، وَمَنْ الَّذِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِالسَّبْقِ إِلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؟ مَنْ
الَّذِي أَطْلَعَهُ عَلَى سِرِّ التَّوْحِيدِ، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَمَا
هِيَ الْبَقْعَةُ الَّتِي اشْتَغَلَ فِيهَا هَذَا السَّرَاجُ الَّذِي أَضَاءَ بِهِ الْعَالَمُ؟ هَلِ الْعِلْمُ

(١) آزَرِي: نسبة إلى آزر والد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

والحكمة إلا فتاتٌ مائدتكم، وهل قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] إلا وصف حالكم، إِنَّ نَفْسَ ذَلِكَ الْأُمِّي أَعَادَ عَلَى هَذِهِ الصَّحْرَاءِ الْخُصْبَ والنمو، فأنبتت الأزهار والرياحين، إِنَّ الْحَرِيَّةَ نَشَأَتْ فِي أَحْضَانِهِ، وَإِنَّ حَاضِرَ الشُّعُوبِ لَيْسَ إِلَّا وَلِيدُ أُمِّهِ، إِنَّ الْجَسَدَ الْبَشَرِي كَانَ بِلَا قَلْبٍ وَرُوحٍ، فَأَعْطَاهُ الْقَلْبَ وَالرُّوحَ، وَكَشَفَ اللَّثَامَ عَنْ جَمَالِ وَجْهِهِ، إِنَّهُ حَطَّمَ كُلَّ صَنَمٍ قَدِيمٍ، وَأَفَاضَ الْحَيَاةَ عَلَى غَصَنِ ذَاوٍ مِنْ أَغْصَانِ الْعِلْمِ وَالْمَدْنِيَّةِ، وَأَنْجَبَ أَبْطَالًا وَقَادَةً مُؤْمِنِينَ، أَقَامُوا الْمَعَارِكَ الْفَاصِلَةَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَتَارَةً يَدُوي الْأَذَانُ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ، وَتَارَةً يَتَجَلَّى الْأَذَانُ بِقِرَاءَةِ «الْصَّافَاتِ» بَيْنَ صَلِيلِ السُّيُوفِ وَصَهِيلِ الْخَيُْولِ، إِنَّ سَيْفَ الْبَطْلِ الْمَغْوَارِ كَصَلَاحِ الدِّينِ الْأَيُّوبِيِّ، وَنَظَرَةُ الزَّاهِدِ الْأَوَابِ كَأَبْيِ يَزِيدِ الْبُسْطَامِيِّ مِفْتَاحَانِ كُنُوزِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

إِنَّ الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ يَجْتَمِعَانِ تَحْتَ لَوَائِهِ، إِنَّ الْعِلْمَ، وَالْحِكْمَةَ، وَالشَّرْعَ، وَالدِّينَ، وَالْمَلِكَ وَالْإِدَارَةَ، وَلَوْعَةُ الْقُلُوبِ مُقْتَبَسَةٌ مِنْ نُورِهِ، وَلَيْسَتْ «الْحَمْرَاءُ» فِي غَرْنَاطَةِ، وَقَصْرِ «التَّاجِ» فِي آكْرِهِ ^(١)، اللَّذَانِ خَضَعَ لِحِمَاهُمَا وَجَلَاهُمَا كِبَارُ الْفَنَانِينَ النَّاقِدِينَ، وَعِظْمَاءُ الْعِبَادِ الزَّاهِدِينَ، لَيْسَ إِلَّا صَدَقَةٌ مِنْ صَدَقَاتِ بَعْتَتِهِ، وَمُظْهِرًا مِنْ مَظَاهِرِ عِبْقَرِيَّةِ أُمَّتِهِ، إِنَّ بَعْضَ مَظَاهِرِهِ تَجَلَّى فِي سَمَوِّ ذَوْقِ أُمَّتِهِ، وَسَلَامَةِ تَفْكِيرِهَا، وَجَمَالِ فَنَاهَا، أَمَّا بَاطِنُهُ فَقَدْ تَقَاصَرَ عَنْ إِدْرَاكِهِ كِبَارُ الْعَارِفِينَ.

لَقَدْ كَانَ الْإِنْسَانُ حَفَنَةً مِنْ تَرَابٍ، وَقَبْضَةً مِنْ أَشْلَاءٍ وَعِظَامٍ، لَا يَدْرِي مَا الْكِتَابُ، وَلَا الْإِيمَانُ، فَعَرَّفَهُ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَأَذَاقَهُ لَذَّةَ الْعِبَادَةِ

(١) تاج محل الذي بناه جهانكير، ويُعدُّ اليوم من العجائب السبعة في العالم.

والإحسان، فجزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء».

□ ثم يقول رَحِمَهُ اللهُ: «أيها العرب قد منَّ الله عليكم؛ إذ جعلكم مثل السيف البتار أو أحدَّ منه، وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصَّحراء، تركبون عليها، وتظعنون بها، ثم انعكست الآية، فسخر الله لكم المقادير، فضلاً عن الإبل، فأصبحتم من مالكي أعنتها، فلو أقسمتم على الله لأبرَّكم، وهنالك دوت تكبيراتكم وصلواتكم، وزممت جلبه حروبكم ومغازيكم بين الخافقين، فارتجَّ بها ما بين الشرق والغرب، فما أحسن تلك المغامرات، وما أجمل تلك الغزوات».

وبعدما يمدحهم الشاعر، ويذكر حماسهم الإسلامية، وغضبته المضرية في الله ورسوله، ويبيدي فرحه وسروره، يقف برهة، يملكه الحزن والتألم بما يرى من خمود العرب بعد النشاط، والإحجام بعد الإقدام، والفرقة بعد الوحدة، والعبودية بعد السيادة، والاتباع بعد القيادة، ويقبل إليهم مخاطباً معاتباً، ويقول: «أسفاً على هذا الخمود والجمود، أيها العرب! ألا ترون إلى الأمم الأخرى، كيف تقدَّمت وسبقت! أما أنتم فما قدَّرتُم قدَّر هذه الصحراء التي نشأتُم فيها، وهذه الحرية التي ورثتموها، كنتم أمةً واحدةً، أمةً الإسلام، فصرتم اليوم أمماً، وكنتم حزباً واحداً، حزب الله، فأصبحتم أحزاباً، لقد فرقتُم جمعكم، ومزقتُم شملكم، وانقسمتم على أنفسكم».

□ اعلموا أيها السادة! أن من ثار على شخصيته وكرامته، وفقد الثقة بنفسه مات، ومُحي من الوجود، ومن قرَّ من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء، وتطفَّل على مائدتهم، عوقب بالهوان والشقاء، والطرد والجلاء،

ألا إنه لم يَجِنِ عدوٌّ على عدوٍّ مثل ما جنيتُم أنتم على أنفسكم، ولم يُسِئ أحدٌ إلى أحدٍ إساءتكم إلى أمتكم، إنكم آذيتُم روحَ رسول الله ﷺ بصنيعكم، فهي متألِّمة متوجَّعةٌ شاكيةٌ مستغيثةٌ.

□ الشاعر عارف بمكائد الإفرنج، وما لديهم من سهامٍ مسمومة، وحبالٍ منصوبة، فيُرسل صيحته، يُنذر المسلمين من المصير المظلم المؤلم، ويقول: «مهلاً أيها الغافلون! إيَّاكم والرُّكون إلى الإفرنج، والاعتماد عليهم، ارفعوا رؤوسكم، وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم، إلَّا أنه لا حيلة لكم ولا وزر إلَّا أن تطردوهم عن منهلكم، وتذودوهم عن حوضكم، إن حكمة الغرب قد أسرت الأمم، وتركها سليبة حزينة لا يملك شيئاً، إنها مزقت وحدة العرب، واقتسمت تراثهم، إنَّ العرب لما وقعوا في حبالهم تنكَّر لهم كل شيءٍ، وقسا عليهم هذا الكون، ولم يجدوا من يرثي لهم، ويرفُق بهم، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت وضاعت عليهم أنفسهم».

□ ثم يقول للعرب المسلمين: «إنَّ الله قد رزقكم البصيرة النافذة، ولا تزال فيكم الشرارة كامنة، فقوموا أيها العرب! ورُّوا فيكم روح عمر بن الخطاب مرَّة أخرى، إنَّ منبع القوة ومصدرها هو الدين، منه يستمد المؤمن العزم واليقين، وما دامت ضمايركم أمانة للسرِّ الإلهي، فيا عمَّار البادية! أنتم الحُرَّاس للدين، وأمناء الله في العالمين.

إن غريزتكم العربية والإسلامية ميزانٌ للخير ميزانٌ للخير والشر، وأنتم ورثة الأرض، إذا تألَّق نجمكم في آفاق السماء أفلَت نجوم الآخرين، وطُوي بساطهم، لن تسعهم الصحراء والفيافي، فاضروا

فَكُورُوا فِي عَصْرِكُمْ وَاسْتَبِقُوا
وَامْلُؤُوا الصَّخْرَاءَ عِزًّا وَاخْلُقُوا
تَمْسَاحٌ يُعَلِّمُ صَغِيرَهُ عَلْوَ الْهَمَّةِ:

□ قال إقبال:

وللتمساح هَذَا الْكَلَامُ
عَنِ الشَّطِّ ابْتِعْذُ، مَوْجًا تَسْلُقُ
«الزَّوْمُ الشَّطُّ فِي دِينِي حَرَامٌ»
نَعِشْ فِي بَحْرِنَا وَبِهِ نَنَامُ



وهذا البحرُ في صدرِ حملته
ولو في بُرْهةٍ أعْيَا وأغْفَى
ثُرْبُهُ قَلْبُكَ :

وذا الطوفانُ في حَرْبِ غَلْبَتِهِ
لكانَ مُقَاتِلًا مَا إِن قَتَلْتَهُ ^(٢)

□ قال إقبال:

وَهَذَا الْقَلْبُ بَحْرٌ مِنْكَ يَسْكُنُ
فَثَرِيًّا مَوْجٌ وَاحِدٌ مِنْ سُكُونِ
وَمِنْ جَرَّاءِ (٣) فِيهِ الدُّرُّ يَكْمُنُ
فَهَذَا الْبَحْرُ دَارًا مِنْكَ يَحْسُنُ

(۱) «دیوان اقبال» (۲/۳۸۸).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٨٠).

(٣) مِنْ جَرَّاءٍ: مَنْ أَجْلَكَ.

أَعْنِ ذَاتِ تُشْرِقُ أَوْ تُغَرِّبُ
وهذا النُّورُ يَوْمَكَ لَا تُجَنِّبُ^(١)

إِلَى ذَاتٍ لَكَ الدَّارَيْنِ فَاجْذِبْ
ويَوْمَكَ مِنْهَا نُورًا تُبْصِرْ

لا يبكي الرجال:

□ قال رَحِمَهُ اللهُ:

بَصَّرَ الدَّهْرُ يَوْمًا لَمْ يُبَالُوا^(٢)
لدفع من لظى الشوق انهمال^(٣)
ولو شهدته في الموت الساء^(٤)
وإلا فلتمت موتًا تشاء
غصونك ليس يروها صيب^(٥)
فمبتهج بها الصدر الكئيب^(٦)

مِنَ التَّبْرِيحِ لَا يَبْكِي الرِّجَالُ
وقد تبكي ولكن لست منهم
وَمَنْ فِي مُحْنَةٍ نَسِيَ الْفَنَاءَ
وأنت بموته هذا جدير
تُرَابُكَ وَهُوَ عَنْ رُوحٍ غَرِيبٍ
عليك بحرقه الأنفاس واسعد

القلب العَلِيَّ الهمّة ووارداته:

يُشِيرُ بِهَيْبَةِ الْأَمْوَاجِ رُغْبًا

بِلَا شَطِّ خِضَمٍّ كَانَ قَلْبًا

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٤٨٤).

(٢) التبريح: مَنْ بَرَحَ بِهِ الْأَمْرُ: إِذَا أَجْهَدَهُ وَأَذَاهُ.

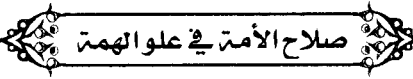
(٣) انهمل الدمع: سال.

(٤) المحنة: بمعنى الامتحان والشدة. وفي هذا احتمال التلويح إلى من يموتون من

أجل عقيدة يعتقدونها.

(٥) الصَّيْبُ: المصبوب. والمقصود به هنا الماء.

(٦) «ديوان إقبال» (٢/ ٤٨٥).



حَبَابٌ فِيهِ بِالْأَفْلَاكِ يَعْبَا؟^(١)
 بصونِ الذاتِ عِمْلَاقُ يَحَاهِرُ
 فهذا البحرُ قد صانَ الجواهرُ
 وَقَيْدًا بَعْدَ قَيْدٍ مَا حَطَمْتَمَا
 إِذَا فِي صَدْرِهِ الْقَلْبُ افْتَقَدْتَا^(٢)

بِسَيْلٍ مُغْرِقٍ سَهْبًا وَسَهْبًا
 وينجح سعيه دَهْرَ مُثَابِرٍ
 وَضُنُّ الْقَلْبِ سُلْطَانًا وَفَقْرًا
 قِيَّ لِلذَّاتِ يَوْمًا مَا بَلَوْتَا
 يدومُ العقلُ لِلْإِنْسَانِ قَيْدًا
 الشاهين^(٣) :

ثُمَّ أَلْقَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ وَرَائِي
 ليس يقاتُ غيرَ حَبٍّ وَمَاءٍ
 وهما في سَجِيَّتِي وَدِمَائِي
 لَوْعَةُ الْعَنْدَلِيبِ عِنْدَ الْمَسَاءِ
 ليس تُغْري مَنْشَأُ فِي الْعَرَاءِ
 وَأَذَلَّتْ حَمَامَةٌ كَبْرِيَائِي
 وَأُرْوِي حِمَاسَتِي وَإِبَائِي

جزتُ في الأرضِ بِلَدَةٍ بَعْدَ أُخْرَى
 ذلِكَ الْعَالَمُ الَّذِي زَعَمُوهُ
 أَنَا نَجَلُ الصَّحْرَاءِ وَالزُّهْدُ دِينِي
 أَجْهَلُ الزَّهَرِ وَالنَّسِيمِ وَمَا فِي
 وَرَجَالُ الْبُسْتَانِ تَغْري وَلَكِنْ
 أَيْنَ مَجْدِي إِذَا شَقِيتُ لَجُوعٍ
 بِافْتِرَاسِي أَصُونُ عِزَّةً وَجْهِي

(١) الخصم: البحر. السهب: الأرض المنبسطة. والحباب: الفقايع التي تعلق الماء. والشاعر يريد ليقول: إن الأفلاك كلها لا تُساوي فقاعةً واحدة من إرادات القلب عالي الهمة ووارداته.

(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ٤٨٧).

(٣) الشاهين: نوع من الصقور، وهو الطير المختار عند إقبال؛ لأنه لا يبني لنفسه عُشًّا يعني أنه زاهد، ويطير إلى الأعالي، وليس نجيلاً ويقنع بالزهد، ولا يأكل مما يقنصه الآخرون.

وأنا ها هنا حليف مضائي
وهو الفردُ في رحابِ السَّماءِ^(١)

كلُّ طيرٍ له من الأرض عَشٌّ
كيف يبنّي قلندر الطَّير عَشًّا

النَّسر والنَّملة:

مرَّ يومًا ما على وادي النَّمْلِ
وأنا في شقوة العيش المَذِلِّ
مؤني مثلك في هذا التُّرابِ
للسَّمواتِ التي فوق السَّحابِ^(٢)

قالت النَّملة للنَّسر الذي
أنت ترعى في بساتين النُّجوم
قال: لكن أنا لا أبحث عن
لستُ ألقى نظرةً حتَّى ولا

ودنّيُ الهَمَّةُ الذي يخوض في الدين ويُجادل في الكتاب:

□ قال إقبال:

ألا ترثي لعُصفورٍ عن الطَّيران قد مُنعا
إذا استخفى وحاول أن يطيرَ لوخِده وقعا
يحاولُ أن يكون فؤاده بيتًا لجبريل
وليس له من الطَّيران غير القال والقيـل
هل العصفورُ بين الشُّوك كالعصفور في الجنَّة
بربك هذه حريَّةٌ في الفكر أم جنَّة
فقل لفكِّر حرٌّ أضلَّ الفكر وجدانه
تعالى الله أن يلهمَ ما يُبطلُ قرآنه

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٥٤٧).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٥٥٠).

ଓଡ଼ିଆଓଡ଼ିଆ

هو مولى للبرايا وولي
وانظروا الآيات من إحسانها
وانظروا إبداعها في كل حين
فيه قلب كسراج في ظلم
ذلك النور لرب العالمين
فهو وحش هممه سفك الدماء
وبهذا القلب كون لا يُحد
من يعيش في وسعة القلب خلد
أو قوام فيه لحم ودماء
ورجاء وجهاد وكفاح
فيه أمر الله للخلق مبين
إنه يكبر عن وزن وعد
انظرون في القلب يومًا لتراه

مَنْبَعُ الْحُبِّ هُوَ اللَّهُ الْعَلِيِّ
فَأُضِيئُوا النَفْسَ مِنْ إِيْمَانِهَا
أَمْلُؤُوا الْأَنْفُسَ مِنْ نَوْرِ الْيَقِينِ
إِنَّمَا الْإِنْسَانُ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ
ذَلِكَ اللَّحْمُ إِلَى مَاءٍ وَطِينٍ
فَإِذَا أُطْفِئَ فِيهِ ذَا الضُّيَاءِ
إِنَّ هَذَا الْجِسْمَ ذُو وَزْنٍ وَحَدٍ
هَالِكٌ مَنْ عَاشَ فِي ضَيْقِ الْجَسَدِ
أَنْتَ فِي جَسْمِكَ مِنْ طِينٍ وَمَاءٍ
أَنْتَ فِي الرُّوحِ حَيَاةٌ وَطَمَاحٌ
أَنْتَ فِي قَلْبِكَ سِرُّ الْعَالَمِينَ
لَا يَحْدُ الْقَلْبَ فِي الْآفَاقِ حَدٌّ
أَنْهَا الْغَافِلُ عَنْ سِرِّ الْإِلَهِ

(۲) «دیوان اقبال» (۲/ ۵۵۰).

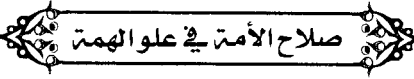
وحواه القلب، هذا الخاتم
كل ما أبصرت من أمر جليل
من جلال وجمال وعبر
كل ما حدث عن أبراره
أو فُيُوض الله في الكون الكبير^(١)
هو خفق القلب يرمي بالشر
فهو نار في دجائها وهو ثور
واملؤوا الآفاق منه بالسنا
ارفعوها عن معانٍ خامده
ومعانٍ كلها نبث التراب
لا رباش ومتاع للبلبي
وزنه بين الورى منبته
حلّقن في جوها مثل العقاب
من لهذا الكون في يوم وغد
أبصر الإنسان يا قومي هوى^(٢)

ضاق عن أمر الإله العالم
كل ما أدركت من معنى جميل
كل ما أوعاه تاريخ البشر
كل ما سُجِّلَ عن أخباره
هو نور الله في القلب الصغير
هو نبض القلب في الدنيا انتشر
إنما الإيمان بالدنيا يدور
فاجعلوا منه تباشير المنى
ارفعوا الأنفس فيه صاعده
عن متاع وطعام وشراب
قيمة الإنسان قلب للعلى
كل ساع قدره بغيته
أيها القانع دوداً في تراب
أيها السادر في لهو ودَد
أنقذوا الإنسان من هذا الردى

﴿٣٦٢﴾

(١) الكون الكبير: هو القلب.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٣٦٢ - ٣٦٣).



أيها المسلم:

ليكونَ الحقُّ فيه خُلُقًا
أنت في الأرض عن الله وكيل
قسم الأرزاق يومًا بيدك
واحكمن بالعدل ما بين العباد
وأزل من أرضنا هذا العناء
وسلام ووداد وإخاء
وانعمن بالأمن في أفيائها
واملأن بالخير آفاق الدنا
علم الإيثار والزهد الغني
وهي في عينه لغو وزیوف
فعلة في الخير أغلى عنده
كل ما ينفق منها مغنم
لا تساوي ذلة الحر الأبى
إنها الدرهم في كف الكريم
وهي عند العارفين الصدف
وسع الأرض جميعًا والسما
أخذًا في الأرض كل الثمرات
ربما أوفى على آمادها

أيها المسلم يا من خلَقنا
انهضن يا صاح بالعبء الثقيل
قد قضى الخلاق بالأمر إليك
سَطَرَن بالحق في هذي البلاد
أنقذ الإنسان من هذا الشقاء
املأ الأرض بحب وصفاء
واحكمن بالحق في أرجائها
واملأ الآفاق حقًا وسنا
علم الإيمان والحق العلي
زهّد مَنْ يملك آلاف الألوف
قولة في الحق أغلى عنده
كل ما يمسك منها درهم
هذه الأموال جمعًا يا بني
إنها اللعبة في عين الحكيم
جوهراً يحسب من لا يعرف
إنما الجوهر قلب قد أضاء
لا يعاف الحر أكل الطيبات
ربما استولى على أعدادها

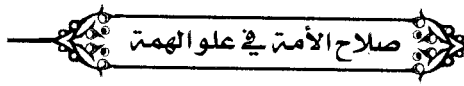
رابعًا أو خاسرًا لا يأبِه
فاكها في نعمة ولا تفسده
لا يُريغُ الرزاق فيها صاغرا
مثل ما يَفْزَعُ من قد لُسعا
واستثار النار من عَزَمَتِه
وإذا الحلمُ ضرابٌ وطِعمان
فارق الدنيا إلى غير إياب
وحياة الحرِّ في عزَّتِه
وكن الحرَّ الكريمَ الآبِيا^(١)

أخذًا أو معطيًا لا يَشْرُه
عبَد الدنيا ولا تستعبده
حاتمًا للرزقِ صقرًا طائرًا
فإذا شيمَ هوانًا فزعا
واستمدَّ العزَّ من هَمَّتِه
فإذا الماءُ لَهِيبٌ ودُخان
وإذا سُدَّ عليه كلُّ باب
إنَّ موتَ الحرِّ في ذلَّتِه
فكن الصَّقرَ الأبِّي العالِيا
الهمَّام .. عالي الهمَّة:

وأزال السَّتر عن نورِ النجاء
وأفاض النُّور من هدي القرآن
منه عشقُ الحقِّ في القلبِ استعر
فرأى الدَّوحة من تحت التُّراب
ضجَّت الأفلاك من أُناتِه
فتجلَّى نورُه في قلبِه
واستوى في فكرِه ماضٍ وآت

بيَّن الهمَّامُ من سرِّ الحياه
بيَّن الهمَّامُ من سير الزَّمان
بثَّ في النفس كلامًا من شرر
فتقت نظراتُه كلَّ حجاب
ضاقتِ الأفاق عن نظراتِه
وصَلَّتْ نفخةٌ من ربِّه
قد ثوى في قلبه كلُّ الجهات

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٦٤، ٣٦٥).



سال في الحانه دمعٌ ودُمُ والتقى الماء عليها والضرم

﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾

يا برود القلب خذ من ناره فالحياة الحق في أشعاره
يا موات القلب خذ من رجعه ^(١) يا جمود العين خذ من دمه
يا صغير الهم خذ من همته يا كليل العزم خذ من عزمه
يا أسير اليأس خذ آماله في دجى اليأس أنثر أقواله
أيها المسلم صعد في السماء وابلغن في جوها أعلى العلاء
وخذ الإقدام منه والطّماح وجناحا قاهرا هوج الرياح

﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾

ذا ضياء الدين من خلف العصور قد أتى في عزمه نار ونور
إنه الإسلام في عزته إنه الإيمان في قوته
أنثر القرآن في أنواره وضيا ^(٢) الفرقان في أسراره
□ والله در القائل:

وما الصحراء تحويني ترابا ولا الدأماء يتطيني عبابا
زجاجي منه ترتعد الصُخور وأفكاري بلا شطّ بُحور
ولي في القلب وهّاج السّعير دجاك أنثر بمصباحي المنير

﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾

(١) الرجوع: المطر.

(٢) ضيا: أي ضياء.

□ والله درّ القائل:

عَلُّوْهُمَّهَ الْمُقْصُودُ فَاعْرِفْ كَجَبْرِيلِ الْأَمِينِ إِذَا فَرَّفَرَفْ
وَمِنْ رِيحِ الْقَمِيصِ ^(١) فَنَلْ نَصِيْبَا تَنْسَمَ مِنْ ضَفَافِ النِّيلِ طِيْبَا
وَذَاتِكَ نَيِّرَيْنِ ^(٢) بِهَا تَصِيدُ وَمِنْ تَدْبِيرِهَا لَهَا الْقِيُودُ
لَهِيْبِ الْعِزْمِ فِي دُنْيَاكَ أَضْرَمْ بَغْزُوكَ مَا تَرَى أَوْ غَابَ قَوْمُ
□ وَالْقَائِلُ:

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ يَا نُورَ السَّمَاءِ كَيْفَ لَا تَشْرِقُ فِي أَرْضِ الْبَشَرِ
أَنْتَ سُلْطَانُ اللَّيَالِي لَا كَمَا قَالَتِ الْحَمَقَى أَسْرًا لِلْقَدَرِ
إِنَّ أَصْنَامِي الَّتِي فِي مَعْبَدِي مِثْلُهَا تِلْكَ الَّتِي فِي مَعْبَدِكَ
لَمْ تَحْطُمْهَا يَدٌ غَيْرُ يَدِي فَتَرْفَعُ عَنْ يَدٍ غَيْرِ يَدِكَ
ذَلِكَ الْأَعْمَى الَّذِي تَقْصِدُهُ مَا لَهُ عِلْمٌ بِمَا فِي قَلْبِكَ
هُوَ لَا يَبْصُرُ حَتَّى نَفْسَهُ وَتَرَاهُ تَحْفَةً مِنْ رَبِّكَ
□ وَقَائِلُ:

رَجُلُ الْبَصِيرَةِ لَا يَذُوقُ هَوَانَا سَيِّئَانَ عِبْدًا كَانَ أَوْ سُلْطَانَا
يَخْتَالُ وَالْدَرْعُ الْوَحِيدَةُ زَهْدُهُ لَا يَشْتَكِي زَمَنًا وَلَا شَيْطَانَا

(١) قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْفُوهُ عَلَى وَجْهِهِ أَيْ يَأْتِ بِصِيْرَا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣) [يوسف: ٩٣] وَقَدْ أَرْسَلَ قَمِيصَ يُوسُفَ مِنْ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ، وَوَجَدَ فِيهِ يَعْقُوبَ رَاحِئَةً يُوسُفَ، فَارْتَدَّ إِلَيْهِ بِصَرِهِ.
الرَّيْحُ: الرَّاحَةُ. تَنْسَمُ: شَمٌّ.
(٢) الْمُرَادُ بِالنَّيِّرَيْنِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ.

□ والقائل:

عَجَبًا لأورْبَّة	بالنَّهر تُغرينَا
وبذاتِ لَجَّتِه	ضاعتُ معانينا
تُخْفِي بهدأتها	تَيَّارَهَا الماحي
عصفتُ فما تركتُ	وَكُرًّا لِتَمْسِاح
رأى العبيد بها	لا نطمئنُّ له
وتقرَّرُ الأحرارُ	الرأي مجملُه
لا شيء يُقْنِعُنَا	إلا اجتهدوا وفي
يأتي بلؤلؤة	من ذلك الصَّدَفِ
ذاك الرُّجَّاج إذا	عَجَّنْتِه في الكِيرِ
فأنا أسنويُه	صخرًا ياكسيري
لي في الجهاد يدُ	فرعونٌ يخشاها
بيضاء ما مُدَّت	إلا لمولاهَا
أتظنُّ أورْبَة	أن ينتهي نَفْسِي
أو تنطفئ ناري	في قشَّها اليَبَسِ
ناري وقد أذكتُ	ما أخضرَّ من قصبي
لا شيء يمنعُها	من ذلك الحَطَبِ
متفاهمٌ قلبي	لا يعرف اليأسَا
الحبُّ علَّمَهُ	أن يُرْغِمَ النَّفْسَا

من عُسْر عَالَمِهِ يستخرج اليُسْرَا
لَا قَضَرَ قِصْرَهُ يرجو ولا كِسْرَى
مُتَعَلِّقٌ أَبَدًا بركاب سَيِّدِهِ
لَا غَزُوَ لِلْأَقْصَا يَسْقُطْنَ فِي يَدِهِ
هُوَ سَيِّدُ الْأَشْيَاءِ هو خاتم الرُّسُلِ
هُوَ شَعْلَةُ السَّارِي في هذه السُّبُلِ

□ وما أجمل قول القائل:

إِذَا خُضْتَ مَعْرَكَةً فَلْتَكُنْ كموسى بخطوته الضَّارِبُ
فَمِنْ ﴿لَا تَخَفْ﴾ شَعْلَةٌ لَمْ تَزَلْ تصاعدُ في الأجمة اللاهبة
□ والله دَرَّه إِذْ يَقُولُ:

أَتَطْلُبُ جِيفَةَ الْغَرْبَانِ هَاتِيكَ الشَّوَاهِيْنُ
إِذَا أَخْفَتْ مَخَالِبَهَا فأعينُها سكاكينُ

□ وما أحلى قوله:

لَسْتُ أَخْفِيكَ أَنْنِي لَمْ يَرْقُ لِي ذلك العيشُ في طُقُوسِ الصَّوَامِعِ
لَا يَصِيدُ الْعَنْقَاءَ صَيَّادُ سَوْءٍ مُلِئْتُ نَفْسُهُ بِذَلِّ الْمَطَامِعِ
طِرْتَ أَمْ غُضَّتْ فِي سَمَاءٍ وَبَحْرِ أم تراجعْتَ عنهما وَجِبْنَتْ
لَيْسَ يَدْعُو إِلَى الرَّثَاءِ وَجُودٌ كالوجودِ الذي تعانيه أَنْتَ
وَسَوَاءٌ، فَلَا تَقْلُ عَرَبِيٌّ كُنْتَ أَوْ لَمْ تَكُنْ فَلَيْسَ يُفِيدُ
سَتَرِي الذِّكْرَ أَجْنَبِيًّا إِذَا لَمْ يَكُ لِلذِّكْرِ فِي الْفَوَادِ شَهِيدُ

□ وقوله:

النخلة الشَّمَاءُ أُخْتُكَ كُؤُنْتُ
أَتَطُوفُ فِي الْحَانَاتِ تَسْتَقِي كَأَسْهَا
مَا فِي مَدَارِسِكَ الَّتِي تَرْتَاذُهَا
سُرَّ الدَّرَاسَةِ فِي فَوَادِكَ كَامِنٌ
لَمْ تَبْقِ يَا مَسْكِينُ إِلَّا فَرَصَةٌ
اطْلُبْ عُلُومَ الْقَلْبِ مِنْ أَسَاتِذِهَا

□ وقوله:

رَأَيْتُ فَلَاسِفَةً بِالْأَلُوفِ
وَذُو الْوَحْيِ يَرْفَعُ مِنْ رَأْسِهِ

□ وقوله:

شَبَابٌ قَعُودٌ رَقُودٌ نِيَامٌ
فَوَا أَسْفًا كَيْفَ هَذَا السَّهَامِ
يَقُولُونَ بَحْرٌ عَمِيقٌ عَمِيقٌ
بَحِثْتُ بِهِ مَوْجَةً مَوْجَةً
أَمَّا آنَّ تَهْجُرُ أَصْنَائَهُمْ
وَعَايَةَ أَصْنَائِهِمْ أَتَهَا
□ ولله درّه حين يقول:

أَنَا ابْنُ الْمَدِينَةِ وَابْنُ النَّجَفِ
غَبَارُهُمَا كَانَ فِي مُقْلَتِي



وَأَنْفَعُ طَبِّ لَذِي عِلَّةٍ
وَمَا كَانَ مِنْ مُسْتَبَدِّ عَتِي

غِبَارُهُمَا قَطْرَةٌ لِلْعُيُونِ
مَقِيمٌ بِرْغَمِ رِيَّاحِ الْقُرُونِ

قلق القلب عنوان علو همته :

□ قلق القلب وتطلُّعه للكمال، عنوانُ علو همته، والله ما أجمل قول

القائل:

وعطاءً حيويُّ
قلقٌ، قلبٌ شقيُّ

قلقُ القلب غذاءٌ
إِنَّ قَلْبًا لَيْسَ فِيهِ

□ وقوله:

وإِنَّمَا السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَكَ
هَذَانِ جَانِبَانِ مِنْ مَوْضُوعِكَ

لَسْتَ لِهَذِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ
وَلَسْتُ مَوْضُوعَهُمَا وَإِنَّمَا

□ وقوله:

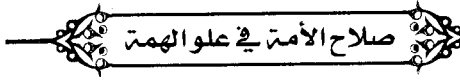
كُلُّ مَا تَرْجِيهِ نَفْسُكَ عِنْدَكَ
شَهِدَ اللَّهُ أَنَّكَ الْحَقُّ وَحْدَكَ

قَلْبُكَ الشَّمْسُ فَاقْبِسِ النُّورَ مِنْهُ
كُلُّ شَيْءٍ سِوَاكَ - أَنْتَ - سَرَابٌ

أَرْضُنَا يَا عَالِي الْهَمَّةِ تَهْفُو لَطَهْرِكَ :

أَنْتَ بَرَاهِنُهَا وَأَنْتَ هُدَاهَا
مَنْحَتُ أَغْيُنِ السَّمَاءِ مَدَاهَا
أَنْتَ شَاهِدُهُ وَأَنْتَ رَسُولُهُ
ذَاكَ دِينٌ وَلَيْسَ شِعْرًا أَقُولُهُ
مِنْ جَنُونِ الْحُبِّ الَّذِي أَطْلَقُوهُ

أَرْضُنَا هَذِهِ لَطَهْرِكَ تَهْفُو
قَلْبُكَ الْمَظْمُونُ قَبْضَةُ نُورٍ
عَنْ يَدِ اللَّهِ طِرْتُ لَا عَنْ غِبَاءٍ
وَلَكَ الْحُورُ وَالْمَلَائِكُ صَيْدٌ
أُتْرَى مَا لِلْمُسْلِمِينَ نَصِيبٌ



دُمُهُمْ كَانَ لِلشُّعُوبِ مَنَارًا ثَمَّ هُمْ فِي ظِلَامِهِمْ أَهْرَقُوهُ
 ذَاكَ أَنَّ الضُّلُوعَ خَارَتْ قُوَاهَا لَمْ يَعْدَ بَيْنَهَا هَيْبٌ يَصُولُ
 سَجَدَاتٌ رَتِيبَةٌ فِي خَمُولٍ وَصَفُوفٌ مُعْوجَةٌ وَذُهُولُ
 أَيُّهَا الْمُسْلِمُ الْمَثَابِرُ يَرْجُو ثُوبَ تَقْوَاهُ كَنْ نَسِيحِ حَيَاتِكَ
 كُنْ وَحِيدًا وَوَحِّدِ اللَّهَ وَاكْشِفْ سَحَرُ أَلْوَانِنَا بِقُوَّةِ ذَاتِكَ
 كُنْ كَمَا الْمَوْجُ كُلَّ حِينٍ تَرَاهُ يَدْرُسُ الشَّاطِئُ الَّذِي يَبْتَغِيهِ
 انْتَزِعْ مِنْ يَدَيْهِ ثُوبَكَ وَارْجِعْ لَا تَفَرِّنْكَ الْإِقَامَةُ فِيهِ

المؤمن عالي الهمة:

□ يقول إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المسلم حيٌّ خالد، لا يزول، ولا ينقرض؛ لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم، وموسى، وجاء بها النبيون، وقد قضى الله بخلودها وبقائها، فكيف تنقرض الأمة التي حملت هذه الأمانة، وتكفلت بتبليغ هذه الرسالة!».

□ ويقول: «إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود، ولا يعرف أفقه الثغور، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب. فليست دجلة في العراق، ودانوب في أوربة، والنيل في مصر، إلّا موجة صغيرة في بحره الواسع ومحيطه الأعظم، إنّ له عصورًا في التاريخ لا يقضى منها العجب، وله حكايات ومواقف في البطولة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب، هو الذي أمر العصر العتيق -العصر الجاهلي- بالرحيل، وافتتح العصر الجديد، إنّّه إمام رجال الحبّ والعاطفة، وفارس ميدان الإيمان والحنان، لسأته لبنٌ وعسل، وسيفه علقمٌ وحنظل، يعيش في ميدان



الحرب وتحت ظلال السيوف متذرعاً بالتوحيد، كلما اشتد به الخطب
وعضته الحرب التجأ إلى إيمانه واعتماده على الله».

أمام مسجد قرطبة.. وذكرى أولى الهمة العالية:

□ قال إقبال حين وقف على مسجد قرطبة وناجاه: «لقد كشفت أيها
المسجد العظيم! عن سرِّ المؤمن، ومثَّله في العالم، وصورت ذلك
الاضطراب الذي يقضي فيه نهاره، والرقعة التي يَمْضي فيها ليله، صوّرت
للعالم مقامه الرفيع، وتفكيره السَّامي، ومسرَّاته وأشواقه، وتواضعه ودلاله».

□ ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة، فيصف سموّه، وأخلاقه، وسيرته
في العالم، فيقول: «إنَّ يد المؤمن هي جارحةُ القدرة الإلهية، فهي غَلَّابةٌ،
فَتَّاحَةٌ، قاهرةٌ، ناصرةٌ، أصله من تراب، وفطرته من نور، عبدٌ تخلَّق
بأخلاق الله، واستغنى عن العالمين آماله ومطامعه قليلةٌ، وأهدافه ومطامحه
رفيعةٌ جليلة، ألقي عليه الحب، وكسي المهابة والجمال، دقيقٌ رقيقٌ في
الحديث، قويٌّ نشيطٌ في الكفاح، نزيهٌ بريٌّ في السلم والحرب، إنَّ إيمانه هو
النقطة الدائرة التي يدور حولها العالم، وكل ما عداه وهمٌ وطمسٌ ومجازٌ،
إنَّه الغاية التي يصل إليها العقل، ولبُّ لباب الإيمان والحبِّ، وبه نالت
هذه الحياة بهجتها وقوتها».

□ ويقبل مرةً ثانيةً على المسجد، فيخاطبه في إجلال وإكبار، ويقول:
«يا مثابة هواة الفن! ويا مقصدَ رَوَّاد الجمال! ويا مجد الدين الإسلامي! لقد
سمت بك أرض الأندلس، وتقَدَّست في أعين المسلمين، إنَّك فريدٌ في
الفنِّ والجمال، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن، أين لنا
أولئك الرجال، هؤلاء الفرسان العرب، أصحاب الخلق العظيم،

وأصحاب الصدق واليقين، الذين برهنت حكومتهم على أن حكومة أهل القلوب خدمةٌ وزهادة، وليست حكمًا ولا ملكًا، هؤلاء العرب المسلمون الذي كانوا مربى الشرق والغرب، وكانوا أصحاب عقولٍ حسيّةٍ وبصيرة نافذة، يوم كانت أوربة تتسكع في الجهل المطبق، والظلام الحالك، والذين لا تزال في الشعب الإسباني.

□ والله درّه حين يقول: «إِنَّ كُلَّ مَأْثَرَةٍ وَكُلَّ إِنْتَاجٍ، لَمْ تَذُبْ فِيهِ حَشَاشَةُ النَّفْسِ نَاقِصٌ، وَجَدِيرٌ بِالْفَنَاءِ وَالزَّوَالِ السَّرِيعِ، وَكُلُّ رَنَةٍ أَوْ نَشِيدٍ لَمْ يَدَمْ لَهُ الْقَلْبُ، وَلَمْ تَتَأَلَّقْ بِهِ النَّفْسُ قَبْلَ أَنْ يَصْدُرَ، ضَرْبٌ مِنَ الْعَبَثِ وَالتَّسْلِيَةِ، وَلَا مُسْتَقْبَلُ لَهُ فِي الْمَجْتَمَعِ وَعَالَمِ الْأَفْكَارِ».

ويبكي رحيل علاة الهمم عن «أسبانيا» :

□ فيقول في قصيدته «أسبانيا» التي كتبها في أسبانيا ساعة مغادرتها:
صَوْتُ الْمَنَائِرِ فِي نَسِيمِكَ يَرْقُدُ وَصَدَاهُ فِي أَرْوَاحِنَا يَتَرَدَّدُ
يَا تَوَهُّمَ الْحَرَمِ الشَّرِيفِ تَطَوَّفْتَ بِكَ رُكْعٌ مِنْ عَاكِفِينَ وَسُجَّدُ
سِيَاكِ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ عَلَى الثَّرَى طَرِبُ يَفُوحُ وَنُضْرَةٌ تَتَجَدَّدُ

(٣٨٥) (٣٨٥) (٣٨٥)

تَحْكِي النُّجُومُ أَسْنَةً لِرِمَاحِهِمْ بِإِزَائِهِا لَيْلٌ يَقُومُ وَيَقْعُدُ
مَلُؤُوا وَهَادَكَ بِالْخِيَامِ وَلَمْ تَزَلْ أَوْتَادُهَا بِنَسِيمِهِمْ تَأْوُدُ
إِنْ تَسْأَلِ الْحَسَنَاءُ عَنْ حُنَائِهِمْ فَتَخِيبُ يُنْصِفُهَا دَمِي الْمَتَوَرَّدُ
يَا طَالَمَا سُفِكَتْ هُنَاكَ دِمَاؤُنَا ظُلْمًا وَنَحْنُ الْمَشْفِقُونَ الْعُودُ

(٣٨٥) (٣٨٥) (٣٨٥)



ما كان صقر قريش غيرَ موحدٍ عجباً أما في المسلمين موحدٌ
 حَمَدَتْ حَقِيقَتُنَا وزَالَ لَهِينَنَا وبريقُ قرطبةَ الشَّريدُ مَخْلَدٌ
 ووقفتُ لا نومي حَمَدْتُ ولا السُّرى أُنكَبَدَ الجرح الذي أُنكَبَدُ
 عانيتُ مشهدهم وقلْتُ وقيل لي سيَّان قولٌ في العزاء وَمَشْهُدُ

(٣٨٥) (٣٨٤) (٣٨٣)

سَتُّهُتِكَ الْأَسْتَارُ عَنْ سَيْنَانَا وَتُبَاحُ أَسْرَارُنَا وَتُبَدُّ
 وَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَقُومُ بِهَتِكِهَا لِلنَّاسِ أَوَّلُ مُصْلِحٍ يَتَحَمَّدُ^(١)

(٣٨٥) (٣٨٤) (٣٨٣)

□ ويقول في قصيدة له على نهج أبيات عبد الرحمن الأول عد مجيئه إلى
 الأندلس.. يقول:

وأعجبُ ما في الكونِ غربَةً مثلنا	وفي الشَّامِ من أمثالنا عَدَدُ الرَّمْلِ
وما زلتُ في التَّطَوَّافِ ألقى على المدى	زماناً غريب الوجه مختلف الشَّكْلِ
وليس لهذا البحر من ساحلٍ يُرى	مضيتُ به عريانَ مُتَشَقِّقاً نصلي
وما من حياةٍ للذي أنْفَ الرَّدَى	وهل يقدح الزَّند الشرارَ من الوحل
إذا شامَ طرفي البرق زادَ تَأَلُّقاً	وحنَّ بذكرِ الشَّامِ للأعين التَّجَلِّ
وما ضَرَّنا مُلْكُ تركناه خلفنا	فكلُّ بلادِ الله ملكُ ذوي العَدْلِ
سنبني كما كُنَّا بنينا لغيرنا	وحاشا لأهل الجُودِ توصمُ بالبُخل
إذا نَضَبَتْ أجسادُنا من دمايُنَا	فمنزلنا رِيَّانٌ من غَدَقِ البَدْلِ

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٤٨٥).

وتطلّب من آثارنا كعبة الفضل
هنا انتبذت أرواحها رسل النخل^(١)

ستذكرنا الدنيا وتندبنا الوري
يقال هنا صلت وضجت قلوبهم

دعاء عالي الهمة طارق بقلم «إقبال»:

□ في ديوانه «جناح جبريل» صوّر إقبال بأسلوبه الأدبي «دعاء» طارق ابن زياد عند خوضه المعركة لفتح الأندلس فقال: «قال طارق: اللهم! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهادًا في سبيلك، وابتغاء مرضاتك، رجالًا غامضون مجهولون لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك، لقد منحتهم طموحًا وعلو همة، لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم، يحكمون الدنيا كلها بحكمك، ويُنفذون فيها أمرك، لا يعلوهم غيرك، أبطال مغاوير، تنفلق بهيبتهم البحار، وتنضوي لصولتهم الجبال، لقد ذاقوا لذة الإيمان والحب، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهواتها، وذلك شأن الحب إذا خالطت بشاشته القلوب، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين إلا الشهادة، التي هي وطر المؤمن العزيز، وهمّه الوحيد، لا يفكّرون في الغنائم ولا في فتح البلاد، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد.

إن العالم قد وقف على شفا حفرة من النار، لا يمنعه من التردّي في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ونفوسهم بسخاء وشجاعة، إن العالم بحاجة إلى دم عربيّ زكيّ، فلا يروى غليله، ولا يشفى عليه إلا الدم العربي الطاهر، ها إن الأزهار والورود في الغابة في انتظار أن تُسقى بهذا الدم القاني، فترفل في حُلّته، وقد قدّمنا لنزرع نفوسنا، ونريق دماءنا في

(١) «ديوان إقبال» (١/٤٨٤).

هذه الأرض النائية، لتخصب الإنسانية بعد جذب طويل، ويحل الربيع
بعد انتظار شاق طال أمده.

لقد أكرمت يا رب رعاة الإبل وسكان الوبر -العرب- بنعم فريدة لم
يشركهم فيها أحد، لقد أفردتهم بعلم جديد، وإيمان جديد، وشعار جديد،
هو: أذان الصبح، فقد أفلست الأمم من العلم الصحيح، والإيمان القوي،
والذوق الرفيع، والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد، على حين غفلة
من الناس، أما العرب، فقد فاجؤوا العالم بصحة علمهم، وجدة إيمانهم،
وسلامة ذوقهم، ودوي آذانهم في السكون المخيم على العالم، والظلام
الحالك، لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرون طويلة، وقد
وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان، إنهم لا ينظرون إلى
الموت كنهاية لهذه الحياة، وكتلف للنفس الإنسانية، إنهم يرون فيه فتحاً
جديداً، وعيشاً جديداً.

أعد يا رب! إلى هذه الأمة المؤمنة الحميّة الإيمانية والغضبة المؤمنة،
التي تجلّت في دعاء نوح عليه السلام، فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ
الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح] حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر والفساد،
وأخلق فيها المطامح البعيدة، والعزائم القوية الشديدة، واقدف في قلوب
الناس رعبتها، وهيبتها حتى تعمل نظراتها عمل السيوف»^(١).

□ ثم نظمها إقبال شعراً فقال:

هذي الكُماة عبادك الأخيار حملوا عناء العالمين وساروا

والنُّورُ في نظراتهم والنَّارُ
وتراجعت لِحْطَاهُمُ الأنهارُ
والعِشْقُ في أرواحهم إغْصَارُ
عَلَمٌ على الدَّارينِ لا ينهار
وإذا تقَحَّحَ فالجراحُ غُبَارُ
ومطامحُ الهممِ الكبارِ كِبَارُ
ترجو رجاءَ شقائق النُّعمانِ
وتضجُّ ليلَ نهارٍ في البستانِ
سكَّانها وجعلتهم أفذاذا
وجعلت أعرابهم أستاذًا
عزَّتْ وطلبتُها مذاقُ النَّارِ
كلَّتْ من التُّرحالِ والتَّسيارِ
هو للبصيرةِ بَابُهَا المفتوحُ
يتوسلون كما توسَّلَ نوحُ
وهمٌ وأنت الفرد لا تتغير
والناس منها موسِرٌ أو مُعْسِرُ
إلا ظنونُ الواهمِ المتَقَوِّلُ

أصحابُ سِرِّكَ والسِّيادةُ طبعهم
فعلتْ كموسى في البحارِ عَصِيْهم
الْبَحْرُ حَبَّةُ خَرْدَلٍ في كَفِّهم
عزفوا عن الدَّارينِ إِلَّا أَنَّهُمْ
نَيْلُ الشَّهادةِ للموَحِّدِ مَطْمَحُ
لا سَبِيَّ غانيةٍ وسَلْبَ خزانةٍ
كلُّ العبادِ على اختلافِ عروقهم
ترجو من العربيِّ لونَ دمايهِ
ربَّاهُ أنت بَعَثْتَ من صحرائهم
وملأتَ صدرَ الصَّبحِ من آهاتهم
طوتِ الحياةُ الدهرَ تنشدُ طُلُبَهُ
وبروحهم عثرتُ عليها بعدما
الموتُ ليس نهايةً في عينهم
ربَّاهُ! فابعث مسلمين أعرزةً
لتغيِّراتِ العَصْرِ من ثوراتهِ
رباه! أنت هو الحقيقة كُلُّها
الدَّهْرُ ملكٌ يديك ليس لأهلِهِ

يتنازعون على تفهّم عالم سكران من ماضٍ ومن مستقبل^(١) —

عالي الهمّة:

عذبُ الكَلِمَاتِ خفيفُ الرُّوحِ رقيقُ القلبِ مُسَهِّدُهُ
أبديُّ الحبِّ نقيُّ الحربِ مصونُ العِرضِ مهنّدُهُ
وعلى يدهِ الله يدٌ بلطيفِ القُدرةِ تعضّدُهُ
العالمُ قَصُرُ خلافتِهِ وسماءُ العالمِ مَبَعْدُهُ
سِرُّ الكَوْنِ بنظرتهِ وعن الكَوْنِ تجرّدُهُ
وسرابُ العِصرِ بنور الدِّينِ وناارُ الحبِّ يبدّدُهُ
هو أوّلُ سرٍّ في الدنيا ورجاءُ الكونِ ومقصّدُهُ^(٢)

نصيحة:

□ قال نسرٌ عجوز لبازٍ فتى:

لا تقلْ أصلي وفصلي أبداً
إنما الشّاهين من يجرّقه
قسوةُ التّدريبِ روحُ السُّودِ
سترى قيمته يا ولدي!
ما أرينا فرحةً أمتعُ من
فرحٍ والله لا يعدلّه
قيمةُ الشّاهين في أخلاقه
دمُّه الشّخصيُّ في أعماقه
لا تضيعه سديّ هذا الكلام
حين تنقصُ على فرخ الحمام
فرحةُ المنقُص من افق السّماء
فرحٌ، حتى ولا سفكُ الدّماء!

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٤٨٩).

(٢) المصدر السابق (١/ ٤٧٩).

□ قال إقبال:

عظمة الشَّاهين وشوكتُه توجدُ في طيرانِ الدَّرَّاجِ
والصَّيَّادُ في حيرةِ شاهينٍ هذا أم درَّاجِ
تلاطمتْ أفكارُ كلِّ قومٍ
فاليومَ مُظْهِرٌ لغدِ القيامةِ في الشَّرْقِ
الميتُ الذي كان في حاجةٍ إلى صُورِ إسرَافيلَ
لمطالبِ الفطرة! (١)

□ وقال:

إذا اعتقدتَ أنَّ هذا القلبَ قطرةٌ من دمٍ فهو كذلك
فقلبُ الإنسانِ إنَّما هو - فقط - جذبةٌ عالية
لا يُعجبه دورانُ القمرِ والنجومِ
فهو الذي يخطُّ سَحَرَهُ ومساءه
لا يمكنُ أن يَبْرُدَ ذلك التُّرابُ الأصيلُ
الذي تَكْمُنُ في ضميرِ ترابه نارُ چنار (٢)، (٣)
«لو تأخذُ شرارةً من نارِ القلبِ
فإنَّكَ تستطيعُ أن تجعلها شمسًا تحتِ الفَلَكِ» (٤)

(١) «ديوان إقبال» (١/٥٣٨).

(٢) چنار: شجرة ذات أوراق كثيرة، تشبه كف اليد، وتكون خضراء في الصيف، بينما تحمر جدًا في الخريف وتصيغ في لون النار الملتهبة خاصة في الأصل.

(٣) المصدر السابق (١/٥٣٨).

(٤) المصدر السابق (١/٥٣٩).

لا حَدَّ لِلسَّمَوِّ:

جَسَّ الطَّيِّبُ بِقَلْبِي مِنْ أَكَابِدُهُ فقال: ويحك ما تخفيه مَنْ طلب
تَطْلُعَاتُكَ لَا طَاقَاتُ تَحْمِلُهَا لكن (لَكَ الْحَقُّ) لَا تَيَاسُ مِنَ السَّبَبِ
وَمَا يُسَمَّى صَفَاءَ الرُّوحِ أَعْرِفْهُ وليس هذا الذي في قلبك اللَّجِبِ
هَذَا الدَّمُ الْقَرْمِزِيُّ اللَّوْنِ (نَضَرْتُهُ) تدلُّ أَنَّكَ لَمْ تَشْرَبْ شَرَابَ غَبِي

يا ابن الإسلام! أين أنت من علو الهمّة!؟

أَيُّهَا الْغَافِلُ عَمَّا حُمِّلَا أنت في الكونين أعلى منزلا
افْتَحْنِ عَيْنَا وَأُذْنَا وَفَمَا تُبْصِرِ الْحَقَّ طَرِيقًا مُعَلَّمَا

الخوف، والحزن، واليأس أمهات الخبائب محبطات للهمّة:

عُدَّةُ الْمَوْتِ قُنُوطٌ مُحْبِطٌ والحياة الحقُّ أن «لا تقنطوا»^(١)
إِنَّمَا الْعَيْشُ رَجَاءٌ يُوَصِّلُ فقنوط الحيِّ سَمٌّ يَقْتُلُ^(٢)
يَأْسُكَ الْقَبْرِ إِلَيْهِ تَرْجِعُ إن تكنْ أَلُونْدَ فهو المصْرَعُ^(٣)
رُبَّتِ الْخَيْبَةُ فِي أَكْنَافِهِ ونما العجز على أَلْطَافِهِ^(٤)
أَهْ مِنْ نَوْمِ الْحَيَاةِ الْمَخْدِرِ إِنَّهُ آيَةٌ ضَعْفِ الْعَنْصَرِ

(١) مقتبس من القرآن ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.

(٢) رجاء يوصل: دائم لا ينقطع.

(٣) أَلُونْد: جبل عال مشرف على مدينة همدان يعني: إن تكن كجبل أَلُونْد في اليأس مصرعك.

(٤) الضمير اليأس في أكفانه تشب الخيبة، وفضله نمو العجز.

ويردُّ الصُّبْحَ لَيْلًا أَكْثَرًا ^(١)	كحُلِّهِ فِي الْعَيْنِ يُعْمِي الْبَصْرَا
كُلُّ يَنْبُوعٍ بِهِ جَفَّ ثَرَاهُ	نَفْسٌ مِنْهُ سَمُومٌ لِلْحَيَاةِ
إِنَّمَا الْغَمُّ لِحَيٍّ قَاتِلٌ	وَهُوَ لِلْغَمِّ حَلِيفٌ وَاصِلٌ
مِنْ رَسُولِ اللَّهِ «لَا تَحْزَنْ» وَعِي ^(٢)	يَا سَجِينَ الْغَمِّ أَبْصِرْ وَاسْمَعْ
فَعَدَا الصَّدِيقُ صَدِيقًا بِهِ	ذَلِكَ النَّصِاحُ سَرَى فِي قَلْبِهِ
بِاسْمٍ فِي سَعْيِهِ وَالِدَابِ	إِنَّمَا الْمُسْلِمُ مِثْلُ الْكَوْكَبِ
إِنْ عَرَفْتَ اللَّهَ، أَغْلَالَ الطَّمَعُ	حَرَّرَ النَّفْسَ مِنَ الْغَمِّ وَدَعَا
وَرَدَ «لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» فَاقْرَأْ ^(٣)	قُوَّةُ الْإِيمَانِ تُحْيِي فَاَعْلَمُنْ
حِينَ يَمْضِي نَحْوَ فِرْعَوْنَ كَلِيمٍ ^(٤)	قَلْبُهُ مِنْ «لَا تَخَفْ» قَلْبٌ سَلِيمٌ
وَهُوَ لِلْأَحْيَاءِ قَطْعُ السُّبُلِ	خَوْفٌ غَيْرِ اللَّهِ قَتْلُ الْعَمَلِ
وَتَرَى الْمَقْدَامَ مِنْهُ حَذِرًا	وَبِهِ الْعِزُّ يُخَافُ الْغَيْرَا
حَرَمْتُهُ مِنْ تَجَلِّيْهَا الْحَيَاةِ	مَنْ نَمَا ذَا الْبَذْرِ يَوْمًا فِي ثَرَاهُ
يَدُ شَلَّتْ وَقَلْبٌ يَرْجُفُ	فَهُوَ فَسَلٌ وَهُوَ شَادٍ يَعْزِفُ

(١) الكحل يجعلو البصر ولكن كحل اليأس يعمي ويجعل النور ظلامًا.

(٢) إشارة إلى ما حكى القرآن الكريم من قول الرسول لأبي بكر في الغار ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ إِنَّكَ اللَّهُ مَعَنَا .

(٣) إشارة إلى الآية: ﴿إِنِّي أَوَّلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

(٤) إشارة إلى قصة موسى عليه السلام وفرعون وقول الخالق عن موسى عليه السلام: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ . وفرعون هنا نكرة ولهذا لحقه التنوين.

يسلبُ الرأسَ قوى أفكارها
هانَ كالوردِ، عليه قطفُكا
عينُه فيك حسام لا يَدي (١)
منَ عُبَابِ مائجٍ في دهرنا
فمنَ الخوفِ تنَدَّى وترك
ويهزُّ اللحنُ آفاقَ السَّماءِ
أصله الخوفُ، إذا ما تُبَصِّرُ
مثل ميم الموت قلبٌ أظلم (٢)
أذنه تدليسُ أخبار الحياه (٣)
ونفاقُ القلبِ منه يورقُ
حجرُه الفتنةُ فيه والحربُ
فهو خدنٌ لحليف الذَّلَّةِ
يجدُ الإشراكُ في الخوفِ اختفى

يسرِّقُ الرَّجُلَ قَوى تسيارها
إن تجلَّى لعدوٍّ خوفُكما
سيفُه يزددادُ فتكًا في اليد
غلَّنا الخوفُ، وكم في بحرنا
إن أبى النعمة يومًا مزهرك
فاعركِ الأذنَ يُثِر فيه الحداء
كلُّ شرٍّ في فؤادٍ يُضمُرُ
من ديار الموت عينٌ قَدِما
عينُه تلبيسُ آثارِ الحياه
يُزهَر الخبُّ به والمَلِيقُ
ثوبه للزُّور سترٌ والريُّبُ
حُرِّمَ الخوفُ طُمُوحَ الهَمَّةِ
كلُّ من يفقد سرَّ المصطفى

(١) لا يؤدي دية من قتله.

(٢) عين: جاسوس. والميم في خط الرقعة والخط الفارسي مصمته. فجعل الشاعر الخوف مظلم القلب مثل ميم الموت. وفي الأصل ميم مرك. ومرك: موت. فالميم في الأصل والترجمة.

(٣) تشوه مظاهر الحياة عينه. وتحرف أخبار الحياة أذنه.

أحبُّ.. وأحتقر^(١) :

أحبُّ الجبالَ الشاخاتِ كأنها
تصاحكُ من عصفِ الرياحِ وزأرها
وتلهو عن الزلزالِ وهو مُزَجْرُ
وأحتقرُ الكُثبانَ تُرْعشها الصبَا
وتحملُها الأرياحُ أني توجَّهت
على جبهةِ الدُّنيا تصولُ عواتيا
وتحتضنُ السيلَ الحرونَ المعاديا
يضجُ بيطنِ الأرضِ غضبانَ واريا
ويفزعها الإعصارُ إن مرَّ لاهيا
ألا عيبَ في أسفارها وألا هيا

وَأَيُّ لَاهِي السَّيْلِ يَنْحَطُّ مَزِيدًا

وَأَيُّ لَاهِي السَّيْلِ يَنْحَطُّ مَزِيدًا
عَتِيًّا عَلَى السَّدِّ الْمَنِيعِ يَدْكُهُ
يَمُرُّ عَلَى الْعُشْبِ الضَّعِيفِ مُسَاحِمًا
وَتَحْقِرُ عَيْنِي جَدُولًا فِي خَيْلَةٍ
يَكْدِرُهُ حَتَّى النَّسِيمُ مَلَاطِفًا
أُحِبُّ الْعُقَابَ الْجَوْنَ يَخْتَالُ فِي الذَّرَا
وَيَخْتَرِقُ الرِّيحَ الْعَصُوفَ لِقَصْدِهِ
يَمُوتُ وَلَا يَشْكُو الْجِرَاحَ وَلَا تَرَى
وَأَحْتَقِرُ الْوَرَقَاءَ تَأْلَفُ سَجْنَهَا
وَيَدْفُقُ جَيَاشًا وَيَهْدِرُ صَاحِبَا
وَيَحْمِلُهُ نَحْوَ السُّهُولِ خَرَابَا
وَيَلْتَقِفُ الدَّوْحَ الْعَنِيدَ الْمَغَالِبَا
يَحْوِلُ طِفْلُ الْحَيِّ مَجْرَاهُ لَاعِبَا
وَيُفْزِعُهُ حَتَّى فَمُ الطِّفْلِ شَارِبَا
وَيَكْبُ مَتْنُ الْجَوِّ جَذْلَانِ بِاسْمَا
وَلَوْ حَطَّمْتُ مِنْ جَانِحِيهِ الْقَوَادِمَا
لَهُ أَكْلَابُ بَيْنِ الْأَنَامِ وَهَاضِمَا
وَتَبْكِي وَمَا تَلْقَى مِنَ النَّاسِ رَاحِمَا

(١) للشاعر الأستاذ أمجد الطرابلسي وزير التعليم السوري السابق - مجلة الأزهر - جمادى الأولى ١٤٢٧هـ (٧٨٠ - ٧٨١).

وَصَيَّرَ شَدَّوْا نَوْحَهَا وَالْمَاتَمَا

وَهَلْ غَيْرُ ضَعْفِ الْوُزْقِ سَوَّغَ حَبْسَهَا

﴿٣٨٣﴾

فَتَنْهَلُ مِنْ ثَغْرِ الزُّهْرِ رَحِيقَهَا

وَإِنِّي لِأَهْوَى نَحْلَةَ تَدَهَّمُ الرُّبَا

وَمِنْ حُمْرَةِ الْوَرْدِ النَّدِيِّ غَبِيقَهَا

تَرَشَّفُ مِنْ كَأْسِ الْأَقَاخِي صَبُوحَهَا

إِذَا مَا تَمَتَّوْا الْوَيْذُوقُونَ رَيْقَهَا

حَصَانُ تَرَوُّعِ الْعَاشِقِينَ بُوخَزَهَا

وَتَمَلَأُ مِنْ بَخْسِ الْفُتَاتِ خُرُوقَهَا

وَتَحْفَرُ عَيْنِي نَمْلَةً تَأَلَّفُ الْوَلِيَّ

وَتَسْلُكُ مِنْ تَحْتِ النِّعَالِ طَرِيقَهَا

تَدِبُّ عَلَى الْأَقْدَامِ هُونًا وَذَلَّةً

﴿٣٨٣﴾

يُجَابِهِ هَوْلُ الْعَاصِفَاتِ وَيُثْبِتُ

أَحَبَّ شَمُوحِ الدَّوْحِ فِي رِبْوَاتِهِ

تَكْرُرُ جُمُوعًا حَوْلَهُ فَتَشْتَتُ

أَبْيَا عَلَى حَرْبِ الْأَعَاصِيرِ ظَافِرًا

تَرَاهَا عَلَيْهِ نَائِحَاتٍ تُصَوِّتُ

وَإِنْ خَرَّ فِي الْمِيدَانِ بَعْدَ نِضَالِهَا

فَتَسْلَمُ مِنْ رَيْبِ الْمُنُونِ وَتُقْلَتُ

وَأَحْتَقِرُ الْأَعْشَابَ تَحْنِي رُءُوسَهَا

وَيَلْطِمُهَا هُونًا فَتَرْضَى وَتَسْكُتُ

تَدُورُ مَعَ الْإِعْصَارِ حَيْثُ يُدِيرُهَا

﴿٣٨٣﴾

وَيَأْنَفُ أَنْ يُدْنِيَ إِلَى جِيْفَةِ يَدَا

وَإِنِّي لِأَهْوَى اللَّيْثَ يَسْتَعْذِبُ الطَّوْى

فَتَرْتَجِفُ الْبِيدَاءُ إِنْ رَاحَ أَوْ غَدَا

يَسِيرُ أَشَمَّ الْأَنْفِ مُسْتَكْبِرًا الْخَطَا

وَلَا يَدْرِي أَعْدَاءَهُ مُتَصَيِّدَا

وَيَجِبُّهُ وَحْشَ الْبِيدِ فِي حُرِّ وَجْهِهَا

جَبَانًا خَلِيعَ الْقَلْبِ يَغْدِرُ بِالْعِدَا

وَتَحْقَرُ عَيْنِي تُعْلِبَانَا مَخَادِعَا

ليشكر رزاق العبيد ويحمدا

يُصيبُ فضالاتِ السَّباعِ وينثني

﴿٣٨٤﴾

فلا يشتكي أينا ولا يتظلمُ

أحبُّ الفتى يفر الفلاة مُهَجَّرًا

إليها حديدَ الطَّرفِ لا تبرمُ

إذا لدَّعته الشَّمْسُ سَدَّدَ وَجْهَهُ

جليدًا، ونيرانُ الرمالِ تضرَّمُ

ويمشي على الرَّمضاءِ مُتَبِّدًا الخُطَا

ويخفضُ رأسًا وهو شاكٍ يَدْمِمْ

وأحقر نكسًا يستظلُّ بنيره

فَيَزَعُشُ منه القلبُ والطَّرفُ والفَمُ

تساوره الأشباحُ في القفرِ رهبةً

﴿٣٨٤﴾

وسيفُ الأعادي بينَ عينيه مُشْهَرُ

أحبُّ الفتى والغُلُّ يثقلُ عُنُقَهُ

ويضحكُ من بطشِ الطُّغاةِ وَيَسْخَرُ

يصيحُ بأعلى صوته ينكرُ الأذى

تحز ومن أنيابها الدَّمُ يَقْطُرُ

ويشمخُ بالأغلالِ رأسًا وإنْ غدتْ

وليس عليهم سَيِّدٌ أو مُسَيِّطِرُ

وأحتقرُ الأحرارَ يحنونَ رأسهم

فَقُلْ لي -هُدَيْتَ الخيرَ- ماذا تُحرِّرُ

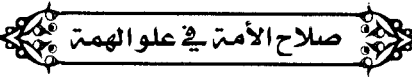
إذا كانَ قلبُ المرءِ عَبْدًا ورأيه

﴿٣٨٤﴾

يا ابن الإسلام.. أنت يوسفُ أعظم الأحلام.. أنت على طريق سلفك
العظام.. ووارث الجنة.. والناظر في يوم المزيد إلى إلهك رب الأنام:

يا سليل المجد أين أنت من آبائك العظام وسلفك الكرام:
يا سليل المجد ماذا غَيَّرَكَ؟
كَيْفَ تَغْفُو يا فتى التوحيد هل
هَيَّأَ الأعداءُ في الدرب الشُّركَ
أُمْتَى قَدْ عَلَقْتُ فِيكَ المُنَى
فاسْتَقِ وَاَنْهَضْ وَغَادِرْ مَضْجَعَكَ؟
عُدْ إلى الرَّحْمَنِ فِي طَهْرٍ نَجْدُ
مَرْكَبَ النَّصْرِ إِلَى الْعَلِيَّامَعَكَ
وَتَرَى الأبطالَ آسادَ الشُّرَى
تَشْتَهِي يَوْمَ الْفِدا أَنْ تَتْبَعَكَ

صُمْتُ أَذُنَ الدُّنْيَا إِنْ لَمْ تَسْمَعْ لَنَا فَنَحْنُ مَلَكْنَا هَذِهِ الدُّنْيَا الْقُرُونَا:
مَلَكْنَا هَذِهِ الدُّنْيَا الْقُرُونَا
وَأَخْضَعَهَا جُدُّ خَالِدُونَا
وَسَطَرْنَا صَحَائِفَ مِنْ ضِيَاءِ
فَمَا نَسِيَ الزَّمَانُ وَلَا نَسِينَا
حَمَلْنَا هَاسُيُوفًا لَامِعَاتِ
عَدَاةَ الرُّوعِ تَأْبَى أَنْ تَلِينَا
إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْأَغْمَادِ يَوْمًا
رَأَيْتَ الْهَوَلَ وَالْفَتْحَ الْمُبِينَا
وَكُنَّا حِينَ يَرْمِينَا أَنْاسُ
نُودِّبُهُمْ أَبَاةَ قَادِرِينَا
وَكُنَّا حِينَ يَأْخُذُنَا وَلِيٌّ
بَطْغِيَانٍ نَدُوسُ لَهُ الْجَبِينَا
تَفِيضُ قُلُوبُنَا بِالْهَدْيِ بِأَسَا
فَمَا نُغْضِي عَنِ الظُّلَمِ الْجُفُونَا
وَمَا فَتِيءَ الزَّمَانُ يَدُورُ حَتَّى
مَضَى بِالْمَجْدِ قَوْمٌ آخِرُونَا
وَأَصْبَحَ لَا يُرَى فِي الرِّكْبِ قَوْمِي
وَقَدْ عَاشُوا أَيْمَنَّتْهُ سَنِينَا



سؤال الدهر أين المسلمونا؟
أذوبُ لذلك الماضي حنينا
يُدعّمه شباب طامحونا
وما عَرَفُوا سوى الإسلام دينا
كريمًا طاب في الدنيا عُصونا
يَدُكُونُ المعاقِلَ والحُصُونَا
مِنَ الإِشْفَاقِ إِلَّا ساجِدِينَا
وَلَمْ يُسَلِّمْ إِلَى الخَضَمِ العَرِينَا
وَقَدْ مَلَأُوا نَوَادِيهِمْ مَجُونَا
وَلَكِنَّ العُلَا صِغْتَ لُحُونَا
وَعِلْمًا لَا بِأَجْرِهِمْ عُيُونَا
وَيَأْتِلِفُونَ مجتمَعًا رَزِينَا
وَلَا عَرَفَ التَّخَنُّتَ فِي بَنِينَا
وَلَمْ يَتَقَلَّبُوا فِي الملْحَدِينَا
خَطِيرِ كِي يَقَالُ مُثَقَّفُونَا
شَبَابًا مُخْلِصًا حُرًّا أَمِينَا
فَيَأْبَى أَنْ يُقَيَّدَ أَوْ يَهُونَا

وَالنَّيْ وَالْمُ كُلُّ حُرٍّ
تُرَى هَلْ يَرْجِعُ الماضي فِلَانِي
بَنِينَا حِقْبَةً فِي الأَرْضِ مُلْكَا
شَبَابٌ ذَلَّلُوا سَبَلَ المعَالِي
تَعَهَّدَهُمْ فَأَنْبَتَهُمْ نَبَاتَا
هُمْ وَرَدُّوا الحِيَاضَ مَبَارِكَاتِ
وَأِنْ جَنَّ الْمَسَاءَ فَلَا تَرَاهُمْ
شَبَابٌ لَمْ تُحْطَمْهُ اللَّيَالِي
وَلَمْ تَشْهَدْهُمْ الأَقْدَاخُ يَوْمَا
وَمَا عَرَفُوا الأَغَانِي مَائِعَاتِ
وَقَدْ دَانُوا بِأَعْظَمِهِمْ نِضَالَا
فَيَتَّحِدُونَ أَخْلَافًا عِذَابَا
فَمَا عَرَفَ الخَلَاعَةَ فِي بَنَاتِ
وَلَمْ يَتَشَدَّقُوا بِقُشُورِ عِلْمِ
وَلَمْ يَتَبَجَّحُوا فِي كُلِّ أَمْرِ
كَذَلِكَ أَخْرَجَ الإسلامُ قَوْمِي
وَعَلَّمَهُ الكِرَامَةَ كَيْفَ تُبْنَى

دَعُونِي مِنْ أَمَانٍ كَاذِبَاتٍ فَلَمْ أَجِدِ الْمُنَى إِلَّا ظُنُونًا
 وَهَاتُوا لِي مِنَ الْإِيمَانِ نُورًا وَقَوُّوا بَيْنَ جَنْبَيَّ الْيَقِينَا
 أُمْدُ يَدِي فَأَنْتَزِعُ الرَّوَاسِي وَأَبْنِ الْمَجْدَ مُتَلَقًا مَكِينَا^(١)

«رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة، وقد حمل مشعلاً، كأنه يبحث عن شيء. قلت له: يا سيدي! تبحث عن ماذا؟ قال: قد ملكتُ معاشرَةَ السُّباعِ والدُّوابِ، وَضِقْتُ بِهَا ذُرْعًا، وَخَرَجْتُ أَبْحَثُ عَنْ إِنْسَانٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ؛ لَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَسَالِي وَالْأَقْزَامِ، الَّذِينَ أَجْدَهُمْ حَوْلِي، فَخَرَجْتُ أَبْحَثُ عَنْ عَمَلٍ مِنَ الرِّجَالِ وَبَطْلٍ مِنَ الْأَبْطَالِ، يَمْلَأُ عَيْنِي بِرَجُولَتِهِ وَشَخْصِيَّتِهِ وَيُرَوِّحُ نَفْسِي.

قلت له: لقد غرّتك نفسك يا هذا! فخرجت تقتنص العنقاء، بالله لا تُتعب نفسك، وارجع أدراجك، فقد أجهدت نفسي وأنضيت ركابي، ونقبتُ في البلاد، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً. فقال الشيخ: إليك عني أيها الرجل! فأحبُّ شيء إلى نفسي أعزُّه وجوداً وأبعده منلاً»^(٢).

حاجة العالم إلى الإنسان الكامل عالي الهمة أشدُّ اليوم من حاجته إلى القارّات الجديدة والبحار المجهولة، وأجل خطراً، وأعظم قدراً من أي شيء سواه، فقد اجتمعت فيه من معاني الإسلام القوة والحياة والجمال والكمال فهو الضّالة المنشودة والصورة الكاملة للإنسانية إن المسلم عالي الهمّة المثالي يمتاز بين أهل الشك والظنّ بإيمانه ويقينه، وبين أهل الحبن

(١) ديوان هاشم الرفاعي «الأعمال الكاملة» (ص ١٩٦ - ١٩٧).

(٢) «روائع إقبال» لأبي الحسن الندوي (ص ٧٣).

والخوف بشجاعته وقوته الروحية، وبين عبّاد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص، وبين عبّاد الأوطان والألوان والشعوب بأفريقيّاته وإنسانيته، وبين عبّاد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرّده من الشهوات وتمرّده على موازين المجتمع الزائفة، وقيم الأشياء الحقيرة، وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكِبَر نفسه؛ يعيش برسالته ولرسالته. ذلك المسلم الحق الذي مهما اختلفت الأوضاع وتطوّرت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التي لا تتغيّر ولا تتحوّل، وأمّا ما عداه فزبدٌ يذهب جفاءً، ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، أمّا ما عداه فشجرة اجْتُثّت من فوق الأرض ما لها من قرار.

«إنك أيها المسلم عالي الهمة في العالم وحدك، وما عداك سرابٌ خادع ودرهم زائف. إن إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق، وكل ما عداه في هذا العالم المادي وهُمٌّ وطلّسُمٌ ومجاز».

إن حاجة الكون والبشرية إلى المسلم عالي الهمة ليست بأقل من حاجتهما إلى الماء والهواء والنور، فمعاني الحياة وحقائقها مرتبطة بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق، التي تتكفّل رسالات الأنبياء بشرحها وبيانها، ويتكفّل المسلم عالي الهمة بإعلانها والقيام بها والجهاد في سبيلها، فلولاها هو لضاعت الغايات والرسالات وأصبحت سرّاً مكتوماً.

إذن فمركزه في العالم، وبقاؤه كبقاء الشمس والكواكب النيرة، تنقرض الأجيال والأمم، وتحوّل الأنهار مجراها، وهو قائم لا يزول ولا يحول.

لا يُمكن أن ينقرض المسلم من العالم؛ لأن وجوده رمزٌ لرسالات الأنبياء، وإنّ أذانه إعلانٌ للحقيقة التي جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى



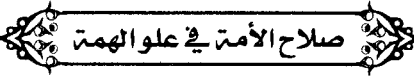
ومحمد ﷺ: «المسلم رسالةُ الله الأخيرة، فلا يعترها النسخ والتبديل» وهو الحاضن للأمانة الخالدة، والرسالة الخالدة، والذي يعيش لغاية خالدة. إن المسلم موج من أمواج بحر الإسلام الخضم وتلاشى في وجوده، والبحر لا يتغير؛ فالبحر امتداد دائم، وتسلسل قائم لأجزاء متغيرة كبحر الحياة، وبحر الوجود تبدل أمواجه - وهي أفراد البشر - ولا يتبدل كيانه.

□ ويقول في قصيدة أردية تكاد تسيل رقة وعذوبة: «لقد هبت علي نفحة منعشة من نسيم السحر في الصباح الباكر فناجتني، وقالت لي: إن الذي عرف نفسه وعرف قيمته ومركزه لا يليق به إلا عروش الملوك وأسرة السلاطين، إنه لا حياة لك ولا قوام، ولا شرف، ولا كرامة إلا بهذه «المعرفة»، فإذا ملكتها ملكت العالم، وإذا فقدتها، أصبحت من سقط المتاع، إنه يتربى في مدرسة شعري وأدبي، شباب لا يملكون درهما ولا ديناراً، ولكنهم يملكون صولة السلاطين، ويحسنون آداب الملوك، إن لك الخيار، فاختر ما شئت، ولكنني بدوري، لم يعجبني الفرار من الحياة، والعكوف في الزوايا والخلوات.

لقد هياك الله - أيها الشاب المسلم - لاقتناص «هُما»^(١)، وما هذه الطيور والأسماك التي تملأ العالم إلا لتتمرّن عليها في بدء أمرك، ويتلهم بها غيرك. وما نُطْقك بالشهادتين - أيها المسلم - سواء أكنت عربياً أو أعجمياً، إلا حديثاً غريباً، حتى يشهد بها قلبك»^(٢).

(١) طائر أسطوري في الأدب الفارسي والأردي. يضرب به المثل في اليمن والسعادة، يقال: إنه ما أظل إنساناً، وما طار فوق رأس إنسان إلا وكان ملكاً في يوم من الأيام.

(٢) «بال جبريل» (٦٧ - ٦٨).



□ ويقول في قصيدة خفيفة الوزن، قصيرة البحر، سهلة اللفظ، كأنها قطعة من نثر، أو حديث من أحاديث الناس: «إن كل ما في العالم من الظواهر الكونية، أو الأجرام الفلكية، راحل زائل، وغائب آفل، أنت - أيها الإنسان المسلم - بطل المعركة، وقائد الجيش، وكل ما حولك من سافل وعالٍ، ورخيص وغالٍ، من جنودك وأتباعك.

أسفًا لك، أيها الرجل! لم تقدّر نفسك، ولم تحسب لها حسابًا، ما أشدّ جهلك، وما أضيق نظرك! إلى متى تجري وراء الدنيا الذليلة، وتعبدها وتخضع لها؟ إما أن ترفضها رفضًا باتًا، وتزهّد فيها وتبتّل، وإما أن تملك ناصيتها وتسودّ وتحكم، لا منزلةً بين المنزلتين، ولا توسّط بين النهايتين».

□ وهذا قليلٌ من كثير جدًّا، تطفح به كتبه، ودواوين شعره، وفي هذا بلاغٌ للشباب المسلمين الذين خضعوا لنظام التربية الحديثة، والفلسفات المادية، التي حجبت عنهم شخصيتهم، وآفاق عالم الروح والقلب، وأعماق النفس البشرية، ومرامي المؤمن القوي الطموح، ولم تصوّر العالم إلا سوق تجارة أو مركز إنتاج، أو حانوت خمر، أو بيت مقامرة، أو مكان تنافس للقيادة، وصراع في مجال الاقتصاد والسياسة، ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

خلق العالم لعالي الهمة:

□ رحم الله إقبال القائل: «إن العالم تراثٌ للمؤمن المجاهد، لا يشاركه فيه أحدٌ، ولا أعدُّ مؤمنًا كاملاً من لا يعتقد أن العالم خلق له».

نعم.. خلق كل شيء لك، وخلقك له، فلا تشغل بها خلقه لك عمّا خلقك له.



وله مقام الإمامة والتوجيه:

إن المسلم لم يُخلَق ليندفع مع التيار، وليسائر الركب البشري حيث اتجه وسار؛ بل خُلِق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية، ويفرض على البشرية اتجاهه، ويُملي عليها إرادته؛ لأنه صاحب الرسالة، وصاحب العلم واليقين؛ ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهاته؛ فليس مقامه مقام التقليد والاتباع، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة، ومقام الإرشاد والتوجيه، ومقام الأمر الناهي، إذا تنكّر له الزمان، وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة، لم يكن له أن يستسلم ويخضع، ويضع أوزاره، ويسالم الزمان، بل عليه أن يثور عليه وينازله، ويظلّ في صراع معه وعراك، حتى يقضي الله في أمره.

□ يقول في بيت: «يقول من لا خلاق له: دُر مع الدهر حيث دار، وإذا لم يسالمك الزمان فسالمه؛ وأنا أقول إذا لم يُسالمك الزمان، فصارعُه وحاربه، حتى يفيء إلى أمر الله».

ويرى أن المؤمنَ غيرُ مأذون بمجاعة الأوضاع؛ بل هو مكلفٌ بمصادمة الأوضاع الفاسدة، يردُّ الأمر إلى نصابه، ويقيمُ سالفه الدهر الغشوم، ويقيمُ العوجَ، ويُصلحُ الفاسد، وإن كلفه ذلك عملية الهدم والنقض، والعملية الجراحية؛ فإن كل ذلك في سبيل البناء والعمارة والإصلاح.

□ يقول في بيت: «على المسلم أن يربِّي في نفسه الروح، وينشيء في هيكله الحياة، ثم يحرق هذا العالم الفاسد بحرارة إيمانه ووهج حياته، وينشيء عالمًا جديدًا».

عالي الهمة:

هو مؤذنُ الفجر في الليل البهيم، وإنَّ أذانه لا يزال صيحةً تدوي في هدوء الليل وسكون الموت، فيُعيد إلى هذا العالم النائم الناعس المتعب حياته ونشاطه، ويؤذنُ بطلوع الصبح الصادق، وانصرام الليل الغاسق. وعلى هذا الأذانِ الصارخ والنداء العالي، الذي ارتفع من جبل «أبو قُبَيْس» قبل ثلاثة عشر قرنًا، استيقظ هذا الكونُ بعد السُّبات العميق، الذي غطَّ فيه خمسة قرون وأكثر؛ وكان نفخة صُور للإنسانية الميتة والعالم المحتضر، وهو الكفيل الآن لإيقاظ الإنسانية، وإحياء الضمير البشري. يقول في بيت: «إن المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه، أشرق العالم واستيقظ الكون».

ويقول في قصيدة: «لست أعلم بالتأكيد مصدرَ هذا الصبح، الذي يطلعُ على هذا العالم كلَّ يوم، ولستُ أعلم سرَّه؛ ولكني أعلم أن السَّحَر الذي يهتُّز له هذا العالم المظلم ويوليُّ به ليل الإنسانية الحالك، إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق»^(١).

إن قوة عالي الهمة خارقة للعادة، مُحيرة للعقدة، معجزة للبشر؛ لأنها مُستَمَدَّة من رسالته وإيمانه، فهو أداةٌ للقدرة الإلهية، وقوةٌ قاهرة، لا تصدُّها الجبال، ولا تقف في سبيلها البحار، «إن يد المؤمن أداة القدرة الإلهية، فهي غلابة، حلالة للعقد والمشكلات، فتاحةٌ للأبواب المقفلة، لبقة صنّاع حاذقة. إن المؤمن جسمه من تراب، فطرته من نور؛ عبدٌ متخلِّقٌ بأخلاق مولاه، قلبه غني عن العالمين».

(١) «روائع إقبال» (ص ٨٣ - ٨٤).



لم يزل العالم يعوزه لوعة ذلك القلب.

قد هزئ المسلمون المؤمنون في عصرهم الأول من الجبال والبحار،
وشقوا طريقهم غير محتفلين بما يعترضهم من أشوالٍ وعقبات.

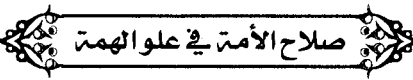
عالي الهممة:

يجمعُ بين التسامح، ورحابة الصدود، وكثرة الصفح، والشدة في
التمسك بالدين، والغضب للحق، والثورة على الباطل، وشدة شكيمة
إذا أبى، ولا يكون المثل الكامل لدينه، والصورة الصادقة للإسلام حتى
يجمع بين هذه الأخلاق المتنوعة، فيجمع بين الشدة واللين والغضب
والرحمة، والصلابة والمرونة، والعفة والنزاهة، ويكون في ذلك آية من
آيات الله، ومعجزة من معجزات الرسول ﷺ.

«إنه الميزان العادل، والقسطاس المستقيم به يُعلم رضا الله وسخطه،
وبه يُعرف الحسن من القبيح، فما راق في نظره، فهو حسن، وما استقبحه
فهو طائش، وفي عزائمه تتجلى إرادة الله.

وهو القرآن الناطق، وهو الدين يسعى على قدميه. ثم عن حياته
متوافقة متشابهة كالطبيعة، فالصبح يطلع كل يوم، والليل يتبع النهار، لا
تخلف فيه، ولا تناقض. وهو صاحبُ معانٍ كثيرة، ونعمة واحدة، فهو
كسورة «الرَّحْمَن» في القرآن، تتجدد معانيه وتكرر فيه آية ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ
رَبِّكَأُكْذِبَانِ﴾ (١١)».

□ وقد صدق الشاعر، فالمسلم لم يزل يُتحف كل عصر بعلومه
وتوجيهاته، ويُنير ظلمات كل عصر بنوره وضيائه، ويضربُ على وتر
واحد، ويكرّر رسالة الأنبياء، ويقول لكل جيل: ﴿يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ



مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿[الأعراف: ٦٥]﴾، فهو كالصبح جديدٌ وقديم، فهو في جدته ليس أجدُّ منه، وهو في قدمه ليس شيءٌ أقدم منه؛ هو قديمٌ لكنه يتجدد به العالم، ويتجدد به الكائنات، وتتعش به القوى، وتستيقظ به الأجسام والقلوب، والعقول؛ ثم جديدٌ بنفسه، تتجدد قواه، ويتجدد نشاطه، وتفتح قريحته مع العصور؛ علمه سيَّار، وعقله مبتكر، ونفسه طموح، وهمة وثابة، وهو كالمر كل قطرة غير الأولى، ولكنها قطرات مطر، كلها تحيي الأرض، وكلها تُنبِت النبات، وكلها تُسقي المزارع والأشجار، وكلها تفتح الأزهار، وكلها تكون الأنهار، وهو معنى قول النبي ﷺ: «أمّتي كالمر لا يُدرى أوّلُهُ خيرٌ أم آخِرُهُ».

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقاً:

□ ويقول محمد إقبال: «إن المسلم كالشمس إذا غربت في جهة، طلعت في جهة أخرى فلا تزال طالعة».

وقد صدق، فإن الإسلام لم ينكَب في ناحية من نواحي العالم، ولم يخسر في جانب دولة إلا وقامت له دولةٌ في جانب آخر؛ ولم تسقط له رايةٌ إلا وخفقت له رايةٌ أخرى؛ ولم يغِب له نجم، إلا وطلع له نجمٌ آخر.

لقد كانت خسارة الأندلس الإسلامية كارثة كبيرة، ومصائباً عظيماً، ولكن عوّض الإسلام بها بدولة فتية من أعظم دول العالم، هي دولة آل عثمان في تركيا قامت في نفس القارة الأوروبية، وجُثمت على صدر الدول والأمم التي انتزعت الأندلس الإسلامية، وأجلت المسلمين من وطنهم العربي الإسلامي.

وكان سقوط غرناطة، وأوج الدولة العثمانية، في عهد سليمان القانوني،



حادثين في عصر واحد. ونُكِبَ العالم الإسلامي، ونُكِبَت بغدادُ بغارة التتار، وانطمست معالم الحضارة الإسلامية، وزُلزل المسلمون زلزالاً شديداً، ولكن في نفس هذه الفترة كانت الدولة المسلمة في الهند تتسع وتزدهر.

وأصيب العالم الإسلامي بهزاتٍ عنيفة، وقواصمَ مؤلة في فجر هذا القرن المسيحي على أيدي الأوروبيين، فقد اقتسمت الدولة الأوروبية تراث الدولة العثمانية كمالِ سائب، واغتصبت مملكتها في أفريقيا، وتقاسم الحلفاء سورية وفلسطين والعراق، ولكن تبَعَ هذا كله اليقظة الإسلامية الهائلة، والوعي السياسي القويم، والطموحُ إلى الاستقلال والحرية، والحركات الإسلامية المختلفة التي كان يجيشُ بها العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.

ونُكِبَ المسلمون في العهد الأخير نكباتٍ عظيمةً في الشرق الأقصى والأوسط، وخسرت الدول العربية فلسطينَ العربية الإسلامية، ولكن في نفس هذه الفترة قامت للمسلمين دولتانِ فتيان في الشرق، إحداهما دولة باكستان والأخرى إندونيسيا.

وهذا لم يزل التاريخ الإسلامي متأرجحاً بين الأسفل والأعلى؛ فما تسفل منه جانبٌ إلّا وترفع جانب آخر، كالأرجوحة تماماً، ولم تتوارَ شمسُه في أفقٍ إلّا وبزغت في أفق آخر، وذلك لأن الإسلام رسالة الله الأخيرة التي لا رسالة بعدها، والمسلمون هم الأمة الأخيرة، التي لا أمة بعدهم؛ فإذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة، وإذا هلكوا فقد غرقت السفينة التي تحمل الذخيرة»^(١).

(١) المصدر السابق (ص ٨٥).

عالي الهمة:

يعرفُ قيمةَ نفسه، وشرفَ إنسانيّته، يعرف ذلك الجوّ الفسيح الذي هيّأه الله لطيرانه وتحليقه، ويعرفُ تلك الكنوزَ البديعة، والقوى الجبّارة، والمواهبَ العظيمة التي أودعها الله في باطنه، يعرف معنى سجود الملائكة لأبيه آدم، والإشارة في ذلك، وأنه إذا كانت الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمّرون الذين يتصرّفون في هذا الكون بأمر الله، ويبلغون رسالاته، فإذا خضعوا لآدم أبيهم فقد خضع له الكون بالأولى، ولذريّته إن استقاموا على منهج الله.

كَلِمَاتٌ لِلْحَيَاةِ:

«عجباً لك أيها المسلم! تجلّت لك الآفاق، وغابت عنك نفسك، إلى متى تظل غافلاً جاهلاً؟ وتجلس ضائعاً عاطلاً، إنّ نورك الوهاج أنار العالم القديم، ونسخ الليلَ البهيم، ولا تزال (اليد البيضاء) التي ورثتها عن موسى في كمّك، تخطّ حدودَ الآفاق الضيقة، فأنت السابق لها والفائق عليها، فقد كنتَ ولم تكن، وستكون ولا تكون، هل تخافُ الموت أيها الإنسان الحي الخالد؟ لقد كان جديراً بالموت أن يخافك، فأنت تكمن له وترصد به.

اعلم يقيناً، أن الكريم إذا وهب شيئاً، لا يسلبه ولا يشرده، وليس حتفُ ابن آدم في فراق الروح، إنما حتفه في ضعف الإيمان، والحرمان من اليقين»^(١).

□ «افتح عينيك -أيها الزهرُ النائم- مثل النرجس الذي لا يُطبق عينه

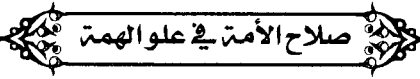
(١) «زبور عجم» لمحمد إقبال (ص ١٦٤).

لحظة، ولا يعرف الكرى إليه سبيلاً، لقد أغار على وكرنا الأعداء، ونهبوا
كلَّ ما فيه، من كنوز وخيرات، ألا يكفي هدير الحمام، وصفير الأذان،
وأنين القلوب والأرواح أن يُوقظك؟! انتبه من هذا السُّبات العميق،
الذي طال أمده واشتدَّت وطأته.

لقد بدأت الشمسُ رحلتها المباركة المتكررة، وارتفع عمودُ الصباح
المنير في بحر الظلمات، وحَزَمَت القوافلُ في الجبال والصحاري أمتعتها،
وضربت أجراسُ الرحيل، فما لك أيتها العينُ الساهرة! التي خلقت لمراقبة
الإنسانية، وحراسة الضعفاء، تنامين، ولا تنظرين إلى ما يدورُ حولك من
الأحداث والتقلُّبات، انتبه من السبات العميق، الذي طال أمده، واشتدَّت
وطأته.

لقد أصبح بحرُك ساكناً كالصحراء، لقد فقد طبيعته وجُده ووقف.
فلا مدَّ فيه ولا جزر، ولا زيادةً فيه ولا نقص، عجباً لهذا البحر الذي لا
يَهِيج ولا يَموج، وليس فيه تمساحٌ طموحٌ مخامر، ولا موجٌ عارمٌ ثائر، لقد
كان جديراً بك أن تقفز من حدوده الضيقة الهادئة، وتفيضَ على البراري
والقفار والنَّجاد والأغوار، انتبه من سُباتك العميق الذي طال أمده
واشتدَّت وطأته.

اعلم أن الوطن جسدٌ من تراب، والدينُ هو الروح، ولا حياة للجسد
والنفس، إلَّا بارتباط الجسد والروح، انهض أيُّها المسلم! وفي إحدى يديك
«المصحف» وفي الأخرى «السيف»، فاجتماعهما تسعدُ البشرية، وتخصب
المدينة، انتبه من السُّبات العميق الذي طال أمده واشتدَّت وطأته.



أنت الناموسُ الأزلي حارسٌ وأمين، ولسيّد هذا الكون يسار ويمين^(١)،
لقد كانت نشأتك من التراب، ولكن بك قوام العالم وبقاء الأمم، اشرب
كأسًا فائضةً من اليقين، وانفض من حضيض الظن والتخمين، انتبه من
السبات العميق، الذي طال أمده، واشتدت وطأته.

الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقول، وسحروا النفوس، الغياث
من هؤلاء الذين خدعوا مرةً بالركة والدلال، ومرةً بالقيود والأغلال،
وتارةً مثلوا دور «شيرين»، وطورًا لعبوا دور «أبرويز»^(٢)، لقد أصبح
العالم كله خرابًا يبابًا بإغارتهم وغزوهم.

يا باني الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انفض لبناء العالم من جديد، انتبه
من السبات العميق، الذي طال أمده واشتدت وطأته»^(٣).

□ «لقد هبّت عليّ نفحة مُنْعِشة من نسيم السّحر في الصباح فناجتني،
وقالت لي: إنّ الذي عَرَف نفسه وعرف قيمته ومركزه، لا يليق به إلاّ
عروش الملوك وأسرّة السلاطين، إنه لا حياة لك ولا قوام، ولا شرف ولا
كرامة إلاّ بهذه «المعرفة»، فإذا ملكتها ملكت العالم، وإذا فقدتها، أصبحت
من سَقَط المتاع، إنه يتربّي في مدرسة شعري وأدبي شباب لا يملكون
درهمًا ولا دينارًا، ولكنهم يملكون صولة السلاطين، ويُحسنون آداب

(١) يعني أنه آله بيد القدرة الإلهية.

(٢) يشير إلى قصة غرامية فارسية قديمة تناقلها الأدباء والشعراء في إيران والهند،
تمثل فيها «شيرين» دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال، و«أبرويز» دور
الملك القاهر الذي عشقها، واستأثر بها.

(٣) «زبور عجم» (ص ١١٦ - ١١٨) باختصار وتوسّع، و«روائع إقبال» (ص ٨٩ -
٩٢) باختصار.

الملوك، إِنَّ لَكَ الْخِيَارَ، فاختر ما شئت.

ولكنني بدوري، لم يعجبني الفرار من الحياة، والعكوف في الزوايا والخلوات.

لقد هَيَّاكَ الله -أيها الشاب المسلم- لاقتناص «هُمَا»^(١)، وما هذه الطيور والأسماء التي تملأ العالم إِلَّا للتمرُّن عليها في بدء أمرِك، ويتلَهَّى بها غيرك. وما نُطَقُّكَ بالشهادتين -أيها المسلم- سواء كنت عربياً أو أعجمياً، إِلَّا حديثاً غريباً، حتى يشهد بك قلبك»^(٢).

«إِنَّ كُلَّ مَا فِي الْعَالَمِ مِنَ الظواهر الكونية، أو الأجرام الفلكية، راحلٌ زائل، وغائب آفل، أنت -عالي المهمة- بطل المعركة، وقائد الجيش، وكلُّ ما حولك من سافلٍ وعالٍ، ورخيصٍ وغالٍ، من جنودك وأتباعك.

أسفاً لك، أيها الرجل! لم تقدِّر نفسك، ولم تحسب لها حساباً، ما أشدَّ جهلك، وما أضيقَ نظرك! إلى متى تجري وراء الدنيا الذليلة وتعبدُها وتحضع لها؟ إمَّا أَنْ ترفضها رفضاً باتاً، وتزهّد فيها وتبتلّ، وإمَّا أَنْ تملك ناصيتها وتسود وتحكم، لا منزلة بين المنزلتين، ولا توسط بين الشهادتين».

بل نقول بمرامي المؤمن القوي الطموح.. ازهد وتبتل واملِك ناصيتها وسد واحكم كدوداد وسليمان ﷺ.. وعمر بن عبد العزيز..

فنحن أناس لا توسط عندنا لنا الصَّدْرُ دون العالمين أو القبرُ

(١) طائر أسطوري في الأدب الفارسي والأردني، يُضرب به المثل في اليأس والسعادة، يُقال: أنه ما أظْلُ إنساناً، وما طار فوق رأسه إنسان إِلَّا وكان ملكاً في يوم من الأيام!!!.

(٢) «بال جبريل» لإقبال (ص ٦٧ - ٦٨).

□ إن السجدة التي هي جديرة بالاهتمام هي السجدة التي تحرّم عليك كل سجدة لغير الله.

□ إن هذا الكون الفسيح ليس وكرُّك الذي تستريح فيه، والغاية التي تنتهي إليها؛ ليست هذه الأرض، التي مادتها التراب، مصدرُ روحك المتوقّدة الوثابة، وعاطفتك الملتهبة؛ أنت مادة الكون، وليس الكون مادّتك.

كُن في تقدّم دائم، ورحلة دائمة، وحطّم هذا الجبل الأصمّ الذي يعترض في طريقك، وتمرّد على هذا الزمان والمكان، وتحرّر من قيودهما، وانطلق من حدودهما، فإن المؤمن إذا عرف قيمة نفسه اقتنص هذا العالم، واقتنص هذه الأرض والسماء في بعض ما يقتنص.

«إن هنالك عوالم وأكواناً، لم تقع عليها عينٌ بعد؛ فإن ضمير الوجود لم يفرغ جعبته، ولا يزال يأتي بجديد؛ وإن هذه العوالم متشوّقة لهجومك، وغارتك، وزحفك؛ متشوّقة لأبكار أفكارك، وبدائع أعمالك؛ إن هذا العالم يدور دورته؛ لتكشف عليك نفسك وحقيقتك.

أنت فاتحُ هذا العالم، ويعجزُ البيانُ عن وصفك، وتعجزُ الملائكة عن غاياتك»^(١).

فَدَتْ نَفْسِي وَمَا مَلَكَتْ يَمِينِي فَوَارِسَ صَدَقَتْ فِيهِمْ ظَنُونِي
فَوَارِسَ لَا يَمْلِكُونَ الْمَنَاسِي إِذَا دَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ الزُّبُونُ^(٢)

(١) «روائع إقبال» (ص ١٣٩ - ١٤٠).

(٢) البيتان لأبي الغول الطهوي. والحرب الزُّبُون: التي تصدم الناس وتدفعهم.

يا عالي الهممة أنت حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح:

جَدَّدَ في بني أُمَّتِكَ الإِيْمَانِ واليَقِيْنَ، فقد عَراهم الظَّنُّ والتَّخْمِيْنَ، إِنَّ
مَقَامَكَ وَمَنْزِلَكَ وَرَاءَ هَذِهِ الْقُبَّةِ الزَّرْقَاءِ وَالسَّمَاءَاتِ الْعُلَى، مَقَامَكَ فِي
غُرْفِ الْفَرْدَوْسِ الْأَعْلَى.. يَنْظُرُ إِلَيْكَ الَّذِينَ فِي أَرْضِ الْجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ النَّاسُ
إِلَى النَّجْمِ الْغَابِرِ فِي الْأَفْقِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ.

إِنَّ رَكْبَكَ يَمْشِي فَوْقَ النُّجُومِ النَّيِّرَةِ وَالْكَوَاكِبِ الْمُتَلَاثَةِ.

إِنَّ هَذَا الْكُونُ بِمَا فِيهِ وَمَنْ فِيهِ، سَاطِرٌ إِلَى الزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ، وَلَكِنَّكَ تَمْلِكُ
الْآمَادَ وَالْأَبْعَادَ، فَإِنَّكَ أَنْتَ رِسَالَةُ اللَّهِ الْخَالِدَةُ الْآخِرَةُ، فَأَنْتَ خَالِدٌ مَعَ
خُلُودِ رِسَالَتِكَ^(١)، وَدَائِمٌ بِدَوَامِ دُورِكَ وَمَهْمَتِكَ.

□ إِنْ دِمَاءُكَ الْقَانِيَةَ عَطُرٌ حِنَاءٍ لِعُرُوسِ الْوَرْدَةِ الْحُمْرَاءِ؛ فَبِدِمَائِكَ
السَّخِيَّةِ الطَّاهِرَةِ تَنْتَعِشُ الْوُرُودُ وَالْأَزْهَارُ، وَيَجْرِي فِي عِرْقِهَا مَاءُ الْحَيَاةِ.

□ إِنْ نَسَبِكَ الْمَعْنَوِي مُتَّصِلٌ بِسَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-
فَأَنْتَ بَانِي الْحَرَمِ وَرَافِعُ قَوَاعِدِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ.

□ إِنْ فَطَرْتِكَ حَارِسَةً أَمِينَةً لِإِمْكَانَاتِ الْحَيَاةِ وَأَسْرَارِ الْوُجُودِ، فَأَنْتَ
الْمَحَكُّ الْأَصِيلُ لَجَوْهَرِ الْكُونِ وَسِرِّ الْحَيَاةِ، وَإِنَّ مَا حَمَلْتَهُ النَّبُوءَةُ مِنْ تَحْفَةٍ
غَالِيَةٍ وَهَدِيَّةِ ثَمِينَةٍ مِنْ عَالَمِ الْمَاءِ وَالتَّرَابِ إِلَى عَالَمِ الْخُلُودِ الَّذِي لَا يَزُولُ وَلَا
يَحُولُ، إِنَّمَا هِيَ أَنْتَ، وَقَدْ انْكَشَفَ هَذَا السِّرُّ الدَّقِيقُ بِمَاضِي الْأُمَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ
وَالْمِلَّةِ السَّمْحَةِ الْبَيضَاءِ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَصِيُّ عَلَى هَذِهِ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ.

□ عُدْ مَرَّةً ثَانِيَةً إِلَى دُرُوسِ الصَّدَقِ وَالْعَدْلِ وَالشَّجَاعَةِ، فَالْكُونُ فِي

(١) وَضَعَ نَصَبَ عَيْنِكَ قَوْلَ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

انتظارك، وقيادة العالم تتطلع إليك وتشرف نحوك.

□ حَطَمَ -أيها المسلم- أصنامَ اللون واللحم والدم، وذُبَ في بوتقة الملة الحنيفة السمحة، لتُصهرَ صهراً جديداً، فلا فروق ولا امتيازات، ولا جنسيات ووطنيات، ولا عصبية وقوميّات.

□ إلى متى تتمتعُ برفقة الطيور المغردة في الحديقة الفيحاء بين الأغصان الرطبة البليلة، أليس بجناحك قوة طيران الصقور المحلقة في الفضاء، التي تُنشئ أوكارها في الجبال الجرداء والشماء.

□ إنه لا تُغني السيوف الصارمة، والعقول الراجحة، في الرق والعبودية فنيلاً، ولا تتحطّم سلاسل العبودية وأصفاد الذل والصغار إلا بطعم الإيمان وذوق اليقين.

مَن الذي يستطيع أن يقدر قوة المؤمن ووصلته؟! إن نظرةً منه والتفاتةً تكفي لتغيير المقادير، وقلب الأوضاع، وهل الولاية والصلاح والغلبة والسلطان، وعلم الأسماء وسعة الإدراك، إلا تفسيراً لكلمة الإيمان.

ولكن البصيرة الإبراهيمية لا تتأتى بسهولة، ولا تُوهب مجّاناً، فكم من الأهواء والأطماع تختفي في مسارب النفس، وتكون لها أعشاشاً وأوكاراً.

□ ألا إن اليقين المحكم الجازم، والعمل المستمر الحاسم، ومحبة الرسول الأعظم فاتح الشعوب والأمم ﷺ هي السيوفُ المسلولة بأيدي الرجال الأبطال في معركة الحياة.

□ ماذا ينبغي أن يتحلّى به الرجل؟ قلبٌ سليم، ونُبُعٌ صافٍ، ودُمٌّ فائر، ونظرةٌ عفيفة، ونفسٌ قلقة ولوعة طموحة.

□ أنت أيها المسلم سرُّ الوجود، فانكشِف على نفسك قبل أن تكشف على غيرك، وبِحِ سِرِّكَ لِسِرِّكَ، وكن أمين «الذات» وترجمان أمر الله.

□ لقد قطع الهوى والطَّمَع بني آدم إربًا إربًا، ومزَّقهم شرَّ ممزَّق، فكن أنت -أيها المسلم- نعمة الأخوة الحانية، ولسان الحبِّ البليغ.

□ يا ملتزم الساحل واللاجئ إلى الشاطئ، اقفرْ بنفسك في خضم البحر فلا تحدِّك حدود، ولا تغلِّك قيود، لقد يَرى على جناحيك غبار اللون والنسل والوطن، فرفرفْ بجناحيك يا طائرَ الحرم قل أن تُخلِّق في الفضاء وانفضْ عنك هذا الغبار.

□ اسبر أغوار قلبك ونفسك، وانزل في الأعماق، فإنها سرُّك، وارفع عن نفسك نير الصباح والمساء وحطم كل القيود والأغلال.. كل قيود الأرض وكل أوهاق وأغلال العبودية لكل ما سوى الله، تعرف قدر الحرية، فتهاجم الحرية في العبودية لرب البرية، والمكاتب عبدٌ ما بقي عليه درهم.

وخلقت طليقًا كطيف النسيم، وحرًّا كنور الضحى في سماءه
تخلّق كالطير أين اندفعت، وتشدو بها شاء وحي الإله
تسبح بين ورود الصباح، وتنعم بالنور أنى تراه
وتمشي -كما شئت- بين المروج، وتقطف وزد الربا في رباة

﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾

كذا صاغك الله، يا ابن الوجود، وألقتك في الكون هذي الحياة
فمالك ترضى بذل القيود، وتحنى لمن كبّلوك الجباه؟
وتُسكِتُ في النفس صوت السماء القوي إذا ما تغنّى صدهاء؟

وَتُطَبَّقُ أَجْفَانُكَ النَّيِّرَاتِ عَنِ الْفَجْرِ، وَالْفَجْرُ عَذْبُ ضِيَاهِ؟
وَتَقْنَعُ بِالْعِيشِ بَيْنَ الْكَهَوفِ فَأَيْنَ النَشِيدُ؟ وَأَيْنَ الْإِبَاهُ؟
أَتَخْشَى نَدَاءَ السَّمَاءِ الْجَمِيلِ؟ أَتَرْهَبُ نُورَ الْفَضَاءِ فِي ضُحَاهِ؟
أَلَا نَهْضُ وَسِرٌّ فِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ، فَمَنْ نَامَ لَمْ تَنْتَظِرْهُ الْحَيَاةُ؟
وَلَا تَخْشَ نَمًّا وَرَاءَ التَّلَاعِ.. فَمَا تَمَّ إِلَّا الضُّحَى فِي صَبَاهِ..
وَالْأَرْبَعُ الْوُجُودِ الْغَرِيرُ، يَطْرَرُ بِالْوَرْدِ ضَافِي رَدَاهِ..
وَالْأَرْبَعُ الزُّهُورِ الصُّبَاحِ، وَنُورُ الْأَشْعَةِ بَيْنَ الْمِيَاهِ
وَالْأَحْمَامُ الْمَرْجُ الْأَنْيَقُ، يُعَرِّدُ، مَنْطَلِقًا فِي غَنَاهِ..
إِلَى الثُّورِ! فَالنُّورُ عَذْبُ جَمِيلٍ، إِلَى النُّورِ! فَالنُّورُ وَصْفُ الْإِلَهِ

□ إِذَا صَادَقَتْكَ مَعْرَكَةُ الْحَيَاةِ فَكُنْ لَهَا حَدِيدًا صُلْبًا، وَإِذَا غَاظَلَتْكَ لَيْلَةُ
الْحُبِّ فَكُنْ لَهَا حَرِيرًا نَاعِمًا، شُقِّ لَكَ الطَّرِيقَ فِي التِّبَابِ الْقَفَارِ، وَحَطِّمْ
الْجِبَالَ بِسَيْلِكَ الْعَرَمِ وَتِيَارِكَ الْعَنِيفِ، وَإِنْ اعْتَرَضَتْكَ حَدِيقَةُ فِي الطَّرِيقِ،
فَنَاقِمَهَا بِجَدُولِكَ الْجَمِيلِ الْمُنْسَابِ، الَّذِي لَهُ خَرِيرٌ يُسَكِّرُ النُّفُوسَ وَيُبْهِرُ
الْأَلْبَابَ.

□ إِنْ عَلِمَكَ وَحْبَكَ لَا يَعْرِفَانِ الثُّغُورَ وَالْحُدُودَ، وَلَا يَعْتَرِيهِمَا الزَّوَالُ
وَالْفَنَاءُ، وَلَيْسَ فِي قِيَارَةِ الْكُونِ أَنْشُودَةٌ أَحْلَى مِنْكَ.
□ عَلَّمَ الْبَلَابِلَ دُرُوسَ التَّغْرِيدِ، وَانْفَخَ فِي الطُّيُورِ رُوحَ الْخِفَّةِ
وَالنَّشَاطِ، وَافْتَحَ أَكْبَامَ الزُّهُورِ وَالرِّيَّاحِينَ، فَأَنْتَ نَسِيمُ السَّحَرِ، وَنَفْحَةُ
الرُّوْحَةِ النَّدِيَّةِ.

□ لَقَدْ التَّهَبَّتْ جَمْرَةُ الْحُبِّ وَالْإِيمَانِ وَالنَّخْوَةِ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ كَرَّةً ثَانِيَةً،
وَأَصْبَحَتْ الْأَرْضُ حَلْبَةً لِلْفَرَسَانِ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ عَلِيٍّ الْهَمَّةِ مُجِيدٍ، وَمِنْ

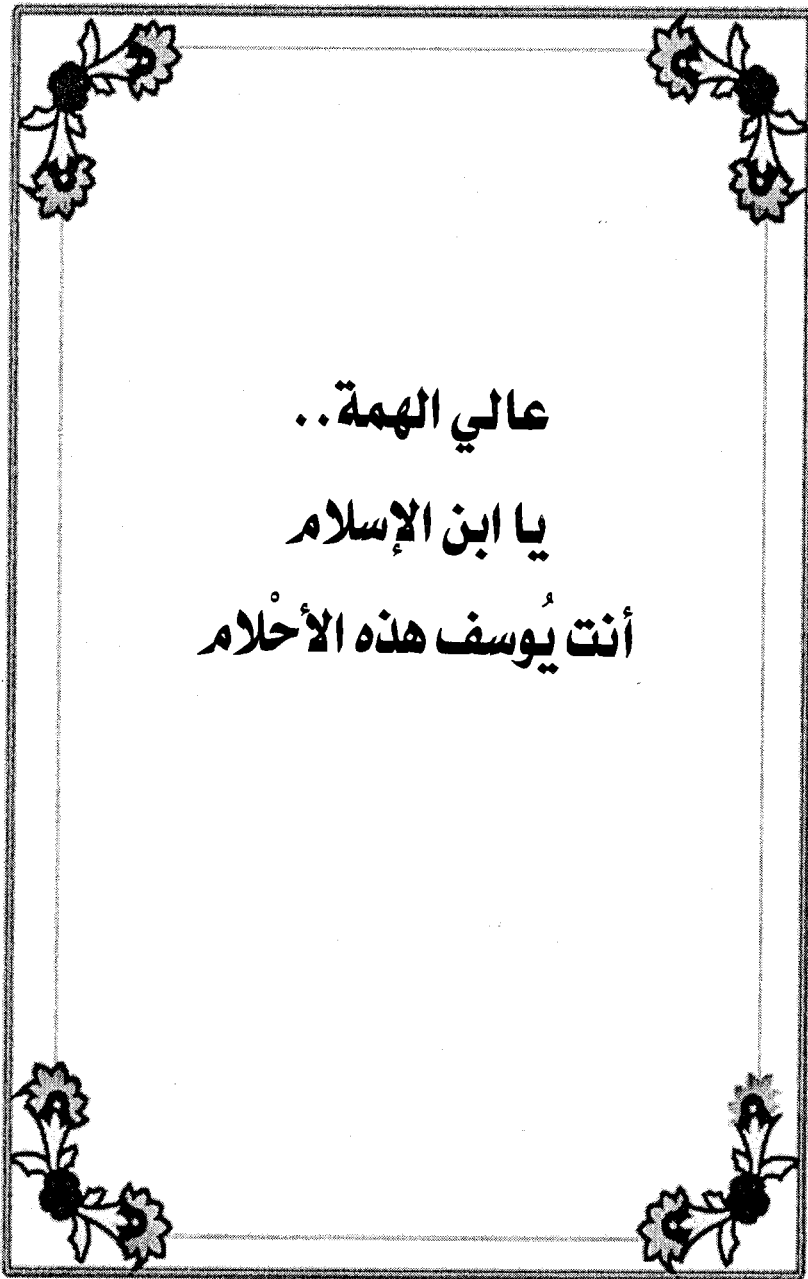
الأباه الشُّمّ ذوي الهِمّة القعساء والنّظر البعيد.

□ إن اليقين المسلم عالي الهِمّة وإيمانه في عالم الظّن والتخمين،
كمصباح الرّاهب في الصحراء في ظلمات الليل البهيم، ما الذي أصاح
بعروش كسرى وقيصر، وقضى على ظلمهما وجورهما؟ إنه قوّة علي، وفقّر
أبي ذر، وصدّق سلمان.

□ انظر إلى رُكّب المؤمنين الأحرار، كيف يَشُقُّ طريقه في أُبْهَةِ وجمال،
ويتطلّع إليه من فتحات الأبواب أسرى القرون والأجيال.

□ إنّ هذه الشُّعلة من طين، عندما تتحلّى بالإيمان واليقين، تكتسي
بأجنحة الرُّوح الأمين، وتطيرُ بها في العالمين.





عالي الهمة.. يا ابن الإسلام أنت يوسف هذه الأحلام

هـ أخي:

أنت كنز الفضائل، ما من فضيلة فيك إلا ويطلع الإسلام عليها
صورة الجنة، ولا رذيلة تتحاشاها إلا والإسلام يضع عليها صورة النار
التي وقودها الناس والحجارة.

كان التاريخ واقفًا لا يتزحزح، ضيقًا لا يتسع، جامدًا لا ينمو حتى
جاء المسلم أخو الشمس يطلع بنوره كل يوم على الدنيا.

هـ أخي:

أنا على يقين دائمًا أن المسلم معه الغد وآتيه، وإن أدبر عنه اليوم
وزاخره، إن المسلم ليس رجل الأرض في الأرض، ولكنه رجل السماء في
الأرض، إنه يتسع في الزمان والمكان من حيث لا يرى ذلك أحد ولا
يعلمه، وكأنها كانت شمس فجره الآتي الذي سيتصر فيه، قبل أن تشرق
على الدنيا مشرقة في قلبه.

هـ أخي:

أنت للدنيا كالمنارة على الساحل تهدي الحائرين وترشد الأدلاء.

أنت أولى الناس بقول القائل:

وحقيقتي نورٌ فإلي سابعًا

في لجة الظلمات والأشجان

أنا أمة فيما أريد لأمتي

وولايتي دنيا من الأجيال

فاخلق لنفسك نشوة

في المجد ترهب في العرين أسودا

واجعل نشيدك قول ربك لا تحف حتى يهاب البرق منك رعوداً^(١)

يا ابن الإسلام:

إن هذه الشعلة من طين، عندما تتحلى بالتوحيد والإيمان واليقين، تكتسي بجناحي الروح الأمين، وتطير بهما في العالمين.

كن عبداً لربك تكن حراً، قل لكل قيود الأرض: لا، لا يا قيود الأرض، فإنه لا تغني السيوف الصارمة، والعقول الراجحة في الرق والعبودية فتيلًا، ولا تتحطم سلاسل العبودية وأصفاد الذل والصغار إلا بطعم الإيمان وذوق التوحيد واليقين.

كـ أخـي:

إن البصيرة الإبراهيمية والعزة والإسلام والتوحيد لا تتأتى بسهولة، ولا توهب مجاناً، فكم من الأهواء تحتفي في مسارب النفس وتكوّن لها أعشاشاً وأوكاراً.

يا ابن الإسلام ويا يوسف الأحلام:

كن نعمة الأخوة الحانية، ولسان الحبّ البليغ.. انطلق للدعوة إلى الله وَعَلَّاهُ.. لا تحدك حدود، ولا تغلك قيود، رفر بجناحيك يا طائر الحرم، وقبل أن تحلق في الفضاء، انفض عنك غبار اللون والنسل والوطن والتراب، شقّ لك الطريق في اليباب القفار، وحطّم الجبال بسيلك العرم وتبارك، وإن اعترضتك حديقة في الطريق فناغمها بجد ولك الجميل المناسب، الذي له خريز يُسكر النفوس ويبهر الأبواب.

(١) «إقبال الشاعر الشاعر» (ص ٦٩) لنجيب الكيلاني.

عَلَّمَ البلبَل دروس التغريد و لحن التوحيد، وانفخ في الطيور
روح الخفة، وافتح أكمام الزهور والرياحين، فأنت نسيم سحر العالم،
ونفحة روضته الندية..

فدت نفسي وما ملكت يميني فوارس صَدَّقْتُ فيهم ظنوني
فوارس لا يملّون المنايا إذا دارت رحي الحرب الرِّبُون^(١)

يا ابن الإسلام:

أحب شيء إلى نفسي أعزّه وجودًا وأبعده منالًا.. أبحث عن عملاق
من الرجال وبطل من الأبطال، يملأ عيني برجولته، ويروّح نفسي..
مسلم يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه وبقينه، وبين أهل الجبن
والخوف بشجاعته وقوته الروحية، وبين عبّاد الرجال والأموال والأصنام
والملوك بتوحيده الخالص، وبين عبّاد الأوطان والألوان والشعوب
بأفانياته وإنسانيته، وبين عبّاد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرّده من
الشهوات وتمرّده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة، وبين
أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكبر نفسه، يعيش برسالته ولرسالته.
إنك أيها المسلم في العالم وحدك، وأما ما عداك فسرّاب خادع ودرهم
زائف.

أنت نقطة دائرة الحق، وكل ما عداك فسرّاب خادع ودرهم زائف.
أنت أنت لا تتغير ولا تتحول، وأما ما عداك فزبد يذهب جفاءً.
أنت الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، وما عداك

(١) لأبي الغول الطهمي، والحرب الزبون هـ: التي تصدم الناس وتدمغهم.

شجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

بقاؤك كبقاء الشمس والكواكب النيرة؛ لأنك تحمل رسالة خالدة،
وتحتضن أمانة خالدة، وتعيش لغاية خالدة، أنت رمز لرسالات الأنبياء،
وأذنانك إعلان للحقيقة التي جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد
(صلى الله عليهم وسلم).

أنت رسالة الله الأخيرة، فلا يعثرها النسخ والتبديل.

أنت موج من أمواج بحر الإسلام الخضم، يأتي موج ويذهب موج،
وتترامى الأمواج في أحضان البحر وتتلاشى في وجوده، والبحر لا يتغير؛
فالبحر امتداد دائم، كبحر الحياة وبحر الوجود، تتبدل أمواجه ولا يتبدل
كيانه.

إن العالم ميراث للمؤمن، لا يشاركه فيه أحد، خُلق وسُخر له.

على الأذان الصارخ والنداء العالي، الذي ارتفع من جبل «أبو قبيس»
قبل ثلاثة عشر قرناً، استيقظ هذا الكون بعد السبات العميق، وكان نفخة
صور للإنسانية الميتة والعالم المختصر، وهو الكفيل الآن بإيقاظ الإنسانية
وإحياء الضمير البشري.

إن المؤمن إذا نادى في الآفاق بأذانه، أشرق العالم واستيقظ الكون.

إن الفجر الذي سيهتز له هذا العالم المظلم ويُولي به ليل الإنسانية
الحالك إنما ينشأ بأذان المؤمن.

إن المسلم حقيقة عالمية لا تنحصر بين حدود الجنسية والوطنية
الضيقة، بل تتخطى حدود المكان والزمان، وتفيض كالطبيعة البشرية،
وكالإنسانية العامة، في مساحة زمانية شاسعة، كمساحة التاريخ

الإسلامي، وفي مساحة مكانية واسعة كمساحة العالم الإسلامي.

✍ إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود، ولا يعرف أفقه الثغور، ليس النيل والفرات وسيحون وجيحون إلا أمواجًا صغيرة في بحره المتلاطم. عصوره عجيبة وأخباره غريبة، نسخ العهد القديم، وغير مجرى التاريخ. هو في كل عصر ساقى أهل الذوق، وفي كل مكان فارس ميدان الشوق، شرابه رحيق دائماً، وسيفه ماضٍ في كل معركة.

✍ إن المؤمن هو الميزان العادل، والقسطاس المستقيم، به يُعلم رضا الله وسخطه، وبه يعرف الحسن من القبيح، فما راق في نظره فهو حسن، وما استقبحه فهو طائش، وفي عزائمه تتجلى الإرادة القوية، وهو الدين يسعى على قدميه، هو صاحب معان كثيرة، وشدو واحد، فهو كسورة الرحمن في القرآن، تتجدد معانيه وتكرر فيه آية: ﴿فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن]، ينير ظلمات كل عصر بنوره وضيائه، ويكرر رسالة الأنبياء، ويقول لكل جيل: ﴿يَقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥].

✍ هو كالصبح جديد وقديم، فهو في جدته ليس أجَد منه، وهو في قَدَمه ليس شيء أقدم منه؛ هو قديم لكنه يتجدد به العالم، وتتجدد به الكائنات، وتتعش به القوى، وتستيقظ به الأجسام والقلوب والعقول؛ ثم هو جديد بنفسه، تتجدد قواه ويتجدد نشاطه، وتفتح قريحته مع العصور، علمه سيّار، وعقله مبتكر، ونفسه طموح، وهَمَّتْه وثّابة، وهو كالمنطر كل قطرة غير الأولى، ولكنها قطرات، كلها تحيي الأرض، وكلها تنبت النبات، وكلها تسقي الزروع والأشجار، وكلها تفتح الأزهار،

وكلها تكوّن الأنهار.

• قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر...».

عجباً لك أيها المسلم! تجلّت لك الآفاق، وغابت عنك نفسك؟ إلى متى تظل غافلاً جاهلاً؟ وتجلس ضائعاً عاطلاً، إن نورك الوهاج أنار العالم القديم، ونسخ الليل البهيم، ولا تزال اليد البيضاء التي ورثتها عن موسى في كمّك، تتخطى حدود الآفاق الضيقة، فأنت السابق لها والفائق عليها، هل تخاف الموت؟ لقد كان جديراً بالموت أن يخافك، فأنت تكمن له وترصد به.

اعلم يقيناً، أن الكريم إذا وهب شيئاً لا يسلبه ولا يسترده، وليس حتف ابن آدم في فراق الروح، إنما حتفه في ضعف الإيمان والحرمان من اليقين.

❦ أخي:

افتح عينيك أيها الزهر النائم مثل النرجس الذي لا يطبق عينيه لحظة، ولا يعرف الكرى إليه سبيلاً، لقد أغار على وكرنا الأعداء، ونهبوا كل ما فيه من كنوز وخيرات، ألا يكفي هدير الحمام، وصفير الآذان، وأنين القلوب والأرواح، وبكاء الشكالي واليتامي، وصراخ السبايا أن يوقظك؟! انتبه من هذا السبات العميق، الذي طال أمده واشتدت وطأته.

لقد بدأت الشمس رحلتها المباركة، وارتفع عمود الصباح المنير في بحر الظلمات، وحزمت القوافل في الجبال والصحاري أمتعتها، وضُرب نفير الرحيل، فما لك أيتها العين الساهرة! التي خُلقت لمراقبة الإنسانية، وحراسة الضعفاء تنامين؟

يا ابن الإسلام:

لقد أصبح بحرك هادئاً ساكناً كالصحراء، لقد فقد طبيعته، فلا مدّ فيه ولا جزر، عجباً لهذا البحر الذي لا يهيج ولا يموج، وليس فيه تمساح طموح مغامر، ولا موج نائر عارم!

اقفز من حدودك الضيقة الهادئة لتفيض على البراري والقفار والنجاد والأغوار.

بك قوام العالم وبقاء الأمم، فاشرب كأساً فائضة من اليقين، وانفض من حضيض الظن والتخمين.

يا ابن الإسلام:

الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقول، وسحروا النفوس، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرة بالرقعة والدلال، ومرة بالقيود والأغلال.

إن الذي عرف نفسه وعرف قيمته لا يليق به إلا عروش الملوك وأسرّة السلاطين، إنه لا حياة لك ولا قوام، ولا شرف ولا كرامة إلا بهذه المعرفة، فإذا ملكتها ملكت العالم، وإذا فقدتها أصبحت من سقط المتاع.

يا يوسف هذه الأحلام:

إن كل ما في العالم من الظواهر الكونية، أو الأجرام الفلكية، راحل زائل، وغائب آفل، وأنت أيها المسلم بطل المعركة، وكل ما حولك من سافل وعالٍ، ورخيص وغالٍ، من جنودك وأتباعك.

أخي:

يا وارث التوحيد يا أنا! هل أصبحت كسائر الناس لا تحمل روحاً ولا تجذب نفوساً؟

إن السجدة التي كانت تهتز لها روح الأرض، طال عهد المحراب بها،
واشتاق إليها المسجد كما تشتاق الأرض الجديية الخاشعة إلى المطر؛ لم
أسمع ذلك الأذان الذي ارتعشت له الجبال الأمس.
لم أر في محيطك أيها المسلم لأولؤة الحياة، قد بحثت عنها موجة موجة،
وتفقدتها صَدَفَة صَدَفَة.

❦ أخِي:

إذا رأيت النجوم شاحبة منكدرة تخفق، فاعلم أن الفجر قريب، ها
هي الشمس قد ذرّ قرنهما من الأفق، وولى الليل على أدباره، إن عاصفة
الغرب على الإسلام قد أعادت المسلم إلى الإسلام، فإنما تتكون اللآلئ في
البحر المتلاطم الهائج، لقد دب ديبب الحياة في المسلم، وجرى الدم في
عروقه.

❦ يا حُرّاس الدين وأمناء الله في العالمين، يا من لو أقسمتم على الله
لأبركم، إذا تألق نجمكم في آفاق السماء أفلت نجوم الآخرين، وطوي
بساطهم، لن تسعكم الصحراء والفيافي. فاضربوا خيمتكم في وجودكم
الذي يسع الآفاق، كونوا أسرع من العاصفة وأقوى من السيل، حتى
تسرع ركائبكم في مضمار الحياة وتسبق الريح.

امتلکوا ناصية الأيام، خذوا عنان التاريخ، وقودوا قافلة البشرية إلى
الغاية المثلى.

من الذين أكرمهم الله بالسبق إلى قراءة القرآن سواكم؟! من الذي
دوّى أذانه في العالمين غيركم؟! هل العلم إلّا فتات مائدتكم، وهل قوله
تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] إلّا وصف حالكم؟!.

مرّ الإسلام على صحرائكم فأنبئت الأزهار والرياحين، صهيل خيل
أبي سليمان خالد بن الوليد، وسيف صلاح الدين، ونظرة الزاهد الأواب
بشر بن الحارث، وذكر الفضيل بن عياض، وفكر ابن تيمية، ودويّ
التكبير والصلوات، وزمزمة جَلْبَة الحروب والفتوح بين الخافقين.

﴿أخي:﴾

إني أرى في مرآة المستقبل عصراً لا يزال في طيّات الغيب، قد بدت
تباشيره، وظهرت طلائعه لعيني، ولكنها لا تزال محجوبة عن أعين
الناس، لو كُشف الغطاء عن وجه هذا الفجر المرتقب، لشقّ ذلك على
أوروبا، وفقدت رشدّها وجُنّ جنونها، هذا الفجر سيوقظ العقول، ويهزّ
النفوس، ويزهر الآمال في الصدور، قد آن أن تشرق الأرض بنور ربّها،
ويعيش العالم من جديد.

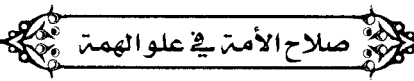
يا ابن الإسلام:

أنت البغية المنشودة، وبحرك زاحر بالدرر والآلئ.

﴿أخي:﴾

لا تربط نفسك وقلبك بالتراب، والحمم المسنون، والحجارة والقرميد.
إن الصقور لا تستريح ولا تهدأ في الأوكار.

أتمهي من القمة العالية، وتهبط من تلك العلياء التي رفعك إليها
الإسلام؟! أصبحت لطول عهدك بالفتوحات لا تفهم لغة الصهيل
والسيوف، وإهابة الشجعان المجاهدين، ألفت نغمة المغنين، وعشت بين
الآهات والزفرات والأنين، فقدت عيناك النور، وحرمت قلبك لذة
السرور.



يا يوسف هذه الأحلام:

جَدّد فيك الإيمان واليقين، فقد عراك الظن والتخمين، إن مقامك
ومنزلك وراء هذه القبة الزرقاء والسموات العلى، وإن رَكْبك يمشي فوق
النجوم النيرة والكواكب المتلألئة.

يا ابن الإسلام:

أنت وحدك تملك الآماد والأبعاد، أنت رسالة الله الأخيرة، وأنت
خالد بخلود رسالتك، دائم بدوام دورك ومهمتك.
هـ أخي:

إن ما حملته النبوة من تحفة غالية وهدية ثمينة، من عالم الماء والتراب
إلى عالم الجنان والخلود الذي لا يزول ولا يحول، إنما هي أنت، وقد
انكشف هذا السر الدقيق بماضي الأمة الحنيفية والملة السمحة البيضاء،
أنت متصل النسب المعنوي بأبيك إبراهيم، خلقت لتحيا مع الله في جواره
في فردوسه في دارِ غَرْس غَرْسها الرحمن بيده.

إلى متى تتمتع برفقة الطيور المغردة في الحديقة الفيحاء بين الأغصان
الرطبة البليلة، أليس بجناحيك قوة طيران الصقور المحلقة في الفضاء،
التي تنشئ أوكارها في الجبال الجرداء السماء.

هـ أخي:

ما أعذب هذه الكلمات على شفتيك:

أنا مسلم والنور ينبض في دمي	ولسان كل المكرمات لساني
أنا مسلم والشمس تألف هامتي	والسائرون بدرها إخواني

يا يوسف هذه الأحلام:

أنت وحدك من يعي ويفهم قول الصادق الأمين ﷺ: «إنما الناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة»^(١).

أردد قولك وأسطره في فهمك للحديث: «إنما قال: الناس كإبل مئة»، ولم يقل: «الدعاة كإبل مئة» بل نحن الرواحل كلنا فاقترح فأنت لها..

قد غرسنا الدين في أرض القلوب	وجلونا الحق من ستر الغيوب
ومن الدنيا حللنا العقدا	واستنار التُّرب منا سجدا
من دنان الحق صرّفنا الرحيق	وهدمنا حانة الكفر العتيق
كأسنا كانت سراج المحفل	صدرنا كان لقلب مشعل
إن هذا العصر من آثارنا	من عجاج ثار في تسيارنا
نحن وراث هداة للبشر	نحن عند الحق سرٌّ مدّخر
لا تزال الشمس تُبدي نورنا	غيمنا فيه بروقٌ وسنا ^(٢)

أخي: ألا تشاق لحمل راية الإسلام في فجره الآتي:

يا راية بالنور خافقةً يهفو إليك السمعُ والبصر
هيا.. فإن الدهر مُرْتَقِبٌ ومواكب التاريخ تنتظر



(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي وابن ماجه، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) من كتاب «تأملات» لمحمد إقبال - ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام.

يا يوسف الأحلام:

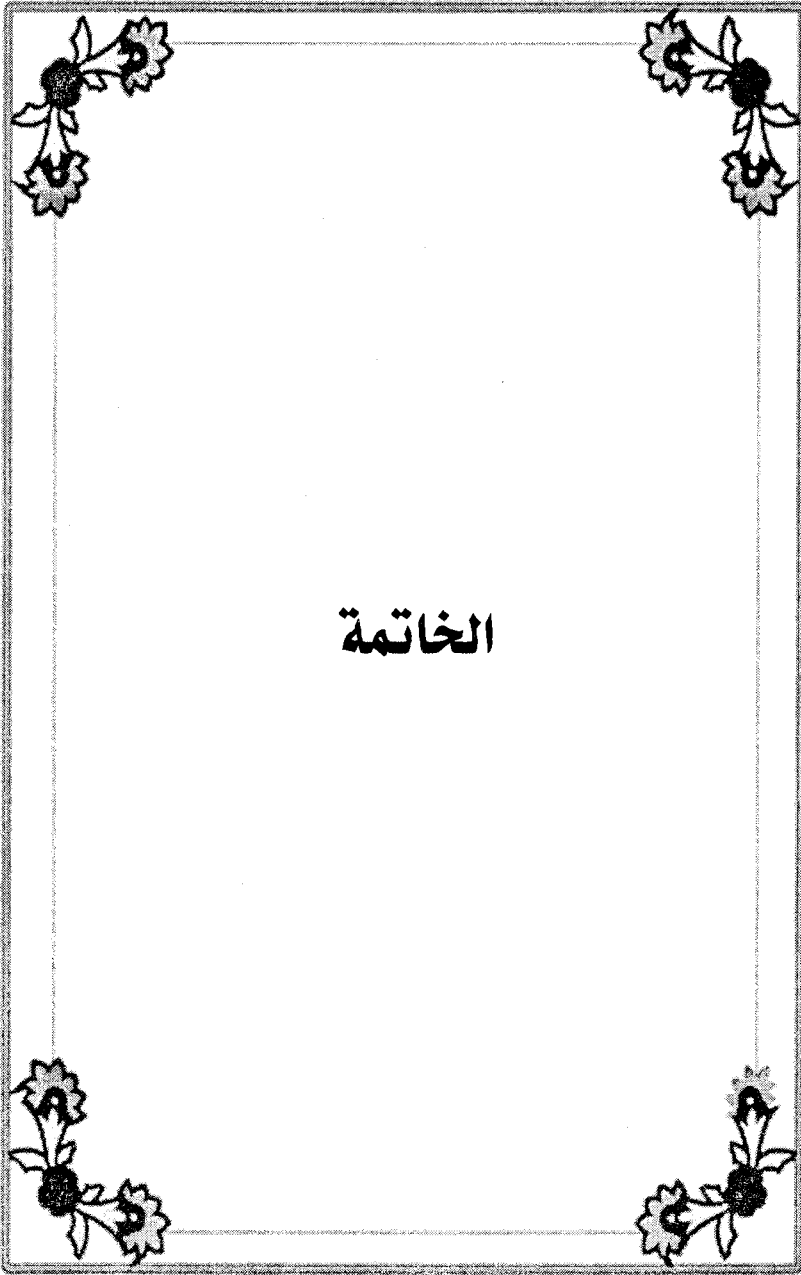
أخي إن فجرك آتٍ،..
وصبحك يركض نحو بلادٍ
يُعشعش في قلبها العنكبوتُ
الضياء الذي في فؤادك يسهلُ..
والليل ليلٌ مقيتٌ
وهل أنت إلا جوادٌ يخبُ..
وسيفٌ مجرّدٌ؟
فهل نفروا مثلما قد نفرتَ..
وهل شهدوا مثلما.. أنت مُشهدٌ؟
وهل عرفوا لغة السيف يا بئى المذلة..
يا سيفنا المشرّب الذي..
ليس يُغمدُ؟
وها أنت طاولت كل النجوم..
وها هم عبيد القروء
وها هم وطاءٌ لكل مشرّد
تساميت كالأقحوان..
وأرهفت.. والكل جَلُمْد
فهُم كالحجارة.. لا حسّ فيها
ولكنك الآن نَبْعٌ تَوَلَّد

وهل أنت إلا كتابٌ..
سيقروهُ القادمون حروفاً تُغرِّدُ؟
وهل أنت إلا الثباتُ الأبيُّ..
وهل أنت إلا التجرُّدُ
وهل أنت إلا الزمان التقيُّ
يخاطبنا عبر هذي التقيُّ
يخاطبنا عبر هذي الفيافي
فنصحو ونسعدُ؟
ويدمغ من يذبحون الرجولة فينا
ويدحض من يفقدون اليقين المؤكد
وصوتك يا حَبِئنا
منذ حلَّ المساء..
وأوغل هذا الظلام المعربدُ
وعادت خفافيشه تترصَّدُ
يسافرُ في زمرة القابضين
على الجمر.. والجمرُ موقدُ
فلا تبتئس،
إنَّ فينا من الذكر آيا
نُصَبِّرُنا في التهجدُ
وفينا من القبس النبويّ..

مشاعل ضوء تبث اليقين.. بأرواحنا
في زمان التردُّد^(١).



(١) من قصيدة: «لأنك لا تعرف العيش إلَّا حُسَامًا» من ديوان «الجواد المهاجر» لطاهر العتباني (ص ٢١ - ٣٠).



الخاتمة

﴿أخي، لتكن لك همّة تنطحُ الشّريّا.

«إذا أُعطي العبدُ همّة كبرى؛ ارتحلت به في دروبِ الفضائل، وصعدتْ

به في درجاتِ المعالي.

ومن سَجَايا الإسلامِ التحلّي بِكِبَرِ الهِمّةِ وجلالةِ المقصودِ، وسموّ

الهدفِ وعظمةِ الغايةِ.

فالهِمّةُ هي مركزُ السَّالِبِ والموجِبِ في شخصِكَ، الرقيبُ على

جوارِحِكَ، وهي الوقودُ الحِسِّي والطاقةُ الملتَهبةُ، التي تمدُّ صاحبَهَا

بالوُثوبِ إلى المعالي، والمسابقةُ إلى المحامدِ. وكِبَرُ الهِمّةِ يجلبُ لك -بإذنِ

الله- خيراً غيرَ مجذوذٍ؛ لترقى إلى درجاتِ الكمالِ، فيُجري في عروقِكَ دمُ

الشّهامةِ، والرَّكُضُ في ميدانِ العلمِ والعملِ، فلا يراك الناسُ واقفاً إلّا على

أبوابِ الفضائلِ، ولا باسطاً يديكَ إلّا لمِهَمَّاتِ الأمورِ، تُنافسُ الرّوّادَ في

الفضائلِ، وتزاحمُ السّادةَ في المزايا، لا ترضى بالدُّونِ، ولا تقفُ في

الأخيرِ، ولا تقبلُ بالأقلِّ.

والتَّحَلّيُ بالهِمّةِ؛ بها يُسَلَبُ منك سَفَاسِيفُ الآمالِ والأعمالِ، ويُحْتَتُّ

منك شجرةُ الذلِّ والهوانِ، والتملُّقُ والمداهنةُ.

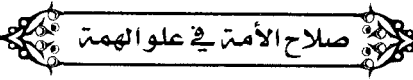
فكبيرُ الهِمّةِ ثابتُ الجأسِ لا ترهبُهُ المواقِفُ، وفاقِدُها جبانٌ رِعْدِيدٌ،

تُغْلِقُ فَمَهُ الفهاهةُ.

ولا تغلُطُ فتخلُطُ بين كِبَرِ الهِمّةِ والكِبَرِ؛ فإنَّ بينهما من الفرقِ كما بين

السَّماءِ ذاتِ الرّجُعِ والأرضِ ذاتِ الصّدعِ، فكِبَرُ الهِمّةِ تاجٌ على مَفْرِقِ

القلبِ الحَرِّ المِثْأَلِ وَالْقُدَاسَةِ وَالزِّيَادَةِ



والفضل، فكبيرُ الهمةِ يتلَمَّظ على ما فاتته من محاسن، ويتحسّر على ما فقده من مآثر، فهو في حينٍ مستمرٍ، ونهمٍ دؤوبٍ، للوصولِ إلى الغايةِ والنهايةِ. كِبَرُ الهمةِ حِلْيَةُ ورثةِ الأنبياءِ، والكِبَرُ داءُ المرضى بعِلَّةِ الجبابةِ البؤساءِ. فكِبَرُ الهمةِ تصعدُ بصاحبها أبداً إلى الرُّقيِّ، والكِبَرُ يهبطُ به دائماً إلى الخُضْيضِ.

فيا طالبَ العلمِ، ارسُمْ لنفسِكَ كِبَرِ الهمةِ، ولا تنفلتْ منها، وقد أمّا الشرعُ إليها في فقهيّاتٍ تلايسُ حياتك؛ لتكونَ دائماً على يقظةٍ من اغتنامها، ومنها: إباحةُ التيمُّمِ للتكَلّفِ عند فقدِ الماءِ، وعدمُ إلزامِهِ بقبولِ هِبَةِ ثمنِ الماءِ للوضوءِ؛ لما في ذلك من المِنَّةِ التي تنالُ من الهمةِ منالاً.. وعلى هذا فقس..

هممٌ كأنَّ الشَّمْسَ تخطُبُ وُدّها والبدرَ يرسمُ في سَناها أحرفاً

فاللهَ اللهُ في الاهتمامِ بالهمةِ، وسلَّ سيفها في غمراتِ الحياةِ..
هوَ الجُدُّ حتّى تفضّلَ العَيْنُ أختها وحتى يكونَ اليومُ لليومِ سيّداً^(١)

يا ابنَ الإسلامِ.. ويا عاليَ الهمةِ:
فأطلقْ لروحِكَ إشراقها ترَ الفجرَ يرمقنا من بعيد
وقلْ لكلِّ حاقدٍ صليبيٍّ أو يهوديٍّ أو علمانيٍّ -: أخساً؛ فلنَ تعدو
قدرك..

لا تهَيِّئْ كَفَنِي يا عاذلي فأنا لي مع الفجرِ موثيقٌ وعهدُ
واهْدِرْ بصوتِكَ مجلجلاً يُصمُّ آذانهم:

(١) «لا تحزن» لعائض القرنبي (ص ٢٨٦ - ٢٨٧).

أناضل عن دينٍ عظيمٍ وهبته
وتمثّل لي لله أسلَم وجهه
بظهري بيطني بالذراع بمقلتي
تأخّرتُ دهرًا باللذائذِ والمنى
فلم أَر يوماً كالتقدّم لذّة
على ذرّة التوحيد تحفّق رايتي
عطاء مُقلّ مُهَجّتي وحياتنا
يقول أنا وَحْدِي سَأْحي ديننا
بجني بعظم الصّدر حتى التّراقيا
ومن حذر الدنيا وخوف العواديّا
ولم أَر عيشًا عيشًا كالتقدّم هانبا
وتحت روايبها تصبّ دمائيّا

وعلى الذرا.. ومنازل الدنيا؛ ردّد للكون نداءك: «ليبلغنّ هذا الأمر
ما بلغ الليل والنهار»..

إلى الجدرانِ شُدوني	لإسلامي ولو حتّى
إلى النيرانِ زفوني	لإسلامي ولو حتّى
ولو في السّوقِ باعوني	لإسلامي لإسلامي
له عِرقي وتكويني	وإسلامي له نبضي
تُعابِشني تغذّيني	وثارات لإسلامي
وتنبّض في شراييني	تبثّ النور في رُوحِي

هـ أخي:

قد أطلتُ عليك.. وأسهبْتُ في بعضِ المواطنِ واستطردتُ، ولعلّ لي
عذري.. وتركتُ فُصُولاً أخرى لطبعاتٍ تالية..

هـ أخي القارئ:

هذا جَمْعِي، لك غنمُه وعليّ غرْمُه، لك ثمرته وعليّ تبعته؛ فما
وجدتُ فيه من صوابٍ حَقٍّ فاقلُّه ولا تلتفتْ لقائله، وما وجدتُ فيه

من خطأ فَإِنَّ قائله لم يَأَلْ جهدَ الإِصابة، ويعلمُ اللهُ أنْ أَخْذَضَ من لحمي ودمي، ويأبى اللهُ إِلَّا، تَفَرَّدَ بِالْكِمالِ، كما قيل:

وَالنَّقْصُ فِي أَصْلِ الطَّبِيعَةِ كَامِنٌ فَبْنُوا الطَّبِيعَةَ نَقْصُهُمْ لَا يُجَحِّدُ

وكيف يُعَصِّمُ من الخطأ من خَلِقَ ظُلُومًا جَهُولًا؟؟!

ومن الفألِ الحَسَنِ لهذا الكتابِ - وأسألُ اللهُ بِكُرمِهِ أني ضَعَّ لَهُ القَبُولَ في الأرضِ - أنْ أَكْتُبَ مَقَدِّمَتَهُ في الرِّوَضَةِ النُّبَوِيَّةِ بِالمَسْجِدِ النُّبَوِيِّ، وأنْ أَخْتَمَهُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ وَأَضَعُ القَلَمَ فَرَاغًا مِنْهُ لِأَذْهَبَ لِأَفْضَلِ الصَّلَواتِ؛ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّلَواتِ عِنْدَ اللهِ صَلَاةُ الصُّبْحِ يَوْمَ الجُمُعَةِ في جَمَاعَةٍ»^(١).

وَأَخْتَمُ كِتَابِي بِهَذَا الدُّعَاءِ عَلَيْهِ يَنَاسِبُ «عُلُوُّ الْهَمَّةِ».

□ اللَّهُمَّ يَا وَارِثَ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَيَا بَاعِثَ جَمِيعٍ مَنْ فِيهَا، وَرَّثَ أَمَلِي فِيكَ مَنِي أَمَلِي، وَبَلِّغْ هَمِّي فِيكَ مُنْتَهَى وَسَائِلِي.

□ اللَّهُمَّ مَتِّعْ أَبْصَارَنَا بِالْجَوْلَانِ فِي جِلَالِكَ، وَسَهِّرْنَا عَمَّا نَامَتْ عَنْهُ عُيُونُ الْغَافِلِينَ.

□ اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الَّذِينَ لَخْدِمَتِكَ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ لَهُمْ طُلَّابًا، وَلِخِصَائِصِ أَصْفِيائِكَ أَصْحَابًا، وَلِلْمَعْتَكِفِينَ بِيَابِكَ أَحْبَابًا.

□ اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ بَذَلُوا الْمَجْهُودَ فِي طَلَبِ مَرْضَاتِكَ، وَانصرفتُ عَنْ خَلْقِكَ إِلَيْكَ هُمُومُهُمْ، وَأَنِسْتُ وَطَابَتْ بِالْخُلُوةِ فِيكَ نَفْسُهُمْ، وَلَا يَسْعَوْنَ

(١) صحيح: رواه أبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (٥٦٦).

في طاعتك إِلَّا رُكُضًا.

□ اللَّهُمَّ سُقْنَا إِلَى أَقْصَى مَرَادِكَ دَرَجَةً دَرَجَةً، وَاسْلُكْ بِنَا مَنَازِلَ أَصْفِيَاكَ مَنَزَلَةً مَنَزَلَةً، وَاكْشِفْ لَنَا عَنْ مَكُونِ عِلْمِكَ حِجَابًا حِجَابًا حَتَّى نَتَنَزَّهَ فِي بَسَاتِينِ نَشْرِ آلَاكَ، وَنَرْتَوِي مِنْ غُذْرَانِ ذَكَرَ نَعْمَائِكَ.. اِرْجُدْ أَبْصَارَنَا وَبَصَائِرَنَا بِطَرَفِ الْفَوَائِدِ، وَامْدُدْهَا بِتُحَفِ الزَّوَائِدِ، وَاجْعَلِ الْعَيُونَ مَنَافِيزًا بِالْعِبَرَاتِ، وَالصُّدُورَ مَنَافِيزًا مَشْحُورَةً بِالْحَرَقَاتِ.

□ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْكَ مَا هُوَ لَكَ، وَأَسْتَعِيدُكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يُسْخِطُكَ.

□ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ صَفَاءِ الصَّفَاءِ صَفَاءً أَنَالُ بِهِ مِنْكَ شَرَفَ الْعَطَاءِ.

□ اللَّهُمَّ وَلَا تَشْغَلْنِي شُغْلَ مَنْ شَغَلَهُ عَنْكَ مَا أَرَادَ مِنْكَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكَ.

□ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِمَّنْ يَذْكُرُكَ ذِكْرًا مِنْ لَا يَرِيدُ بِذِكْرِهِ مِنْكَ إِلَّا مَا هُوَ لَكَ.

□ اللَّهُمَّ اجْعَلْ غَايَةَ قَصْدِي إِلَيْكَ مَا أَطْلَبُهُ مِنْكَ.

□ اللَّهُمَّ اْمَلَأْ قَلْبِي بِكَ فَرْحًا، وَلِسَانِي لَكَ ذِكْرًا، وَجَوَارِحِي بِمَا يُرْضِيكَ شُغْلًا.

□ اللَّهُمَّ اْمَحْ عَنْ قَلْبِي كُلَّ ذِكْرٍ إِلَّا ذِكْرَكَ، وَكُلَّ حُبٍّ إِلَّا حُبَّكَ، وَكُلَّ وَدٍّ إِلَّا وَدَّكَ، وَكُلَّ إِجْلَالٍ إِلَّا إِجْلَالَكَ، وَكُلَّ تَعْظِيمٍ إِلَّا تَعْظِيمَكَ.

□ اللَّهُمَّ اجْعَلْ سُؤَالِي لَكَ سُؤَالَ مُحَابَّكَ، وَلَا تَجْعَلْنِي مِمَّنْ يَتَعَمَّدُ بِسُؤَالِهِ مَوَاضِعَ الْحُظُوظِ، بَلْ يَسْأَلُ الْقِيَامَ بِوَاجِبِ حَقِّكَ.

□ اللَّهُمَّ اعْصِمْنَا فِيمَا بَقِيَ مِنَ الْأَعْمَارِ إِلَى مَتْنِ الْآجَالِ، عِصْمَةً دَائِمَةً كَامِلَةً تَامَّةً، وَكَرَّهُ إِلَيْنَا كُلَّ الَّذِي تَكْرَهُ، وَحُبِّ إِلَيْنَا كُلَّ الَّذِي تَرْضَاهُ

وتحبُّه، واستعِملنا به على النحو الذي تحبُّ، وأدِمْ ذلك لنا إلى أن تتوفَّانا عليه، أكَّدْ على ذلك عزائِمنا، واشدِّدْ على ذلك نيَّاتنا، وأصلحْ لها سرائِرنا، وابعثْ لها جوارِحنا، وكنْ وليَّ توفيقنا وزيادتنا وكفائتنا.

□ اللَّهُمَّ هَبْ لَنَا مَا وَهَبْتَ لَصَفْوَتِكَ وَأَوْلِيائِكَ وَأَهْلِ طَاعَتِكَ مِنْ دَائِمِ الذِّكْرِ لَكَ، وَخَالِصِ الْعَمَلِ لَوَجْهِكَ، عَلَى أَكْمَلِهِ وَأَدْوَمِهِ، وَأَصْفَاهُ وَأَحَبَّهُ غَلِيكَ، وَأَعِنَّا عَلَى الْفَعْلِ بِذَلِكَ إِلَى مُتْتَهَى الْأَجَالِ.

• «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَمَنْ فَوْقِي نُورًا، وَمَتَى تَحْتِي نُورًا، وَمَنْ أَمَامِي نُورًا، وَمَنْ خَلْفِي نُورًا، واجْعَلْ لِي فِي نَفْسِي نُورًا، وَأَعْظَمْ لِي نُورًا»^(١).

✍ وأخيرًا وليس آخرًا إلى إخواني القراء:

أناشِدُ اللهَ مَنْ قرَأَ هذا الكتابَ وانتفعَ به، أَنْ يسألَ اللهَ سبحانه أَنْ يجعلَني مِنَ العلماءِ الربانيِّين، وَأَنْ يرزُقَني شَهادَةً في سبيلِهِ، وموتًا في بِلَدِ رَسولِهِ ﷺ، وَأَنْ يُمَنَّ عَلَيَّ بكتابةِ تَفسيرِ كَاملِ للقرآنِ الكَريمِ بِعنوانِ «الكوثر الجاري في تَفسيرِ كلامِ الودودِ الباري» اللَّهُمَّ رُدِّ إِلَيَّ عَبْدَ اللهِ وَسِماءَ رَدًّا كَريمًا طَيِّبًا مَباركًَا فيه.

✍ كما أناشِدُكم اللهُ أَنْ تدعوا لبناتِ [سَميةَ وفاطمةَ وسِماءَ] بِالصَّلاحِ والفَلاحِ والطُّهرِ والعَفافِ، وَأَنْ يجعلَهنَّ اللهُ مِنَ القانتاتِ التائباتِ العابداتِ، الحافظاتِ للغيبِ بِها حِفْظَ اللهِ.

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس.

﴿ وأن يبارك في وَلَدَيَّ أبي الفداء سيف الإسلام عبد الله، وأحمد ياسين، وأن يجعلهما من كبار علماء المسلمين العاملين، وأن يجمع بينهما في الدنيا ولا يفرق بينهما، وأن يرزقهما أفضل من الشهادة في سبيله. ﴾
﴿ تم الكتاب بفضل من الله و«نعمة» فالحمدُ لله نهايةً لا تزال تبدأ وبدءٌ لا ينتهي. ﴾



وكتبه حامداً ومُصلياً

الفقيرُ إلى رحمة ربه

السيد بن حسين العفاني^(١)

جمهورية مصر العربية - محافظة بني سويف - مركز بني سويف، قرية بني عفان

صندوق بريد رقم [١٢٣]

الدكتور: السيد بن حسين بن عبد الله

(١) لمن أراد أن يرأسني لمعرفة رأيه في الكتاب؛ فرحم الله أمراً أهدي إلي عيوبي.

فهرس الموضوعات

- ٧..... بساتين ورياض عُلَاة الهمم
- ٧..... الفرق بين الطُمُوح وعلو الهممة:
- ٩..... الفرق بين العزم والإرادة والهمم:
- ١١..... أزاهير يحرص على قطفها عُلَاة الهمم:
- ١١..... ١- الأسباب والأعمال التي يُضاعف بها الثواب:
- ١٣..... نص رسالة الشيخ عبد الرحمن السعدي:
- ١٣..... المسألة التاسعة: في الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب
- ١٨..... ٢- الأجر الكبير مع العمل اليسير بُغية عُلَاة الهمم:
- ٢٢..... البحار الزاخرات من الحسنات مع الأعمال اليسيرات:
- ٢٢..... ١- النية الصالحة:
- ٢٢..... ٢- في فضل الأذان:
- ٢٢..... ٣- ثواب الذكر عند الأذان:
- ٢٣..... ٤- ثواب الذكر عند الأذان:
- ٢٣..... ٥- فضل الوضوء السابغ:
- ٢٤..... ٦- المشي إلى المساجد:
- ٢٥..... ٧- ركعتا الفجر:
- ٢٥..... ٨- صلاة الجماعة وانتظار الصلاة:
- ٢٦..... ٩- غسل يوم الجمعة والذهاب إلى المسجد مُبَكَّرًا للصلاة الجمعة:
- ٢٦..... ١٠- صلاة الضُّحى:

- ١١- السجود لله وَجَلَّ ٢٧
- ١٢- الصلاة على الجنائز وتشيعها: ٢٧
- ١٣- قيام رمضان: ٢٨
- ١٤- قيام ليلة القدر: ٢٨
- ١٥- قيام الليل: ٢٩
- ١٦- في الصلاة: من وافق تأمينه تأمين الملائكة: ٢٩
- ١٧- من وافق قوله: «اللهم ربنا لك الحمد في الصلاة قول الملائكة»: ٣٠
- ١٨- انتظار الصلاة: ٣٠
- ١٩- صلاة التسبيح: ٣١
- الصيام: ٣٢
- ٢٠- صيام رمضان إيماناً واحتساباً: ٣٢
- ٢١- صيام ست من شوال: ٣٢
- ٢٢- صيام يوم في سبيل الله: ٣٢
- ٢٣- صيام يوم عرفة: ٣٣
- ٢٤- صيام يوم عاشوراء: ٣٣
- ٢٥- صيام ثلاثة أيام من كل شهر: ٣٣
- ٢٦- تفطير الصائم: ٣٣
- ٢٧- الصدقة: ٣٤
- الحج والعمرة: ٣٤
- ٢٨- الحج والعمرة: ٣٤

- ٢٩- عمرة في رمضان: ٣٥
- المساجد: ٣٦
- ٣٠- من بنى لله مسجداً: ٣٦
- ٣١- من جاء المسجد للتعليم أو التعلم: ٣٦
- ٣٢- فضل الصلاة في المساجد الثلاثة ومضاعفة الأجر فيها: ٣٧
- ٣٣- الصلاة في مسجد قباء تعدل عمرة: ٣٨
- ٣٤- صلاة الفجر في جماعة والذكر حتى تشرق الشمس وصلاة ركعتين: ٣٨
- ٣٥- من صلى لله أربعين يوماً يدرِك التكبير الأولى: ٣٩
- ٣٦- من صلى في اليوم واللييلة اثنتي عشرة ركعة تطوعاً: ٣٩
- القرآن والذكر والدعاء: ٣٩
- ٣٧- قراءة القرآن: ٣٩
- ٣٨- قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن: ٤٠
- ٣٩- ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن: ٤١
- ٤٠- قراءة آية الكرسي دبر كُلِّ صلاة: ٤١
- ٤١- قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة عند النوم: ٤١
- ٤٢- قراءة سورة الكهف يوم الجمعة: ٤٢
- ٤٣- من حفظ آيات من القرآن: ٤٢
- ٤٤- قراءة آية الكرسي عند النوم: ٤٣
- ٤٥- سيد الاستغفار وفضله: ٤٣
- ٤٦- من استغفر للمؤمنين والمؤمنات: ٤٤

٤٣٦ صلاح الأمة في علو الهمة

- ٤٧- سبحان الله وبحمده: ٤٤
- ٤٨- التسبيح والتحميد والتكبير دُبِّر كل صلاة وعند النوم: ٤٥
- ٤٩- الذكر بـ «لا إله إلا الله»: ٤٥
- ٥٠- سبحان الله العظيم.. سبحان الله وبحمده: ٤٦
- ٥١- سبحان الله وبحمده ومغفرة الذنوب: ٤٧
- ٥٢- فضل الصلاة على النبي ﷺ: ٤٧
- ٥٣- دعاء السُّوق: ٤٨
- ٥٤- في الاستغفار وفضله: ٤٩
- ٥٥- من قال: لا إله إلا الله مخلصًا: ٤٩
- ٥٦- دعوة المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب: ٤٩
- ٥٧- الحمد على الطعام واللباس: ٥٠
- ٥٨- عيادة المريض واستغفار الملائكة: ٥٠
- ٥٩- تنحية الأذى من طريق الناس: ٥١
- الإنفاق: ٥١
- ٦٠- فضل المنيحة: ٥١
- ٦١- الساعي على الأرملة والمسكين: ٥٢
- ٦٢- كافلُ اليتيم: ٥٢
- ٦٣- التصافح بين المسلمين: ٥٣
- ٦٤- رحمة البهائم: ٥٣
- ٦٥- الأجرُ على الزرع والغرس: ٥٤
- ٦٦- إنظار المُعسرين: ٥٤

- ٦٧- الذبُّ والدفاع عن أعراض المسلمين في غيبتهم: ٥٤
- الجهاد: ٥٥
- ٦٨- عِظْمُ أجر المجاهد وثوابه: ٥٥
- ٦٩- فضل العُبَارِ في سبيل الله: ٥٦
- ٧٠- فضل الجهاد بالمال في سبيل الله تعالى: ٥٧
- ٧١- من قاتل في سبيل الله فُواق ناقة: ٥٧
- ٧٢- من جهَّز غازيًّا، أو خَلَفَه بخيرٍ في أهله: ٥٨
- ٧٣- الرِّباط في سبيل الله: ٥٩
- ٧٤- من سأل الشهادة بصدق: ٦٠
- ٧٥- عَمِلَ يسيرًا وأُجر كثيرًا: ٦٠
- ٧٦- المائد في البحر له أجر شهيد: ٦٠
- ٧٧- المتمسِّك بالسُّنة في وقت الفتن: ٦١
- ٧٨- العبادة في الهرج والفتنة تغفر الذنوب المتقدمة: ٦٢
- المعاملات والأخلاق: ٦٣
- ٧٩- إصلاح ذات البين: ٦٣
- ٨٠- التجاوز عن المعسر: ٦٤
- ٨١- من كان سهلاً هيناً لينا: ٦٤
- ٨٢- حُسْنُ الخُلُق: ٦٥
- ٨٣- تنفيس كُرِّبات المسلمين، والتيسير عليهم، وسترهم، وطلب العلم، والذكر: ٦٥
- ٨٤- الاجتماع على الذكر: ٦٧

- ٨٥- إفشاء السلام: ٦٧
- ٨٦- حُبَّ الله تعالى وحب رسوله ﷺ: ٦٨
- ٨٧- البراءة من الشرك: ٦٨
- ٨٨- العمل الصالح في عشر ذي الحجة: ٦٩
- ٨٩- الابتلاء: ٦٩
- ٩٠- الصبر على من فَقَدَ بصره: ٦٩
- ٩١- من صبر على فَقْدِ صَفِيَّة: ٧٠
- ٩٢- من حَمِدَ الله واسترجع عند فَقْدِ الولد: ٧٠
- ٩٣- من مات له ثلاث أو اثنان من الولد: ٧١
- ٩٤- الصَّلَاةُ ببيت المقدس: ٧١
- ٩٥- من دَعَا إلى الهدى والخير: ٧٢
- ٩٦- مُعَلِّمُ الناسِ الخير: ٧٢
- ٩٧- مَنْ خُتِمَ له بصيام يوم: ٧٣
- ٩٨- قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر: ٧٣
- ٩٩- قول: لا حول ولا قوة إلا بالله: ٧٤
- ١٠٠- قول: سبحان الله عدد ما خلق، سبحان الله ملء: ٧٤
- ١٠١- قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مئة مرة: ٧٥
- ١٠٢- قول: سبحان الله العظيم وبحمده: ٧٥
- ساعة لرَبِّك فيها فلا حُك وسعدُك وأُنْسُك: ٧٦
- ١٠٣- صلاة ركعتين لا سهو فيهما: ٧٧

- ١٠٤ - من تعارّ من الليل فدعَا استُجيب له، أو صلّى قُبِلت صلاته: .. ٧٧
- ١٠٥ - التسوُّك لقيام الليل: ٧٨
- ١٠٦ - الفضل العظيم للفتحة أم الكتاب والقرآن العظيم: ٧٨
- وأخيرًا أكرّر على مسامعك ثوابين مرَّابك: ٧٩
- ثواب قراءة القرآن كاملاً في خمسة عشر ثانية من الزمان: ٧٩
- يا عالي الهمة.. هذا كنز الكنوز أزفُّه إليك فلا تنسني يوم القيامة لكرامة
الدَّلال: ٨٢
- الهمة العلية العالية: ٨٣
- أصناف الناس في شأن الهمة: ٨٤
- اختلاف الهمم: ٨٥
- علو الهمة: ٨٨
- الهمة العالية وشرف المقصد: ٩٤
- عَوْدٌ على بدء: ٩٩
- كيف تعلو الهمم؟: ٩٩
- ونضيف الآتي: ١٠١
- ٣٤ - العفو والصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان: ١٠١
- ٣٥ - التواضع: ١٠١
- ٣٦ - الإنصاف: ١٠٢
- ٣٧ - التفاؤل: ١٠٣
- ٣٨ - القدرة على السرور والابتهاج بالحياة: ١٠٤
- ومما يُعين على السرور والابتهاج بالحياة أسبابٌ كثيرة ومن أهمها

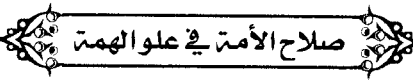
٤٤٠	صالح الأمة في علو الهمة
١٠٥	وأبرزها:
١٠٧	٣٩- التجافي عن الترف والنعيم:
١١٠	٤٠- التوازن، وإعطاء كل ذي حق حقه:
	٤١- استشارة العقلاء العاملين، والحذر من استشارة الحمقى
١١١	والقاعدين:
١١٢	٤٢- قبول النقد البناء، والنصيحة الهادفة:
١١٣	٤٣- انتهاز الفرص:
١١٣	٤٤- توطيئ النفس على الاعتدال حال السراء والضراء:
١٢٢	٤٥- طبيعة الإنسان:
١٢٢	٤٦- أثر الوالدين، ودورهما في التربية الصحيحة:
١٢٥	٤٧- النشأة في مجتمع مليء بالقمم:
١٢٥	٤٨- تقدير النوابع، ورعاية المواهب:
١٢٦	٤٩- وجود المربين الأفاضل، والمعلمين القدوات:
١٢٩	٥٠- التشجيع:
١٣١	٥١- التوجيه السليم ومراعاة الميول:
١٣٢	٥٢- الإعلام:
١٣٢	٥٣- دور الأدباء والمفكرين:
	الصفحات السود لمدارس التغريب والحدائث والتنوير كما عرضتها وثائق
١٣٤	الاستخبارات الغربية:
١٣٦	الحرب على لغة القرآن:
١٣٩	الهجمات المغرضة على الشعر العربي:

- ١٤١ من يدفع أجرة الزمار؟!
- ١٤٣ ٥٤- المواقف التي تمرّ بالإنسان:
- سيد قطب وفرح الغرب بموت حسن البنا ونقطة التحول في حياة سيد قطب: ١٤٤
- ١٤٥ ٥٥- عزة النفس:
- ١٤٩ ٥٦- السخاء:
- ١٥١ أثر السخاء في سيادة الأمة:
- ١٦٣ تفاضل الناس بالسخاء:
- ١٦٨ ٥٧- الإعراض عن الجاهلين:
- ١٧١ ٥٨- إباءة الضيم:
- ١٧٣ ٥٩- النظر إلى من هو أعلى في الفضائل وإلى من هو أدنى في أمور الدنيا:
- ١٧٤ ٦٠- إدامة النظر في السيرة النبوية:
- ١٧٥ ٦١- الرحلة والتقلب في كثير من البلاد:
- ١٧٩ ٦٢- استشعار المسؤولية:
- ١٨٠ ٦٣- الحرص على الإفادة من كل أحد ومن كل موقف:
- ١٨٦ ٦٤- السلامة من الغرور ومن المبالغة في احتقار النفس:
- ١٨٨ ٦٥- الشجاعة والإقدام، واطراح المبالغة في تعظيم شأن الخوف:
- ١٩٣ أمور تعين على اكتساب الشجاعة:
- ١٩٣ أ- الدربة، والمران، والتعود
- ١٩٤ ب- توطين النفس على وقوع المكروه، والحذر من تضخيم النتائج:
- ١٩٤ ج- النظر في العواقب

- د- اراح المبالة بكلام الناس: ١٩٦
- هـ- أن يستحضر المرء أن لا سلامة من الناس: ١٩٦
- و- معرفة قدر النفس: ١٩٨
- ز- أن يستحضر أن الإخفاق لا يضر: ١٩٨
- ح- الثقة بالنفس ١٩٩
- ط- أخذ الأهبة والاستعداد: ١٩٩
- ي- الإيمان بالقضاء والقدر والتسليم لله في الأمر: ١٩٩
- ك- الصبر عند الصدمة الأولى: ٢٠٠
- ل- الخطار بالنفس ٢٠١
- م- التقوى: ٢٠٢
- ن- الإكثار من ذكر الله: ٢٠٣
- ٦٦- الإقبال على ما ينفع، والإعراض عن كل ما لا ينفع: ٢٠٤
- ٦٧- بُبِلَ النَّفْسِ: ٢٠٥
- والنبيل: سَيِّدٌ فِي قَوْمِهِ: ٢٠٦
- ذَكَرُ بَعْضِ خِصَالِ النُّبَلَاءِ: ٢٠٧
- أَقْوَالُ عَطِرَاتٍ: ٢١٠
- كُنْ خَبْرًا يَرُوقُ جَمِيلًا: ٢١٠
- الْفَرْقُ بَيْنَ الْعَزْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْهَمِّ: ٢١٣
- اليقظة.. اليقظة: ٢١٤
- فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ: ٢١٦
- فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ: ٢١٧



- الرحلة إلى الله وما يعترضها: ٢٢٢.....
- الرَّجُولَةُ وَالْفُتُوَّةُ وَالْمُرُوءَةُ وَالْإِنْسَانِيَّةُ: ٢٢٢.....
- يا هذا كن رجلاً: وسِرُّ بهمتك عليك تلحق بهؤلاء الرجال: ٢٢٦.....
- حسنُ السمْتِ والهدى والدل موقوفٌ على عُلاة الهمم الربانيين
- الصالحين: ٢٢٧.....
- دناءة الهمّة: ٢٣٤.....
- أسباب دُئُوّ الهمّة: ٢٣٩.....
- ٣٢- طبيعة الإنسان: ٢٤٦.....
- ٣٣- التربية المنزلية: ٢٤٦.....
- ٣٤- البيئة والمجتمع: ٢٤٩.....
- ٣٥- قلة وجود المربين الأفاضل والمعلمين القدوات: ٢٥٠.....
- ٣٦- وسائل الإعلام: ٢٥١.....
- ٣٧- قلة التشجيع: ٢٥١.....
- ٣٨- الإعجاب بالنفس والاستبداد بالرأي: ٢٥٢.....
- ٣٩- استشارة النوكى والمخذّلين: ٢٥٢.....
- ٤٠- التردد: ٢٥٣.....
- ٤١- المبالغة في احتقار النفس: ٢٥٤.....
- ٤٢- الخور والمبالغة في تعظيم شأن الخوف: ٢٥٥.....
- ٤٣- ضيق الأفق: ٢٥٦.....
- ٤٤- الاندفاع الزائد: ٢٥٨.....
- ٤٥- المبالغة في تطلب: ٢٥٨.....



- ٢٥٩ ٤٦ - قلة الصبر، واستطالة الطريق:
- ٢٦٠ ٤٧ - كثرة الشواغل والقواطع:
- ٢٦٠ ٤٨ - اختلاق المعاذير:
- ٢٦٣ ٤٩ - قلة الحياء:
- ٢٦٤ ٥٠ - قلة الإنصاف:
- ٢٦٥ ٥١ - الحسد:
- ٢٦٥ ٥٢ - الطمع والجشع:
- ٢٦٦ ٥٣ - الفرقة والاختلاف:
- ٢٦٧ ٥٤ - الانحراف في مفهوم الإيمان القدر:
- ٢٦٩ ٥٥ - العدوان الخارجي:
- ٢٧٢ مظاهر دنو الهمة:
- ٢٧٧ شعراقبال يُعلي الهمم ويذكر الحماسة للإسلام
- ٢٧٧ كلمات للحياة:
- ٢٨٢ نشيد غلاة الهمم
- ٢٨٤ الشكوي وجواب الشكوي
- ٢٨٤ «حديث الروح»
- ٢٩٢ جواب الشكوي
- ٣٠٣ حياة الذات بعلو همتها بتخليق المقاصد وتوليدها:
- ٣٠٤ وقال في الخور والعجز:
- ٣٠٥ وعالي الهمة:
- ٣٠٥ قوة الذات وعلو الهمة:

- ٣٠٦..... قصة الألماس والفحم:
محاورة نهر الجَنَح وجبل همالا.. ومعنى دوام حياة الأمة في التمسُّك
بسنَّتها: ٣٠٨
- ٣٠٩..... مَنْ كانوا عُلَاة الهمم وزينة الدنيا: ٣١١
- ٣١١..... عالي الهممة: ٣٠٣
- ٣٠٣..... لا.. لا يا قيود الأرض.. الأرض لا تحدُّني وتعوقني: ٣١٣
- ٣١٣..... إنها الحياة هكذا: علو الهمَّة والعيش بين الخطر: ٣١٧
- ٣١٧..... عالي الهممة يقنع باليسير ولا يمد اليد إلى العير: ٣١٨
- ٣١٨..... عالي الهممة سما فوق السماوات العُلَى: ٣١٩
- ٣١٩..... كلمات نيرات: ٣٢٠
- ٣٢٠..... نصيحة صقر لفرخه: ٣٢١
- ٣٢١..... حياتك فابغ في الخطر الجليل: ٣٢٢
- ٣٢٢..... فطرتي لا ترضى دعة المنازل: ٣٢٢
- ٣٢٢..... شرًّا كُنَّا: ٣٢٣
- ٣٢٣..... لنا غاية من الشمس أعلى: ٣٢٣
- ٣٢٣..... يا لها من أمنيات: ٣٢٤
- ٣٢٤..... لا يستويان: ٣٢٥
- ٣٢٥..... يا بُيْنِي أوقدي طال المدى: ٣٢٩
- ٣٢٩..... هم الأحرار تحيي الرِّحَا: ٣٣١
- ٣٣١..... صغار الهمم: ٣٣١
- ٣٣١..... صنَّاع الحياة المسلمون نعم العابدون: ٣٣١

- ٣٣٢ لا رهبانية في الإسلام:
- ٣٣٣ علو الهمة في التوكل:
- ٣٣٥ الأمل وعلو الهمة:
- ٣٣٧ المعراج:
- ٣٣٧ المؤمن عالي الهمة:
- ٣٥٢ إلى الأمة العربية الإسلامية:
- ٣٥٦ تمسأح يُعلم صغيره علو الهمة:
- ٣٥٦ ثر بهمة قلبك:
- ٣٥٧ لا يبكي الرجال:
- ٣٥٧ القلب العلي الهمة ووارداته:
- ٣٥٨ الشاهين:
- ٣٥٩ النسر والنملة:
- ٣٥٩ ودني الهمة الذي يخوض في الدين ويُجادل في الكتاب:
- ٣٦٠ الإيمان وعلو الهمة:
- ٣٦٢ أيها المسلم:
- ٣٦٣ الهمام.. عالي الهمة:
- ٣٦٩ قلق القلب عنوان علو همته:
- ٣٦٩ أرضنا يا عالي الهمة تهفو لطهره:
- ٣٧٠ المؤمن عالي الهمة:
- ٣٧١ أمام مسجد قرطبة.. وذكرى أولى الهمة العالية:
- ٣٧٢ ويبكي رحيل علا الهمة عن «أسبانيا»:

- دعاء عالي الهمة طارق بقلم «إقبال»: ٣٧٤
- عالي الهمة: ٣٧٧
- نصيحة: ٣٧٧
- لا حَدَّ للسمو: ٣٧٩
- يا ابن الإسلام! أين أنت من علو الهمة؟! ٣٧٩
- الخوف، والحزن، واليأس أمّهات الخبائب محبطات للهمة: ٣٧٩
- أحبُّ.. وأحتقر: ٣٨٢
- يا ابن الإسلام.. أنت يوسفُ أعظم الأحلام.. أنت على طريق سلفك
- العظام.. ووارث الجنة.. والناظر في يوم المزيّد إلى إلهك رب الأنام: ٣٨٥
- صُمّت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا فنحن ملكنا هذه الدنيا القرونا: ٣٨٥
- خُلِقَ العالم لعالي الهمة: ٣٩٠
- وله مقام الإمامة والتوجيه: ٣٩١
- عالي الهمة: ٣٩٢
- عالي الهمة: ٣٩٣
- المسلم كالشمس لا تغرب مطلقاً: ٣٩٤
- عالي الهمة: ٣٩٦
- كَلِمَاتٌ للحياة: ٣٩٦
- يا عالي الهمة أنت حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ٣٤١
- عالي الهمة.. يا ابن الإسلام أنت يوسف هذه الأحلام ٤٠٩
- أخي: ٤٠٩
- أخي: ٤٠٩
- أخي: ٤٠٩
- يا ابن الإسلام: ٤١٠

- ٤١٠ أخي:
- ٤١٠ يا ابن الإسلام ويا يوسف الأحلام:
- ٤١١ يا ابن الإسلام:
- ٤١٤ أخي:
- ٤١٥ يا ابن الإسلام:
- ٤١٥ يا ابن الإسلام:
- ٤١٥ يا يوسف هذه الأحلام:
- ٤١٥ أخي:
- ٤١٦ أخي:
- ٤١٧ أخي:
- ٤١٧ يا ابن الإسلام:
- ٤١٧ أخي:
- ٤١٨ يا يوسف هذه الأحلام:
- ٤١٨ يا ابن الإسلام:
- ٤١٨ أخي:
- ٤١٨ أخي:
- ٤١٩ يا يوسف هذه الأحلام:
- ٤١٩ أخي: ألا تشاق لحمل راية الإسلام في فجره الآتي:
- ٤٢٠ يا يوسف الأحلام:
- ٤٢٥ الخاتمة
- ٤٢٦ يا ابن الإسلام.. ويا عالي الهمة:
- ٤٢٧ أخي:
- ٤٢٧ أخي القارئ:
- ٤٣٠ وأخيرًا وليس آخرًا إلى إخواني القراء:

